شعراء الغدير

الجزء الثاني

في القرنين: الرابع والخامس

إعداد وتحقيق
مركز الغدير للدراسات الإسلامية

الغدير
بيروت - لبنان

شعراء الغدير

مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي

ص. ب ٣٧٩٦ / ٣٧١٨٥ ـ ☎ ٧٧٣٩٩٩٩

اسم الكتاب: شعراء الغدير الجزء الثاني

الناشر: مركز الغدير للدراسات الاسلامية

الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

المطبعة: محمّد

الكمية: ٣٠٠٠ نسخة

شعراء الغدير

الجزء الثاني

إعداد وتحقيق

مركز الغدير للدِّراسات الاسلاميَّة

الغدير

كلمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسّلام على سيّد المرسلين، محمّد، وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين.

نواصل، في مركز الغدير، العودة إلى موسوعة «الغدير في الكتاب والسنّة والأدب»، لمؤلّفها العلاّمة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (رحمه الله)، بغية إكمال موسوعة شعراء الغدير، وقد وفّقنا الله إلى إعداد الجزء الأوّل من هذه الموسوعة وإصداره قبل مدّة، ويتضمّن شعراء القرون الثلاثة الأُول: الأوّل والثّاني والثّالث، وإلى إعداد الجزء الثاني، وهو هذا الكتاب الذي بين يديك، ويتضمّن شعراء القرنين: الرابع والخامس، وقد اتبعنا في إعداد هذا الجزء المنهج نفسه الذي اعتمدناه في الجزء الأوّل...، نرجو أن نكون قد وفّقنا، والله نسأل أن يتقبّل عملنا بقبول حسن، وأن يهدينا إلى سواء السبيل.

مركز الغدير للدّراسات الإسلاميّة

مقدّمة الجزء الأوّل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، محمد وآله الطّاهرين.

لمّا وصل رسول الله ﷺ إلى غدير خمّ، عائداً من مكة المكرّمة، بعد أن قضى حجّة الوداع، نزل إليه جبرئيل الأمين، عن الله بقوله: ﴿يا أيّها الرّسولُ بلّغْ ما أُنزِلَ إليكَ من ربّك فإنْ لم تَفْعَلْ فما بلّغتَ رسالتَه والله يَعْصِمُكَ من النّاس﴾. وفي ذلك اليوم، الخميس، الثامن عشر من ذي الحجّة، بلّغ رسول الله ﷺ النّاس ما أُنزِلَ إليه من ربّه، وهو: «... فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغِضْ من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار..»، ولم يتفرّق النّاس حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

حسم ما بلّغه رسول الله ﷺ، في ذلك اليوم، قضيّة من أهمّ قضايا البشرية بعامّة، والمسلمين بخاصّة، وهي قضيّة الإمامة والخلافة. وإن تكن بيعة السّقيفة تستند إلى اتفاقِ بين عددٍ محدود من المسلمين، وقد سمّاها رجلُها «فَلْتة...» في ما بعد، فإنّ بيعة يوم الغدير تستند إلى النصّ الإلهي الذي شهد إبلاغه حوالى المئة وعشرين ألفاً من المسلمين العائدين من الحجّ. وإن تكن تلك «الفَلْتة» قد آلت إلى أن تكون الخلافة وراثيّة في نسل مَنْ غَلَبَ، فإن هذه البيعة المنزّلة على لسان أمين الوحي، والمبلّغة من رسول الله ﷺ، قد مثّلت معتقد فئةٍ مؤمنةٍ صادقة، تعارض السلطان المغتصب، وتسعى إلى يوم يتحقّق فيه قول الله تعالى، فيكمل دين النّاس وتتمّ نعمته.

ولمّا كان لبيعة «الغدير» مثل هذه الأهميّة، فقد جهد السّلطان الغالب على الأمر وأعوانه في تحقيق أمرين: أوّلهما إخفاء ذكر هذه البيعة ما أمكن، والتعتيم عليها، وثانيهما المغالطة في تفسير نصّها، وفي دلالتها.

وأيّاً كان مبلغ الجهود التي بُذلت في هذا المجال، فإن الله، سبحانه وتعالى، أتاح لرجالٍ مؤمنين، أن يتولّوا مهمة إظهار ما أنزله وإثبات صحّته، وتفسيره، ونشره، ومن هؤلاء العلاّمة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (رضوان الله عليه)، في موسوعته: «الغدير في الكتاب والسنّة والأدب». فقد نهض بهذه المهمة، واستوفى البحث والإثبات والتحليل والشرح والجدل...، فجزاه الله خير الجزاء عمّا فعل.

وقد تضمّنت موسوعة الغدير، في ما تضمّنت، بحوثاً في شعر الغدير، وهو شعر ينظم ما حدث في ذلك اليوم، وما بلّغه رسول الله ﷺ للمسلمين، ويستوحي ذلك كلّه... وهذا الشّعر يعود لشعراء كبار تعاقبوا على امتداد التاريخ الإسلامي، منذ ساعة الإبلاغ وإلى أيامنا هذه.

وإن يكن هذا الشّعر يعدُّ وثيقة تاريخيّة، تروي الحديث شعراً، وتوضّح معانيه، ما يجعله وثيقة إثبات وشرح، فإنه في الوقت نفسه لغة الوجدان الإسلامي المتشكّل طوال التّاريخ، لغة تنبض بخفقات القلوب وشجى الأنفس، وتشعّ بنور العقل وهدى الإيمان..

وقد رأى مركز الغدير للدّراسات الإسلاميّة، وهو العامل على التعريف بمنهج أئمة أهل البيت عليهم السلام وتسليط الأضواء على المساحات المعتمة من مواطن الخلاف بين الفرق والمذاهب الإسلامية، وبعد أن قام بمهمّة تحقيق موسوعة الغدير ونشرها، أن يعنى بهذا الشعر وشعرائه، فيُفرد له موسوعة تستند إلى ما جاء في موسوعة الغدير من معلومات بذل صاحبها الجهد الكبير في تحصيلها وتقديمها للقارئ.

وقد ارتأينا أن نعتمد المنهج الذي اعتمده العلامة الأميني (رضوان الله عليه)، في موسوعته، من حيث السّياق التاريخي، واستندنا إلى مصادره الكثيرة التي عاد إليها، محيلين في الهوامش إلى الطّبعات التي اعتُمدت في تحقيق مركز الغدير، غير أنّنا تصرّفنا في عرض المعلومات وتبويبها، معتمدين سياقاً يتدرّج بالقضايا والمسائل تدرّجاً يهدف إلى التعريف بالشاعر وشعره وخصائص كلٍّ منهما، وقد اقتضى هذا الأمر أن نعدّل في ترتيب الفقرات، وأن نحذف بعضها وأن نضيف بعضاً آخر، وحرصنا على اعتماد لغةٍ معاصرةٍ، ليسهل على القارئ العادي والطّالب، الإفادة من هذا الكتاب.

وقد رأينا أنّه من الضروري التمهيد لهذا الكتاب بأمرين: أوّلهما التعريف بواقعة الغدير، وثانيهما بيان أهمّيتها في التأريخ، وتقديم قائمة بأسماء أئمة المؤرّخين والمحدّثين والمفسّرين والمتكلّمين الذين ذكروها في مؤلّفاتهم. ووجدنا أن العلاّمة الأميني قد استوفى البحث في هذين الأمرين، في الفصلين: الأول والثاني اللذين صدّر بهما موسوعته، فاعتمدناهما كما جاءا في الموسوعة المذكورة.

والله نسأل أن يتقبّل جهد المؤلّف وجهدنا بقبول حسن، ويمنّ علينا جميعاً بواسع رحمته.

مركز الغدير للدّراسات الإسلامية

شعراء القرن الرَّابع الهجري

١٦ ـ ابن طباطبا العلوي الأصفهاني
١٧ ـ أحمد بن علوية الأصفهاني
١٨ ـ محمد بن أحمد بن عبدالله المفجّع
١٩ ـ أحمد بن محمد الضبِّي، المعروف بالصنوبريّ
٢٠ ـ القاضي التنوخي
٢١ ـ أبو القاسم الزَّاهي
٢٢ ـ أبو فراس الحمداني
٢٣ ـ أبو الفتح كشاجم
٢٤ ـ النَّـاشئ الصَّغير
٢٥ ـ البَشْنَوي الكردي
٢٦ ـ الصَّاحب بن عبَّاد
٢٧ ـ الجوهري الجرجاني
٢٨ ـ ابن الحجَّاج البغدادي
٢٩ ـ أبو العبَّاس الضَّبِّي
٣٠ ـ أبو الرَّقعمق الأنطاكي
٣١ ـ أبو العلاء السَّروي
٣٢ ـ أبو محمد طلحة العوني
٣٣ ـ ابن حمَّاد العبدي
٣٤ ـ أبو الفرج الرَّازي
٣٥ ـ جعفر بن حسين

(١٦)
ابن طباطبا العلويّ الأصفهانيّ

التّعريف بالشّاعر

ابن طباطبا هو أبو الحسن محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم (طباطبا) بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الإمام السّبط الحسن ابن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، المعروف باسم «ابن طباطبا العلوي الأصفهاني».

ولد في مدينة أصفهان، وتوفّي فيها، في عام ٣٢٢هـ./ ٩٣٤م.، ويذكر ابن القفطي، جمال الدين، عليّ بن يوسف (ت ٦٤٦هـ./١٢٤٨م.) عبارةً تفيد أنّه من المعمّرين، وعاش بعد ذلك التاريخ، فيقول: «وكان ينزل أصبهان، وعاش بعد الثلاثمئة بكثير»[1].

ويؤيّد هذا ما ذكره المرزباني، أبو عبدالله محمّد بن عمران (ت ٣٨٤هـ./ ٩٩٤م.) من أنّه «شيخ من شيوخ الأدب»[2].

تفيد الرّوايات المنسوبة إلى معاصري ابن طباطبا أنّه «لم يفارق أصبهان قطّ». ولعلّ هذا هو ما جعل أغلب المصادر الموسوعيّة، مثل «تاريخ بغداد» و «تاريخ دمشق»، تغفل ذكره لأنّه لم يزر دمشق أو بغداد.

---

(١) ابن القفطي، المحمّدون من الشعراء، تحقيق د. رياض عبد الحميد رياض، دمشق: مجمع اللغة العربيّة، ١٣٩٥هـ./ ١٩٧٥م.، ص ٩.

(٢) المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق عبد الستّار فراج، القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، ١٣٨٩هـ./ ١٩٦٠م.، ص ٤٢٧.

اشتباه بينه وبين أبي القاسم بن طباطبا

ولعلَّ هذا، أيضاً، هو ما جعل بعض مؤرِّخي الأدب ينفون معرفتهم به، كابن خلِّكان الذي يقول: «ولا أدري من هذا أبو الحسن»[1]، وجعل بعضهم الآخر يخلط بينه وبين أبي القاسم أحمد بن محمَّد بن إبراهيم العلوي، نقيب الطالبيِّين بمصر، المتوفّى في عام ٣٤٥هـ. ، فينسب إلى هذا الأخير كتاب «عيار الشعر» كما فعل حاجي خليفة في «كشف الظنون»[2] وإسماعيل البغدادي في «إيضاح المكنون»[3]. وفي هذا المجال يقول العلاّمة الأميني، صاحب «الغدير»: «واشتبه على سيّدنا الأمين العاملي. . . فعقد ترجمة تحت عنوان: «أبو الحسن الحسني المصري»، في «أعيان الشيعة» في الجزء السادس ص ٣١٢، وجعله مصريّاً بلا مستند، وأخذ تاريخ وفاة أبي القاسم بن طباطبا وذكره لأبي الحسن. . .»[4]. ويقول السيِّد محسن الأمين، في ترجمته لأبي الحسن، ابن طباطبا: «ورأيت في مسوَّدة الكتاب، ولا أعلم من أين نقلته ما صورته: «أبو الحسن محمَّد بن أحمد بن طباطبا الحسني. . .»، ويذكر ما أورده ابن خلِّكان في أثناء ترجمته أبي القاسم. . . وقوله بعد ذلك: «ثمَّ وجدت هذين البيتين في ديوان أبي الحسن بن طباطبا، ولا أدري من هذا أبو الحسن ولا وجه النِّسبة بينه وبين أبي القاسم المذكور». ثمَّ يقرِّر السيِّد الأمين: «وممَّا مرَّ يُعلم من هو أبو الحسن هذا، ويُعلم وجه النِّسبة بينه وبين أبي القاسم وأنَّه من أبناء عمِّه مساوٍ له في تعدُّد النسب»[5].

---

(١) ابن خلِّكان، وفيّات الأعيان. . . ، تحقيق د. إحسان عبّاس، بيروت: دار الثقافة، ١/ ١٣٠.

(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون. . . ، تحقيق محمّد شرف الدين ورفعت الكليسي، استانبول، ٢/ ١١٨١.

(٣) إسماعيل البغدادي، نسخة مصوَّرة عن نشرة وكالة المعارف التركيّة، ٢/ ١٣١.

(٤) الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، تحقيق مركز الغدير. . . ، ٣/ ٤٧٣.

(٥) السيِّد محسن الأمين، أعيان الشيعة، بيروت: دار التعارف، ٩/ ٧٢.

النّسبة إلى طباطبا

ويقول ابن خلّكان، في بيان النّسبة إلى «طباطبا»، في أثناء حديثه عن أبي القاسم أحمد بن محمّد: «وطباطبا - بفتح الطّائين المهملتين والبائين الموحّدتين - وهو لقب جدّه إبراهيم [ابن إسماعيل بن إبراهيم ابن الإمام الحسن السّبط]. وإنّما قيل له ذلك لأنّه كان يلثغ فيجعل القاف طاءً، وطلب يوماً ثيابه، فقال له غلامه: أجيءُ بدُرّاعة؟ فقال: لا، طباطبا، يريد قباقبا، فبقي عليه لقباً واشتهر به»[1].

في عصره: اضطرابٌ سياسيٌّ ونهضةٌ علميّة

عاش ابن طباطبا في النّصف الثاني من القرن الثالث الهجري والربع الأوّل من القرن الرّابع، وكانت الحياة السّياسيّة، في هذه الحقبة غير مستقرّة، بعدما أصاب الخلافة العبّاسيّة الضّعف والوهن، منذ أن تآمر قادة العسكر الأتراك على قتل الخليفة المتوكّل مع ابنه في عام ٢٤٧هـ. ، فتحكّم، منذ ذلك الحين، هؤلاء القادة بمقاليد الأمور، وعمّ الاضطراب وتفشّت المؤامرات، غير أنّ هذا لم يحل دون ازدهار الحياة العلميّة، فانصرف العلماء والأدباء إلى الإنتاج بعد أن انصرفوا عن التدخّل في الحياة السّياسيّة، وبخاصّة في الولايات البعيدة عن مركز الخلافة، مثل خراسان التي عاش ابن طباطبا في إحدى مدنها الكبيرة: أصفهان حياةً مستقرّةً أتاحت له أن يحصّل العلم الغزير، وأن يؤلّف الكتب وينظم الشّعر، وأن يؤسّس أسرة علميّة توارثت العلم والأدب جيلاً بعد جيل. وفي هذا الصّدد يقول ياقوت الحموي: «له عقب كثير بأصبهان فيهم علماء وأدباء ونقباء ومشاهير»[2].

---

(١) ابن خلكان، وفيّات الأعيان، م.س. ، ١/ ١٣٠ و١٣١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٧/ ١٤٣.

عالم شاعر

كان أبو الحسن بن طباطبا، كما يقول السيِّد الأمين، «سيِّداً جليلاً فاضلاً شاعراً مجيداً، متصرِّفاً في فنون الشّعر، وفي معجم الأدباء: شاعر مفلق وعالم محقق شائع الشّعر نبيه الذكر»، و «كان مذكوراً بالفطنة وصفاء القريحة وصحّة الذّهن وجودة المقاصد. معروف بذلك مشهور به»[1]. ويقول العلاّمة الأميني إنّه «عالم ضليع، وشاعر مفلق، وشيخ من شيوخ الأدب»[2].

ملامح شخصيّته

ويمكن أن نتبيَّن ملامح شخصيَّته من خلال ما وصل إلينا، من إنتاجه الأدبي المتمثِّل بنماذج شعريّة توردها بعض كتب تاريخ الأدب وبكتابه «عيار الشّعر».

يقول السيِّد الأمين: «وممّا لا ريب فيه أنّ خير الأوضاع لطلب العلم والتفرّغ له: غنى لا تصحبه شراهة إلى الازدياد»[3]، وهذا «الغنى» هو ما توفّر لابن طباطبا، فهو يقول لمن يزهده في طلب العلم بحجّة أنّه لا يجلب الغنى:

إذا عُـدَّ أغنـى النّـاس لـم أكُ دونـه وكنـت أرى الفخـر المسـود دونـه

وكـان ابن طباطبا يسعى إلى «الفخر المسود» في مظانّ هي سوى «الغنى المالـي»، يذكر منها «الكرم»، فهو، بوصفه كريماً حرّاً، يؤثر الموت على أن يعجز عن «قرى الضّيف»، فيقول:

قـد يصبـر الحـرُّ علـى السَّيـف ويجـزع الحـرُّ مـن الحيـف
ويـؤثـر المـوت علـى حـالـةٍ يعجـز فيهـا عـن قـرى الضَّيـف

ويعبِّـر، فـي صـورة جميلـة مبتكـرة، عمّا يفضي إليه الإسراف في طلب المال، فيقول:

(١) أعيان...، م.س.، ٩/ ٧٢.
(٢) الغدير، م.س.، ٣/ ٤٦٥.
(٣) أعيان، م.س.، ص ٧٣.

إنّ في نيل المنى وَشْكَ الرّدى   وقياس القصيد ضدّ السَّرفِ
كسراجٍ دهنه قوت له   فإذا غرقته فيه طفي

ويذكر منها طلب العلم، ففي إحدى قصائده، يخاطب حسوداً يلومه على انصرافه إلى جمع فنون العلم من رواته، والتأليف فيه «أبكار الكلام»، ويقول له: إنّ قيمة كلّ الناس ما يحسنونه، وهو في هذا إنّما يمضي في نهج وضعه سيّد البلغاء الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام عندما قال: قيمة كلّ امرئ ما يحسنه، يقول ابن طباطبا مخاطباً حسوداً مريض القلب يلومه:

حسودٌ مريضُ القلب يُخفى أنينه   ويُضْحي كئيب البال منّي حزينَهُ
يلومُ على أن رُحْتُ في العلم راغباً   أجمع من عند الرُّواة فنونَه
وأسلكَ أبكارَ الكلام وعونَه   وأحفظُ ممّا أستفيدُ عُيُونَه
ويزعم أنّ العلم لا يجلبُ الغنى   ويُحْسنُ بالجهل الذّميم ظنونَه
فيا لائمي، دعني أغالي بقيمتي   فقيمةُ كلّ النّاس ما يحسنُونَه
إذا عُدَّ أغنى النّاس لم أكُ دونه   وكنتُ أرى الفَخْرَ المسُودَ دونَه
إذا ما رأى السرّاؤون وعيه   رأوا حركاتي قد هَتَكْن سكونَه
وما ثم ريب في حياتي وموته   فأعجب لميت كيف لا يدفنونَه
أبى الله لي من صنعة أن يكونني   إذا ما ذكرنا فخرنا وأكونَه

وهو هنا يعدُّ نفسه «أغنى النّاس» لأنّه حصّل علماً وأنتجه، وانسجاماً مع هذه الرؤية نجده حريصاً على جمع «الدّفاتر»؛ أي الكتب، لا يسليه عن فقدها شيء، يقول في هذا الصّدد:

إذا فجع الدّهر امرأً بخليله   تسَلّى، ولا يَسْلى لفجع الدّفاتر

وعلاوة على هذين الشرطين: الغنى المالي والرّغبة في طلب العلم توافرت لابن طباطبا القدرة على ذلك، فقد كان فطناً، ذكيّاً، سريع الحفظ، جلداً على التحصيل، ومن الأخبار ذات الدّلالة في هذا الصّدد ما يرويه حمزة الأصفهاني، وهو أصفهانيّ معاصر لابن طباطبا، وقد ألّف كتاب «شعراء

أصفهان» وترجم، من بين من ترجم لهم، لأبي الحسن بن طباطبا، ويقول د. عبد العزيز بن ناصر المانع: «وربّما اعتمد على كتاب حمزة هذا كلّ من جاء بعده في ما له علاقة بحياة أبي الحسن»[1].

قال حمزة: «وحدَّثني أبو عبدالله بن أبي عامر قال: كان أبو الحسن طول أيّامه مشتاقاً إلى عبدالله بن المعتزّ متمنّياً أن يلقاه أو يرى شعره، فأمّا لقاؤه فلم يتّفِقْ له، لأنّه لم يفارق أصبهانَ قَطُّ، وأمّا ظفره بشعره فإنّه اتّفق له في آخر أيّامِهِ. وله في ذلك قصّة عجيبة وذلك أنّه دخل إلى دار مَعْمر وقد حُملت إليه من بغداد نسخة [من شعر] عبدالله بن المعتزّ، فاستعارها فسَوَّف بها، فتمكّن عندهم من النظر فيها، وخرج وعَدَل إليَّ معيباً كأنّه ناهض بحمل ثقيل، فطلب مِحْبَرَةً وكاغداً، وأخذ يكتب عن ظهر قلبه مقطّعاتٍ من الشّعر، فسألته: لمن هي؟ فلم يجبني حتّى فرغ من نسخها، وملأ منها خمس ورقات من نصف المأموني، وأحصيتُ الأبيات فبلغ عددها مئة وسبعة وثمانين بيتاً تَحَفَّظَهَا من شعر ابن المعتزّ في ذلك المجلس واختارها من بين سائرها».

ويبدو أنَّ صلته بابن المعتزّ تعدَّتْ حدود هذه القصّة إلى قيام مراسلة بينهما، فابن أبي الإصبع في خبر له يحدِّثنا عن شعر دار بينهما، يقول: «وقد أَحْسَنَ ابن المعتزّ في قوله لابن طباطبا:

فأنتم بنو بنته دوننا ونحن بنو عمّه المسلم

قال ابن أبي الإصبع: فإنّه أعطى بني عمّه حقّهم من الشّرف واعترف لهم من فضل الأبوين بما اعترف»[2].

يفيد هذا الخبر، أوّلاً، أن ابن طباطبا كان معجباً بشعر ابن المعتزّ

---

(١) ابن طباطبا، كتاب عيار الشّعر، القاهرة: مكتبة الخانجي، تحقيق د. عبد العزيز بن ناصر المانع، ص ١١. ومعجم الأدباء، م.س.، ١٧/ ١٤٤ و١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠، نقلاً عن ابن أبي الإصبع، تحبير ٢٣٦، وانظر: ابن رشيق، العمدة ٢/ ٤٨. وانظر: النويري، نهاية الأرب، ٧/ ١٣٩.

المتميّز بأناقة لغته ووفرة الصّور فيه، وثانياً أنّه جادٌّ في الحصول على هذا الشِّعر، فعندما لم يتيسّر له الحصول عليه، بذل جهداً في الاطّلاع والحفظ وكتابة ما حفظه أدّى إلى إصابته بالإعياء، وثالثاً أنّه يمتلك ذاكرة قويّة سريعة الحفظ، ورابعاً أنّه يمتلك مقدرة في الإقناع جعلت ابن المعتزّ يقول من الشِّعر في فضل أهل البيت ما ذكره ابن أبي الإصبع وأثنى عليه.

وقد أتاح توفُّر هذه الشروط لابن طباطبا، أن يحصِّل ثقافةً واسعة عميقة، يمكن لنا أن نتعرّفها إن قرأنا حديثه عن الأدوات التي يجب إعدادها قبل الإقدام على نظم الشِّعر، فإن كان يشترط على الآخرين امتلاك هذه الأدوات، فالأولى أن يكون قد امتلكها هو قبل ذلك، يقول ابن طباطبا في هذا الصّدد:

«وللشِّعر أدواتٌ يجبُ إعدادُهَا قَبْلَ مَرَامِهِ وتكَلُّفِ نَظْمِه، فمن نقصت عليه أداةٌ من أدواتِه لم يَكْمُلْ له ما يتكلَّفُهُ منه، وبَانَ الخلل في ما ينظمهُ، ولحِقَتْهُ العُيوبُ من كلِّ جهةٍ. فمنها: التَّوَسُّعُ في علم اللُّغة، والبراعةُ في فهم الإعراب، والروايةُ لفنونِ الآداب، والمعرفةُ بأيَّام النَّاس وأنسابهم ومناقِبِهم ومَثَالبِهم، والوقوفُ على مَذَاهب العَرَب [...] الشّعر، والتَّصرُّفُ في معانيه في كلِّ فَنٍّ قالَتْهُ العَرَبُ فيه وسلوكُ مناهجها في صِفَاتِها ومُخاطباتِها وحكاياتِها وأمثالِها، والسُّننِ المستعملة منها، وتعْريضِها وتصْريحِها، وإطنابِها وتقْصيرِها، وإطالتِها وإيجازِها، ولُطفِها وخَلاَبتِها، وعُذُوبةِ ألفاظِها، وجزالةِ معانيها، وحُسْنِ مباديها، وحلاوةِ مقاطِعِها، وإيفاءُ كلِّ مَعْنًى حَظَّهُ من العبارة، وإلباسُهُ ما يشاكلُهُ من الألفاظ حتَّى يَبْرُزَ في أحسن زِيٍّ وأبهى صورة، واجتنابُ ما يَشينُهُ من سَفْسَافِ الكلام وسخيفِ اللّفظِ، والمعاني المُستبردةِ، والتَّشبيهاتِ الكاذبة والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغَثَّة، حتى لا يكون مُلفَّقاً مرقوعاً، بل يكونُ كالسَّبيكة المفرغة، والوشي المنمنم، والعقد المنظّم، والرِّياضِ الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظَهُ فيلتذُّ الفهمُ بحُسْنِ معانيه كالتذاذِ السَّمْعِ بمونقِ لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد

للبناء يتركَّبُ عليها ويعلو فوقها، ويكون ما قبلها مسبوقاً إليها ولا تكون مَسبوقَةً إليه فتقلق في مواضعها، ولا توافق ما يتَّصلُ بها، وتكونُ الألفاظُ مُنقادةً لما تُرادُ له، غير مُستكرَهَةٍ ولا مُتعبةٍ، مختصرة الطُرُقِ، لطيفة الموالج، سهلة المخارج.

وجماعُ هذه الأدوات كمال العقل الذي به تتميَّزُ الأضدادُ، ولزوم العدل، وإيثارُ الحسن، واجتنابُ القبيح، ووَضْعُ الأشياءِ مواضعها»[1].

مؤلَّفاته

أثمر جهد ابن طباطبا الذي بذله في سبيل تحصيل العلم والتأليف في فنونه عدداً من الكتب التي ألَّفها، ومنها، كما يذكر مؤرِّخو الأدب:

١ ـ ديوان شعره

كان ابن طباطبا أحد شعراء الطَّالبيِّين، وأحد شعراء مدينة أصفهان. وقد ترك ديوان شعر ذكره ابن النَّديم في الفهرست، وقال: إنّ أبا بكر الصُّولي جمعه ورتَّبه على حروف المعجم[2]. وأخطأ ابن خلِّكان، كما مرَّ بنا، فنقل من ديوان شعره أبياتاً، ونسبها إلى أبي القاسم بن طباطبا، وقال: «ولا أدري من هو هذا أبو الحسن، ولا وجه النِّسبة بينه وبين أبي القاسم المذكور، والله أعلم».

٢ ـ كتاب «عيار الشِّعر»

ويتضمَّن آراء ابن طباطبا في مفهوم الشّعر وأدواته وبناء القصيدة وتفاضل الأشعار والألفاظ والمعاني وأشعار المولَّدين وعيار الشّعر إلخ... من قضايا الشّعر ومسائله، وقد حقَّقه د. طه الحاجري ود. محمَّد زغلول سلاّم، وأصدراه في عام ١٩٥٦، ثمّ أخرج د. سلاّم الكتاب في طبعة جديدة في عام

(١) المصدر نفسه، ص ٦ و٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدّد، طهران، ١٣٩١هـ./ ١٩٧١م.، ص١٦٨.

١٩٨٠، ثمّ أصدرته دار الكتب العلميّة في بيروت في عام ١٤٠٢هـ./ ١٩٨٢م.، في طبعة اعتمدت على الطبعة التي حقّقها د. سلاّم، ثمّ أعاد د. عبد العزيز المانع تحقيقه، وأصدره عن مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٣ ـ كتاب «تهذيب الطّبع»

وقد تحدّث ابن طباطبا نفسه عن كتابه هذا في «عيار الشّعر» في ثلاثة مواضع:

قال عنه في الموضع الأوّل: «وقد جمعنا ما اخترناه من أشعار الشُّعراء في كتاب سمّيناه «تهذيب الطّبع» ليرتاضَ من تعاطى قول الشعر بالنّظر فيه، ويسلك المنهاج الذي سلكه الشعراء، ويتناول المعاني اللطيفة كتناولهم إيّاها، فيحتذي على تلك الأمثلة في الفنون التي حرّفوا أقوالهم فيها، واقتصرنا على ما اخترناه ـ من غير نفي لما تركناه ـ بل لاستحسان له خَصَصْناه به دون ما سواه، وقد شذّ عنّا الكثير ممّا وجبَ اختيارُهُ وإيثارُهُ وإذا استفدناه ألحقناه بما اخترناه إن شاء الله تعالى».

وقال عنه في الموضع الثّاني: «وليس يخلو ما أودعناه اختيارنا المسمّى: «تهذيب الطبع» من بناء إن لم يَصْلُحْ لأن تسكُنَ الأفهامُ ظلّه لم يبطل أن يُنتفعَ بنقضه فيُعدَّ لبناءٍ يُحتاج إليه»[1].

وقال عنه في الموضع الثّالث: «فهذه أمثلة لأنواع التشبيهات التي وعدنا شرحها، وفي كتاب «تهذيب الطبع» ما يسدُّ الخلل...».

٤ ـ كتاب «الشّعر والشّعراء»

ولعلّه كتاب «تهذيب الطّبع» نفسه؛ إذ قال كما مرّ بنا قبل قليل: «وقد جمعنا ما اخترناه من أشعار الشّعراء».

---

(١) عيار الشّعر، م.س.، ص ٢٣، وكلام ابن طباطبا عن كتابيه من المصدر نفسه، ص ١٠ و١٢ و٥٠.

٥ ـ كتاب «المدخل في معرفة المعمّى من الشّعر»

هـذا الكتـاب عبـارة عـن رسـالـة قصيـرة اسمهـا «رسـالـة في استخراج المعمّـى»، يشـرح الكـاتب فيها أبياتاً من الشّعر غامضة المعنى أو «معمّاة»، ما يدلّ على تعمّقه في فهم غريب الأشعار ومعرفة معانيها.

٦ ـ كتاب «العروض»

لابن طباطبا رأي في «العروض» مفاده أنّها ميزان الشّعر، ومن صحّ طبعه لا يحتـاجهـا، ومـن اضطـرب عليـه الـذّوق لـم يستغنِ عن تصحيحه وتقويمه بمعرفتها والحذق بها حتّى تصير معرفته المستفادة كالطّبع الذي لا تكلّف فيه، ولعـلّ هـذا ما جعله يؤلّف كتاباً فيها ذكره ياقوت في «معجم الأدباء»، ووصفه بأنّه كتاب «لم يسبق إلى مثله»[1].

٧ ـ كتاب «سنام المعالي»

٨ ـ كتاب «تقريظ الدّفاتر»

وقـد مـرَّ بنا أنّه كان مغرماً بالدّفاتر، أي الكتب، ولا يتعزّى عن فقدها، ويسمّيه ـ أي هذا الفقد ـ فاجعة، وقد ألّف هذا الكتاب في مدحها.

لم يصلنا من هذه الكتب سوى مختارات من شعره احتفظت بها كتب تاريخ الأدب، وكتابين هما: «عيار الشّعر»، وقد مرَّ بنا أنّه طبع غير مرّة، و «رسالة في استخـراج المعمّـى» من الشّعر، ويذكر د. عبد العزيز المانع أنّه توجد نسخة منه في مكتبة الفاتح في استانبول، ضمن مجموع يحمل الرقم ٥٣٠٠.

الشّاعر

نظم ابـن طبـاطبـا الشّعر كما مرَّ بنا، وتحدّث عن أدواته وشروطه، وقد عُـرف فـي أوسـاط الـرّواة والشعراء والنقّاد بهذه الصّفة، على الرّغم من إقامته

(١) معجم الأدباء، م.س.، ١٧/ ١٤٣.

الدّائمة في «أصفهان». يقول ياقوت الحموي روايةً عن حمزة الأصفهاني: «سمعت جماعة من رواة الأشعار ببغداد يتحدّثون عن عبدالله بن المعتزّ أنّه كان لهجاً بذكر أبي الحسن، مقدّماً له على سائر أهله، ويقول: ما أشبهه في أوصافه إلاّ محمّد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك إلاّ أنّ أبا الحسن أكثر شعراً من المَسْلَميّ، وليس في ولد الحسن من يشبهه، بل يقاربه عليّ بن محمّد الأفوه»[1]، ويقصد الأفوه الحماني، وقد ورد ذكر هذا الشّاعر في الجزء الأوّل من هذا الكتاب.

ويفيد حكم ابن المعتزّ أنّ ابن طباطبا يقدّم على شعراء فئة محدودة: «سائر أهله»، ما يعني أنّه لا يعدّ في الطبقة العليا من الشّعراء، وإنّما بين شعراء أصفهان البارزين، وبين شعراء الطّالبيّين والقرشيّين المقدّمين، ولعلّه من كبار الشعراء النقّاد.

يحصر المرزباني شعر ابن طباطبا في موضوعين، فيقول: «وأكثر شعره في الغزل والآداب». ويذكر الثّعالبي، في «ثمار القلوب»، مقطوعة له خاطب بها أبا عليّ الرّستمي، يفصح فيها الشّاعر العالم عن سموّ خلقي غدا عادةً عنده، وعند أمثاله من الطّالبيّين منذ أن دعا جدُّهم المصطفى ﷺ لأبيهم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، في يوم غدير خم، بالصّبر، بعد أن بلّغ المسلمين ما أنزل عليه من النّص على ولايته، فقال: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه...».

غديريّة ابن طباطبا

يا من يُسرُّ ليَ العداوةَ أَبْدِها ... واعمدْ لمكروهي بجهدِك أو ذرِ

لله عندي عادةٌ مشكورةٌ ... في من يعاديني فلا تتحيَّرِ

أنا واثقٌ بدعاء جدّي المصطفى ... لأبي غداةَ غديرِ خمٍّ فاحذرِ

والله أسعدنا بإرث دعائه ... فيمن يُعادي، أو يُوالي، فاصبرِ[2]

---

(1) المصدر نفسه، ١٧/ ١٤٤.

(2) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٦٧٣، رقم ١٠٦٨.

نماذج من شعره

كان ابن طباطبا عالماً باللُّغة ماهراً في النَّظم، ومن الأخبار ذات الدّلالة على ذلك ما ينقله ياقوت الحموي من كتاب «الشعراء» لحمزة الأصفهاني، وهو: «حدَّثني أبو عبدالله بن عامر قال: من تَوَسُّع أبي الحسن في أتِيِّ القول وقهره لأبيِّه أنّ أبا عبدالله؛ فتى أبي الحسين محمَّد بن أحمد بن يحيى بن أبي البَغْل(١)، كانت به لكنةٌ شديدةٌ حتى كان لا يجري على لسانه حرفانِ من حروف المعجم؛ الرَّاءُ والكاف: يكون مكان الرَّاء غيناً، ومكان الكاف همزة، فكان إذا أراد أن يقول: «كركي» قال: «أغ أي»، وإذا أراد أن يقول: «كَرْكَرَة» قال: «أغْ أغَة»، ويُنشدُ للأعشى:

اغَى غَجُلاً في أفِّهِ إتِفٌ

يريد:

قالت: أرى رجلاً في كَفِّه كَتِفٌ

فعمل أبو الحسن قصيدة في مدحِ أبي الحسين حذف منها حَرْفَي لكنة الحسين [أبي عبدالله]، ولقّنه حتّى رواها لأبيه أبي الحسين فجُنَّ عليها، وقال أبو الحسن: واللهِ أنا أقدَرُ على أبيِّ الكلام من واصل بن عطاء!، والقصيدة:

«يا سيِّداً دانَتْ له السَّاداتُ ... وتتابَعَتْ في فِعْلِهِ الحَسَناتُ
وتواصَلَتْ نَعْمَاؤهُ عندي، فَلي ... منه هباتٌ خَلْفَهُنَّ هِبَاتُ
نِعَمٌ ثَنَتْ عنِّي الزَّمانَ وخَطْبَهُ ... من بَعْدِ ما هِيبَتْ له غَدَواتُ
فَأُدِلْتُ من زمنٍ مُنِيتُ بغشمِهِ ... أيّام للأيّام بي سَطَواتُ
فَلِمَيْتِ آمالي، لديه، حياتُهُ ... وَلِحَاسِدِي نُعْمَى يَدَيْهِ مماتُ
أوْليتني مِنناً تجلّ وتَعْتَلي ... عن أنْ يُحيطَ بوَصْفِهِنَّ صِفاتُ
فإذا نُثَنّ بِمَنْطِقٍ من مادحٍ ... فالمدحُ منِّي والثَّناءُ صُماتُ

---

(١) رجل من رجال الأدب والسّياسة في عصره، كان مرشّحاً للوزارة في عهد الخليفة العبّاسي المقتدر، فانتقض أمره وردَّ والياً على فارس في سنة ٣٠٠هـ./ ٩١٣م.

عجناً عن المِدَحِ التي اسْتَحْقَقْتَها   واللهُ يَعْلَمُ ما تَعِي النِّيّاتُ
يا ماجداً فِعْلُ المحامِدِ دِينُهُ   وسَمَاحُهُ صَوْمٌ له وصَلاةُ
فيبيتُ يَشْفَعُ راجياً بتَطَوُّعٍ   منه، وقد غشِيَ العيونَ سُباتُ
فالجودُ مثلُ قِيَامِهِ وسُجودِهِ   إنْ قِيسَ، والتسبيحُ منه عِداتُ
ما زال يُلْفَى جائداً أو واعِداً   وَعْداً تضايَقُ دُونَهُ الأوقاتُ
ليمينهِ بالنُّجْحِ عند عُفاتِهِ   في ليلِ ظَنِّهِمُ البهيمِ ثَبَاتُ
ذو هِمَّةٍ عَلَويَّةٍ تُوفي على الـ   ـجَوزاءِ تَسْقُطُ دونَها الهِمَّاتُ
تَنْأى عن الأوهامِ إلاّ أنَّها   تَدْنُو إذا نِيطَتْ بها الحاجاتُ
وعَزيمةٍ مثلِ الحُسَامِ مَصُونةٍ   عن أن يَفُلَّ به الزمانَ شَباتُ
فإذا دَهَا خَطْبٌ مُهِمٌّ أيِّدٌ   خَلَّى العداةَ، وجَمْعُهُمْ أشتاتُ
لأبي الحُسَينِ سَمَاحَةٌ لو أنَّها   للغيثِ لم تُجْدِبْ عليه فَلاةُ
وله مَسَاعٍ في العُلَى عَدد الحَصَى   في طيءٍ من جُلِّها مَسْعَاةُ
كحيَا السَّحاب على البقاع سِمَاتُهُ   وله على عافي نَداهُ سِماتُ
يُحْيِي بنائلهِ نفوساً مثلما   يَحْيَا بجودِ الهَاطِلاتِ نَبَاتُ
شادَ العَلاءَ أبو الحُسَينِ وَحازَهُ   عن سَادةٍ، هم شائدون بُنَاةُ
سَبَّاقُ غاياتٍ تقطَّعُ دونَهَا   سُبَّاقُها إنْ مُدَّتِ الحلباتُ
فإذا سَعَوْا نحو العُلا وسَعَى لها   مُتَمَهِّلاً حِيزَتْ له القَصَبَاتُ
لو واصلُ بن عطاءٍ الباني لها   تُليت توهَّم أنَّها آياتُ
لولا اجتنابي أن يُمَلَّ سماعُها   لأطلتُها ما خُطَّت التاءات
مُسْتَوفِزٌ عند السَّماحِ وإن تَقِسْ   أحداً به في الحلم قلت: حصاتُ
طَوْدٌ يلوذ به الزَّمانُ وعندَهُ   لجميعِ أحداثِ الزَّمانِ أداةُ
بيمينهِ قَلَمٌ إذا ما هَزَّهُ   في أوْجُهِ الأيّام قلتَ: قَنَاةُ
في سِنِّهِ بأسُ السِّنَانِ وهيبةُ السَّـ   ـيفِ الحُسامِ وقد حَوَتْهُ دَوَاةُ
سَحْبَانَ عيّاً وهو عِيّاً باقِلٌ   عجِلٌ إلى النَّجوَى وفيه أناةُ
وسِنانُ إلاّ أنَّهُ مُتَنَبِّهٌ   يقظانُ منه الزَّهْوُ والإخباتُ

لـم يَخْـطُ فـي ظُلُمـاتِ ليـلِ مِـدَادِهِ إلاّ انجلَــتْ عَنّــا بــه الظُّلُمــاتُ
وأبــو علــيٍّ أحمــدُ بــن مُحَمَّــدٍ قـد نُمِّقَـتْ عَنِّـي لـديـه هِنَـاتُ
فتقـاعسَـتْ دونـي عـوائـدُ فَضْلِـهِ وسَعَــتْ سُعَــاةٌ بيننــا وعِــداةُ
فـافتِلْـهُ عـن طُـولِ العُقـوق وهُـزَّهُ فلــهُ لَــدَى فِعْــلِ العُــلاَ هَــزَّاتُ
واللهِ مـا شـأنـي المَـدِيـحُ وبَـذْلُـهُ لمُــؤَمِّــلٍ ليمينِــهِ نَفَحــاتُ
إلاّ مجــازاةً لمــن أضحَــتْ لَــهُ عنـدي يَـدٌ أغْـذَى بهـا وأقَـاتُ
والمُسْمِعِــيُّ لـه لـديَّ صنـائِـعٌ أيــامُهُــنَّ لِطَيِّهــا ســاعــاتُ
فـأخـالُهـا عَهْـدَ الشبـابِ وحُسْنَـهُ إذْ طـار لـي فـي ظِلِّـهِ اللَّـذّاتُ
خُذْها الغدَاةَ، أبا الحُسَيْنِ، قصيدةً ضِيمَـتْ بهـا الـرَّاءات والكـافـاتُ
غُيِّبْــنَ عنهــا ختلــةً أخــواتُهَــا عنـد النَّشيـدِ فمـالهـا أخـواتُ
وَلَـوَ انَّـهُــنَّ شهِــدنَ لازدَوَجَــتْ لـهَـا الغَيْنَـاتُ [. . .] والألـفـاتُ
فـاسْعَـدْ أبـا عبـد الإلـه بهـا إذا شَقِيَــتْ بلثْغَــةِ مُنْشِــدٍ أبيــاتُ
نَقَصَـتْ فتَمَّـتْ فـي السَّمـاعِ وَالْغِيَـتْ منهــا التــي هــي بينهــا آفــاتُ
صَفِيَّتُهــا مثــلَ المُــدَام لَــهُ فَمَــا فيهــا لَــدَى حُسْــنِ السَّمـاعِ قَـذَاةُ
مَعْشـوقـةٌ تَسْبِـي العُقـولَ بِحُسْنِهَـا يـاقـوتـةٌ فـي اللِّيـن وهـي صَفَـاةُ
عَلَــوِيَّــةٌ حَسَنِيَّــةٌ مــزهُــوَّةٌ تـزهَـى بحسـن نَشيـدِهَـا اللهـواتُ
ميــزانُهــا عنــد الخليــل مُعَــدَّلٌ متفــاعِلُــنْ متفــاعِلُــنْ فعــلاتُ(١)

تـدلّ هـذه القصيـدة علـى علمـه بـاللغـة ومقـدرتـه علـى النظـم، وتـدلّ مقطـوعـات وقصـائـد أُخرى على حسن تصويره تجربته في هذه الحياة؛ ومن نماذج ذلك نذكر(٢):

كتـب ابـن طبـاطبا إلى ابن أبي البغل، وبعث إليه قلماً أسود وآخر أبيض ومبعةً سمراً:

(١) معجم الأدباء، م.س.، ١٧/١٤٦ ـ ١٤٩.
(٢) الغدير، م.س.، ٣/٤٦٨ ـ ٤٧٢.

هـــذا ابـــن ســـامٍ وبنـــتُ حـــام ... شعبهمـــا اليـــوم ذو التئـــام
قـد أظهـرا، فـي الـورى، ازدواجـاً ... فـــامتـــزج النُّـــور بـــالظَّـــلام
وأنْسَـــلا صبيـــةً صغـــاراً ... سبعـــاً يـــوافيـــن فـــي نظـــام
هـــنَّ مـــدى الـدّهـــر مـــرضعـــاتٌ ... يشتقـــن ريّـــاً إلـــى فطـــام[1]

وقال في لوم العذّال:

أقـولُ وقـد أُوقظـتُ من سِنَةِ الهوى ... بعـذلٍ يُحـاكـي للدعُهُ لذعةَ الهجرِ:
دعوني وحُلمَ اللّهوِ في ليلةِ المُنى ... ولا تـوقظـونـي بـالمـلامِ وبـالـزّجـرِ
فقـالـوا لـيَ: استيقـظ فشيبُـكَ لائـحٌ ... فقلتُ لهم: طيبُ الكرى ساعة الفجرِ

وقال يصف ليلة ممتعة:

وليلـــةٍ أطـــربنـــي صبحُهـــا ... فَخِلْتُنـــي فـــي عُـــرُس الـــزنـــجِ[2]
كـــأنّمـــا الجـــوزاءُ جنـــحَ الـــدّجـــى ... طبّـــالـــةٌ تضـــربُ بـــالصنْـــجِ
قـــائمـــةٌ قـــد حـــرّرت وصفهـــا ... مـــائلـــةُ الـــرأس مـــن الغنـــجِ

ويـروى أنّـه دخل يوماً دار أبي عليّ محمّد بن أحمد بن رستم[3]، فرأى على بابه عثمانيَّين أسودَين قد لبسا عمامتين حمراوين، فامتحنهما فوجدهما من الأدب خاليين، فلمّا تمكّن في مجلس ابن رستم دعا بالدّواة والقرطاس وكتب:

أرى ببـــاب الـــدّارِأســـوديـــنِ ... ذَوَيْ عمـــامتيـــنِ حمـــراويـــنِ
كجمـــرتيـــنِ فـــوقَ فحمتيـــنِ ... قـد غـادرا الـرّفـض قـريـري عيـنِ
جـــدّكمـــا عثمـــانُ ذو النُّـــوريـــنِ ... فمـــا لـــهُ أنســـلَ ظُلمتيـــنِ
يـــا قبـــحَ شيـــنٍ صـــادرٍ عـــن زيـــنِ ... حـــدائـــدٍ تُطبَـــعُ مـــن لُجَيـــنِ

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء...، بيروت: مكتبة الحياة، ١٣٨١هـ./١٩٦١م، ١/ ١١٤.
(٢) يضرب به المثل لاختصاص الزنج من بين الأمم بشدّة الطّرب وحبّ الملاهي والأغاني، والمثل سائر بإطرابهم، [مؤلّف الغدير].
(٣) خلف ابن أبي البغل في ولاية الخراج، وتوفّي سنة ٣٢١هـ./٩٣٣م.

مــا أنتمــا إلاّ غُــرابــا بَيــنِ ... طِيــرا فقــد وقعتمــا لِلْحَيْــنِ
المُظهِــريــنِ الحــبَّ للشخصيــنِ ... ذرا ذوي السنّــة فــي المصــريــنِ
وخلّيــا الشيعــة للسبطيــنِ ... للحســن الطيّــب والحسيــنِ
ستُعطَيــان فــي مــدى عــامينِ ... صكّــاً بخفّيــن إلــى حنيــنِ

فاستظرفها ابن رستم وتحفّظها النّاس.

وله قوله يهجو به أبا عليّ بن رستم يرميه بالدّعوة[1] والبرص:

أنــت أُعطيــت مــن دلائــل رُسْــلِ الله آيــاً بهــا علــوتَ الــرؤوسا
جئــت فــرداً بــلا أب ويُمنــا ... كَ بيــاضٌ فــأنــت عيسى وموسى

وله في أبي عليّ بن رستم لمّا هدم سور أصبهان ليزيد به في داره، وأشار فيه إلى كون أصبهان من بناء ذي القرنين:

وقد كان ذو القرنين يبني مدينةً ... فأصبحَ ذو القرنينِ يهدمُ سورَها
على أنّه لو كان في صحنِ دارِهِ ... بقرنٍ له سَيْناء زعزعَ طورَها

وله في ابن رستم يذكر بناءه سور أصبهان:

يــارستمــيُّ استعمــل الجــدّا ... وكــدنــا فــي حظّنــا كــدّا
فــإنّــك المــأمــولُ والمــرتجــى ... تهــوّنُ الخطــبَ إذا اشتــدّا
أحكمتَ من ذا السورِ ما لم تجدْ ... واللهِ مــن إحكــامِــه بُــدّا
فخلفَــهُ نســلٌ كثيــرٌ لمــن ... أصفــت لأرزبــونهــا الــودّا[2]
وهــمْ كَيــأجــوجَ ومــأجــوجَ إن ... عــدّدتهــم لــم تُحصِهــمْ عَــدّا
وأنــت ذو القــرنيــنِ فــي عصــرِهِ ... جعلتَــهُ مــا بينهــم ســدّا

وقال يهجو أبا عليّ الرستمي:

كفــراً بعلمِــكَ يــا ابــن رُسْتــم طــه ... وبما حفظتَ سوى الكتابِ المُنزَلِ

---

(١) أي ادّعاء النسب.

(٢) كنّى بالأرزبون عن غلامه [مؤلّف الغدير].

لو كنتَ يونسَ في دوائرِ نحوِهِ أو كنت قُطْربَ في الغريبِ المُشكلِ
وحويتَ فقهَ أبي حنيفةَ كلَّهُ ثمّ انتهيتَ لرسمٍ لم تَنْبُلِ

وله قوله :

لا تُنْكِرَنْ إهداءَنا لك منطقاً منك استفدنا حسنَهُ ونظامَهْ
فالله عزّ وجلّ يشكر فعلَ مَنْ يتلو عليه وحيَهُ وكلامَهْ

ويعاتب أبا عمرو بن جعفر بن شريك على منعه إيّاه شعر ديك الجنّ بقوله :

يا جواداً يمسي ويصبحُ فينا واحداً في الندى بغيرِ شريكِ
أنت من أسمحِ الأنامِ لشعرِ النّاس ماذا اللجاجُ في شعرِ ديكِ
يا حليفَ السماحِ لو أنّ ديكَ الجنّ من نسلِ ديكِ عرشِ المليكِ[1]
لم يكن فيه طائلٌ بعد أن يدخلَهُ الذكْرُ في عِدادِ الديوكِ

وله قوله :

بأبي الذي نفسي عليه حبيسٌ مالي سواهُ من الأنامِ أنيسُ
لا تنكروا أبداً مقاربتي له قلبي حديدٌ وهو مغناطيسُ

وله :

يا طيبَ ليلٍ خلوتُ فيهِ بمن أقصرُ عن وصفِ كُنْهِ وَجدي بهِ
ليلٌ كبَردِ الشباب حالكُهُ نعمتُ في ظلّهِ وفي طيبهِ

وله :

أتاني قريضٌ كنظمِ الجُمانِ وروضِ الجنانِ وأَمْنِ الفؤادِ
وعهدِ الصِّبا ونسيمِ الصَّبا وبَرْدِ الفؤاد وطيبِ الرقادِ
وله حسامٌ باترٌ في كفِّهِ يمضي لِنقضِ الأمرِ أو توكيدِهِ

(١) حديث ديك العرش رواه الجاحظ [في كتاب الحيوان: ٢/٢٥٩] عن رسول الله ﷺ قال: إنّ ممّا خلق الله لديكاً عرفُهُ تحت العرش، وبراثنه تحت الأرض السفلى، وجناحه في الهواء، فإذا مضى ثلثا الليل وبقي ثلثه ضرب بجناحه قائلاً: سبحان الملك القدّوس، سبّوحٌ قدّوس، ربُّ الملائكة والرّوح، فعند ذلك تضرب الديكةُ وتصيح [مؤلّف الغدير].

ومتـرجـمٌ عمّـا يُجـنُّ ضميـرُهُ يجـري بحكمتِـه لـدى تسـويـدِهِ
قلـمٌ يـدور بكفّـه فكـأنّـهُ فَلَـكٌ يـدور بنحسِـه وسُعـودهِ

وله يصف فرحته بكتاب:

لا وأُنسـي وفـرحتـي بكتـاب قـد أتـاني فـي عيـدِ أضحى وفِطرِ
مـا دجـا ليـلُ وحشتـي قـطُّ إلاّ كنـتَ لـي فيـه طـالعـاً مثـل بَـدرِ
بحـديـثٍ يقيـم لـلأنـس سـوقـاً وابتسـامٍ يَكـفُّ لـوعـةَ صـدري

وله في الفراق:

بـانُـوا وأبقَـوا فـي حَشـاي لبَيْنِهِـمْ وجْـداً إذا ظَعَـنَ الخليـطُ أقـامـا
لله أيّـامُ السـرور كـأنّمـا كـانـت لسُـرعـةِ مَـرِّهـا أحـلامـا
لـو دامَ عيـشٌ رحمـةً لأخـي هـوىً لأقـامَ لـي ذاك السـرورُ ودامـا
يـا عيشَنـا المفقـودَ خُـذْ مـن عمـرِنـا عـامـاً ورُدَّ مـن الصِّبـا أيّـامـا

وله في الغزل:

يـا مـن حكـى المـاءَ فـرطُ رقّتِـهِ وقلبُـهُ فـي قسـاوةِ الحجـرِ
يـا ليـت حظّـي كحـظِّ ثـوبِـكَ مـن جسمِـكَ يـا واحـدَ البشـرِ
لا تعجبـوا مـن بلـى غِـلالَتِـهِ قـد زَرّ أزرارَهُ علـى القمـرِ

ومن شعره الفكاهي الظريف، المتأثر فيه بالقرآن الكريم قوله لأبي عمر بن عصام، وكان ينتف لحيته:

يـا مَـنْ يـزيـلُ خِلْقَـةَ الـرَّ حمـن عمّـا خُلِقَـتْ
تُـبْ وَخَـفِ الله علـى مـا قَـدْ جَنَـت واجتـرحـتْ
هـل لـك عـذرٌ عِنـدَه إذا الـوحـوشُ حُشِـرَتْ
فـي لحيـةٍ إن سُئِلَـتَ بـأيِّ ذنـبٍ قُتِلَـتْ

ومن هذا الشعر الفكاهي قوله، مضمّناً أبياته بيتاً معروفاً:

ما أنسى لا أنسى حتّى الحشر مائدة ظلنا لـديك بهـا فـي أشغل الشغلِ

إذ أقبل الجديُ مكشوفاً ترائبه ... كأنّه متمطّ دائم الكسلِ
قد مدَّ كلتا يديه لي فذكّرني ... بيتاً تمثّلته من أحسن المثلِ:
«كأنّه عاشقٌ قد مدَّ بسطته ... يوم الفراق إلى توديع مرتحلِ»
وقد تردّى بأطمار الرّقاق لنا ... مثل الفقير إذا ما راح في سملِ

وله شعر ساخر، سهل الألفاظ، غزير الصّور طريفها، ومنه:

لَنا صَديقٌ نَفْسُنا ... في مَقْتِه مُنْهَمِكه
أبردُ من سكونه ... وَسْطَ الندي الحركه
وجِذْرِيّ وَجْهه ... يحكيه جلدُ السّمكه
أو جلْدُ أفعى سُلِخَت ... أو قطعةٌ من شبكه
أو حلق الدّرع إذا ... أبْصَرْتَها مُشْتَبِكه
أو كَدَرِ الماءِ إذا ... ما الرّيح أبدَت حبَكه
أو سفنٌ محبّب ... أو كرشٌ منفركه
أو منخلٌ أو عرض ... رقيقة منهتكه
أو حجر الحمّام كم ... من وسخ قد دلكه
أو كور زنبور إذا ... أفرخ فيه تركه
أو سلحةٌ يابسةٌ ... قد نَقَّرَتْها الدّيكه

النّاقد

وإن يكن شعر ابن طباطبا لا يرفعه إلى درجة كبار الشّعراء، فإنّ نقده يجعله في مصافّ النقّاد العرب الكبار، ولا تزال آراؤه، في كثيرٍ من قضايا الشّعر ومسائله، ذات أهمّية كبرى، ومنها، فضلاً عمّا ذكرناه من أدوات الشّعر وتهذيب الطّبع، آراؤه في عمليّة «قرض الشّعر» وفي «وحدة القصيدة»، وفي «الصّدق الشعري» وفي «خصائص الشّعر الجيّد» إلخ... وفي ما يأتي نقدّم اقتباسات من كتابه «عيار الشّعر» تمثّل رؤيته إلى هذه المسائل:

□ يقول في بيان رؤيته إلى قرض الشّعر: «فإذا أراد الشّاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشّعر عليه في فكره نثراً، وأعدَّ له ما يُلبسه إيّاه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي سلس القول عليه، فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفّق بينها بأبيات تكون نظاماً لها...»، ثمّ يتحدّث عن مرحلة تالية هي مرحلة التجويد[1].

□ ويقول في بيان رؤيته إلى وحدة القصيدة: «وأحسنُ الشّعْرِ ما ينتظم فيه القول انتظاماً يتّسقُ به أوّلُهُ مع آخره على ما يُنسِّقه قائله، فإن قُدِّم بيتٌ على بيتٍ دخله الخلل كما يدخل الرّسائلَ والخُطبَ إذا نُقضَ تأليفها. فإنَّ الشّعر إذا أُسِّس تأسيس فصول الرّسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلّة بذاتها، والأمثال السّائرة الموسومة باختصارها، لم يحسن نظمه بل يجب أن تكون القصيدة كلُّها كلمةً واحدةً في اشتباه أوّلها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحةً وجزالةَ ألفاظٍ ودقّةَ معانٍ وصوابَ تأليفٍ. ويكون خروج الشّاعر من كلِّ معنًى يضيفُهُ إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً، على ما شرطناهُ في أوّل الكتاب، حتّى تخرج القصيدة كأنّها مفرغةٌ إفراغاً، كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواءِ النّظم، لا تناقض في معانيها، ولا وَهْي في مبانيها، ولا تكلُّف في نسجها، تقتضي كلُّ كلمةٍ ما بعدها، ويكونُ ما بعدها متعلِّقاً بها مفتقراً إليها.

فإذا كان الشّعر على هذا التّمثيل سبق السّامع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليها راويه...»[2].

□ ويلحّ ابن طباطبا على ضرورة الصّدق، فقال بعد حديثه عن أسباب تأثير الشّعر في النّفس: «فإذا وافقت هذه المعاني هذه الحالات تضاعف حسن

(١) عيار الشّعر، م.س.، ص ٧ و٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٣.

موقعها عند مستمعها لا سيّما إذا أيّدت بما يجلب القلوب من الصّدق عن ذات النّفس، بكشف المعاني المختلجة فيها والتّصريح عمّا كان يكتم منها والاعتراف بالحقّ في جميعها».

□ وينصّ ابن طباطبا على خصائص الشّعر الجيّد، ومنها: جودة المعنى، وتشاكل اللّفظ والمعنى: تجويد الصّياغة، ودقّة أداء اللّفظ للمعنى، وخلوّ الشّعر من الحشو، وسهولة اللّفظ.

وعيار الشّعر، عند ابن طباطبا، «أن يورد على الفهم الثّاقب فما قبله واصطفاه فهو وافٍ وما مجّه ونفاه فهو ناقص...»[1].

* * *

(١) المصدر نفسه، ص١٩.

(١٧)
أحمد بن علويَّة الأصفهاني

التَّعريف بالشَّاعر

أحمـد بـن عَلَوِيَّـة الأصبهاني الكرماني، المعروف بأبي الأسود، أو بابن الأسـود الكـاتب. ولد في عام ٢١٢هـ.، وعمِّر طويلاً؛ إذ يُروى أنَّه توفِّي في نيِّف وعشرين وثلاثمئة.

كان لغويّاً يتعاطى «التأديب»، أي التَّعليم، ويقول الشِّعر الجيِّد، وذكره ابن شهرآشوب في «معالم العلماء» في شعراء أهل البيت المجاهرين. ثمّ ترك مهنة التَّأديب، أو «رفضهـا»، علـى حـدّ تعبيـر ياقوت الحموي، بعد أن صار مـن نـدمـاء الأمـراء والكبـراء، ومنهـم أحمد بن عبد العزيز العجلي ودلف بن أبي دلف العجلي[١].

يُعدّ ابن علويّة من أئمّة الحديث، ومن مؤلّفي الإماميّة المطَّرد ذكرهم في المعاجم. أخذ عنه مشايخ علماء الإماميّة واعتمدوا عليه.

وذكر النجاشي في «فهرسه» وابن شهرآشوب في «معالم العلماء» له كتاباً أسمـاه الأوّل: «كتـاب الاعتقـاد في الأدعية» والثاني: «دعاء الاعتقاد». وقال الحموي في «معجم الأدبـاء»: له رسـائـل مختارة دوَّنها أبو الحسين أحمد بن سعـد، فـي كتـابـه: «المصنَّـف فـي الـرَّسائل». وله ثمانية كتب في الدّعاء من

---

(١) صـلاح الـديـن الصَّفـدي، الـوافـي بـالـوفيّـات، النشـرات الإسـلاميّـة، جـزء ٦، ط٣، ١٤١١هـ./١٩١١م.، ٧/٢٥٣ و٢٥٤. السيِّـد محسن الأميـن، أعيـان الشيعـة، بيـروت: دار التعارف، ٣/ ٢٢ ـ ٢٦. العلاّمة الأميني، الغدير، م.س.، ٣/ ٤٧٧ ـ ٤٨٢.

إنشائه، ورسالة في الشَّيب والخضاب، وذكر ابن النّديم في «فهرسه» له ديواناً في خمسين ورقة[1].

ويقول السيّد الأمين: «والظّاهر أنَّ كتاب «الاعتقاد» هو الذي ينقل عنه الشيخ إبراهيم الكفعمي في كتبه، وجعله في آخر كتابه: «البلد الأمين» من مصادره، فيظهر أنّه كان موجوداً عنده»[2].

نماذج من شعره

يعدُّ ابن علويّة من الشُّعراء المتميّزين، وقد قال الشِّعر في المديح والرِّثاء والهجاء، وتأمُّل شؤون الحياة. . .، وتذكر كتب تاريخ الأدب نماذج من شعره نختار بعضها في ما يأتي:

قال في مدح أحمد بن عبد العزيز العجلي:

إذا ما جنى الجاني عليه جنايةً ... عفا كرماً عن ذنبه لا تكرّما
ويوسعه رفقاً يكاد لبسطه ... يودُّ بريء القوم لو كان مجرما

وأنشد سنة ٣١٠ وله ٩٨ عاماً من عمره قوله:

دنياً مغبّةُ من أثرى بها عدمُ ... ولذّةٌ تنقضي من بعدِها ندمُ
وفي المنونِ لأهل اللُّبّ معتبَرٌ ... وفي تزوّدهم منها التقى غنمُ
والمرءُ يسعى لفضلِ الرّزق مجتهداً ... وما لهُ غيرُ ما قد خطّه القلمُ
كم خاشعٍ في عيون الناس منظرُهُ ... واللهُ يعلمُ منه غيرَ ما علموا

وقال بعد أن أتت عليه مئة سنة:

حنى الدهرُ من بعد استقامته ظهري ... وأفضى إلى ضحضاحِ غايتِهِ عمري
ودبَّ البلى في كلّ عضوٍ ومفصلٍ ... ومن ذا الذي يبقى سليماً على الدهرِ؟[3]

(١) راجع للتفصيل في ذلك: الغدير، م.س.، ٣/ ٤٧٧ ـ ٤٨٠.
(٢) أعيان، م.س.، ٣/ ٢٢.
(٣) يقال: ماء ضحضاح: أي قريب القعر، يريد أنّ عمره شارف على نهايته.

ومن شعره ما ذكره النويري في «نهاية الأرب في فنون الأدب»، في الجزء العاشر من قوله في وصف البقر:

يا حبّذا مخضُها ورائبُها ... وحبّذا في الرّجالِ صاحبُها
عجولةٌ سمحةٌ مباركةٌ ... ميمونةٌ طُقّحٌ محالبُها
تُقبِلُ للحلْبِ كلّما دُعيَتْ ... ورامها للحِلابِ حالبُها
فتيّةٌ سنّها مهذّبةٌ ... معنَّفٌ في النديِّ عائبُها
كأنّها لعبةٌ مزيّنةٌ ... يطيرُ عُجباً بها ملاعبُها
كأنّ ألبانها جنى عسلٍ ... يلذّها في الإناء شاربُها
عروس باقورةٍ إذا برزت ... من بين أحبالها ترائبُها
كأنّها هضبةٌ إذا انتسبت ... أو بكرةٌ قد أناف غاربُها
تزهي بروقين كاللجين إذا ... مسّهما بالبنان طالبُها
لو أنّها مهرةٌ لما عدمت ... من أن يضمّ السرور راكبها[1]

غديريّة ابن علويّة

تذكر كتب تاريخ الأدب أنّ لابن علويّة قصيدةً نونيّة تسمّى بـ «الألفيّة» والمحبَّرة في مدح أمير المؤمنين، الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهي ثمانمئة ونيّف وثلاثون بيتاً. وقد عرضت على أبي حاتم السّجستاني (ت ٢٥٥هـ.)، وهو «الإمام في علوم القرآن واللّغة والشّعر»، فقال: يا أهل البصرة، غلبكم ـ والله ـ شاعر أصفهان في هذه القصيدة، في أحكامها وكثرة فوائدها. ويروي صاحب «معجم الأدباء» عن حمزة الأصفهاني قوله: لابن علويّة قصيدة على ألف قافية، شيعيّة. وتسميتها بـ «الألفيّة» يدلّ على أنّها نُظمت في ألف بيت، وبقي منها ثمانمئة ونيّف وثلاثون بيتاً. ولا يوجد منها

---

(١) عجولة: أنثى العجول؛ وهو ولد البقرة. الباقورة والباقور: جماعة البقر. الروقان: مثنّى روق؛ وهو القرن.

الآن سوى أبيات أوردها ابن شهرآشوب في «المناقب»، وفرّقها على أبواب كتابه وفصوله. وقد جمع السيّد الأمين ما تفرّق منها في هذا الكتاب، ورتّبه، فبلغ ثلاثمئة وأربعة وعشرين بيتاً. وكان العلاّمة السماوي قد جمع منها، من كتاب «المناقب»، مئتين وثلاثة عشر بيتاً في ديوان.

يقول العلاّمة الأميني: «والقصيدة تتضمّن غرر فضائل أمير المؤمنين عليه السلام المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي لسان الكتاب والسنّة لا الصّور الخياليّة الشعريّة المطّردة، وفيها الحِجاج والبرهنة الصادقة على إمامة وصيّ النبيّ الأمين، وإنّ ما فهمه من لفظ المولى وهو ذلك الفذُّ من علماء العربيّة، والناقد البصير من أئمّة اللّغة، والأوحد المفرد من رجال الأدب وصاغة الشّعر، لهو الحجّة القويّة على ما ترتئيه الشّيعة في دلالة هذا اللّفظ، وإفادة الحديث بذلك الولاية المطلقة لمولى المؤمنين ـ صلوات الله عليه».

وفي ما يأتي نذكر أبياتاً مختارة منها:

تبدأ القصيدة بقوله:

مـا بَـالُ عَيْنِـك ثـرَّةَ الإنسـان ... عَبْـرى اللِّحـاظ سقيمـة الإنسـان

ويقول في مديح أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

نـورٌ تضـيءُ بـه البـلادُ وجُنّـة ... للخـائفيـن وعصمـةُ اللَّهفـانِ
بحـرٌ تـلاطـمُ حـافتـاه بنـائـل ... فيـه: القـريـبُ ومـن نـأى سيّـانِ
أحيـا بـه سنَـنَ النبـيِّ وعـدلـه ... فـأقـام دار شـرائـع الإيمـانِ
صلّـى الإلـهُ علـى ابـن عـمِّ محمّـدٍ ... منـهُ صـلاةَ تغمّـدٍ بحنـانِ
ولـه إذا ذُكـر الغـديـرُ فضيلـةٌ ... لـم نـنسَهـا مـا دامـتِ المَلَـوانِ
قـام النّبـيُّ لـه بشـرحِ ولايـةٍ ... نـزلَ الكتـابُ بهـا مـن الـديّـانِ
إذ قـالَ: بلّـغ مـا أُمـرتَ بـه وثـقْ ... منهـم بعصمـةِ كـالـئٍ حنّـانِ
فـدعـا الصـلاةَ جمـاعـةً وأقـامَـهُ ... عَلَمـاً بفضـلِ مقـالـةٍ غـرّانِ
نـادى: ألسـتُ وليّكـم؟ قـالـوا: بلـى ... حقّـاً فقـال: فـذا الـولـيُّ الثـانـي

ودعـا لـهُ ولمـن أجـاب بنصـرهِ ... ودعـا الإلـهَ علـى ذوي الخـذلانِ
نـادىٰ ولـم يـكُ كـاذبـاً: بـخٍّ أبـا ... حسـنٍ ربيـعَ الشّيـبِ والشبّـانِ
أصبحتَ مـولى المؤمنيـنَ جماعةً ... مـولـى إنـاثِهـمُ مـع الـذّكـرانِ
لمـن الخـلافـةُ والـوزارةُ هـل همـا ... إلاّ لــهُ وعليـهِ يتّفقـانِ؟
أوَ مـا همـا فـي مـا تـلاه إلهُنـا ... فـي مُحْكَـمِ الآيـاتِ مكتـوبـانِ
أُدلـوا بحجّتكـم وقـولـوا قـولكـم ... ودعـوا حـنـيـثَ فـلانـةٍ وفـلانِ
هيهـات ضـلَّ ضـلالكـم أن تهتدوا ... أو تفهمـوا المقطّـع السّلطـانِ[1]

* * *

(١) أعيان. . .، م. س.، ٣/ ٣٢٣ ـ ٣٢٦، الغدير، م. س.، ٣/ ٤٧٥ و٤٧٦.
ثرّة: غريرة، إنسان العين: سوادها. في الغدير:
مـا بـال عينـك ثـرّة الأجفـان ... عبـرى اللّحـاظ سقيمـة الإنسـان

(١٨)
محمّد بن أحمد بن عبدالله المُفجّع

التّعريف بالشّاعر

أبو عبدالله، محمَّد بن أحمد بن عبدالله[١]، البصري، الكاتب، النحوي، الشّاعر. تذكر كتب تاريخ الأدب أنّه كان من كبار النّحاة، ومن الشّعراء البارزين في عصره، وذكر ابن النّديم أنّ شعره في مئة ورقة. وكان أبو عبدالله الأكفاني راويته.

عدَّه ابن شهرآشوب، في «المعالم»، من شعراء أهل البيت المقتصدين[٢]. وقال عنه صاحب «الغدير»: «من المعدودين من أصحابنا الإماميّة، مدحوه بحسن العقيدة وسلامة المذهب وسداد الرّأي»[٣].

وُلد في البصرة، وتوفّي فيها، في عام ٣٢٧هـ.، كما في «معجم الأدباء»، نقلاً عن تاريخ مُعَاصِره أبي محمَّد عبدالله بن بشران. قال: «كانت وفاته قبل وفاة والدي بأيّام يسيرة، ومات والدي في يوم السّبت لعشرٍ خلون من شعبان سنة سبع وعشرين وثلاثمئة»[٤].

---

(١) في فوات الوفيّات: محمّد بن محمّد، ١/ ١٢٩ و١٣٠، وفي معجم الأدباء: محمّد بن أحمد بن عبيدالله، ١٧/ ٢٠٢.
(٢) أعيان...، م.س.، ٩/ ١١٣.
(٣) الغدير، م.س.، ٣/ ٤٩٣. ترجمة المفجّع في الغدير، ص ٤٨٣ ـ ٥٠٠، وإليها نحيل عندما نذكر ما قاله صاحب الغدير.
(٤) نفسه، ٣/ ٤٩٩.

كـان، كما يقـول صـاحـب «الغـديـر»، «كـلّ جنـوحـه إلـى أئمّة أهل البيـت عليهم السلام، وقـد أكثـر فـي شعره من الثّناءِ عليهم، والتفجُّع لما انتابهـم من المصـائـب والـفـوادح، فلـم يـزل علـى ذلـك حتى لقَّبه مناوئوه، المتنابزون بالألقاب، بـ «المفجّع»، وإليه يوعز بقوله:

إن يَكُـنْ قيـل لـي: المُفَجَّـع نَبْـزاً فَلَعَمْــري أنــا المُفَجَّــع همَّــا

ثـمَّ صـار لـقبـاً لـه حتَّى عنـد أوليائـه لـذلك السبب المذكور، كما قال النجاشي والعلاَّمة، ولبيت قـاله كمـا في «معجـم الشّعراء» للمرزباني كأنَّه يريد البيت المذكور آنفاً [1].

ويقول السيِّد الأمين: «لقّب بالمُفَجَّع لبيت قاله من شعره:

زفــراتٌ تَقْتَــادنــي عنــد ذكــرا ك، وذكــراك مــا تــريـمُ فــؤادي
وسُـرُوري قـد غـاب عنِّـي مُـذْ غبـ ـت، فهـل كنتمـا علـى ميعـاد؟
حــاربتنــي الأيَّــامُ فيــك بنصلـ ـين: بسيـف النَّوى وسهـم البعـاد
ليـس لـي مفــزعٌ سـوى عبـراتٍ من جُفـونٍ مكحـولـةٍ بـالسُّهـاد»[2]

ويبـدو أنَّـه ارتـضى هـذا اللَّـقب بعدمـا صـار معـروفاً به، فنقرأ له بيتين يخاطب بهما أبا عبدالله الرّيدي يطلب فيهمـا ألاّ يقـرِّعـه بذنوبه، بعدما كان قد عفا عنها:

قــلْ لمــن كــان قــد عفــا عــن ذنــوب المفجَّــع
لا تعــد ذكــر مــا مضــى مَــن عفــا لــم يُقــرِّع[3]

كـان المفجَّـع، كمـا يـروي أبو محمَّد الأهوازي في تاريخه، ونقله عنه القفطي: «شـاعـر البصـرة وأديبها، وكان يجلس في الجامع بالبصرة، فيُكْتَب

---

(١) نفسه، ٣/ ٤٩٣.
(٢) أعيان. . ، م.س. ، ٩/ ١١٣.
(٣) نفسه، ٩/ ١١٤.

عنـه، ويُـقـرأ عليـه الشّعـر واللُّغة والمصنَّفات. وامتنع من الجلوس مدّة لسبٌ لحقه من بعض من حضـره، فخُوطب في ذلك، فقال: لو استطعت أن أُنسيهم اسمي لفعلت»[١].

صاحَبَ ابـن دريـد، وقـام مقـامـه فـي التأليف والإملاء، وكانت بينهما مهاجاة، وصاحَبَ الباهلي المصري الذي كان يناقض ابن دريد. وكان ينادم أبا القـاسـم نصر بـن أحمـد البصـري الخبـزأرزي الشّـاعر المجيد (المتوفّى سنة ٣٢٧هـ.)، وأبـا الحسيـن المعـروف بابن لنكك البصري النحوي، وأبا عبدالله الأكفائي الشاعر البصري، وكان هذا راويته كما مرّ قبل قليل.

غديريّته

للمفجّـع قصيـدةٌ مشهـورةٌ فـي مـدح أمير المؤمنين، الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، منها:

أيّهـا الـلاّئمـي لحبّـي عليّـاً ... قُـمْ ذميمـاً إلـى الجحيـم خَـزِيّـا
أبخيـرِ الأنـام عـرّضـت لا زلـ ... ـتَ مَـذُوداً عـن الهـدى مَـزْويّـا
أشبـه الأنبيـاء كهـلاً وزَوْلاً[٢] ... وفطيمـاً وراضعـاً وغـذِيّـا
كـان فـي علمِـهِ كـآدمَ إذ عُلِّـ ... ـمَ شـرحَ الأسمـاءِ والمكنيّـا
وكنـوحٍ نجـا مـن الهُلْـك لمّـا ... سُيِّـرَ فـي الفُلْـكِ إذ عـلا الجوديّا
كـاعتـزال الخليـل آزر فـي اللّـ ... ـهِ وهُجْـرانـه أبـاه مليّـا

* * *

وعلـيٌّ لمّـا دعـاهُ أخـوهُ ... سبـقَ الحـاضـريـن والبـدويّـا
ولـه مـن أبيـه ذي الأيـدي إسمـا ... عيـلَ شَبْـهٌ مـا كـان عنّـي خفيّـا
أنّـه عـاونَ الخليـلَ علـى الكعـ ... ـبـةِ إذ شـادَ ركْنَهـا المبنيّـا

---

(١) نفسه، ٩/ ١١٤.

(٢) الزَّوْل: الغلام الظّريف (المؤلّف).

ولقد عاون الوصيُّ حبيبَ اللّـ ـهِ إذ يغسلانِ منها الصُّفيّا[1]
رام حَمْلَ النبيِّ كي يَقْلَعَ الأصـ ـنامَ عن سطحها المثولَ الجُثيّا
فحناهُ ثقلُ النبوّةِ حتّى كاد ينآد[2] تحته مثنيّا
فارتقى منكبَ النبيِّ عليٌّ صنوُهُ ما أجلّ ذاكَ رُقيّا
فأماطَ الأوثانَ عن ظاهرِ الكعـ ـبةِ ينفي الأرجاسَ عنها نَفِيّا
ولو أنَّ الوصيَّ حاول مسَّ النّـ ـجمِ بالكفِّ لم يجدْهُ قَصيّا

* * *

لم يكن أمرُه بدوحاتِ خمٍّ مشكلاً عن سبيله ملويّا
إنَّ عهدَ النبيّ في ثَقَلَيهِ حُجّةٌ كنتُ عن سواها غنيّا
نَصَبَ المرتضى لهمْ في مقامٍ لم يكنْ خاملاً هناكَ دَنِيّا
عَلَماً قائماً كما صدعَ البدرُ تماماً دُجُنّةً أو دُجيّا
قال: هذا مولىً لمن كنت مولاهُ جَهاراً يقولها جهوريّا
والِ يا ربِّ من يواليه وانصرْهُ، وعادِ الذي يعادي الوصيّا
إنّ هذا الدُّعا لمنْ يتعدّى راعياً في الأنامِ أم مرعيّا
لا يُبالي أماتَ موتَ يهودٍ مَنْ قلاهُ أو مات نصرانيّا
مَنْ رأى وجهَهُ كمن عَبَدَ اللهَ مُديمَ القنوتِ رهبانيّا
كان سُؤْلَ النبيِّ لمّا تمنّى حين أهدوه طائراً مشويّا
إذ دعا اللهَ أن يسوقَ أحبَّ الخلق طُرّاً إليه سوقاً وحيّا
فإذا بالوصيّ قد قرع البا بَ يريدُ السَّلامَ ربّانيّا
فثناه عن الدّخول مراراً أنسٌ حين لم يكن خزرجيّا
وذخيراً لقومه وأبى الرّحـ ـمانُ إلاّ إمامَنا الطالبيّا
ورمى بالبياضِ من صدَّ عنهُ وحبا الفضل سيّداً أريحيّا

(١) الصُّفيّا: جمع صفاة، وهي الحجر الصّلد الضّخم، يريد بذلك الأصنام.
(٢) إنآد: انحنى وناه.

ويتحدَّث صاحب «الغدير» عن هذه القصيدة، فيقول:

هذه القصيدة من غرر الشّعر ونفيسه، توجد مقطّعةً في الكتب، ونحن عثرنا عليها مشروحةً بذكر الأحاديث المتضمّنة لمفاد كلّ فضيلةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام، نظمها في بيت أو بيتين أو أكثر. يبلغ عدد أبياتها مئة وستّين بيتاً، ويقول السيّد الأمين: «وله قصيدة الأشباه تناهز ثلاثمئة بيت»[1]، ويضيف صاحب «الغدير»، فيقول: «غير أنَّ فيها أبياتاً من الدّخيل تنافي مذهب المفجّع ومعتقده ألصقها بالقصيدة بعض أضداده، وأدخل شرحها الملائم لمعنى الأبيات في الشّرح، كما جاء في سيّد البطحاء أبي طالب عليه السلام والد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وفي أبي إبراهيم الخليل ممّا لا يقول به أحدٌ من الأصحاب، فكيف بالمفجّع الذي هو من رجالات الشّيعة وعلمائها وشعرائها المتبصّرين؟

وهذه القصيدة تُسمّى بـ «الأشباه». قال الحموي في «معجم الأدباء»: «إنَّ له قصيدةً يسمّيها بالأشباه يمدح فيها عليّاً». ثمّ قال: «له قصيدته «ذات الأشباه»، وسُمّيت بذات الأشباه لقصده في ما ذكره من الخبر الذي رواه عبد الرزّاق، عن معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو في محفل من أصحابه: «إن تنظروا إلى آدم في علمه، ونوح في همّه، وإبراهيم في خُلقه، وموسى في مناجاته، وعيسى في سنّته، ومحمّد في هديه وحلمه، فانظروا إلى هذا المُقبل». فتطاول النّاس فإذا هو عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، فأورد المفجّع ذلك في قصيدته، وفيها مناقب كثيرة أوّلها... ثمّ ذكر منها ثمانية عشر بيتاً.

حديث الأشباه

هذا الحديث الذي رواه الحموي في معجمه نقلاً عن «تاريخ ابن بشران» قد اتّفق على روايته الفريقان، غير أنّ له ألفاظاً مختلفة نذكر منها ما أخرجه

(١) أعيان...، م.س.، ٩/ ١١٣.

إمام الحنابلة أحمد، ونحيل إلى المصادر الأُخرى التي ورد فيها(١):

(١) أخرجه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ (المتوفّى ٤٥٨هـ.) في فضائل الصّحابة. وأخرجه الحافظ أحمد بن محمّد العاصميّ، في كتابه: «زين الفتى»، في شرح سورة «هل أتى»، بإسناده، من طريق الحافظ عبيدالله بن موسى العبسي عن أبي الحمراء.
ثمّ قال: أمّا آدم عليه السلام فإنّه وقعت المشابهة بين المرتضى وبينه بعشرة أشياء: أوّلها: بالخلق والطّينة، والثاني: بالمكث والمدّة، والثالث: بالصّاحبة والزّوجة، والرابع: بالتّزويج والخلعة، والخامس: بالعلم والحكمة، والسادس: بالذّهن والفطنة، والسابع: بالأمر والخلافة، والثامن: بالأعداء والمخالفة، والتاسع: بالوفاء والوصيّة، والعاشر: بالأولاد والعترة.
ثمّ بسط القول في هذه الأمور، فقال: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين نوح بثمانية أشياء: أوّلها: بالفهم، والثاني: بالدّعوة، والثالث: بالإجابة، والرابع: بالسّفينة، والخامس: بالبركة، والسادس: بالسّلام، والسابع: بالشّكر، والثامن: بالإهلاك.
ثمّ بيّن وجه الشّبه في هذه كلّها إلى أن قال: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين إبراهيم الخليل بثمانية أشياء: أوّلها: بالوفاء، والثاني: بالوقاية، والثالث: بمناظرته أباه وقومه، والرابع: بإهلاك الأصنام بيمينه، والخامس: ببشارة الله إيّاه بالولدين اللذين هما من أصول أنساب الأنبياء عليهم السلام، والسادس: باختلاف أحوال ذرّيته من بين محسن وظالم، والسابع: بابتلاء الله تعالى إيّاه بالنفس والولد والمال، والثامن: بتسمية الله إيّاه خليلاً حتّى لم يؤثر شيئاً عليه.
ثمّ فصّل وجه الشبه فيها إلى أن قال: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين يوسف الصدّيق بثمانية أشياء: أوّلها: بالعلم والحكمة في صغره، والثاني: بحسد الأخوة له، والثالث: بنكثهم المهود فيه، والرابع: بالجمع له بين العلم والملك في كبره، والخامس: بالوقوف على تأويل الأحاديث، والسادس: بالكرم والتجاوز عن إخوته، والسابع: بالعفو عنهم وقت القدرة عليهم، والثامن: بتحويل الديار.
ثمّ قال، بعد بيان وجه الشبه فيها: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين موسى الكليم عليه السلام بثمانية أشياء: أوّلها: الصّلابة والشدّة، والثاني: بالمحاجّة والدّعوة، والثالث: بالعصا والقوّة، والرابع: بشرح الصّدر والفسحة، والخامس: بالأخوّة والقربة، والسادس: بالودّ والمحبّة، والسابع: بالأذى والمحنة، والثامن: بميراث الملك والإمرة.
وبيّن وجه التشبيه فيها، ثمّ قال: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين داود بثمانية أشياء: أوّلها: بالعلم والحكمة، والثاني: بالتقوى على إخوانه في صغر سنّه، والثالث: بالمبارزة لقتل جالوت، والرابع: بالقدر معه من طالوت إلى أن أورثه الله ملكه، والخامس: بإلانة الحديد له، والسادس: بتسبيح الجوامد معه، والسابع: بالولد الصّالح، والثامن: بفصل الخطاب.
وقال بعد بيان المشابهة فيها: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين سليمان بثمانية أشياء: أوّلها: بالفتنة والابتلاء في نفسه، والثاني: بتسليط الجسد على كرسيّه، والثالث: بتلقين الله إيّاه في =

= صغره بما استحقّ به الخلافة، والرابع: بردّ الشمس لأجله بعد المغيب، والخامس: بتسخير الهواء والرّيح له، والسادس: بتسخير الجنّ له، والسابع: بعلمه منطق الطّير والجوامد وكلامه إيّاه، والثامن: بالمغفرة ورفع الحساب عنه.
وبيّن وجه التشبيه ثمّ قال: ووقعت المشابهة بين المرتضى ﷺ وبين أيّوب بثمانية أشياء: أحدها: بالبلايا في بدنه، والثاني: بالبلايا في ولده، والثالث: بالبلايا في ماله، والرابع: بالصبر على الشدائد، والخامس: بخروج الجميع عليه، والسادس: بشماتة الأعداء، والسابع: بالدّعاء لله تعالى فيما بين ذلك وترك التواني فيها، والثامن: بالوفاء للنّذر والاجتناب عن الحنث.
وقال بعد بيان وجه المشابهة فيها: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين يحيى بن زكريّا بثمانية أشياء: أوّلها: بالحفظ والعصمة، والثاني: بالكتاب والحكمة، والثالث: بالتسليم والتحيّة، والرابع: ببرّ الوالدين، والخامس: بالقتل والشّهادة لأجل امرأة مفسدة، والسادس: بشدّة الغضب والنّقمة من الله تعالى على قتله، والسابع: بالخوف والمراقبة، والثامن: بفقد السميّ والنظر له في التسمية.
ثمّ قال بعد بسط الكلام حول التشبيه فيها: ووقعت المشابهة بين المرتضى وبين عيسى بثمانية أشياء: أوّلها: بالإذعان لله الكبير المتعال، والثاني: بعلمه بالكتاب طفلاً ولم يبلغ مبلغ الرّجال، والثالث: بعلمه بالكتابة والخطابة، والرابع: بهلاك الفريقين فيه من أهل الضلال، والخامس: بالزّهد في الدنيا، والسادس: بالكرم والإفضال، والسابع: بالإخبار عن الكوائن في الاستقبال، والثامن: بالكفاءة. ثمّ بيّن وجه الشّبه فيها.
وهذا الكتاب من أنفس كتب السنّة، فيه آيات العلم وبيّنات العبقريّة. ومن أسفٍ أن شُغل القوم عن نشر مثل هذه النفائس.
وأخرجه أخطب الخطباء الخوارزميّ المالكيّ (المتوفّى ٥٦٨هـ.) بإسناده في «المناقب»: ص ٨٣، ح٧٠، ص ٨٨، ح٧٩، ص ٣١٠، ح٣٠٩، من طريق البيهقي، عن أبي الحمراء.
وأخرجه أبو سالم كمال الدّين محمَّد بن طلحة الشافعيّ (المتوفّى ٥٦٢هـ.) رواه في «مطالب السؤول» (ص ٢٢)، نقلاً عن كتاب «فضائل الصّحابة» للبيهقي.
وأخرجه عزُّ الدّين بن أبي الحديد (المتوفّى ٦٥٥هـ.)، في «شرح نهج البلاغة» (٧/ ٢٢٠، خطبة ١٠٨). ورواه في (٩/ ١٦٨، خطبة ١٥٤) من طريق أحمد والبيهقي، نقلاً عن مسند الأوّل وصحيح الثاني.
وأخرجه الحافظ أبو عبدالله الكنجيّ الشافعيّ (المتوفّى ٦٥٨هـ.)، أخرجه في «كفاية الطّالب» (ص ١٢٢، باب ٢٣)، بإسناده عن ابن عبّاس.
وأخرجه الحافظ أبو العبّاس محبُّ الدّين الطبريّ (المتوفّى ٦٩٤هـ.)، رواه في «الرّياض النّضرة» (٣/ ١٧٢).

أخـرج إمـام الحنـابلة أحمد، عن عبد الرزّاق، بإسناده المذكور، بلفظ: «مـن أراد أن ينظـر إلـى آدم فـي علمه، وإلى نوح في فهمه، وإلى إبراهيم في خُلقه، وإلى موسى في مناجاته، وإلى عيسى في سنّته، وإلى محمّد في تمامه وكماله، فلينظر إلى هـذا الـرَّجل المقبل، فتطاول النّاس فإذا هم بعليٍّ بن أبي طالب كأنّما ينقلعُ من صَبَب، وينحطُّ من جبل».

نماذج من شعره

كـان المفجّع كاتباً شاعراً بصيراً بالغريب، وذكر ابن النّديم أنَّ شعره في مئة ورقـة، ولـه فـي جمـاعـةٍ مـن كبار أهل الأهواز مدائح كثيرة وأهاجٍ. وله قصيدة في أبي عبـدالله بن درستـويـه يرثيه فيها، وهو حيّ، يقول فيها، ويُلقِّبه بدهن الآجرّ:

مـات دُهْـن الآجـرّ فـاخضـرَّت الأر ... ضُ، وكـادت جبـالهـا لا تـزول

ويقول في مدح عبدالله هذا:

يا مَنْ أطَالَ يدي؛ إذْ هَاضَني زمني ... وصرتُ، في المصر، مجفوّاً ومطّرحا
أنقـذتنـي مـن أنـاسٍ عَقْـدُ دينهـمُ ... قَتْلُ الأديـب إذا مـا عِلْمُـهُ اتّضحـا

ويذكر صاحب «الغدير» نماذج من شعره اختارها من غير مصدر، وهي:

= وأخرجه شيخ الإسلام الحمّوئيّ (المتوفّى ٧٢٢هـ.)، أخرجه في فرائد السمطين (١/ ١٧٠، ح١٣١، باب ٣٥) بعدّة أسانيد من طرق الحاكم النيسابوري وأبي بكر البيهقي.
و القاضي عضد الدّين الإيجيّ الشافعيّ (المتوفى ٧٥٦هـ.)، رواه في «المواقف» (ص ٤١٠).
و التفتازاني الشافعيّ (المتوفى ٧٩٢هـ.)، في «شرح المقاصد» (٥/ ٢٩٦).
و ابن الصبّاغ المالكيّ (المتوفى ٨٥٥هـ.) في «الفصول المهمّة» (ص ١٢٠).
و السيّد محمود الآلوسيّ (المتوفّى ١٢٧٠هـ.)، رواه في «شرح عينيّة عبد الباقي العمري» (ص ٢٧).
و الصفوري في «نزهة المجالس» (٢/ ٤٠٧). ذكره ابن الجوزي، وفي حديث آخر ذكره الرّازي في تفسيره (٨/ ٨١).
و السيّد أحمد القادين خاني، في «هداية المرتاب» (ص ١٤٦).

ذكر المرزباني للمفجّع، في مدح أبي الحسن محمّد بن عبد الوهّاب الزينبيّ الهاشميّ، من قصيدة قوله:

للزينبيِّ على جلالةِ قدرِهِ … خُلُقٌ كطَعم الماءِ غيرُ مُزنَّدِ[١]
وشهامةٌ تُقصي الليوثَ إذا سطا … وندىً يغرِّقُ كلَّ بحرٍ مُزْبِدِ
يحتلُّ بيتاً في ذؤابةِ هاشمٍ … طالتْ دعائمُهُ محلَّ الفرقدِ
حرٌّ يروح المستميحُ ويغتدي … بمواهبٍ منهُ تروحُ وتغتدي
فإذا تحيَّفَ مالَهُ إعطاؤه … في يومه نَهَكَ البقيَّةَ في غدِ[٢]
بضياءِ سنَّته المكارمُ تهتدي … وبجود راحتِهِ السَّحائبُ تقتدي
مقدارُ ما بيني وما بينَ الغنى … مقدارُ ما بيني وبين المربدِ[٣]

وفي «معجم الأدباء»[٤]، نقلاً عن تاريخ أبي محمَّد عبدالله بن بشران، أنّه قال: دخل المفجّع يوماً إلى القاضي أبي القاسم عليّ بن محمَّد التنوخي، فوجده يقرأ معاني الشِّعر على العبيسي، فأنشد:

قد قَدِم العُجْبُ على الرُّويسِ … وشارفَ الوهدُ أبا قُبَيْسِ[٥]
وطاول البَقْلُ فروعَ الميسِ … وهبَّت العنزُ لقَرْعِ التيْسِ[٦]
وادَّعت الرومُ أباً في قيسِ … واختلط الناسُ اختلاطَ الحَيْسِ[٧]
إذْ قرأ القاضي حليفُ الكَيْسِ … معانيَ الشِّعرِ على العبيسي

وألقى ذلك إلى التَّنوخي وانصرف.

(١) أي غير بخيل ولا ضيّق الحال (المؤلِّف).
(٢) تحيّف: تنقص. ونهك: أفنى (المؤلّف).
(٣) المربد: فضاء وراء البيوت يرتفق به (المؤلّف).
(٤) معجم الأدباء: ١٧/١٩٨ ـ ٢٠٠.
(٥) الرويس: تصغير روس، وهو السيّئ. يقال: رجل روس، أي رجل سوء. والتصغير للتحقير. الوهد: المنخفض من الأرض (المؤلّف).
(٦) الميس: شجر حرجي أوراقه مسنّنة.
(٧) الحيس: تمر يُخلط بسَمن وأقِط فيعجن، وربّما جعل فيه سويق فيمتزج (المؤلّف).

قال: ومدح أبا القاسم التّنوخي فرأى منه جفاءً، فكتب إليه:

لـو أعـرضَ النّـاسُ كلُّهـمْ وأَبَـوا ... لـم يَنْقصـوا رزقـي الـذي قُسِمـا
كـان ودادٌ فـزال وانصـرَمـا ... وكـان عهـدٌ فبـانَ وانهـدمـا
وقـد صحبنـا فـي عصـرنـا أممـاً ... وقـد فَقَـدْنـا مـن قبلهـم أممـا
فمـا هلكنـا هـزلاً ولا سـاخـتِ الـ ... أرضُ ولـم تَقْطُـرِ السّمـاءُ دمـا
فـي اللهِ مـن كُـلِّ هـالـكٍ خلـفٌ ... لا يـرهـبُ الـدّهـرَ مَـنْ بـه اعتصمـا
حـرٌّ ظنّنـا بـه الجميـلَ فمـا ... حقّـق ظنّـاً ولا رعـى الـذِّمَمـا
فكـان مـاذا مـا كـلُّ معتمـدٍ ... عليـه يـرعـى الـوفـاءَ والكـرمـا
غلطـتُ والنّـاسُ يَغْلَطُـون وهـلْ ... تعـرفُ خلْقـاً مـن غَلْطَـةٍ سَلِمـا؟
مـن ذا إذا أُعطـي السّـدادَ فلـمْ ... يُعـرَفْ بـذنـبٍ ولـم يَـزِلْ قَـدَمـا؟
شلّـت يـدي لِـمْ جلسـتُ عـن تفـهٍ ... أكتـبُ شجـوي وأمتطـي القلمـا
يـا ليتنـي قبلهـا خـرسْـتُ فلـم ... أُعْمِـلْ لسـانـاً ولا فتحـتُ فمـا
يـا زلّـةً مـا أُقِلْـتُ عثـرتَهـا ... أبقَـتْ علـى القلـب والحشـا ألمـا
مـن راعـهُ بـالهـوانِ صـاحبُـهُ ... فعـادَ فيـهِ فنفسَـه ظلمـا

وله قوله:

لنـا صـديـقٌ مليـحُ الـوجـدِ مقتبـلٌ ... وليـس فـي ودِّه نفـعٌ ولا بـركـه
شبّهتـهُ بنهـار الصَّيـفِ يـوسعُنـا ... طـولاً ويمنـعُ منّـا النّـوم والحـركـه

وللمفجّع، كما في شرح ابن أبي الحديد[(١)]، قوله:

إنْ كنـتُ خنتكُـمُ المـودّةَ غـادراً ... أو حِلتُ عن سُنَن المحبِّ الوامقِ
فمسحـتُ فـي قبـح ابـن طلحـةَ إنّـه ... مـا دلّ قـطُّ علـى كمـالِ الخـالـقِ

وله في «معجم الأدباء»[(٢)] ما قاله حين دامت الأمطار وقطعت عن الحركة:

---

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠/٢٠٨، حكمة ٤٧٥.
(٢) معجم الأدباء، ١٧/١٩٧.

يـا خـالـقَ الخلـقِ أجمعينـا   وواهـبَ المـالِ والبنينـا
ورافـعَ السَّبـعِ فـوقَ سبـعٍ   لـم يَستعـنْ فيهمـا مُعينـا
ومـن إذا قـالَ: كـن لشـيءٍ   لـم تقـعِ النّـونُ أو يكـونـا
لا تَسقنـا العـامَ صَـوْبَ غيـثٍ   أكثـرَ مـن ذا فقـد روينـا

وله، وقد سأل بعض أصدقائه أيضاً رقعةً وشعراً له يهنّئه في مهرجانٍ إلى بعضٍ، فقصّر حتى مضى المهرجان، قوله:

إنّ الكتـابَ وإن تضمّـن طيُّـهُ   كُنْـهَ البـلاغـةِ كـالفصيـحِ الأخـرسِ
فـإذا أعـانتْـهُ عنـايـةُ حـامـلٍ   فجـوابُـهُ يـأتـي بنُجْـحٍ مُنفِـسِ
وإذا الـرَّسـولُ وَنـى وقصّـر عـامـداً   كـان الكتـابُ صحيفـةَ المتلمّسِ(١)
قـد فـاتَ يـومُ المهـرجـان فـذكـرُهُ   في الشِّعرِ أبردُ من سخاءِ المفلسِ

فسئـل عـن سخـاء المفلـس، فقال: يَعِـدُ في إفلاسـه بما لا يفي به عند إمكانه.

ومـن مُلَحـه قـولـه لإنسـانٍ أهـدى إليـه طبقاً فيه قصب السكّر والأترنج والنارنج:

إنّ شيطـانَـكَ فـي الظَّـرفِ لشيطـانٌ مَـريـدُ
فلهـذا أنـتَ فيـه تبتـدي ثـمّ تُعيـدُ
قـد أتتْنـا تحفـةٌ منـكَ علـى الحسْـنِ تـزيـدُ
طبـقٌ فيـه قـدودٌ ونهـودٌ وخـدودُ

وذكر له الوطواط في «غرر الخصائص» (ص ٢٧٠) قوله يستنجز به:

أيّهـا السيّـدُ عِـش فـي غبطـةٍ   مـا تغنّـى طـائـرُ الأيـكِ الغَـرِدْ

---

(١) مثل يُضرب للكتاب الذي يحمل الضّرر. والمتلمّس شاعر جاهلي واسمه جرير بن عبد العزّى، بعثه عمرو بن هند بكتاب مختوم إلى عامله على البحرين يأمره فيه بقتله، فتوجّس المتلمّس ممّا في الكتاب وفضّه، فلمّا علم ما فيه ألقاه في الماء وعاد أدراجه.

لـــيَ وعـــدٌ منـــك لا تنكـــرُهُ　　فـــاقضِـــهِ أنجـــزَ حـــرٌّ مـــا وعـــدْ
أنـــتَ أحييـــتَ بمبـــذولِ النّـــدى　　سُنَـــنَ الجـــودِ وقـــد كـــان همـــدْ
فـــإذا صـــالَ زمـــانٌ أو سطـــا　　فعلـــى مثلِـــكَ مثلـــي يعتمـــدْ

ذكر له النويري في «نهاية الأرب» (ص ٧٧):

ظبـــيٌ إذا عَقْـــربَ أصـــداغَـــهُ　　رأيـــتَ مـــا لا يحســـنُ العقـــربُ
تفّـــاحُ خـــدّيـــه لـــه نضـــرةٌ　　كـــأنّـــه مـــن دمعتـــي يشـــربُ

مؤلّفاته

١ ـ كتاب «المنقذ من الإيمان». قال الصفدي، في «الوافي بالوفيّات»: «يشبه كتاب «الملاحن» لابن دريد، وهو أجود منه». ينقل عنه السيوطي، في «شرح المغني» فوائد أدبيّة.

٢ ـ كتاب قصيدته في أهل البيت عليهم السلام.

٣ ـ كتاب «الترجمان في معاني الشّعر». يحتوي على ثلاثة عشر حدّاً؛ وهي: حدّ الإعراب، حدّ المديح، حدّ البخل، حدّ الحلم والرّأي، حدّ الهجاء، حدّ اللّغز، حدّ المال، حدّ الاغتراب، حدّ المطايا، حدّ الخطوب، حدّ النّبات، حدّ الحيوان، حدّ الغزل. قال النجاشي: لم يعمل مثله في معناه.

٤ ـ كتاب «الإعراب».

٥ ـ كتاب «أشعار الجواري» لم يتمّ.

٦ ـ كتاب «عرائس المجالس».

٧ ـ كتاب «غريب شعر زيد الخيل الطائيّ».

٨ ـ كتاب «أشعار أبي بكر الخوارزميّ».

٩ ـ كتاب «سعادة العرب».

* * *

(١٩)
أحمد بن محمّد الضّبّي، المعروف بـ «الصّنوبري»

التّعريف بالشّاعر

أحمد بن محمّد بن الحسن بن مرّار الضبّي الحلبي، المعروف بـ «الصّنوبري» الشّاعر، يكنّى بأبي بكر، وبأبي القاسم، وأبي الفضل.

ينسب الشّاعر إلى «الصّنوبر»، وهو نوع من الشّجر الحرجي، وقد سئل عن ذلك، فقال: كان جدّي الحسن صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون، فجرت له بين يديه مناظرة، فاستحسن كلامه وحدّة مزاجه، وقال له: «إنّك لصنوبريّ الشّكل»، يريد بذلك الذّكاء وحدّة المزاج(١).

تدلُّ حكاية هذه النّسبة على أنَّ الصّنوبريّ ينتمي، من نحوٍ أوّل، إلى أسرةٍ علميّة كان عميدها ذا حضور فاعل في الحياة الثقافيّة، في العصر العبّاسي، إبّان ازدهار هذه الحياة، ومن نحو ثانٍ، إلى أسرةٍ يتّصف عميدها بالذكاء وحدّة المزاج وبالقدرة على المناظرة في مجلس الخليفة المأمون، ولعلَّ الشّاعر ورث هذا كلّه، أو شيئاً منه.

ويذكر الصّنوبريّ هذه النّسبة في شعره، فيكشف عن صفاتٍ في هذا النّوع من الشّجر تجعله يحمد الله على هذا اللّقب، وهو إذ يجسّد هذه الصّفات يظهر مقدرة على وصف الشّجر متميّزة، ولعلّ تفرّده بهذا سبب آخر عزّز نسبته إلى الصّنوبر.

---

(١) الوافي بالوفيّات، م.س.، ٧/ ٣٧٩، أعيان..، م.س.، ٣/ ٩٥، الغدير، م.س.، ٣/ ٥٠٥. وتجد ترجمته كاملةً في الغدير، ص ٥٠٢ ـ ٥١٣.

ذكر له النويري، في «نهاية الأرب»[(١)]، في نسبته هذه، قوله:

وإذا عُـزينـا إلـى الصنـوبـرِ لـم ... نُعْـزَ إلـى خـامـلٍ مـن الخشـبِ
لا بـل إلـى بـاسـقِ الفـروع عـلا ... منـاسبـاً فـي أُرومـةِ الحسـبِ
مثـلِ خيـام الحـريـرِ تحملُهـا ... أعمـدةٌ تحتهـا مـن الـذّهـبِ
كـأنّ مـا فـي ذراه مـن ثمـرٍ ... طيـرٌ وقـوعٌ علـى ذرى القُضُـبِ
بـاقٍ علـى الصّيـف والشّتـاء إذا ... شـابـت رؤوسُ النّبـاتِ لـم يَشِـبِ
محصّـنُ الحَـبِّ فـي جَـواشـن قـد ... أَمِـنَّ فـي لُبسِهـا مـن الحَـرَبِ
حَبٌّ حكى الحُبّ صِين في قُرُبِ الـ ... أصـدافِ حتّـى بـدا مـن القُـرُبِ
ذو نَتّـة مـا يُنـال مـن عنـبٍ ... مـا نيـل مـن طِيبِهـا ولا رُطَـبِ
يـا شجـراً حَبُّـهُ حـدانـيَ أنْ ... أفـدي بـأمّـي محبّـةً وأبـي
فـالحمـد لله إنّ ذا لقـبٌ ... يـزيـد فـي حسنـه علـى النّسـبِ

وتـفـيـد قـراءة شعـره أنّـه كـان يتّصـف بخلـقٍ رفيع، فنجده يخاطب من يذمّه قائلاً:

أيّهـا الحـاسـدُ المعـدّ لـذمّـي ... ذمّ مـا شئـت، ربّ ذمٍّ بحمـدِ
لا فقـدتُ الحسـود مـدّة عمـري ... إن فقـد الحسـود أخيـبُ فقـدِ
كيـف لا أوثـر الحسـود بشكـري ... وهـو عنـوانُ نعمـةِ الله عنـدي

كما أنّـه كان جَلِداً صبوراً يرى أنّ المحن تُظهر فضل الإنسان، يقول في هذا الصّدد:

محنُ الفتى يخبرن عن فضل الفتى ... كـالنّـار مخبـرةٌ بفضـل العنبـرِ

كـان الصّنـوبـريّ شـاعراً من شعراء سيف الدّولة الحمداني، أمير الدّولة الحمدانيّة في حلب، وتذكر كتب تاريخ الأدب أنّه كان يسكن في حلب وفي دمشق، وقدم العراق ومدح أمراءها، وبقي هكذا متنقّلاً إلى أن توفّي في عام ٣٣٤هـ.

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ١١/ ٩٨.

ويبدو أنّه كان مضطرّاً إلى التنقّل في طلب الرّزق، فنقرأ، في شعره، ما يفيد أنّه غادر أرضه عندما لم يجد في منزله قوتاً، وليس من حرّ يستجار به. . .

تقول لي، وكلانا عند فرقتنا ضدّان أدمعنا درٌّ وياقوتُ:
أقم بأرضك هذا العام، قلت لها: كيف المقام، وما في منزلي قوتُ؟
ولا بأرضك حرٌّ يُستجارُ به إلاّ لئيمٌ ومذمومٌ وممقوتُ!

وإن يكن الصّنوبريّ قد مدح سيف الدّولة وأقام في بلاطه، ومدح أمراء آخرين، فإنّه، كما تفيد غير رواية، «كان عالي النّفس، ضنيناً بماء وجهه عن أن يبذله في طلب جوائز ممدوح، صائناً لسانه عن الهجاء، يقول الشّعر تأدّباً لا تكسّباً»[1].

ومن شعره في مدح سيف الدّولة الحمداني:

ما خلتُ قبلك أنّ كلّ فضيلةٍ للنّاس يُسْتجمعن في إنسان
فمتى يطيق لسان شعري مدح مَنْ ما زال ممدوحاً بكلّ لسان

وتفيد كتب تاريخ الأدب أنّ الصّنوبريّ شاعر مجيد مطبوع مكثر، وأنّه من فحول الشّعراء، ويجمل صاحب «الغدير» أقوال مؤرّخي الأدب ونقّاده فيه فيقول: «شاعر شيعيٌّ مجيد، جمع شعره بين طرفي الرقّة والقوّة، ونال من المتانة وجودة الأسلوب حظّه الأوفر، ومن البراعة والظّرف نصيبه الأوفى، وتواتر في المعاجم وصفه بالإحسان تارةً، وبه وبالإجادة أُخرى، وإنّ شعره في الذّروة العليا ثالثة وكان يُسمّى حبيباً الأصغر [أبو تمّام هو حبيب بن أوس الطّائي] لجودة شعره. وقال الثعالبي: تشبيهات ابن المعتزّ، وأوصاف كشاجم، وروضيّات الصنوبريّ، متى اجتمعت اجتمع الظّرف والطّرف، وسمع السّامع من الإحسان العجب.

وله في وصف الرّياض والأنوار تقدّم باهر، وذكر ابن عساكر: أنّ أكثر شعره فيه. وقال ابن النّديم في «فهرسته»: إنّ الصّولي عمل شعر الصنوبريّ

(١) أعيان. . .، م.س.، ٣/٩٥.

على الحروف في مثني ورقة. فيكون المدوّن على ما التزم به ابن النّديم من تحديد كلّ صفحة من الورقة بعشرين بيتاً ثمانية آلاف بيت، وسمع الحسن بن محمّد الغسّاني من شعره مجلّداً [(١)].

يجمع مؤرّخو الشّعر على أنّ الصّنوبريّ كان لا يجارى في وصف الأماكن والأنهار والرّياض والأزهار والمتنزهات...، وقد جعله هذا التفوّق يُعَدُّ من بين شعراء العربيّة الكبار، فقد قال الخوارزمي: «من روى حوليّات زهير واعتذارات النّابغة وأهاجي الحطيئة وهاشميّات الكميت ونقائض جرير وخمريّات أبي نواس وتشبيهات ابن المعتزّ وزهديّات أبي العتاهية ومراثي أبي تمّام ومدائح البحتري وروضيّات الصّنوبريّ ولطائف كشاجم، ولم يخرج إلى الشّعر، فلا أشبَّ الله قرنه»[(٢)].

وقد أُخذ عليه إكثاره من النّظم وسرعته فيه، ما أدّى إلى ركاكة، فأجاب بما يفيد أنّ لكلّ شاعر «سقطاته» الشعريّة، ومن الأخبار التي تفيد ذلك، ما يأتي:

لقيه المتنبّي مرّة، فقال له: أنت صاحب «بغادين»؟ يريد قصيدته:

شَرِبْنَا في بَغَادين ... على تلك الميادين...

لما فيها من المجون والخلاعة، فقال له الصّنوبريّ: أنت صاحب «الطّرطبّة»، يريد قصيدته:

ما أنصف القومُ ضبّة ... وأمّه الطُّرطبّة

لما فيها من اللّين والركاكة[(٣)].

ويبدو أنّ قول الشّعر في الرّياض والمتنزهات كان هاجساً عند الصّنوبريّ، ومن الأخبار التي تفيد ذلك خبر يذكر فيه أنّ طيفاً أتاه في المنام،

(١) نفسه، والغدير، م.س.، ٣/ ٥٠٣ و٥٠٤.
(٢) أعيان...، م.س.، ٣/ ٩٦.
(٣) نفسه، ٣/ ٩٥ و٩٦.

وأنشده شعراً في مكان ما كان قد رآه ولا عرفه، وهذا يدلّ على أنّ الأمكنة ملكت على الشّاعر نفسه، وسكنت في حناياه، فصار يقول فيها يقظاً وغافياً، والخبر المذكور هو:

حُكي عن الصّنوبريّ أنّه قال: بتُّ ليلةً بالنّاعورة من حلب، فرأيت في النّوم كأنّ إنساناً أتاني وقال: انظر من أتاك، فإذا إنسان كنت آلفهُ بحلب وهو ينشدني:

لا خيرَ في الطّيْفِ إلاّ طيف مشتاقِ ... مناضل بين إزعاجٍ وَإِمْلاقِ
سرى إلى دير إسحاق وربّتما ... قضى لبانته في دير إسحاقِ
كم ليلةٍ بتُّ بالنّاعورةِ انكشفتْ ... فيها سرائرُ أحشاءٍ وآماقِ
زارَ الخيالُ فأنبانا بزورته ... وهنا عناق وشاحاتٍ وأطواقِ

فانتبهت، فكتبتها، ثمّ ذكرتها لإخواني وأنشدتهم الشّعر وقلت لهم: نحن بالنّاعورة، ودير إسحاق فلست أعرفه، فقالوا: هو قريبٌ من حمص، وما كنت رأيته ولا عرفته قطّ[1].

تشيُّعه

يعدّ ابن شهرآشوب، في «المعالم»، «الصّنوبريّ» من شعراء أهل البيت. ومدائحه ومراثيه فيهم عليهم السلام كثيرة. وفي هذا الصّدد يقول الصفدي: وللصنوبريّ «ديوان مشهور، وفيه مراثٍ جيّدة في الحسين (رض)»، ومن عجبٍ أن يتبع هذا القول مباشرةً بقوله: «ومن شعره في الورد»[2]، ويقدّم نماذج من ذلك، ويثبت في نهاية ترجمته أبياتاً للشّاعر في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، مسوّغاً ذلك بقوله: «إنّما أثبت هذه الأبيات، على ما فيها من الغريب، لأجل هذا [البيت] الأخير، فإنّه تخيّلٌ غريبٌ وتشبيهٌ عجيبٌ إلى

(١) الوافي بالوفيّات، م.س.، ٧/ ٢٨٢.
(٢) نفسه، م.س.، ٧/ ٢٧٩.

الغـايـة»[1]، فكـأنّ تقـديـم انمـوذج مـن شعـر شـاعـرٍ مجيـد، في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، يحتـاج إلـى تسـويـغ: «تخيّل غريب وتشبيـه عجيب»! ولعلّ هـذا الـواقـع هو ما جعل كثيراً من شعراء الشّيعة يكثرون من أمثال هذا المسوّغ في شعرهم ليجبروا الرّواة والمؤلّفين، أمثال الصّفدي، على ذكره.

ويقـول صـاحـب «الغدير» في هذا الصّدد: ويؤكّد ما ذكرنا للمترجَم من المـذهـب شـدّة الصّلـة بينـه وبيـن كشـاجم، المسلّم تشيّعه، ويؤكّد المؤاخاة والولاء الخالص بينهما قول كشاجم في الثّناء عليه:

لـي مـن أبـي بكـرٍ أخـي ثقـةٍ ... لـم أستـرِبْ بـإخـائِـهِ قـطُّ
مـا حـالَ فـي قـربٍ ولا بُعـدٍ ... سيّـان فيـه التّـوبُ والشّـطُّ
جسمـانِ والـرّوحـانِ واحـدةٌ ... كـالنّقطتيـن حـواهمـا خـطُّ
فـإذا افتقـرتُ فلـي بـه جِـدَةٌ ... وإذا اغتـربـتُ فلـي بـه رَهْـطُ
ذاكـرْهُ أو حـاوِلْـهُ مختبـراً ... تـرَ منـه بحـراً مـا لـه شـطُّ
فـي نعمـةٍ منـه جلبْـتُ بهـا ... لا الشّيـبُ يبلغُهـا ولا القـرطُ
وبـدلـةٍ بيضـاءَ ضـافيـةٍ ... مثـلِ المـلاءة حـاكهـا القِبْـطُ
متـذلّـلٌ سهـلٌ خـلائقُـهُ ... وعلـى عـدوّ صـديقِـهِ سَلْـطُ
ونتـاجُ مغنـسـاهُ متمّمـةٌ ... ونتـاجُ مغنـى غيـره سَقْـطُ
وجِنـانُ آدابٍ مُثمّـرةٌ ... مـا شـانهـا أثَـلٌ ولا خَمْـطُ
وتـواضـعٌ يـزداد فيـه عـلاً ... والحُـرُّ يعلـو حيـن ينحـطُّ
وإذا امـروٌ شِيبَـتْ خـلائقُـهُ ... غـدراً فمـا فـي وُدّه خَلْـطُ

وقصيدته الأُخرى، وقد كتبها إليه:

ألا أبلـغْ أبـا بكـرٍ ... مقـالاً مـن أخٍ بَـرِّ
ينـاديـكَ بـإخـلاصٍ ... وإن نـاداكَ عـن عقـرِ

---

(١) نفسه، ٧/ ٣٨٢ و٣٨٣.

أظـــنُّ الـــدّهـــرَ أعـــداك ... فـــأخلـــدتَ إلـــى الغـــدرِ
فمـــا تـــرغـــبُ فـــي وصـــلٍ ... ولا تُعـــرضُ مـــن هَجْـــرِ
ولا تُخْطِـــرُنـــي منـــكَ ... علـــى بـــالٍ مـــن الـــذّكـــرِ
أتنســـى زمنـــاً كنّـــا ... بـــه كـــالمـــاءِ فـــي الخمـــرِ
أليفيـــنِ حليفيـــن ... علـــى الإيســـارِ والعُسْـــرِ
مكبّيـــنِ علـــى اللّـــذّا ... تِ فـــي الصّحْـــوِ وفـــي السّكـــرِ
نُـــرى فـــي فَلَـــك الآدا ... بِ كـــالشّمـــسِ وكـــالبـــدرِ
كمـــا ألّفـــتِ الحكمـــ ... ـــةُ بيـــن العـــودِ والـــزمـــرِ
فَـــألهتْـــكَ بســـاتيـــنُـــ ... ـــكَ ذاتُ النّـــوْرِ والـــزّهـــرِ
ومـــا شيّـــدتَ للخلـــوَ ... ةِ مـــن دارٍ ومـــن قصْـــرِ

ونقدِّم، في ما يأتي، نماذج من شعره في أهل البيت عليهم السلام:

غديريّته

مـا فـي المنـازلِ حـاجـةٌ نقضيهـا ... إلاّ السّـلامُ وأدمـعٌ نـذريهـا
وتفجّـعٌ للعيـنِ فيهـا حيـث لا ... عيـشٌ أوازيـه بعيشـيَ فيهـا
أبكي المنازلَ وهي لو تدري الذي ... بحـثَ البكـاءَ لكنـتُ أستبكيهـا
بـالله يـا دمـعَ السّحـائـبِ إسقهـا ... ولئـن بَخِلـتَ فـأدمعـي تسقيهـا
يـا مغـريـاً نفسـي بـوصـفِ عـزيـزةٍ ... أغـريـتَ عـاصيـةً علـى مغـريهـا
لا خيـرَ فـي وصـفِ النّسـاءِ فـأعفني ... عمّـا تُكلّفُنيـهِ مـن وصفِهـا
يـا رُبَّ قـافيـةٍ حـلا إمضـاؤهـا ... لـم يَحـلُ ممضـاهـا إلـى مُمضيهـا
لا تُطْمِعَـنَّ النّفـسَ فـي إعطـائِهـا ... شيئـاً فتطلـبَ فـوق مـا تُعطيهـا
حـبُّ النبـيِّ محمّـدٍ ووصيّـهِ ... مَـعْ حـبِّ فـاطمـةٍ وحـبِّ بنيهـا
أهـلِ الكسـاءِ الخمسـةِ الغـرر التـي ... يبنـي العـلا بعـلاهـمُ بـانيهـا
كـم نعمـةٍ أوْلَيـتَ يـا مـولاهـمُ ... فـي حبّهـمْ فـالحمـدُ للمـوليهـا
إنّ السّفـاهَ بشُغـلِ مـدحـي عنهـمُ ... فيحـقُّ لـي أن لا أكـونَ سفيهـا

هم صفوةُ الكرمِ الذي أصفاهمُ ... وُدّي وأصفيتُ الذي يُصفيها
أرجو شفاعتهمْ فتلكَ شفاعةٌ ... يلتذُّ بردَ رجائِها راجيها
صلّوا على بنتِ النبيّ محمّدٍ ... بعد الصّلاةِ على النّبيّ أبيها
وابكوا دماءً لو تشاهدُ سفكَها ... في كربلاءَ لَما وَنَتْ تَبكيها
تلكَ الدّماءُ لَوَ انّها تُوقى إذن ... كانتْ دماءُ العالمينَ تقيها
لو أنّ منها قطرةً تُفدى إذن ... كنّا بنا وبغيرنا نَفديها
إنَّ الذينَ بغوا إراقتها بغوا ... مشؤومةَ العُقبى على باغيها
قُتِلَ ابنُ من أوصى إليهِ خيرُ مَن ... أوصى الوصايا قطُّ أو يوصيها
رَفعَ النبيُّ يمينَهُ بيمينِهِ ... ليرى ارتفاعَ يمينِهِ رائيها
في موضعٍ أضحى عليهِ مُنبّهاً ... فيهِ وفيهِ يُبدئُ التنبيها
آخاه في خُمٍّ ونوّهَ باسمِهِ ... لم يَألُ في خيرٍ به تنويها
هو قالَ: أفضلُكمْ عليٌّ إنّهُ ... أمضى قضيّتَهُ التي يُمضيها
هو لي كهارونٍ لموسى حبّذا ... تشبيهُ هارونٍ به تشبيها
يوماه يومٌ للعدى يرويهمُ ... جوراً ويومٌ للقنا يرويها
يسعُ الأنامَ مثوبةً وعقوبةً ... كلتاهما تمضي لِما يمضيها...

إلى آخر القصيدة، المؤلّفة من اثنين وأربعين بيتاً.

نماذج أُخرى من شعره في أهل البيت عليهم السلام

وله من قصيدة ذكرها صاحب «الدرّ النّظيم في الأئمّة اللهاميم»:

هل أُصاخٌ كما عَهدنا أُصاخا؟ ... حبّذا ذلك المناخُ مناخا

يقول فيها:

ذِكْرُ يومِ الحسينِ بالطفِّ أودى ... بصماخي فلم يدع لي صِماخا
مُتْبِعاتٌ نساؤهُ النّوحَ نوحاً ... رافعاتٌ إِثْرَ الصّراخِ صراخا
منعوهُ ماءَ الفراتِ وظلّوا ... يتعاطونَهُ زُلالاً نُقاخا
بأبي عترةَ النبيّ وأمّي ... سدَّ عنهم معاندٌ أصماخا

خيـرُ ذا الخَلْـقِ صبيـةً وشبـابـاً وكهـولاً وخيـرُهـمْ أشيـاخـا
أخـذوا صـدرَ مفخَـرِ العـزّ مُـذْ كـا نـوا، وخَلّـوا للعـالميـن المِخـاخـا
النقيّـونَ حيـثُ كـانـوا جيـوبـاً حيـث لا تـأمـنُ الجيـوبُ اتّسـاخـا
يـألفـون الطُّـوى إذا ألِـفَ النّـا سُ اشتـواءً مـن فَيئِهـمْ واطّبـاخـا
خُلقـوا أسخيـاءَ لا مُتسـاخيـ ـن وليـس السخـيُّ مـن يَتَسـاخـى
أهـلُ فَضـلٍ تناسخـوا الفضـلَ شيبـاً وشبـابـاً أكـرمْ بـذاك انتسـاخـا
بهـواهـمْ يـزهـو ويشمـخُ مـن قـد كـان فـي النّـاسِ زاهيـاً شمّـاخـا
يـا ابـن بنـت النبـيّ أكـرمْ بـه ابنـاً ويـأسنـاخِ جـدّهِ أسنـاخـا
وابـنَ مـن وازرَ النبـيَّ ووالا هُ وصـافـاهُ فـي الغـديـرِ وواخـى
وابـنَ مـن كـان للكـريهـةِ ركّـا بـاً وفـي وجـهِ هـولِهـا رسّـاخـا
للطُّلـى تحـت قسطـل الحـرب ضـرّا بـاً ولِلهـامِ فـي الـوغـى شَـدّاخـا
ذو الـدّمـاء التـي يُطيـل مـواليـ ـيـه اختضـابـاً بطيبهـا والتطـاخـا
مـا عليكـم أنـاخَ كَلْكَلَـهُ الـدّهـ ـرُ ولكـن علـى الأنـامِ أنـاخـا(١)

قال في قصيدة يمدح بها عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام:

واخـى حبيبـي حبيـبُ الله لا كـذبٌ وابناه للمصطفى المستخلصِ ابنانِ
صلّـى إلـى القبلتيـن المقتـدى بهمـا والنّـاسُ عـن ذاك فـي صـمٍّ وعميـانِ
مـا مثـلُ زوجتِـهِ أخـرى يُقـاسُ بهـا ولا يُقـاسُ علـى سبطيـهِ سبطـانِ
فَمُضْمِـرُ الحُـبِّ فـي نـورٍ يخـصُّ بـه ومُضْمِـرُ البُغـضِ مخصـوصٌ بنيـرانِ
هـذا غـداً مـالـكٌ فـي النّـارِ يَملكُـهُ وذاك رُضـوانُ يلقـاهُ بـرُضـوانِ
رُدّتْ له الشّمسُ في أفلاكِها فقضى صـلاتَـهُ غيـرَ مـا سـاهٍ ولا وانِ
أليـس مـن حـلّ منـه فـي أخـوّتـهِ محلّ هارون من موسى بنِ عمرانِ؟

(١) الدرّ النظيم في الأئمّة اللهاميم، ١/ ١٨٤. أُضاخ: جبل، يذكّر ويؤنّث. الصّماخ: الأنف. يقولون: ضرب الله على صماخه، أي أنامه. النقاخ: الماء البارد الصافي. الأصماخ: جمع صمخ: الآبار قليلة الماء؛ والمعنى هنا أنّ المعاند منع عنهم الماء، وحتّى ماء مثل هذه الآبار. الطُّلى: جمع الطلاة، أي العنق. (المؤلف).

وشافعَ المَلَكِ الرّاجي شفاعَتَهُ ... إذ جاءه مَلَكٌ في خَلْقِ ثُعبانِ
قال النبيُّ له: أشقى البريّة يا ... عليُّ إذ ذُكر الأشقى شَقيّانِ
هذا عصى صالحاً في عَقْر ناقتِهِ ... وذاك فيك سَيلقاني بعِصيانِ
لَيَخضِبَنْ هذه من ذا أبا حسنٍ ... في حينَ يَخضِبها من أحمرٍ قانِ

ويرثي فيها أمير المؤمنين، وولده السّبط الشّهيد، بقوله:

نعم الشّهيدان ربُّ العرش يشهد لي ... والخلقُ أنّهما نِعْمَ الشّهيدانِ
من ذا يعزّي النبيّ المصطفى بهما؟ ... من ذا يعزّيهِ من قاصٍ ومن دانِ؟
من ذا لفاطمةَ اللّهفاءِ ينبئُها ... عن بعلِها وابنها إنباءَ لهفانِ؟
عن قابضِ النّفسِ في المحرابِ منتصباً ... وقابضِ النّفس في الهيجاءِ عطشانِ
نجمانِ في الأرض بل بدرانِ قد أفلا ... نَعَمْ وشمسانِ إمّا قلتَ: شمسانِ
سيفانِ يُغْمَدُ سيفُ الحربِ إن برزا ... وفي يمينهما للحربِ سيفانِ

وله يرثي الإمام السّبط الشّهيد عليه السلام:

يا خيرَ من لبسَ النّبـ ... ـوةَ من جميعِ الأنبياءِ
وَجْدِي على سبطيك وجـ ... ـدٌ ليسَ يُؤذِنُ بانقضاءِ
هذا قتيلُ الأشقيا ... ءِ وذا قتيلُ الأدعياءِ
يومَ الحسين هرقتَ دمـ ... ـعَ الأرضِ بل دمعَ السّماءِ
يومَ الحسينِ تركتَ با ... بَ العزِّ مهجورَ الفَناءِ
يا كربلاءُ خُلقتِ من ... كَربٍ عليَّ ومن بَلاءِ
كم فيكِ من وجهٍ تشرّ ... بَ ماؤه ماءَ البَهاءِ
نفسي فداءُ المصطلي نارَ ... الوغى أيّ اصطلاءِ
حيثُ الأسنّةُ في الجوا ... شنِ كالكواكبِ في السّماءِ
فاختارَ دِرْعَ الصّبرِ حيـ ... ـثُ الصّبر من لُبْسِ السّناءِ
وأبى إباءَ الأُسْدِ إنّ ... الأُسدَ صادقةُ الإباءِ
وقضى كريماً إذ قضى ... ظمآنَ في نفَرٍ ظِماءِ

منعـــــوهُ طَعـــــمَ المـــــاء لا وجـــدوا لمـــاءٍ طعـــمَ مـــاءِ
مـــن ذا لمعفـــورِ الجـــوا دِ مُمـــالِ أعـــوادِ الخِبـــاءِ
مـــن للطّـــريـــحِ الشلْـــو عُـــر يـــانـــاً مُخلّـــىً بـــالعـــراءِ
مـــن للمُحنّـــطِ بـــالتّـــرا بِ وللمغسَّـــلِ بـــالـــدّمـــاءِ
مـــن لابـــنِ فـــاطمـــةَ المغيَّـــبِ عـــن عيـــونِ الأوليـــاءِ

شعره في الأغراض الأخرى

قـال الصّنـوبـريّ الشّعر في مختلف أغراضه، وكان، كما مرَّ بنا، مكثراً، مطبوعاً، غير أنّنا نقرأ في أخباره ما يفيد أنّه كان يهذّب شعره، ولا يخرجه إلاّ بعد أن يرتضيه، ومن تلك الأخبار نذكر:

قال: كان أوّل شعرٍ قلته وارتضيته قولي:

مـا حـلَّ بـي، منـك، وقت منصرفي مـــا كنـــتُ إلاّ وديعـــةَ التّلـــفِ
كـم قـال لـي الشّـوقُ: قـف لتلثمـه فقـال خـوف الـرّقيـب: لا تقـفِ
فكـــان قلبـــي فـــي زيِّ مُنعَطِـــفٍ وكـان جسمـي فـي زيِّ مُنصَـرِفِ[1]

يجيد الصّنوبريّ، في بداية عهده بقول الشّعر، في تصوير هذا التّردُّد بين ما يمليه الشّوق وما يمنعه «الرّقيب»، وهو تصوير جميل لذلك الصّراع الذي يدور بيـن الرّغبة وما يحول دون تحقيقها من واقع اجتماعيّ كنّى عنه بـ «خوف الرّقيب».

يتّصف شعر الصّنوبريّ بسهولة الألفاظ وبساطة التّركيب ورسم الصّورة الدّالّة، وإن كـان قـد مـرَّ بنا أنّه استخدم الغريب في إحدى قصائده، فإنَّ ذلك يعـود، كمـا تبيَّـن لنـا قبل قليلٍ، إلى رغبةٍ في إجبار الرّواة على الاهتمام بهذا الشّعر الذي كانوا يتحامون روايته.

---

(١) راجع: أعيان. . ، م.س. ، ٣/ ٩٧ ـ ١٠١؛ إذ إنّ معظم هذه النماذج مأخوذة ممّا اختاره السيّد الأمين وأثبته في ترجمته للشاعر.

ومن نماذج هذا الشّعر المتّصف بسهولة اللّفظ وألفته وبساطة التّركيب وطرافة الصّورة، والمعنى اللّطيف نذكر قوله:

ـ . . . نويتُ تقبيل نار وجنته   وخِفتُ أدنو منه فأحترقْ
ـ وشاطرةٍ أدّبتها الشّطاره   حلى الرّوض من حسنها مستعاره
أتت في لباسٍ لها أخضر   كما لبس السورقُ الجلّناره
ـ وإذا ما السّلام ضنّت به الألـ   ـسنُ كان السّلامُ بالأحداق
ـ يا شمسُ، يا بدرُ، يا نهارُ،   أنتِ لنا جنّةٌ ونارُ
تجنُّبُ الإثم فيكِ إثمٌ   وخشيةُ العارِ فيك عارُ
يخلعُ العذارَ فيك قومٌ   فكيف من ما له عِذارُ؟

ويبدو، بوضوحٍ، هذا التردُّد بين الرّغبة والخوف من الإقبال على تلبيتها، ولعلّه كان يعيش حالةً من «الوجد» الذي يحول دون تلبية ما يمليه الإحساس بـ «الإثم».

ويرقُّ شعر الصّنوبريّ، ويمتزج الشُّعور بحبّ الجمال بالتديُّن، فيضمّن شعره الغزليَّ آيةً من القرآن الكريم، فيقول:

ولم أنسَ ما عاينته من جماله   وقد زرتُ، في بعض اللّيالي، مصلّاه
ويقرأ، في المحراب، والنّاس خلفه: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾
فقلتُ: تأمّل ما تقول فإنّه   فعالك، يا من تقتل النّاس عيناه[1]

في هذه الأبيات، وفي ثنايا بساطتها الظّاهرة، معنى لطيف عميق، وصورة مركّبة. . . ومن نماذج صوره اللّطيفة نقرأ قوله: «عريس» يُزفُّ إلى عروسه:

أيُّها المغتدي إلى العرسِ لاقتـ   ـك سعودٌ قد جانبتها نحوسُ
ما سمعنا، والله في ما سمعنا،   بعروسٍ تُجلى عليها عروسُ

(١) نسبها صاحب «معاهد التنصيص» إلى أبي نواس.

يفصح شعر الصّنوبريّ الغزليّ عن رغبةٍ في أن تجلى له عروس، أو في أن يشعَّ الجمال في العالم، وهذا ما سنلحظه في شعره في الرّياض التي خصّها بمعظم شعره، ويبدو أنّ هذه الرّغبة ما كانت تُلبّى، فنقرأ في شعره ما يدلُّ على أنّ الهوى قد أوهن تجلُّده، وليس من عجبٍ في ذلك، فكم من ظباءٍ في الهوى قد غلبت أُسُدا، ومن نماذج ذلك قوله الذي نلاحظ فيه تكرار صوت الهاء الدالّ على جدل الهوى والجلد، ما أفضى إلى «الوهن»، يقول الشّاعر:

تزايدَ ما ألقى فقد جاوز الحدَّا ... وكان الهوى فرحاً، فصار الهوى جدَّا
وقد كنت جَلِداً، ثمَّ أوهنني الهوى ... وهذا الهوى ما زال يستوهن الجَلَدا
فلا تعجبي من غلب ضعفك قوّتي ... فكم من ظباءٍ، في الهوى، غلبت أُسُدا
غلبتم على قلبي، فصرتم أحقَّ بي ... وأملَكَ لي منّي، فصرتُ لكم عبدا
جرى حبُّكم مجرى حياتي، ففقدُكم ... كفقد حياتي، لا رأيت لكم فَقْدا

ويبدو أنّه عاش تجربةً مرّةً يصوّرها قوله:

وإن أَبـدَلْتَنـي بـالسّهـ ... ـل من أخلاقك الوعرا
لعـاد الحلـو مـن ودِّ ... ك في ما مضى مـرَّا
إذا مـا زدتُـك الآن ... وفـاءً زدتنـي غـدرا
فمـا تسمـعُ لـي قـولاً ... ولا تقبـلُ لـي عـذرا
ومـا لـي فيـك إلاّ الصّبـ ... ـرُ ساء الوقت أم سرَّا

وإن تكن هذه حالُ الصّنوبريّ «الجلِد» القويّ، فكيف به وقد شاب، أو لعلّ تجربته هذه التي تشير إليها أبياته آنفة الذّكر حدثت بعدما شاب، لأنّنا نقرأ له مقطوعاتٍ في الشّيب جميلةً، تبدو فيها آثار الصّنعة، لكنّها تصوِّر حالة الإنسان وهو يرى إعراض «الغواني» عنه بعدما رأين في عارضيه «البياض»، يقول الشّاعر، وهو يكنّي عن سواد الشّعر بالآبنوس، وعن بياضه بالعاج:

- أبدى الغواني الصّدَّ والإعراضا ... لِما رأَيْنَ بعارضيك بياضا
وغَضَضْنَ عنك جفونهنّ، وربّما ... قلَبْنَ أحداقاً إليك مراضا

ـ هـدم الشَّيـبُ مـا بنـاه الشّبـابُ ... والغـوانـي، ومـا غضبـن، غضـابُ
قلـبَ الآبنـوس عـاجـاً، فلـلأعـ ... ـيـن منـه وللقلـوب انقـلابُ
وضـلالٌ فـي الـرّأي يشنـأ البـا ... زي، على حسنه، ويهوى الغرابُ
ـ مـلأتْ وجهَهـا علـيَّ عبـوسـاً ... واستثارت، في المآقي، الرَّسيسا
ورأتنـي أشـرح العـاج بـالعـا ... ج، فظلَّـت تستحسـن الآبنـوسـا
ليـس شيبـي، إذا تـأمَّلـت، شيبـاً ... إنّمـا الشَّيـبُ مـا أشـاب النّفـوسـا

وكـان الصَّنـوبـريّ يقـول الشِّعر في شؤون حياته اليوميَّة، ويبدو في هذا الشِّعر ظريفاً يأتي بـ «المُلح» و «الطّرائف»، ومن نماذج ذلك نذكر ما يأتي:

ـ يُروى أنّه شرب دواءً بحلب، فكتب إليه صديقه بهذين البيتين:

أبِـنْ لـي كيـف أمسيـت ... ومـا كـان مـن الحـالِ
وكـم سـارت بـك النّـا ... قـةُ نحـو المنـزل الخـالـي

فأجابه:

كتَبْـتُ إليـك، والنَّعـلان مـا إن ... أقلّهمـا مـن السَّيـر العنيـفِ
فـإن رمـت الجـواب إلـيّ فـاكتـب ... على العنوان: «يُدْفعُ في الكنيفِ»

وكان له ولدٌ ففطم، فدخل الدّار والصّبيّ يبكي، فكتب على مهده:

منعـوه أحـبَّ شـيءٍ إليـه ... من جميع الورى، ومن والديه!
منعـوه غـذاءه، ولقـد كـا ... ن مبـاحـاً لـه، وبيـن يـديـه
عَجَبـاً منـه ذا علـى صغـر السِّـنّ ... هـوى، فـاهتـدى الفـراقُ إليـه

ونلاحظ، في هذه الأبيات، المنظور الذي رأى منه الشّاعر إلى الفطام، وهـو الـفـراق، ما يشير إلى أنَّ هذه الحالة تسكنه، ويرى مظاهرها في مختلف شؤون الحياة.

ولـه فـي الفـراق ـ فقد الأحبّة ـ شعر لطيف، تتمثّل فيه اللَّوعة والأسى، فممّـا يـروى أنّه فقد ابنةً له، فكتب على كلّ جانبٍ من جوانب قبرها بيتين من الشِّعر، ويلمس قارئ الأبيات، فيها جميعها، حزناً عميقاً شجيّاً، يلفت فيه ازدياده

كلّما زاد البلاء، فكأنّه كان يعيش حالةً يتكثّف فيها هذا البلاء، ومن هذه الأبيات قوله:

- أساكنة القبر، السُّلوُّ محرّمٌ   علينا إلى أن نستوي في المساكنِ
لئن ضُمِّن القبرُ الكريمُ كريمتي   لأكرمُ مضمونٍ وأكرمُ ضامنِ
- أواحدتي عصاني الصّبرُ، لكن   دموع العين سامعةٌ مطيعه
وكنت وديعتي ثمّ استردّت   وليس بمنكرٍ ردُّ الوديعه

فالشّاعر لا يسلو إلى أن يسكن القبر، وهو إن لم يعد يطيق صبراً، فدموعه تخفّف ما به...، وهو على الرّغم من عظم المصاب، مؤمنٌ بأنّ الحياة وديعةٌ تردُّ إلى بارئها...

برع الصّنوبريّ في وصف الطّبيعة ورياضها وأشجارها وأزهارها ومتنزّهاتها، وله في ذلك شعر كثير نذكر، في ما يأتي، نماذج منه:

- قال في تفضيل فصل الرّبيع على غيره من الفصول:

إن كان في الصّيف ريحانٌ وفاكهةٌ   فالأرضُ مُسْتَوقَدٌ والجوُّ تنّور
وإن يكن في الخريف النّخلُ مخترقاً   فالأرضُ محسورةٌ والجوُّ مأسورُ
وإن يكن في الشّتاء الغيثُ متّصلاً   فالأرضُ عريانةٌ والجوُّ مقرورُ
ما الدّهرُ إلاّ الرّبيعُ المستنيرُ، إذا   أتى الرّبيع أتاك النَّوْرُ والنُّورُ
فالأرضُ ياقوتةٌ والجوُّ لؤلؤةٌ   والنّبتُ فيروزةٌ والماءُ بلّورُ
ما يعدَمُ النّبتُ كأساً من سحائبه   فالنّبتُ ضربان: سكرانٌ ومخمورُ
فيه لنا الوردُ منضودٌ مورّدُه   بين المَجالسِ والمنثورُ منثورُ
ونرجسٌ ساحرُ الأبصار ليس لما   كنتَ له من عمى الأبصار مسحورُ
هذا البنفسجُ، هذا الياسمين، وذا النّسرين، مذ قربا فالحسنُ مشهورُ
تظلُّ تنثرُ فيه السُّحبُ لؤلؤَها   فالأرضُ ضاحكةٌ والطّيرُ مسرورُ
حيثُ التفتَّ فقمريٌّ وفاختةٌ   يغنّيانِ وشِفْتِينٌ وزرزورُ
إذا الهَزَاران فيه صوّتا فهما   بحسنِ صوتهما عودٌ وطنبورُ

تطيبُ فيه الصحارى للمقيم بها كما تطيبُ له في غيره الدُّورُ
من شمّ ريحَ تحيّاتِ الرّبيع لا المسكُ مسكٌ ولا الكافورُ كافورُ[1]

ـ وقال، في وصف حلب ومنتزهاتها، قصيدة تنتهي إلى مئة وأربعة أبيات، ويعدّها بعض النقّاد أجود ما وصفت به حلب، ومنها:

احبسا العيسَ احبساها وسلا الدّارَ سلاها
... بليت بعدهم الدّا ر، وأبلاني بلاها
... بأبي من عرسها سخ طي، ومن عرسي رضاها
... وريـاضٍ تلتقي آمالنا في ملتقاها
... حلبٌ بدرُ دجىً أنجمها الزُّهر قراها
حبّذا جامعها الـ ـجامع للنّفس تُقاها
حيث يأتي حلقة الـ آداب منّا من أتاها[2]

ـ وقال مجرياً حواراً بين الورد والنّرجس:

زعم الورد أنّهُ هو أبهى من جميعِ الأنوارِ والرّيحانِ
فأجابتهُ أعينُ النّرجسِ الغضُّ بذُلٌّ من قولها وهوانِ:
أيّما أحسَنُ التورّدُ أم مقـ ـلةُ ريمٍ مريضةُ الأجفانِ؟
أمْ فماذا يرجو بحمرته الخدُّ إذا لَمْ تكُنْ له عينانِ؟
فَزُهيْ الوردُ ثمَّ قال مجيباً بقياسٍ مُستحسنٍ وبيانِ:
إنَّ ورد الخدود أحسن من عيـ ـنٍ بها صفرةٌ من اليرقانِ

ـ وقال في الشّقائق:

وكأنَّ محمرَّ الشّقيـ ـق، إذا تصوّب أو تصعَّد
أعلام ياقوتٍ نُشر ن على رماحٍ من زبرجد

---

(١) الفاختة، ج فواخت، نوع من الحمام المطوّق. قيل لها فاختة للونها لأنّه يشبه الفَخْت، أي ظلّ القمر.

(٢) معجم البلدان، ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٩.

ـ وقال في النّرجس:

وعندنا نرجسٌ أنيقٌ   تحيا بأنفاسه النّفوسُ
كأنَّ أجفانه بدورٌ   كأنَّ أحداقَه شموسُ

ـ وقال في عيون النّرجس:

أرأيتَ أحسنَ من عيونِ النّرجسِ   أم من تلاحظهنَّ وسطَ المجلسِ
دُرٌّ تشقّقَ عَنْ يواقيتٍ على   قُضُبِ الزمرّد فوقَ بُسطِ السّندسِ
أجفانُ كافورٍ حُبين بأعينٍ   من زعفرانٍ ناعماتِ الملمسِ
فكأنّها أقمارُ ليلٍ أحْدَقَتْ   بشموسِ أُفقٍ فوقَ غُصْنٍ أملسِ
مغرورقاتٌ من تَرقرق طلها   ترنو رُنوَّ النّاظرِ المتفرّسِ
وإذا تغشّتها الرِّياحُ تنفّست   عن مثلِ ريح المسكِ أيَّ تنفُّسِ

ـ وقال مصوّراً علاقات الأزهار في ما بينها:

خجل الوردُ حينَ لاحظه النّر   جس من حُسنه وغارَ البهار
فعلتْ ذاكَ حُمرةٌ وعلَتْ ذا   حَيْرةٌ واعترى البهارَ اصفرار
وغدا الأقحوانُ يضحكُ عُجباً   عن ثنايا لثاتُهنَّ نُضار
ثمَّ نَمَّ النّمّامُ واستمع السّو   سنُ لمّا أُذيعتِ الأسْرار
عندَها أبرزَ الشّقيقُ خُدوداً   صارَ فيها من لطمه آثار
سُكِبتْ فوقها دُموعٌ من الطّلِّ كما تُسكبُ الدُّموعُ الغزار
فاكتسى ذا البنفسج الغضُّ أثوا   بَ حدادٍ إذْ خانه الاصطبار
وأسَرَّ السّقامُ بالياسمينِ الـ   غضِّ حتى أذابَهُ الإضرار
ثمَّ نادى الخيريُّ في سائر الزّهـ   ـر فوافاه جحفلٌ جَرّار
فاستجاشوا على محاربة النّر   جسِ بالخرَّم الذي لا يُبار
فأتوا في جواشنٍ سابغاتٍ   تحت سجفٍ من العجاج يثار
ثمَّ لمّا رأيتُ ذا النّرجسَ الغضَّ ضعيفاً ما إنْ لديه انتصار
لم أزل أُعملُ التلطّفَ للور   د حذاراً أن يغلبَ النّوّار
فجمعناهمُ لدى مجلسٍ تصـ   ـخبُ فيه الأطيارُ والأوتار

لـو تَـرى ذا وَذا لَقلـتَ خـدودٌ　　تُـدْمِـنُ اللّحـظَ نحـوهـا الأبصـار

ـ ويقول من منظور يرى الطّبيعة في المرأة:

إن هـي تـاهـت فمثلها تـاهـا　　لم يجرِ خَلْقٌ في الحسن مجراها
للغصـنِ أعطـافُهـا وقـامتُهـا　　وللـرّشـا جيـدُهـا وعينـاهـا
فُضِّـضَ بـاليـاسمينِ عـارضهـا　　ذُهِّـبَ بـالجلّنـار خـدّاهـا
تلـك الثّنـايا مـن عقدهـا نُظِمَـتْ　　أم نُظِـمَ العقـدُ مـنْ ثنـايـاهـا
جـاعلـةٌ ريقَهـا مُـدامتنـا　　إذا سقتنـا وكـأسنـا فـاهـا
لَئِـن كفـانـي التّفـاحَ وجنتُهـا　　لقـد كفـانـي الأتـرجَّ ثـديـاهـا

ومنه أيضاً:

بـدرٌ غـدا يشـربُ شمسـاً غـدتْ　　وحَـدُّهـا فـي الـوصـفِ مـنْ حـدِّهِ
تَغْـرب فـي فيـه ولكنّهـا　　مـنْ بعـدِ ذا تطلـعُ فـي خَـدِّهِ

ويبدو أنَّ الصَّنوبريّ كان ينظر إلى العالم من منظورٍ يكشف حجب الجمال في خلق الله: إنساناً وطبيعةً وفصولاً، فيدعو في المقطوعة الآتية، الحبيبة، إلى القيام، لتنظر مظاهر الجمال وتتمتّع وإيّاه بها، وهو يرقى بالرِّياض الجميلة إلى مستوى يمنع اللئام من وطء ترابها. . . يقول الصَّنوبريّ في هذا:

يـا ريمُ قُومي، الآن ويحكِ فانظري　　مـا للـرُّبـى قَـدْ أظهـرتْ إعجـابَهـا
كـانـت محـاسـنُ وجههـا محجـوبـةً　　فـالآنَ قَـدْ كشـف الـرَّبيـعُ حجـابَهـا
وردٌ بَـدا يحكـي الخـدودَ ونـرجسٌ　　يحكـي العيـونَ إذا رأَت أحبـابَهـا
ونبـاتُ بـاقلّـى يشبـهُ نَـوره　　بُلْـقَ الحمـام مُشيلـةً أذنـابَهـا
وكـأنَّ خُـرَّمَـهُ البـديـعَ وقـد بـدا　　رُوسُ الطـواوسِ إذ تـديـرُ رقـابَهـا
والسَّـرْو تَحسبـهُ العيـونُ غـوانيـاً　　قـد شمَّـرَتْ عـن سـوقهـا أثـوابَهـا
وكـأنَّ إحـداهـنَّ مـن نفـح الصَّبـا　　خـودٌ تـلاعـبُ مـوهِنـاً أتـرابَهـا
لـو كنـتُ أملـكُ للـرّيـاضِ صيـانـةً　　يَـوْمـاً لمـا وطـئَ اللّئـامُ تُـرابُهـا

* * *

(٢٠)
القاضي التّنوخي

التّعريف بالشّاعر

القاضي أبو القاسم، عليّ بن محمَّد بن أبي الفهم داود بن الحسن، المعروف بالقاضي التّنوخي الكبير(١).

وُلد في أنطاكية يوم الأحد لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجّة سنة ثمانٍ وسبعين ومئتين، ونشأ فيها، ثمّ قدم بغداد في سنة ستّ وثلاثمئة، وتفقّه فيها على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث ورواه.

ويبدو أنّه نشأ في بيت علمٍ وأدبٍ، ففي خبر يرويه ابنه القاضي أبو علي المحسِّن، نقرأ ما يفيد أنّ والد القاضي التّنوخي الكبير كان يقتني الكتب ويحرص عليها، ويُعنى بتنشئة ابنه على ذلك، ويحثّهُ على التزوّد بالعلم والأدب، ويبدو، أيضاً، أنّ الابن كان ذكيّاً، سريع الحفظ، مجتهداً في طلب العلم والأدب وتحصيلهما، وهذا ما يفيده، أيضاً، الخبر المذكور، وهو:

قال القاضي أبو علي المحسِّن، في كتابه «نشوار المحاضرة»: «حدَّثني أبي قال: سمعت أبي ينشد، يوماً، وسنّي إذ ذاك خمس عشرة سنة بعض

(١) تراجع ترجمته في: الغدير، م.س.، ٣/ ٥١٥ ـ ٥٢٩؛ الوافي بالوفيّات، م.س.، ٢١/ ٤٥٩ ـ ٤٦٥، ترجمة رقم ٣١٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٤١٥هـ./ ١٩٩٤م.، ٦/ ١٩١؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م.س.، ١٢/ ٧٧ ـ ٧٩. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤/ ١٦٢ ـ ١٩١؛ السيِّد محسن الأمين، أعيان الشيعة، م.س.، ٨/ ٣٣١.

قصيدة دعبل الطّويلة التي يفخر فيها باليمن ويعدّد مناقبهم، ويردُّ على الكميت مناقبه بنزار، وأوّلها:

أفيقي من ملامك يا ظعينا   كفاني اللّوم مرُّ الأربعينا

وهي نحو ستّمئة بيت، فاشتهيت حفظها لما فيها من مفاخر اليمن وأهلي، فقلت: يا سيّدي تخرجها إليّ حتّى أحفظها، فدافعني فألححْتُ عليه، فقال: كأنّي بك تأخذها فتحفظ منها خمسين بيتاً أو مئة بيت ثمّ ترمي بالكتاب وتخلقه عليّ. فقلت: إدفعها إليّ.

فأخرجها وسلّمها إليّ، وقد كان كلامه أثّر فيّ، فدخلت حجرةً كانت برسمي من داره، فخلوت فيها، ولم أتشاغل يومي وليلتي بشيءٍ غير حفظها.

فلمّا كان في السّحر كنت قد فرغت من جميعها وأتقنتها، فخرجت إليه غدوةً على رسمي، فجلست بين يديه. فقال: هِي[1]، كم حفظت من القصيدة؟ فقلت: قد حفظتها بأسرها. فغضب، وقد رآني قد كذبته، وقال لي: هاتها.

فأخرجت الدّفتر من كمّي، فأخذه، وفتحه، ونظر فيه وأنا أنشد، إلى أن مضيت في أكثر من مئة بيت. فصفّح منها عدّة أوراق وقال: أنشد من هاهنا. فأنشدت مقدار مئة بيت إلى آخرها، فهاله ما رآه من حسن حفظي، فضمّني إليه وقبّل رأسي وعيني، وقال: بالله يا بُنيّ، لا تُخبر بها أحداً؛ فإنّي أخاف عليك من العين[2].

وقال أبو عليّ[3] أيضاً: حفّظني أبي وحفظت بعده من شعر أبي تمام والبحتري سوى ما كنت أحفظ لغيرهما من المحدثين والقدماء مئتي قصيدة، قال: وكان أبي وشيوخنا بالشّام يقولون: من حفظ للطائيّين[4] أربعين قصيدة،

(١) كلمة تفيد التلهّف.

(٢) البداية والنّهاية، ١١/٢٥٧، حوادث سنة ٣٤٢هـ.

(٣) نشوار المحاضرة، ٢/ ١٤٢.

(٤) هما أبو تمّام والبحتري.

ولـم يقـل الشّعـر، فهـو حمـار فـي مسـلاخ إنسـان، فقلت الشّعر وسنّي دون العشرين، وبدأت بعمل مقصورتي التي أوّلها:

لـولا التّنـاهـي لـمْ أُطِعْ نَهْيَ النُّهى أيَّ مـدىً يطـلـبُ من جازَ المَدى؟

وقـال أبـو علـيّ[1]: كـان أبي يحفظ للطائيّين سبعمئة قصيدة ومقطوعة سوى ما يحفظ لغيرهم من المحدثين والمخضرمين والجاهليّين؛ ولقد رأيت له دفتـراً بخطّـه ـ هـو عنـدي ـ يحتـوي على رؤوس ما يحفظه من القصائد مئتين وثـلاثين[2] ورقـة أثمـان منصـوري لطاف، وكان يحفظ من النّحو واللّغة شيئاً عظيمـاً مـع ذلـك، ـ إلـى أن قال ـ: وكان مع ذلك يحفظ ويجيب في ما يفوق عشريـن ألـف حـديث، ومـا رأيت أحداً أحفظ منه، ولولا أنّ حفظه افترق في جميع هذه العلوم لكان أمراً هائلاً».

مؤلّفاته

«إنّ تضلّـع المتـرجـم في العلوم الجمّة، وشهرته الطّائلة في جلّ الفنون النقليّـة والعقليّـة والـريـاضيّـة، وتجوّله في الأقطار والأمصار، تستدعي وجود تآليف له قيّمة، كما قال ولده أبو عليّ: إنّ له في علم العروض والفقه وغيرهما عـدّة كتب مصنّفة، وقال الحموي[3]: إنّ له تصانيف في الأدب، منها: كتابٌ فـي العـروض، قال الخالع: ما عُمل في العروض أجود منه، وكتاب في علم القوافي. وذكر السمعاني واليافعي وابن حجر وصاحب «الشّذرات» له ديوان شعر، واختار منه الثعالبي ما ذكر من شعره، وسمعت في ما يتبع شعره في الغدير. نقل الحموي عن ديوانه بائيّته كغيرها، وذكر المسعودي له قصيدته المقصورة التي عارض بها ابن دريد، يمدح فيها تنوخ وقومه من قضاعة، أوّلها:

لـولا التّنـاهـي لـم أُطِـعْ نَهْـيَ النُّهـى أيَّ مـدىً يطلـبُ مـن جـاز المـدى؟

(١) نشوار المحاضرة، ٧/٢٠٣.
(٢) في المصدر: نيّف وثلاثين.
(٣) معجم الأدباء، ١٤/١٦٣.

إن كنتُ أقصرتُ فما أقصر قلـ ـبٌ دامياً ترميه ألحاظُ الدُّمى
ومقلــةٌ إن مقلــت أهــلَ الفضــا أغضتْ وفي أجفانِها جمرُ الغضا

وفيها يقول:

وكــم ظبــاءٍ رعيُهــا ألحــاظَهــا أسرعُ في الأنفس من حدِّ الظُّبا
أســرعُ مــن حــرفٍ إلــى جــرٍّ ومــن حــبٌّ إلــى حبّــة قلــبٍ وحشــا
قضــاعــةٌ مــن مَلِــكٍ بــنِ حِمْيَــرٍ مــا بعــده للمــرتقيــن مــرتقــى

وقال أبو عليّ في «نشوار المحاضرة»: «إنّ ما ضاع من شعره أكثر ممّا حُفظ». غير أنّ هذه الكتب قد عصفت عليها عواصف الضّياع، كما أنّ التصدّي لمنصب القضاء عاقه عن الإكثار من التأليف على قدر غزارة علمه[1].

ملامح شخصيّته وموقعه في مجتمعه

ولّي القاضي التّنوخي الكبير القضاء، ويروى عنه قوله: «كان أوّل شيءٍ قُلِّدته القضاء بعَسْكر مُكْرَم وتُسْتر وجنديسابور وأعمال ذلك، من قِبَلِ القاضي أبي جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التّنوخي، وكنت في السّنة الثانية والثلاثين من عمري، وذلك في شهور سنة عشرة وثلاثمئة»[2]. ثمّ قلّد القضاء في غير مدينة، ومن هذه المدن: الأهواز وكُوَرِها والكوفة وسقي الفرات وجند حمص وعدّة نواحٍ من الثّغور الشاميّة وأرَّجان وكورة سابور مجتمعاً ومتفرّقاً.

وكان يتقلّد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين، وحين صُرف عنه، ورد حضرة سيف الدّولة زائراً ومادحاً، فأكرم مثواه وأحسن قِراه، وكتب في مَعناه إلى الحضرة ببغداد حتى أعيد إلى عمله وزيد في رزقه ورتبته[3].

(١) الغدير، م.س.
(٢) معجم الأدباء، م.س.، ١٤/ ١٩٠.
(٣) نفسه، ١٤/ ١٦٣ ـ ١٦٥ و١٩٠.

وهذا يعني أنّه كان، من نحوٍ أوّل، كثير التنقُّل، لم يستقرّ به المقام في مكانٍ واحدٍ طويلاً، ما أكسبه معرفةً وخبرةً بالبلاد وأناسها، ومن نحوٍ ثانٍ، ذا مكانةٍ لدى سيف الدّولة الحمدانيّ أتاحت له العودة إلى منصبه بعد أن عُزل عنه لأسباب لم تتّضح، وقد يفيد تدخُّل سيف الدّولة في الإشارة إلى طبيعتها، فالمعروف أنّ هذا الأمير كان يدين بمذهب آل البيت عليهم السلام.

وتفيد كتب الأدب أنّه كان نبيهاً متقدّماً، يمدحه الشّعراء ويجيزهم، ويفضل على من قصده إفضالاً أثّر في حاله. وقال أبو منصور الثعالبي: «هو من أعيان أهل العلم والأدب وأفراد الكرم وحسن الشيم، وكان، كما قرأته في فصلٍ للصّاحب: إن أردت فأنا سُبحةُ ناسكٍ، أو أحببْتَ فإنّي تفّاحة فاتك، أو اقترحت فإنّي مُدَّرعة راهب، أو آثرت فإنّي تحيّة شارب».

وكان المهلبي الوزير وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه جدّاً، ويتعصّبون له ويعدّونه ريحانة النّدماء وتاريخ الظّرفاء...، ويحكى أنّه كان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على إزالة ما يوجب الكلفة... فإذا أصبحوا عادوا إلى عاداتهم في الترمُّت والتوقُّر والتحفّظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.

ويبدو أنّ صلته بالمهلبّي قديمة تعود إلى ما قبل تقلّد الأخير الوزارة بسنين، وهي صلة ألفةٍ وصداقةٍ، وهذا ما تفيده الأخبار التي تروى عن صلتهما، ونذكر منها ما يفيد بطبيعتها وبنوعيّة الرّسائل التي كان يتمّ تداولها، في ذلك الزّمن، بين الأدباء والشّعراء، وهم في الوقت نفسه قضاة وسياسيُّون:

قال عَليُّ بن المُحسِّن: وجدت في كتب أبي كتاباً من كُتب أبي محمّدٍ المُهَلّبي إليه قبل تقلُّده الوَزارة بسنين أوّله:

«كتابي أطال الله بقاء سيّدنا القاضي عن سلامةٍ لا زالت له إلفاً وعليه وَقْفاً:

وَحَمدٍ لمولى أستمدُّ بحمده ... لهُ الرُّتْبَةَ العَلياءَ والعِزَّ دائما
وأن يُسخطَ الأيّامَ بالجَمْعِ بيننا ... وَتَرْضَى المُنَى حَتَّى يرينِيك سالما

وصل كتابه ـ أدام الله عزَّهُ ـ فقمت معظِّماً له، وقعدت مشتملاً على السُّرور به:

وفضضتُهُ فوجدْتُهُ ... ليلاً على صفحاتِ نُورِ
مِثْلَ السَّوالِفِ والخدُو ... دِ البيضِ زِينَتْ بالشُّعُورِ
بِنظامِ لفظٍ كالثُّغُو ... رِ وكَالَّلآلِئِ في النُّحُورِ
أَنْزَلْتُهُ في القلْبِ مَنْـ ... ـزِلَةَ القُلُوبِ مِنَ الصُّدُورِ»

قال أبو عليٌ في «النّشوار»: حدَّثني أبو العلاءِ صاعد بن ثابتٍ قال: كتب إليَّ القاضي التَّنوخيُّ جواب كتابٍ كتبتُهُ إليه:

«وَصَلَ كِتابك

فَمَا شككْتُ وَقَدْ جَاءَ البَشِيرُ بِهِ ... أنَّ الشَّبابَ أتَانِي بَعْدَمَا ذَهَبَا
وَقُلْتُ: نَفْسي تُفَدِّي نفسَ مُرْسِلِهِ ... مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَنْ أمْلَى وَمَنْ كَتَبَا
وَكَادَ قَلْبِي وَقَدْ قَلَّبْتُهُ فَرِماً ... إلَى قِرَاءَتِهِ أنْ يَخْرِقَ الحُجُبَا»

قَال: والشِّعْرُ له وأنشدنيه بعد ذلك لنفسه. قال أبُو عليٍّ: وَلست أعرفُ له ذَلِكَ وَلاَ وَجَدتُهُ في كُتُبِهِ مَنْسُوباً إليهِ، ويجوز أنْ يَكُونَ مِمَّا قاله ولم يثبته، أو ضَاعَ في ما ضاع من شعره، فإنَّهُ أكثرُ مِمَّا حُفِظَ.

وتفيد الأخبار المرويّة عنه أنّه كان على خلقٍ رفيعٍ، يرى إلى النّاس رؤيةً تتبيَّن الفضل فيهم، وتقدّر المُجدَّ منهم الذي يستغني بعد فقرٍ...، وكان يعبِّر عن رؤيته هذه بلغة أدبيّة تتيح لنا القول: إنّه كان ناثراً بليغاً، ومن هذه الأخبار ما يرويه ابنه المحسِّن في كتابه «نشوار المحاضرة».

حدَّث أبُو عليٍّ المحسِّن بن عليٍّ بن محمَّدٍ التَّنوخيُّ: جَرَى في مجلس أبي ـ رحمه الله ـ يوماً ذكرُ رَجلٍ كان صغيراً فارتفع، فقال بعض الحاضرين: مَنْ ذاك الوضيعُ؟ أمس كُنَّا نراهُ بمرقَّعةٍ يشحذُ، فقال أبي: وما يضعه من أنَّ الزَّمان عضَّهُ ثمَّ ساعده؟ كلُّ كبيرٍ إنَّما كَانَ صغيراً أوَّلاً، والفقرُ ليس بعارٍ إذا

كـان الإنسـانُ فاضلاً في نفسه، وأهلُ العلمِ خاصَّةً لا يَعيبُهُمْ ذلك، وأنا أعتقد أنَّ مَنْ كان صغيراً فارتفع، أو فقيراً فاستغنى، أفضل ممَّن وُلِدَ في الغنَى أو في الجـلالـةِ، لأنَّ مَـنْ وُلِـدَ في ذلك إنَّمَا يُحمد على فعل غيره، فلا حمدَ له هو خاصَّةً فيه، ومَنْ لم يكن له فكان، فكأنَّما بكدِّه وصل إلى ذلك فهو أفضل ممَّن وصل إليه ميراثاً أو بجدِّ غيره وكدِّ سواه[1].

كـان بصيـراً بعلـم النّجـوم، قـرأه على البُناني المنجِّم صاحب «الزِّيج»، ويـقـال: إنّـه كـان يقـوم بـعشـرة علـوم. ويـروي ابنه أبو عليّ المحسِّن، في «نشـوار المحـاضـرة» خبـراً يفيـد أنّ والـده، نتيجـة علمـه هذا، قال عن السنة التـي مـات فيهـا: هـذه سنـة قطـع، أي يكـون فيهـا المـوت، علـى مـذهـب المنجِّميـن، وكـتب بذلك إلى بغداد إلى أبي الحسن البهلول القاضي، صهره، ينعى نفسـه ويـوصيـه، . . . ثمّ مات في الوقت الذي حدَّده، في ما بعد، لأبي القـاسـم غـلام زحـل المنجِّـم تلميـذه، وهو عصر يوم الثلاثاء لسبعٍ بقين من ربيـع الأوّل سنـة اثنتيـن وأربعيـن وثـلاثمئـة، ودفـن بـالمِـرْبـد، وصلَّى عليه الـوزيـر أبـو محمَّـد المهلبيُّ، وقضـى ما كان عليه من الـدَّين، وهو خمسون ألف درهم[2].

واللاَّفـت أن يُـقضى عنـه دين بهذا المقدار، ما يعني أنّه كان كريماً يبذل ماله، كما عرفنا آنفاً، في سبيل ذوي الحاجات من قاصديه.

مذهبه

يقول صاحب «الغدير»:

«مـن العـويـص جـدّاً البحث والتنقيب عن مذهبِ من نشأ في مثل القرن الثّالث والـرّابـع، عصـر التحـزّب للآراء والنّزعات، عصر تشتُّت الاعتقادات،

(١) معجم الأدباء، م.س.، ١٤/ ١٧٤ و١٧٥.

(٢) معجم البلدان، م.س.، ١٤/ ١٨٥ و١٨٦ و١٦٣.

عصر تكثّر النّحَل، وتوفّر الدواعي على انتحال الرَّجل لما يخالف عقده القلبي، وتظاهره بما لا يظهره سرُّ جنانه، وقد قضت الأيّام، ومرّت الأعوام على آثارهم ونتائج أفكارهم ممّا كان يمكننا منه استظهار المعتقدات، وحكم الدّهر على منشور فلتات ألسن كانت تعرب عن مكنون الضّمائر، وتقرأ علينا دروس الحقيقة من جانب مذهب الغابرين.

واضطراب كلمات أرباب المعاجم حول مذهب شاعرنا التّنوخي وولده أبي عليّ، منذ عهدهم إلى اليوم، ينمُّ عن أنّهم كانوا يخفون مختارهم من المذهب، وكانوا يظهرون في كلّ صقع وناحية نزلوا ما يلائم مذهب أهليها، فقال الخطيب البغدادي في «تاريخه»، والسمعاني في «أنسابه»، وابن كثير في «تاريخه»، وصاحب «شذرات الذّهب»، والسيّد العبّاسي في «المعاهد»، وشيخنا أبو الحسن الشّريف في «ضياء العالمين»: إنّ المترجَم تفقّه على مذهب أبي حنيفة. ونصّ اليافعي في «مرآة الجنان»، والذهبي في «ميزان الاعتدال»، والسّيوطي في «البغية»، وأبو الحسنات في «الفوائد البهيّة» بأنّه حنفيُّ المذهب. وقال الخطيب البغداديّ، في «تاريخه»، والسمعانيّ في «أنسابه»: إنّه كان يعرف الكلام في الأصول على مذهب المعتزلة. وفي «كامل ابن الأثير»: كان عالماً بأصول المعتزلة. وفي «لسان الميزان»: إنّه يُرمى بالاعتزال، وعدّه سيّدنا القاضي في «مجالس المؤمنين» من قضاة الشيعة، وبذلك نصّ صاحب «مطلع البدور»، ونقل صاحب «نسمة السّحر» عن المسوري اليمني: أنّه كان معتزليّ الأصول، متشيّعاً جدّاً، حنفيّ المذهب.

والذي يجمع بين هذه الشتات أنّ الرَّجل كان معتزليّ الأصول، حنفيّ الفروع، زيديّ المذهب، ويؤكّد مذهبه هذا ما ذكره معاصره المسعودي في «مروج الذّهب» من قوله: إنّه في وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة ـ بالبصرة في جملة الزيديّين. وقصيدته البائيّة ترجّح كفّة التشيّع في ميزانه، كما

أنّ غير واحدة من قضايا ذكرها ولده أبو عليّ في كتابه «الفرج بعد الشدّة»، نقلاً عن المترجم، تؤذن بذلك».

غديريّته

تروي كتب تاريخ الأدب قصيدة لأبي القاسم التّنوخي الكبير، في الردّ على ابن المعتزّ، تتألّف من ثلاثة وثمانين بيتاً، وفي ما يأتي نذكر ما جاء منها وعنها في كتاب «الغدير»:

«من ابنِ رسول الله وابنِ وصيِّه ... إلى مُدْغِلٍ[1] في عقبة الدينِ ناصبِ
نشا بينَ طنبورٍ وزقٍّ ومِزْهَرٍ[2] ... وفي حجْرِ شادٍ أو على صدر ضاربِ
ومن ظَهْرِ سكرانٍ إلى بطنِ قَيْنَةٍ ... على شُبَهٍ في مِلْكِها وشوائبِ
يَعيبُ عليّاً خيرَ من وطئَ الحصى ... وأكرمَ سارٍ في الأنام وساربِ
ويُزري على السِّبطين سبطَي محمَّدٍ ... فقل في حضيضٍ رامَ نَيْلَ الكواكبِ
ويَنسبُ أفعالَ القراميطِ كاذباً ... إلى عترة الهادي الكرام الأطائبِ
إلى معشرٍ لا يبرحُ الذمُّ بينهمْ ... ولا تُزْدَرى أعراضُهمْ بالمعايبِ
إذا ما انتدوا كانوا شموسَ بيوتهمْ ... وإن ركبوا كانوا شموسَ المواكبِ
وإن عبَسوا يوم الوغى ضحِكَ الرَّدى ... وإن ضَحِكوا أبكَوا عيونَ النّوادبِ
نَشَوا بينَ جبريلٍ وبينَ محمَّدٍ ... وبينَ عليٍّ خيرِ ماشٍ وراكبِ
وصيِّ النَّبيِّ المصطفى وصفيِّهِ ... ومُشْبِهِهِ في شيمه وضرائبِ[3]
ومن قال في يوم الغدير محمدٌ، ... وقد خاف من غدرِ العِداةِ النّواصبِ:
أما إنّني أولى بكم من نفوسكمْ؟ ... فقالوا: بلى، قولَ المُريبِ الموارِبِ
فقال لهم: من كنت مولاه منكمُ ... فهذا أخي مولاهُ بعدي وصاحبي
أطيعوه طُرّاً فهو منّي بمنزلٍ ... كهارونَ من موسى الكليمِ المخاطَبِ

(١) أدغل في الأمر: أدخل فيه ما يفسده.
(٢) الطنبور والمِزهر: آلتان من آلات الطَّرب. في معجم البلدان: «... بين طنبورٍ ودفٍّ...».
(٣) وردت هكذا في الأعيان...، وفي الغدير: «وزير النّبيّ المصطفى ووصيّه...».

ما يتبع الشّعر

كان عبدالله بن المعتزّ العبّاسي (المتوفّى سنة ٢٩٦هـ.) ممّن ينصب العداء للطّالبيّين، ويتحرّى الوقيعة فيهم بما ينمُّ عن سوء سريرته، ويشفُّ عن خبث طينته، وكثيراً ما كان يفرغ ما ينفجر به بركان ضغائنه في قوالب شعريّة، فجاءت من ذلك قصائد خلّدت له السّوأة والعار، ولقد تصدّى غير واحدٍ من الشّعراء لنقض حججه الدّاحضة، منهم:

الأمير أبو فراس الحمداني، غير أنّه أربى بنفسه الأبيّة عن أن تقابل ذلك الرّجس بالموافقة في البحر والقافية، فصاغ قصيدته الذهبيّة الخالدة الميميّة ينصر فيها العلويّين، وينال من مناوئيهم العبّاسيّين، ويوعز إلى فضائحهم وطامّاتهم التي لا تُحصى.

ومنهم تميم بن معد الفاطمي (المولود سنة ٢٣٧، والمتوفّى سنة ٣٧٤هـ.)، ردّ على قصيدة ابن المعتزّ الرائيّة، وأوّلها: «أيَّ ربعٍ لآل هند ودار...».

وأوّل قصيدة ابن معد:

يا بني هاشمٍ ولسنا سواءً ... في صِغارٍ من العُلى وكبارِ

ومنهم ابن المنجِّم، أبو الحسن عليّ بن هارون (المتوفّى سنة ٣٥٢هـ.). ومنهم أبو محمّد المنصور بالله (المتوفّى سنة ٦١٤هـ.). ومنهم صفيُّ الدّين الحلّي (المتوفّى سنة ٧٥٢هـ.) فقد ردّ عليه ببائيّته الرنّانة المنشورة في ديوانه.

ومنهم القاضي التّنوخي المترجَم له، فقد نظم هذه القصيدة التي ذكرنا منها شطراً ردّاً عليه، وهي مذكورة في كتاب «الحدائق الورديّة»[1] (٨٣) بيتاً،

(١) الحدائق الورديّة: ٢/ ٢١١.

وأحسبها، كما في غير واحدٍ من المجاميع المخطوطة، أنّها تمام القصيدة، وذُكرت في «مطلع البدور»[1] (٧٤) بيتاً، وذكر منها اليماني في «نسمة السّحر»[2] (٤٨) بيتاً، والحموي (١٤) بيتاً في «معجم الأدباء»[3]، وقال: كان عبدالله بن المعتزّ قد قال قصيدةً يفتخر فيها ببني العبّاس على بني أبي طالب أوّلها:

أبى الله إلاّ ما ترونَ فما لكمْ ... غِضاباً على الأقدار يا آلَ طالبِ

فأجابه أبو القاسم التّنوخي بقصيدة نحلها بعض العلويّين، وهي مثبتة في ديوانه أوّلها:

مـن ابـن رسـولِ اللهِ وابـنِ وصيّـهِ ... إلى مُدْغلٍ في عقدةِ الدِّينِ ناصبِ
نشـا بيـن طنبـور ودفٍّ ومِـزْهـرٍ ... وفي حجرِ شادٍ أو على صدرِ ضاربِ
ومـن ظهـر سَكـرانٍ إلـى بَطْـنِ قَيْنَـةٍ ... علـى شُبَـهٍ فـي مِلْكِهـا وشـوائـبِ

يقول فيها:

وقلتَ: بنو حربٍ كَسَوْكُمْ عمائماً ... من الضَّربِ في الهامات حُمْرَ الذّوائبِ
صَـدَقْـتَ منـايـانـا السيـوفُ وإنّمـا ... تموتون فوق الفرشِ موتَ الكواعبِ
ونحـن الألـى لا يسـرحُ الـذمُّ بيننـا ... ولا تَـدَّري[4] أعـراضُنـا بـالمعـايـبِ
إذا ما انتدوا كانوا شموسَ نديّهم ... وإن ركبـوا كـانـوا بـدور الـرّكـائـبِ
وإن عبّسوا يوم الوغى ضحِكَ الرّدى ... وإن ضحكـوا بكّـوا عيـون النـوائـبِ
ومـا للغـوانـي والـوغـى فتعـوّدوا ... بقـرعِ المثـانـي مـن قـراعِ الكتـائـبِ
ويـومَ حنيـنٍ قُلْـتَ حُـزْنـا فَخَـارَهُ ... ولو كان يدري عدّها في المثالبِ
أبـوه منـادٍ والـوصـيُّ مضـاربٌ[5] ... فَقُـلْ فـي منـادٍ صيّـتٍ ومُضـاربِ

(١) مطلع البدور، ص ١٣٦.
(٢) نسمة السّحر: مج٨/ ج٢/ ٣٧٢.
(٣) معجم الأدباء: ١٤/ ١٨١.
(٤) لا تدّري: أي لا تجعل نفسها دريئة للمعايب.
(٥) يريد العبّاس وعليّاً أمير المؤمنين عليه السلام. (المؤلّف)

وجئتم مع الأولادِ تبغونَ إرثَهُ ... فأبْعِدْ بمحجوبٍ بحاجبِ حاجبِ
وقلتمْ: نهضنا ثائرينَ شعارُنا ... بثاراتِ زيدِ الخيرِ عند التّحاربِ
فهلاّ بإبراهيم كان شعارُكم ... فترجعَ دعواكمْ تَعِلّةَ[1] خائبِ

ورواها عماد الدِّين الطبري، في الجزء العاشر من كتابه «بشارة المصطفى لشيعة المرتضى»[2]، وقال: حدّثنا الحسين بن أبي القاسم التميمي، قال: أخبرنا أبو سعيدٍ السجستاني، قال: أنبأنا القاضي ابن القاضي أبو القاسم عليّ بن المحسن بن عليّ التّنوخي ببغداد، قال: أنشدني أبي أبو عليّ المحسِّن، قال: أنشدني أبي أبو القاسم عليّ بن محمّد بن أبي الفهم التّنوخي لنفسه من قصيدةٍ:

ومن قال، في يوم الغدير محمَّدٌ، ... وقد خاف من غدرِ العِداةِ النّواصبِ:
أما أنا أولى منكمُ بنفوسكم؟ ... فقالوا: بلى قولَ المُريب الموارِبِ
فقال لهم: من كنتُ مولاهُ منكمُ ... فهذا أخي مولاهُ فيكمْ وصاحبي
أطيعوهُ طُرّاً فهو منّي كمنزلٍ ... لهارونَ من موسى الكليم المخاطَبِ
فقولا له: إن كنتَ من آلِ هاشمٍ ... فما كلُّ نجمٍ في السّماءِ بثاقبِ

وروى القصيدة وأنّها في ردّ عبدالله بن المعتزّ صاحب «تاريخ طبرستان» (ص ١٠٠) بهاء الدِّين محمَّد بن حسن، وذكر منها خمسة عشر بيتاً، ومنها:

«فكم مثلِ زيدٍ قد أبادت سيوفُكمْ ... بلا سببٍ غيرَ الظّنونِ الكواذبِ
أما حملَ المنصورُ من أرضِ يثربٍ ... بُدورَ هدىً تجلو ظلامَ الغياهبِ
وقطّعتمُ بالبغي يومَ محمَّدٍ ... قرائنَ أرحامٍ له وقرائبِ
وفي أرضِ باخمرى مصابيحُ قد ثوَتْ ... متربّةَ الهاماتِ حُمْرَ الترائبِ
وغادرَ هاديكمْ بفخٍّ طوائفاً ... يغاديهمُ بالقاعِ بُقْعُ النواعبِ

(١) أي تعلّل (المؤلّف).
(٢) بشارة المصطفى، ص ٢٦٨.

وهارونكمْ أودى بغيرِ جريرةٍ ... نجومَ تقىً مثلَ النّجومِ الثّواقبِ
ومأمونكمْ سمَّ الرِّضا بعد بيعةٍ ... تَؤُدُّ ذرى شمّ الجبال الرّواسبِ؟

ويناقش القاضي التّنوخي حجج العبّاسيِّين التي تمثّل نظريّتهم في الحكم، وقوامها: القوّة الغالبة والقرابة من النّبيّ ﷺ فيقول:

. . . وقُلْتَ: قتلنا عبد شمس، فملكُها ... لنا سلب، هل قاتلٌ غير سالبِ؟
فوا عجَباً من حارب صار يدّعي ... مواريثَ خير النّاس ملكاً لحاربِ!
هو السَّلبُ المغصوب لا تملكونه ... وهل سالبٌ للغصب إلاّ كغاصبِ؟
ألنفال جدِّنا تحوزون دوننا ... بزعمكم الأنفال، يا للعجائبِ!
وهل لطليقٍ شركةٌ مع مهاجر؟ ... فلا تثبوا في الدِّين وثب الموائبِ
أخو المرء دون العمّ يحوي تراثه ... إذا قُسِّم الميراث بين الأقاربِ
وأولادُهُ في مُحْكَم الذِّكر ما قروا ... أحقُّ وأولى من أخيه المناسبِ
وقلت: أبونا والدٌ لمحمّد ... فأنتم بنوه دوننا في المراتبِ
فلا تنسَ فالعبّاسُ كان وجدُّنا ... أبو طالب مَثَلين عند التّناسبِ
وأدناهما من كان بالسَّيفِ دونه ... يفلُّ شبا سيف العدوِّ المناصبِ
وشتّان من آوى وآسى بنفسه ... ومزدلفٍ يغزوه بين المقانبِ
أبونا يقيه جاهداً وأبوكم ... يجاهدُه بالمرهَفَات القواضبِ
فنحن بنو عمٍ لنا فوق مالكم ... ونحن بنوه دونكم في المناسبِ
دعَيْت علياً في الحكومة بينه ... وبين ابن حرب والطُّغاة الأشائبِ
فقد حكم المبعوث، يوم قريظة، ... ولا عيبَ في فعلِ الرّسول لعائبِ
بنا نلتم ما نلتم من إمارةٍ ... فلا تظلموا، فالظُّلم مرُّ العواقبِ
وكم مثل زيد قد أبادت سيوفكم ... بلا سبب غير الظّنون الكواذبِ. . .

وينتهي إلى أن يقول للعباسيِّين: عزيز علينا أن تدبّ عقارب الفرقة إلى أبناء العمّ، ولكنّكم بدأتم فردَدْنا، ونتّبع بذلك قول رسول الله ﷺ عندما قال: ردّوا عليهم كمثل مقالهم:

وكنّا لكم، في كلّ حال، مناهلا عِذاباً إذا يُوردن خضر الجوانبِ
فلمّا ملكتمُ كنتم بَعد ذلّةٍ أسوداً علينا داميات المخالبِ
فقل لبني العبّاس، عمّ محمّد، وعمّ عليّ صنوه في المناسبِ:
عزيزٌ علينا أن تدبّ عقاربٌ إلى معشري الأدنى دبيبَ العقاربِ
ولكن بدأتم، فانتصرتُ فأقصروا فليس جزاءُ الذّنب مثل المعاقبِ
وليس سواء ذمُّ سيّدة النّسا وسبُّ رمادٍ بالصّفا والأخاشبِ
وقد قال أصحاب النبيّ محمّد له: قد هجانا مشركو آل غالبِ
فقال لهم: قولوا كمثل مقالهم فما مبتدٍ في الهجر مثل المجاوبِ
فهذا جوابٌ للذي قال: ما لكم غضاباً على الأقدار يا آل طالبِ؟[1]

القاضيان: ولده وحفيده

خلف المترجَم ولده أبو عليّ، المحسن بن عليّ وهو كما قال الثعالبي[2]: «هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشّجر، والشّاهد العدل بمجد أبيه وفضله، والفرع المثيل لأصله، والنّائب عنه في حياته، والقائم مقامه بعد وفاته»، وفيه يقول أبو عبدالله بن الحجّاج:

إذا ذُكر القضاةُ وهم شيوخٌ تخيّرتُ الشّبابَ على الشّيوخِ
ومن لم يرضَ لم أصفَعْه إلاّ بحضرةِ سيّدي القاضي التّنوخي

له كتاب «الفرج بعد الشدّة»، و «نشوار المحاضرة»، و «المستجاد من فعلات الأجواد»، و «ديوان شعره» وهو أكبر من ديوان أبيه، سمع بالبصرة من مشايخها، ونزل بغداد وحدّث بها، وأوّل سماعه بالحديث سنة (٣٣٣هـ.)، وأوّل ما تقلّد القضاء بالقصر وبابل وأرباضهما في سنة (٣٤٩هـ.)، ثمّ ولاّه المطيع لله بعسكر مكرم وإيذج ورامهرمز، وتقلّد غيرها أعمالاً كثيرة.

(١) أعيان...، م.س.، ٨/ ٣٣١ و٣٣٢.
(٢) يتيمة الدّهر: ٢/ ٤٠٥.

وُلد ليلة الأحد لأربعٍ بقين من شهر ربيع الأوّل سنة (٣٢٧هـ.) بالبصرة، وتوفّي ليلة الاثنين لخمسٍ بقين من المحرّم سنة (٣٨٤هـ.) ببغداد، وهو في المذهب شبيهُ أبيه، لكنّ شواهد التشيّع فيه أكثر وأوضح من أبيه.

وأعقب أبو عليّ المحسّن أبا القاسم عليّاً، خلف أبيه وجدّه على علمهما الكثار، وأدبهما الغزير، كان يصحب الشّريف المرتضى، علم الهدى، ويلازمه، وكان من خاصّته، وصحب أبا العلاء المعرّي وأخذ عنه، وكانت بينه وبين الخطيب أبي زكريّا التبريزي صلة ومؤانسة، وتقلّد قضاء المدائن وأعمالها، ودرزنجان، والبردان، وقرميسين وغيرها.

يروي عنه الخطيب البغدادي في «تاريخه»[١]، وترجمه وذكر مشايخه، ويروي عنه أبو الغنائم محمّد بن عليّ بن الميمون النرسي المعروف بأُبَيّ، وهو يروي عن أبي الحسن عليّ بن عيسى الرمّاني كما في إجازة العلاّمة الحلّي الكبيرة لبني زهرة[٢]، وعن أبي عبدالله المرزبانيّ المتوفّى (٣٨٤هـ.)، وأمره في المذهب أوضح من والده وجدّه، وتشيّعه من المتسالم عليه عند أرباب المعاجم، وُلد في منتصف شعبان سنة (٣٧٠هـ.) بالبصرة، وتوفّي ليلة الاثنين ثاني المحرّم سنة (٤٤٧هـ.) ودفن بداره بدرب التلّ.

حدّث الحموي في «معجم الأدباء» عن القاضي أبي عبدالله ابن الدامغاني قال: دخلت على القاضي أبي القاسم التّنوخي، الصغير، قبل موته بقليل، وقد علت سنّه، فأخرج إليّ ولده من جاريته، فلمّا رآه بكى، فقلت: تعيش ـ إن شاء الله ـ وتربّيه ويقرُّ الله عينك به. فقال: هيهات ـ والله ـ ما يتربّى إلاّ يتيماً، وأنشد:

أرى وَلَدَ الفتى كَلاًّ عليه ... لقد سعدَ الذي أمسى عقيما
فإمّا أن يُخلِّفَهُ عدوّاً ... وإمّا أن يُربّيَهُ يتيما

(١) تاريخ بغداد: ١٢/ ١٥ رقم ٦٥٥٨.
(٢) انظر: بحار الأنوار للمجلسي: ١٠٧/ ١١١.

ثمّ قال: أريد أن تزوّجني من أمّه فإنّني قد أعتقتها على صداق عشرة دنانير. ففعلت، وكان كما قال تربّى يتيماً، وهو أبو الحسن محمّد بن عليٍّ بن المحسّن. قبل القاضي أبو عبدالله شهادته، ثمّ مات سنة أربع وتسعين وأربعمئة وانقرض بيته.

شعره

قال أبو القاسم، القاضي التّنوخي، الشِّعر في مختلف الأغراض، وفي ما يأتي نذكر نماذج من شعره[1].

تفيد قراءة النّماذج التي تحتفظ بها كتب الأدب من شعره أنّه كان يكثر القول في الغزل، ويتّصف شعره هذا باللّفظ السّهل والصِّياغة الأنيقة للمعنى اللّطيف الذي لا يخلو من مبالغةٍ ومن إثارة مفارقات تقصد إلى إثارة العجب والدّهشة، يقول في الحبيبة وتأثير العشق:

□ لم أنسَ شمس الضُّحَى تطالعني ... ونحنُ من رقبةٍ على فَرَقِ
وجفنُ عيني بدمعِه شَرِقٌ ... لَمّا بدَت في مُعَصفرٍ شَرَقِ
كأنّما أدمُعي ووجنتُها ... لَمّا رَمَتنا الوُشاةُ بالحَدَقِ
ثمّ تغطّت بكُمِّها خجَلاً ... كالشّمسِ غابت في حُمْرةِ الشّفَقِ

□ فدَيتُ عينيكَ وإنْ كانَتا ... لم تُبقِيا من جَسَدي شيئَا
إلاّ خَيالاً لو تأمّلتَه ... في الشّمسِ لم تُبْصِرْ له فَيْئَا

□ أما في جنايات النّواظر ناظرُ ... ولا منصفٌ إن جار منهنّ جائر؟
بنفسي من لم يَبدُ قطّ لعاذلٍ ... فيرجعُ إلاّ وهو لي فيه عَاذِرُ
ولا لحَظت عَيناهُ ناهٍ عن الهوى ... فأصبَح إلاّ وهو بالحُبِّ آمِرُ
يؤثرُ فيه ناظرُ الفكرِ بالمُنَى ... وتجرحُه باللّمسِ منها الضّمائرُ

(١) راجع: الغدير، م.س.، ٣/ ٥١٥ـ٥٢٩، الوافي بالوفيّات، م.س.، ٢١/ ٤٥٩ـ٤٦٥. معجم الأدباء، م.س.، ١٤/ ١٦٢ ـ ١٩١.

□ رِضَاكَ شَبَابٌ لاَ يَلِيهِ مَشِيبُ ... وَسُخْطُكَ دَاءٌ لَيْسَ مِنْهُ طَبِيبُ
كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ الْقُلُوبِ مُرَكَّبٌ ... فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ الْقُلُوبِ حَبِيبُ

قَالَ: وَمِمَّا أُنْشِدْتُهُ لَهُ وَلَمْ أَجِدْهُ فِي دِيوانِهِ:

قُلْتُ لأَصْحَابِي وَقَدْ مَرَّ بِي ... مُنْتَقِباً بَعْدَ الضِّيَا بِالظُّلَمْ:
بِاللهِ يَا أَهْلَ وِدَادِي قِفُوا ... كَيْ تُبْصِرُوا كَيْفَ زَوَالُ النِّعَمْ

ويبدو واضحاً في شعره أنّه كان يرى إلى أشياء العالم من منظور العاشق، فتلوّن حالة المشتاق إلى الحبيب رؤيته، نلمس ذلك في كثيرٍ من شعره، ومنه:

□ وليلةِ مُشْتاقٍ كأنَّ نجومَها ... قد اغتصبتْ عَيني الكرى فهيَ نُوَّمُ
كأنّ عيونَ السّاهرين لِطُولها ... إذا شَخَصت للأنجم الزُّهْرِ أَنجُمُ
كأنَّ سوادَ اللّيل والفجرُ ضاحكٌ ... يلُوحُ ويخفَى أسودٌ يَتبسَّمُ
□ عَهْدِي بها وضياءُ الصُّبْحِ يطفئُها ... كالسُّرْجِ تُطْفَأُ أو كالأعْيُنِ العُورِ
أَعْجِبْ به حينَ وافى وهْيَ نَيِّرةٌ ... فَظلَّ يطمِسُ منها النُّورَ بالنورِ
□ لم أنسَ دَجلةَ والدُّجى متصوِّبٌ ... والبدرُ في أُفُقِ السَّماءِ مُغرِّبُ
فكأنّه فيها بِسَاطٌ أزرقٌ ... وكأنّهُ فيها طِرازٌ مُذْهَبُ
□ كَتَبْتُ وَلَيْلِي بِالسُّهَادِ نَهَارُ ... وَصَدْرِي لِوُرَّادِ الهُمُومِ صِدَارُ
وَلِي أَدْمُعٌ غُزْرٌ تَفِيضُ كَأَنَّهَا ... سَحَائِبُ فَاضَتْ مِنْ يَدَيْكَ غِزَارُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الدَّمْعِ مَاءً إِذَا جَرَى ... تَلَهَّبُ مِنْهُ فِي الْمَدَامِعِ نَارُ
رَحَلْتُ وَزَادِي لَوْعَةٌ وَمَطِيَّتِي ... جَوَانِحُ مِنْ حَرِّ الفِرَاقِ حِرَارُ
مَسِيرٌ دَعَاهُ النَّاسُ سَيْراً تَوَسُّعاً ... وَمَعْنَى اسْمِهِ إِنْ حَقَّقُوهُ إِسَارُ
إِذَا رُمْتُ أَنْ أَنْسَى الأَسَى ذَكَّرَتْ بِهِ ... دِيَارٌ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ دِيَارُ
لَكَ الخَيْرُ، عَنْ غَيْرِ اخْتِيَارِي تَرَحُّلِي ... وَهَلْ بِي عَلَى صَرْفِ الزَّمَانِ خِيَارُ؟
وَهَذَا كِتَابِي وَالجُفُونُ كَأَنَّهَا ... تُحَكِّمُ فِي أَشْفَارِهِنَّ شِفَارُ

ويبدو هذا المنظور واضحاً أيضاً في وصفه، ومن نماذج ذلك قوله:

□ في النّجوم:

وبدت نجوم اللّيل من خلل الدّجى ... تـدنـو كمـا يتفتّـح النّـوارُ
أقبلـن والمـرّيـخ فـي أوسـاطهـا ... مثـل الـدّراهـم وسطهـا دينـارُ
والجوّ تجلوه النّجوم على الدّجا ... فـي قمـص وشـي مـا لهـا أزرارُ
وكـأنّمـا الجـوزا وشـاح خـريـدةٍ ... والنّجـم تـاج والـوشـاح خِمـارُ

□ وفي الفحم:

فحـمٌ كيـوم الفِـراقِ نُشْعِلُـه ... نـارٌ كَنَـارِ الفِـراقِ فـي الكَبِـدِ
أَسْـوَدُ قـد صـارَ تحـت حُمْـرتهـا ... مثـلَ العُيـونِ اكتحَلْـنَ بـالـرَّمَـدِ

□ وفي مليح الجسم:

مِنْ أينَ أسترُ وَجْدِي وهـو مُنْهَتِكٌ ... مـا للمُتيّـمِ فـي فَتْـكِ الهَـوَى دَرَكُ؟
قالوا: عشقتَ عظيمَ الجسمِ! قلت لهم: ... الشّمـسُ أعظـمُ جُـرْمٍ حـازَه الفَلَـكُ

□ وفي النّاعورة:

بَـاتَـت تَئِـنُّ ومـا بهـا وَجْـدِي ... وحننـتُ مـن وَجْـدٍ إلـى نَجْـدِ
فـدمـوعهـا تحيـا الـريـاضُ بهـا ... ودُمـوعُ عينـي قـرَّحـت خَـدّي

□ وفي البرق:

وقفنا نُجيل الرّأي في ساكني الغضا ... وجمـرُ الغضـا بيـن الضّلـوع يجـولُ
نشيـم بـأرض الشـام بـرقـاً كـأنّـه ... عقـودٌ نِضـادٌ مـالهـنَّ فصـولُ

□ وفي مجلس السّمر:

وراحٍ مـن الشّمـسِ مخلـوقـةٌ ... بـدَتْ لـكَ فـي قَـدَحٍ مـن نهـارِ
هَـواءٌ ولكنّـه سـاكـنٌ ... ومـاءٌ ولكنّـه غيـرُ جـاري
إذا مـا تـأمّلتَـه وهـو فيـه ... تـأمّلـتَ مـاءً محيطـاً بنـارِ
فهـذي النّهـايـة فـي الابيضـاض ... وهـذا النّهـايـة فـي الاحمـرارِ
ومـا كـان فـي الحكـم أن يُـوجَـدا ... لِفَـرْط التنـافـي وفَـرْط النّفـارِ

ولكــن تجــاوز سطحــاهمــا البسيطــان فــاتّفقــا فــي الحــوارِ
كــأنّ المــديــر لهــا بــاليميــن إذا قــام للسَّقْــي أو بــاليَســارِ
تــدرّع ثــوبــاً مــن اليــاسميــن لــه فَــرْدُ كُــمٍّ مــن الجُلّنــارِ

تبدو لغة الشّاعر العالم واضحةً في شعر القاضي التّنوخي الذي مرّ بنا، وهي أكثر وضوحاً في شعره التأمُّلي، ومن نماذجه نذكر قوله في الرّسول والرّسالة:

تخيّرْ إذا ما كنتَ في الأمر مُرْسِلاً فمُبْلِغُ آراءِ الرِّجال رسُولُها
ورَدِّ وفكِّر في الكتاب فإنّما بأطراف أقلام الرِّجال عقولُها

□ وفي الحزم والصّبر وكثرة المزح:

إلْقَ العَدُوَّ بِوَجْهٍ لاَ قُطُوبَ بِهِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ البَشَاشَاتِ
فَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جِسْمِ حِقْدٍ وَثَوْبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ
الصَّبْرُ خَيْرٌ وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ المَزْحِ مِفْتَاحُ العَدَاوَاتِ

وتفيد قراءة شعره المدحي أنّه كان يصوغ معاني المديح المتداولة بلغةٍ أنيقةٍ يقصد الشّاعر إلى تجويدها بالمحسّنات اللفظيّة والمعنويّة، لتمثّل المعنى الطّريف المولّد الذي توصّل إليه وهو في الغالب معنى يجنح إلى المبالغة، وهذا هو المذهب الشّعري الذي كان سائداً في عصره، ومن نماذج شعره في المديح نذكر:

□ مَلِكٌ تُنَاجِيهِ القُلُوبُ بِمَا جَنَتْ وَتَخَافُهُ الأَوْهَامُ وَالأَفْكَارُ
فَيَدٌ مُؤَيَّدَةٌ وَقَلْبٌ قُلَّبٌ وَشَباً يُشَبُّ وَخَاطِرٌ خَطَّارُ
حِينَ العُيُونُ شَوَاخِصٌ وَكَأَنَّهَا لِلْخَوْفِ لَمْ تُخْلَقْ لَهَا أَبْصَارُ
كُلُّ الوَرَى أَرْضٌ وَأَنْتَ سَمَاؤُهَا وَجَمِيعُهُمْ لَيْلٌ وَأَنْتَ نَهَارُ
□ مَا مِنْهُمُ إِلاَّ امْرُؤٌ غَمْرُ النَّدَى سَمْحُ اليَدَيْنِ مُؤَمَّلٌ مَرْهُوبُ
يُغْرِيهِ بِالخُلُقِ الرَّفِيعِ وَبِالنَّدَى وَالمَكْرُمَاتِ العَذْلُ وَالتَّأْنِيبُ
فَلَهُ رَقِيبٌ مِنْ نَدَاهُ عَلَى الوَرَى وَعَلَيْهِ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ رَقِيبُ

□ يجودُ فيستحي الحيا عند جوده ... ويخرسُ صرف الدّهر حين يقولُ
عَطَايَا تُبَارِي الرِّيحَ وَهِيَ عَوَاصِفٌ ... وَيَخْجَلُ مِنْهَا المُزْنُ وَهُوَ هَطُولُ
أَقَامَ لَهُ سُوقاً بَضَائِعُهَا النَّدَى ... سَمَاحٌ لأَرْسَالِ السَّمَاحِ رَسِيلُ(١)
لَهُ نَسَبٌ لَوْ كَانَ لِلشَّمْسِ ضَوْءُهُ ... لَمَا غَالَهَا بَعْدَ الطُّلُوعِ أُفُولُ
□ يَا وَاحِدَ النَّاسِ لاَ مُسْتَثْنِياً أَحَداً ... إِذْ كَانَ دُونَ الوَرَى بِالْمَجْدِ مُنْفَرِدَا
أَمَا تَرَى الرَّوْضَ قَدْ لاَقَاكَ مُبْتَسِماً ... وَمَدَّ نَحْوَ النَّدَامَى لِلسَّلاَمِ يَدَا
فَاخْضَرَّ نَاضِرُهُ فِي أَبْيَضٍ يَقَقٍ(٢) ... وَاصْفَرَّ فَاقِعُهُ فِي أَحْمَرٍ نُضِدَا
مِثْلُ الرَّقِيبِ بَدَا لِلْعَاشِقَيْنِ ضُحًى ... فَاحْمَرَّ ذَا خَجَلاً وَاصْفَرَّ ذَا كَمَداً(٣)
□أسيرٌ، وقلبي، في ذراك، أسيرُ ... وحادي ركابي لوعةٌ وزفيرُ
وَلِي أَدْمُعٌ غُزْرٌ تَفِيضُ كَأَنَّهَا ... جَدَى فَاضَ فِي العَافِينَ مِنْكَ غَزِيرُ
وَطَرْفٌ طَرِيفٌ(٤) بِالسُّهَادِ كَأَنَّهُ ... نَدَاكَ وَجَيْشُ الجُودِ فِيهِ يُغِيرُ
أَبَا أَحْمَدٍ إِنَّ المَكَارِمَ مَنْهَلٌ ... لَكُمْ أَوَّلٌ مِنْ وِرْدِهِ وَأَخِيرُ
سَمَاحٌ كَمُزْنِ الجُودِ فِيهِ تَسَجُّمٌ ... وَغَابٌ لأُسْدِ المَوْتِ فِيهِ زَئِيرُ
شَبَابُ بَنِي شَيْبَانَ شِيبٌ إِذَا انْتَدَوْا(٥) ... وَقُلُّهُمُ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَثِيرُ
وُجُوهٌ كَأَكْبَادِ المُحِبِّينَ رِقَّةً ... عَلَى أَنَّهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ صُخُورُ

□ وله في مُعِزِّ الدَّولة:

للهِ أَيَّامٌ مَضَيْنَ قَطَعْتُهَا ... وَطِوَالُهَا بِالغَانِيَاتِ قِصَارُ
حِينَ الصِّبَا لَدْنُ المَهَزِّ قَضِيبُهُ ... غَضٌّ وَأَنْوَاءُ السُّرُورِ غِزَارُ
أَجْلُو النَّهَارَ عَلَى النَّهَارِ وَأَنْثَنِي ... وَالشَّمْسُ لِي دُونَ الشِّعَارِ شِعَارُ
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ أَقْبَلَ ضَمَّنَا ... دُونَ الإِزَارِ مِنَ العِنَاقِ إِزَارُ

(١) الأرسال: جمع رَسل: القطيع من كلّ شيء، فسماحه لكثرته جعله أرسالاً، والرّسيل: المراسل.
(٢) أي شديد البياض.
(٣) أي غيظاً.
(٤) طريف فعيل بمعنى مفعول، يريد أنّه مصاب.
(٥) انتدوا: جلسوا في الندى «النادي»، يريد مدحهم بأنّهم بلغوا الغاية في الكمال والوقار.

فَعَلَى النُّحُورِ مِنَ النُّحُورِ قَلائِدٌ ... وَعَلَى الخُدُودِ مِنَ الخُدُودِ خِمَارُ
وَبَدَتْ نُجُومُ اللَّيْلِ مِنْ حُلَلِ الدُّجَى ... تَزْكُو كَمَا يَتَفَتَّحُ النُّوَّارُ
أَقْبَلْنَ والمَرِّيخُ فِي أَوْسَاطِهَا ... مِثْلَ الدَّرَاهِمِ وَسْطَهَا دِينَارُ
فَالجَوُّ مَجْلُوُّ النُّجُومِ عَلَى الدُّجَى ... فِي قُمُصٍ وَشْيٍ مَا لَهَا أَزْرَارُ
وَكَأَنَّمَا الجَوْزَا وِشَاحُ خَرِيدَةٍ ... والنَّجْمُ تَاجٌ وَالوِشَاحُ خِمَارُ

* * *

(٢١)
أبو القاسم الزّاهي

التّعريف بالشّاعر

أبو القاسم عليّ بن إسحاق بن خلف القطّان البغداديّ[١]، النازل بالكرخ، في قطيعة الرّبيع. قال الخطيب البغدادي: «وكان دكانه في قطيعة الرّبيع»، ما يشير إلى أنّه كان يعمل قطّاناً، الشّهير بالزّاهي، شاعر عبقريّ تحيّز في شعره إلى أهل بيت الوحي، ودان بمذهبهم، وأدّى بمودّتهم أجر الرّسالة، فكان أكثر شعره الواقع في أربعة أجزاء فيهم مدحاً ورثاءً؛ بحيث عُدّ في «معالم العلماء» في طبقة المجاهرين من شعرائهم وصّافاً، فلم يزل فيه يكافح عنهم ويناطح، وينازل ويناضل، ولذلك لم يُلْفِ نشوراً بين من كان يناوئهم أو لا يقول بأمرهم، فحسبوه مُقلاً من الشّعر كما في «تاريخ بغداد» وغيره. قال الخطيب البغدادي: «وأحسب شعره قليلاً». غير أنّ جزالة شعره، وجودة تشبيهه، وحسن تصويره، لم يدع لأرباب المعاجم منتدحاً من إطرائه[٢].

وفي فهم المعنى الذي لا يبارح الخلافة والإمامة من لفظ «المولى»، من

---

(١) تراجع ترجمته في الغدير، م.س.، ٣/ ٥٣١ ـ ٥٤٤، وهي المعتمدة هنا مع بعض التعديل والإضافة، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، م.س.، ١١/ ٣٥٠، ترجمة رقم ٦١٩٤، وفي يتيمة الدّهر: ١/ ٢٨٩، الأنساب: ٣/ ١٢٦، مناقب آل أبي طالب: ٤/ ١٣٠، معالم العلماء، ص ١٤٨، وفيّات الأعيان: ٣/ ٣٧١ رقم ٤٦٧، مجالس المؤمنين: ٢/ ٥٤٤، بحار الأنوار: ٤٥/ ٢٤٧، الكنى والألقاب: ٢/ ٢٨٧، الأعلام: ٤/ ٢٦٣، أعيان الشّيعة، ٨/ ١٦٣ و١٦٤.

(٢) قطيعة الرّبيع: تنسب إلى الرّبيع بن يونس، حاجب المنصور، ووالد الفضل بن الرّبيع، وزير هارون الرّشيد وابنه الأمين، الزّاهي: نسبةً إلى «زاه»، وهي قرية من قرى نيسابور في خراسان.

مثل الزّاهي العارف بمعاريض الكلام، والمتسالم على تضلّعه في اللّغة والأدب العربيّ، وبثّه في نظمه، حجّةٌ قويّةٌ على الصّواب الذي ترتئيه الشّيعة في الاستدلال بحديث الغدير على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

وُلد الزّاهي يوم الاثنين لعشر ليالٍ بقين من صفر سنة (٣١٨هـ.) كما نصّ به ابن خلّكان نقلاً عن «طبقات الشّعراء» لعميد الدّولة، وتُوفّي ببغداد يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من جمادى الأولى سنة (٣٥٢هـ.) في رواية عميد الدّولة، ودفن في مقابر قريش. أو بعد سنة (٣٦٠هـ.) في ما قاله الخطيب نقلاً عن التّنوخي، وأرّخه السمعاني كذلك نقلاً عن الخطيب.

وتفيد قراءة شعر الزّاهي أنّه كان عالماً مفكّراً، سامي الخُلق، غير أنّ الدّهر لم ينصفه فأصابه بـ«ذنوب» تستدرُّ دمعاً من العينين يحول دون إحصائها، ومن شعره الدّال على ذلك نقرأ:

اللّيلُ، من فكري، يصير ضياء	والسّيفُ، من نظري، يذوبُ حياء
والخيلُ، لو حملتها علمي بها،	لتركتها، تحت العجاج، هباء
أحصي، على دهري، الذُّنوب بمقلةٍ	لدموعها لا أملك الإحصاء
عجباً لصروف الدّهر كيف يخون من	غمر البريّة نجدةً ووفاء
عدم الصياح فناب عنه بفكره	وعلت يداه فطاول الجوزاء

شعره في «يوم الغدير»
وفي مدح الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام

قال في فضائل الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وفي يوم الغدير:

لا يهتدي إلى الرّشادِ من فَحَصْ	إلاّ إذا والى عليّاً وخلصْ
ولا يذوقُ شَربةً من حوضِهِ	من غمسَ الولا عليهِ وغمَصْ(١)
ولا يشمُّ الرّوحَ من جنانِهِ	من قال فيه من عداهُ وانتقصْ

(١) يقال: غمص النّعمة غمصاً؛ أي تهاون بها وكفرها وازدرى بها.

نفسُ النبيِّ المصطفى والصِّنوُ والـ ـخليفـةُ الـوارثُ للعلـمِ بنـصْ
مـن قـد أجـابَ سـابقـاً دعـوتَـهُ وهـو غـلامٌ، وإلـى اللهِ شَخَـصْ
مـا عَـرَفَ الـلاّتَ ولا العُـزّى ولا انـ ـثنـى إليهمـا ولا حـبّ ونـصْ
مـن ارتقـى متـنَ النبـيِّ صـاعـداً وكسّـرَ الأوثـانَ فـي أولـى الفُـرَصْ
وطهّـرَ الكعبـةَ مـن رجـسٍ بهـا ثـمّ هـوى لـلأرض عنهـا وقمـصْ(١)
مـن قـد فـدى بنفسِـهِ محمّـداً ولـم يكـن بنفسـهِ عنـهُ حَـرَصْ
وبـاتَ مـن فـوقِ الفـراشِ دونَـهُ وجـادَ فـي مـا قـد غـلا ومـا رخـصْ
مـن كـان فـي بـدرٍ ويـوم أُحُـدٍ قـطّ مـن الأعنـاقِ مـا شـاءَ وقـصْ
فقـال جبـريـل ونـادى: «لا فتـى إلاّ علـيّ»، عـمّ فـي القـول وخـصْ
مـن قـدَّ عمـرو العـامـريَّ سيفُـهُ فخـرَّ كـالفيـلِ هـوى ومـا فحـصْ
وراء مـا صـاح الا مبـارزٌ فالتوَت الأعناقُ تشكو من وَقصْ(٢)
مـن أُعطـي الـرّايـةَ يـومَ خيبـرٍ من بعد ما بها أخو الدّعوى نَكَصْ
وراح فيهـا مُبصـراً مستبصـراً وكـان أرمـداً بعينيـه الـرمَـصْ(٣)
فـاقتلـعَ البـابَ ونـالَ فَتْحَـهُ ودكَّ طَـودَ مـرحـبٍ لمّـا قعـصْ(٤)
مـن كَسّـحَ البصـرةَ مـن نـاكثِهـا وقـصّ رجـلَ عسكـرٍ(٥) بمـا رقـصْ
وفـرّق المـالَ وقـالَ: خمسـةٌ لـواحـدٍ فسـاوت الجنـد الحصـصْ
وقـال: فـي ذي اليـوم يـأتـي مـددٌ وعـدّه فلـم يَـزِدْ ومـا نقـصْ
ومـن بصفّيـنَ نضـا حسـامَـهُ فَفَلّـق الهـامَ وفـرّق القَصـصْ(٦)
وصـدّ عـن عمـرو وبُسْـرٍ كـرمـاً إذ لَقيـا بـالسـوأتيـن مـن شخـصْ(٧)

(١) قمص: وثب.
(٢) وقص العنق: كسرها وَدَقّها.
(٣) الرمص: قذىً تلفظ به العين.
(٤) قعصه واقعصه: قتله مكانه، أجهز عليه.
(٥) عسكر: اسم الجمل الذي كانت تركبه عائشة يوم الجمل.
(٦) القص: الصّدرُ أو عظمُه.
(٧) إشارة إلى إعراض الإمام عليّ عليه السلام عن هذين الرّجلين في صفّين.

ومن أسالَ النّهروانَ بالدُّما — وقطّع العرق الذي بها رهصْ
وكذّب القائل أن قد عَبَرُوا — وعدّ من يُحْصَدُ منهمْ ويُحَصْ[1]
ذاك الّذي قد جمعَ القرآن في — أحكامِهِ للواجباتِ والرُّخصْ
ذاك الّذي آثر في طعامِهِ — على صيامِهِ وجادَ بالقُرَصْ
فأنزل اللهُ تعالى ﴿هَلْ أَتَى﴾ — وذَكَر الجزاءَ في ذاكَ وقَصْ[2]
ذاك الذي استوحشَ منه أنسٌ — أن يشهَدَ الحقّ فشاهدَ البَرَصْ[3]
إذ قال: من يشهَدُ بالغديرِ لي؟ — فبادَرَ السّامعُ وهو قد نكصْ
فقال: أُنسيتُ، فقال: كاذبٌ — سوف ترى ما لا تُواريه القُمُصْ
يا ابنَ أبي طالبٍ يا من هو من — خاتم الأنبياءِ في الحكمةِ فُصْ
فضلُكَ لا يُنكَرُ لكنّ الولا — قد ساغَهُ بعضٌ وبعضٌ فيه غَصْ
فذكرُهُ عند مُواليكَ شِفا — وذكرُهُ عند مُعاديك غُصصْ
كالطّيرِ بعضٌ في رياضٍ أزهرَتْ — وابتسم الوردُ وبعضٌ في قفصْ

وله في ذكر خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وأنّها له بنصّ حديث الغدير، قوله:

قدّمتُ حيدرَ لي مولىً بتأميرِ — لمّا علمتُ بتنقيبي وتنقيري
إنّ الخلافةَ من بعد النبيِّ لهُ — كانت بأمرٍ من الرحمٰن مقدورِ
من قال أحمدُ في يوم الغدير له — بالنّقلِ في خبرٍ بالصّدقِ مأثورِ:
قُم يا عليُّ فكن بعدي لهم عَلَماً — واسعد بمنقلبٍ في البعثِ محبُورِ
مولاهمُ أنتَ والموفي بأمرِهمُ — نصٌّ بوحيٍ على الأفهام مسطورِ
وذاك أنَّ إلٰهَ العرش قال لهُ: — بلّغ وكن عند أمري خيرَ مأمورِ
فإن عَصَيْتَ ولم تفعل فإنّك ما — بلّغتَ أمري ولم تصدع بتذكيري

(١) حص الشيء: قطع عنه.
(٢) إشارة إلى نزول آية ﴿هَلْ أَتَى﴾ في العترة الطّاهرة وسيّدهم.
(٣) إشارة إلى ما حدث لأنس عندما لم يشهد بالحقّ.

وله قوله يمدح أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر فرض ولائه بحديث الغدير :

دع الشّنـاعـاتِ أيّهـا الخُـدَعَـهْ ... واركـن إلـى الحـقّ واغـدُ متّبعَـهْ
مـن وحّـدَ اللهَ أوّلاً وأبـى ... إلاّ النبـيَّ الأمـيَّ واتّبعَـهْ
مـن قـال فيـه النبيُّ : كـان مـع الـ ... ـحـقّ علـيٌّ والحـقُّ كـان معَـهْ
مـن سـلّ سيـفَ الإلـهِ بينهـمُ ... سيفـاً مـن النـور ذو العُلى طَبَعَـهْ
مـن هـزّم الجيـش يـومَ خيبـرِهـمْ ... وهـزّ بـابَ القمـوصِ فـاقتلعَـهْ
مـن فَـرَضَ المصطفـى ولاهُ علـى الـ ... ـخلـقِ بيـوم الغـديـرِ إذ رفعَـهْ
أشهـدُ أنّ الـذي تقـولُ بـه ... يعلـمُ بطـلانَـهَ الـذي سَمِعَـهْ

وقال يمدحه ـ صلوات الله عليه ـ :

أُقيـمَ بخـمٍّ للخـلافـةِ حيـدرٌ ... ومـن قبـلُ قـال الطّهـرُ مـا ليس يُنكرُ
غـداةَ دعـاهُ المصطفـى وهـو مُزمِـعٌ ... لقصـدِ تبـوكٍ وهـو للسّيـرِ مُضْمِـرُ
فقـال : أَقِـمْ عنّـي بِطَيْبَـةَ واعلَمَـنْ ... بـأنّـك للفُجّـار بـالحـقّ تقهـرُ
ولمّـا مضـى الطّهـرُ النبـيُّ تظاهـرتْ ... عليـه رجـالٌ بـالمقـالِ وأجهـرُوا
فقـالـوا : علـيٌّ قـد قـلاه محمّـدٌ ... وذاك مـن الأعـداءِ إفـكٌ ومنكـرُ
فـأتبعـه دون المعـرّسِ فـانثنـى ... وقـالـوا : علـيٌّ قـد أتـى فتـأخّـرُوا
ولمّـا أبـانَ القـولَ عمّـن يقـولُـهُ ... وأبـدى لـه مـا كـانَ يُـبدي ويُضمـرُ
فقـال : أمـا تـرضـى تكـونُ خليفتـي ... كهارونَ من موسى وشأنُك أكبرُ؟
وعـلاّه خيـرُ الخَلـقِ قَـدْراً وقُـدرةً ... وذاك مـن الله العلـيُّ مقـدّرُ
وقـال رسـول الله : هـذا إمـامكـمْ ... لـه الله نـاجـى أيّهـا المتحيّـرُ

ولمّا لم يكن في المعاجم عناية بشعره المذهبيّ الراقي، فنحن نذكر منه شطراً؛ فمن ذلك قوله يمتدح به أمير المؤمنين عليه السلام :

يـا سـادتـي يـا آلَ يـاسيـنَ فقـطْ ... عليكـمُ الـوحـيُ مـن اللهِ هَبَـطْ
لـولاكـمُ لـم يُقبَـلِ الفـرضُ ولا ... رحنـا لبحـر العفـو مـن أكـرمِ شَـطْ
أنتـمْ وُلاةُ العهـدِ فـي الـذرِّ ومـن ... هـواهـمُ اللهُ علينـا قـد شَـرَطْ

مـــا أحـــدٌ قـــايسَكـــمْ بغيـــرِكـــم ومـازجَ السّلسـلَ بـالشّـرب اللمَـطْ[1]
إلاّ كمـن ضـاهـى الجبـال بـالحصى أو قـايـس الأبحـرَ جهـلاً بـالنقَـطْ

***

صنوُ النبيِّ المصطفى والكاشف الـ ـغمّـاء عنـه والحسـامُ المختـرَطْ
أوّلُ مــن صــامَ وصلّــى سـابقـاً إلـى المعـالـي وعلـى السّبـق غُبـطْ

***

مكلّـــمُ الشّمـــسِ ومـــن رُدّت لــهُ ببـابـلٍ والغـربُ منهـا قـد قبـطْ[2]
وراكــضُ الأرضِ ومـــن أنبـــعَ للـ ـعسكرِ ماءَ العينِ في الوادي القحطْ
بحـــرٌ لــديـــه كـــلُّ بحـرٍ جـدولٌ يغـــرفُ مـــن تيّـــاره إذا اغتمـــطْ
وليـــثُ غـــابٍ كـــلُّ ليـثٍ عنـده ينظـره العقـل صغيـراً إذ فلـطْ[3]
بـاسـط علـم الله فـي الأرض ومـن بحبّـه الـرحمٰـن للـرّزق بسـطْ
سيـفٌ لَـوَ انّ الطّفـل يلقـى سيفـه بكفّـه فـي يـوم حـربٍ لَشَمَـطْ[4]
يخطـو إلـى الحـرب بـهِ مـدّرعـاً فكـمْ بـه قـد قـدّ مـن رجْـسٍ وقـطْ

قوله: مكلّم الشّمس:

أشار به إلى ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال لعليٍّ: «يا أبا الحسن، كلّم الشّمس فإنّها تكلّمك». قال عليٌّ عليه السلام: «السّلام عليك أيّها العبد المطيع لله ورسوله».

فقالت الشّمس: وعليك السّلام يا أمير المؤمنين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين، يا عليٌّ، أنت وشيعتك في الجنّة، يا عليٌّ، أوّل من تنشقّ عنه الأرض محمّد ثمّ أنت، وأوّل من يُحيا محمّد ثمّ أنت، وأوّل من يُكسى محمّد ثمّ أنت.

(١) اللّمط: المضطرب العكر.
(٢) قُبط: جُمع.
(٣) فلط عن الشّيء: دهش عنه.
(٤) شمط الشّيء يشمطه: خلطه، والشّمط في الشّعر: اختلافه بالسّواد والبياض.

فسجد عليٌّ عليه السلام لله تعالى وعيناه تذرفان بالدّموع، فانكبّ عليه النبيُّ، فقال: «يا أخي وحبيبي، إرفع رأسك فقد باهى الله بك أهل سبع سماوات».

أخرجه شيخ الإسلام الحمّوئي في «فرائد السّمطين»[1]، والخوارزمي في «المناقب»[2]، والقندوزي في «الينابيع»[3].

وقوله: ومَن رُدّت له ببابل:

حديث ردّ الشّمس لعليٍّ عليه السلام ببابل أخرجه نصر بن مزاحم في كتاب «صفّين»[4] ـ طبع مصر ـ بإسناده عن عبد خير، قال: كنت مع عليّ أسير في أرض بابل وحضرت الصّلاة ـ صلاة العصر ـ قال: فجعلنا لا نأتي مكاناً إلاّ رأيناه أفيح من الآخر، قال: حتى أتينا على مكانٍ أحسن ما رأينا وقد كادت الشّمس أن تغيب، قال: فنزل عليٌّ ونزلت معه، قال: فدعا الله فرجعت الشّمس كمقدارها من صلاة العصر، قال: فصلّينا العصر، ثمّ غابت الشّمس.

قوله: ومن أنبع للعسكر ماء العين:

أشار به إلى ما رواه نصر بن مزاحم في كتاب «صفّين»[5]، بإسناده عن أبي سعيد التيمي التابعيّ المعروف بعقيصا أنّه قال: كنّا مع عليّ في مسيره إلى الشّام، حتّى إذا كنّا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد، عطش النّاس واحتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا عليٌّ حتى أتى بنا على صخرة ضرس من الأرض كأنّها ربضة عنز، فأمرنا فاقتلعناها فخرج لنا ماءٌ، فشرب النّاس منه وارتووا، قال: ثمّ أمرنا فأكفأناها عليه.

(١) فرائد السّمطين: ١/ ١٨٥، باب ٣٨، ح١٤٧.
(٢) المناقب، ص ١١٣، ح١٢٣.
(٣) ينابيع المودّة: ١/ ١٤٠، باب ٤٩.
(٤) وقعة صفّين، ص ١٣٦.
(٥) وقعة صفّين، م.س.، ص ١٤٥.

قال: وسار النّاس حتّى إذا مضينا قليلاً، قال عليٌّ: «منكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟». قالوا: نعم يا أمير المؤمنين. قال: «فانطلقوا إليه». قال: فانطلق منّا رجالٌ ركباناً ومشاةً، فاقتصصنا الطّريق حتّى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنّه فيه.

قال: فطلبناها[1] فلم نقدر على شيء، حتّى إذا عيل علينا انطلقنا إلى ديرٍ قريبٍ منّا فسألناهم: أين الماء الذي هو عندكم؟ قالوا: ما قربنا ماء. قالوا: بلى، إنّا شربنا منه. قالوا: أنتم شربتم منه؟ قلنا: نعم. قال صاحب الدّير: ما بُني هذا الدّير إلاّ بذلك الماء، وما استخرجه إلاّ نبيٌّ أو وصيُّ نبيٍّ.

ومن قصيدته الطائيّة قوله:

وهــو لكــلّ الأوصيــاء آخــرُ ... بضبطه التّوحيدَ في الخَلقِ انضبطْ
بـاطـنُ علـمِ الغيـب والظّـاهـرُ فـي ... كشـفِ الإشـارات وقطـبُ المغتبطْ
أحيـا بحـدِّ سيفِـهِ الـدِّيـنَ كمـا ... أمـاتَ مـا أبـدعَ أربـابُ اللّغَـطْ
مفقّـهُ الأمّـةِ والقـاضـي الـذي ... أحاطَ من علمِ الهدى ما لم يُحَطْ
والـنّبـأُ الأعظـمُ والحجّـةُ والـ ... ـمحنةُ والمصباحُ في الخَطْبِ الورطْ[2]
حبـلٌ إلـى الله وبـابُ الحطّـةِ الـ ... ـفـاتـحُ بـالـرّشـدِ مغـاليقَ الخُطَـطْ
والقـدمُ الصّـدق الـذي سيـطَ بـه ... قلـبُ امـرئٍ بـالخطـواتِ لـم يسـطْ
ونهـرُ طـالـوتَ وجنـبُ اللهِ والـ ... ـعيـنُ التـي بنـورِهـا العقـلُ خَبَـطْ
والأذُنُ الـواعيـةُ الصمّـاءُ عـن ... كـلِّ خنـا يغلـطُ فيـه مـن غَلَـطْ
حسـنُ مـآبٍ عنـد ذي العـرشِ ومـن ... لـولا أيـاديـهِ لكنّـا نختبـطْ

قوله: الأذن الواعية:

---

(١) أي الصّخرة (المؤلّف).

(٢) تاريخ بغداد، م.س.، ١٢/ ٣٠٥.

في أعيان الشّيعة: ٨/ ١٦٤ ورد البيت هكذا:

والنّبـأ الأعظـم والحجّـة والمصبـاح ... فـي المحنـة والخطـب الـورط

إشارةً إلى ما أخرجه الحافظ أبو نعيم في «حلية الأولياء» عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«يا عليُّ، إنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أُدنيَك وأُعلّمَك لتعي ـ وأُنزلت هذه الآية: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة/ ١٢] ـ فأنت أُذُنٌ واعيةٌ لعلمي». وأخرجه جمعٌ من الحفّاظ.

وقال القاضي عضد الإيجي في «المواقف»[1]: أكثر المفسّرين في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أنه عليٌّ.

وله في مدح مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

والِ عليّاً واستضِئْ مقباسَهُ ... تدخلْ جِناناً ولتُسْقَ كاسَهُ
فمن تولّاهُ نجا ومن عَدا ... ما عَرَفَ الدِّينَ ولا أساسَهُ
أوّلُ من قد وحّدَ الله وما ... ثنى إلى الأوثانِ يوماً راسَهُ
فدى النّبيَّ المصطفى بنفسِهِ ... إذ ضيّقتْ أعداؤهُ أنفاسَهُ
باتَ على فرشِ النبيِّ آمناً ... واللّيلُ قد طافَتْ به أحراسَهُ
حتّى إذا ما هجَمَ القومُ على ... مستيقظٍ بنصلِهِ أشماسَهُ
ثارَ إليهم فتَولّوا مِزَقاً ... يمنعُهمْ عن قربِهِ حماسَهُ
مُكسِّرُ الأصنامِ في البيتِ الذي ... أُزيحَ عن وجهِ الهدى غِماسَهُ
رقى على الكاهلِ من خيرِ الورى ... والدِّينُ مقرونٌ به أنباسَهُ
ونكّس اللاتَ وألقى هُبَلاً ... مُهشَّماً يقلبه انتكاسَهُ
وقام مولايَ على البيتِ وقد ... طهّره إذ قد رمى أرجاسَهُ
واقتلع الباب اقتلاعاً معجزاً ... يُسمعُ في دويّه ارتجاسَهُ
كأنّه شرارةٌ لموقدٍ ... أخرجها من ناره مقباسَهُ
من قد ثنى عمرو بنَ وُدٍّ ساجياً ... إذ جزعَ الخندقَ ثمّ جاسَهُ

(١) المواقف، ص ٤١١.

مـن هبـط الجبَّ ولـم يخشَ الرَّدى والمـاءُ منحـلُّ السّقـا فجـاسـهُ
مـن أحـرقَ الجـنَّ بـرجـمِ شُهبِـهِ أشـواظـه يقـدمُهـا نُحـاسـهُ
حتّـى انثنـت لأمـره مـذعنـةً ومنهـمُ بـالعَـوَذِ احتـراسـهُ

بيان: أشار بقوله: من هَبَط الجبّ، إلى ما أخرجه الإمام أحمد في «المناقب»(1) عن عليّ عليه السلام قال: «لمّا كان ليلة بدر قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من يستقي لنا من ماءٍ؟». فأحجم النّاس عنه، فقام عليٌّ فاحتضن قربة، ثمّ أتى بئراً بعيدة القعر مظلمة فانحدر فيها، فأوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل: أن تأهّبوا لنصر محمّد وأخيه وحزبه. فهبطوا من السّماء لهم لغطٌ يذعر من سمعه، فلمّا حاذوا البئر سلّموا عليه من عند آخرهم، إكراماً له وإجلالاً(2).

وله في مدحه ـ صلوات الله عليه ـ قوله:

هـذا الـذي أردى الـوليـدَ وعُتْبـةً والعـامـريّ وذا الخمـارِ ومـرحبـا
هـذا الـذي هشمـتْ يـداهُ فـوارسـاً قسـراً ولـم يـكُ خـائفـاً متـرقّبـا
فـي كـلِّ منبـتِ شعـرةٍ مـن جسمِـهِ أسَـدٌ يمـدُّ إلـى الفـريسـة مِخلَبـا

وله فيه ـ سلام الله عليه ـ قوله:

أبـا حسـنٍ جعلتُـكَ لـي مـلاذاً ألـوذُ بـه ويشملُنـي الـزمـامـا
فكـن لـي شـافعـاً فـي يـومِ حشـري وتجعـل دار قُـدسـك لـي مقـامـا
لأنّـي لـم أكـن مـن نعثلـيٍّ ولا أهـوى عتيـقَ ولا دمـامـا

وله ـ مادحاً أهل البيت الطّاهر ـ قوله:

يـا لائمي فـي الـولا هـل أنـت تعتبرُ بمـن يُـوالـي رسـولَ الله أو يـذرُ؟

(1) حديث رقم ١٧١، وفي فضائل الصّحابة: ح ١٠٤٩، تاريخ ابن عساكر: رقم ٨٦٨، وفي أماليه، الجزء ٢٢١، ذخائر العقبى، ص ٦٨، تذكرة الخواص، ص ٤٦ عن أحمد قال: وذكره أرباب المغازي، جواهر المطالب: ١/ ٩١، سمط النّجوم العوالي: ٢/ ٤٨٥، وأخرجه ابن شاهين كما في جمع الجوامع للسيوطي: ٢/ ٧٨ (الطباطبائي).

(2) شرح نهج البلاغة: ٩/ ١٧٢، خطبة ١٥٤.

قـومٌ لَـوَ أنَّ البحـار تنـزف بـالأ قلام مَشقاً[1] وأقلام الدُّنا شجرُ[2]
والإنـسُ والجـنُّ كُتّـابٌ لفضلِهـمُ والصّحفُ ما احتوت الآصال والبكرُ
لم يكتبوا العُشر بل لم يعدُ جهدُهمُ فـي ذلـك الفضـل إلاّ وهـو محتقـرُ
أهـلُ الفَخَـارِ وأقطـابُ المـدارِ ومـن أضحـت لأمـرهـمُ الأيّـامُ تـأتمـرُ
هم آلُ أحمدَ والصّيدُ الجحاجحةُ الزّ هـرُ الغطـارفـة العلـويّـة الغـررُ[3]
والبيض من هاشم والأكرمون أولو الـ ـفضل الجليلِ ومن سادت بهم مضرُ
فافطن بعقلِكَ هل في القدْر غيرهمُ قـومٌ يكـاد إليهـم يـرجـعُ القـدرُ؟
أُعطُوا الصّفا نَهَلاً أُعطُوا النبوّة من قبـلِ المـزاجِ فلـم يلحـق بهـم كَـدَرُ
وتُـوِّجـوا شـرفـاً مـا مثلُـهُ شـرفٌ وقُلّـدوا خطَـراً مـا مثلُـه خطـرُ
حسبـي بهـم حُججـاً لله واضحـةً يجـري الصّـلاةُ عليهـم أينمـا ذكـرُوا
هم دوحةُ المجدِ والأوراقُ شيعتهمْ والمصطفـى الأصـلُ والـذرّيـةُ الثّمـرُ

وله في رثاء أهل البيت قوله:

يـا آلَ أحمـدَ مـاذا كـان جـرمُكُـمُ فكـلُّ أرواحِكـمْ بـالسَّيـفِ تُنتـزَعُ
تُلفـى جمـوعُكـمُ شتّـى مفـرَّقـةً بيـن العبـادِ وشمـلُ النّـاسِ مجتمـعُ
وتُستبـاحـون أقمـاراً مُنكّسـةً تهـوي وأروُسُهـا بـالسّمـرِ تُقتَـرعُ
ألستـمُ خيـرَ مـن قـامَ الـرّشـادُ بكـم وقـوّضـت سُنـنُ التضليـلِ والبِـدعُ
ووُحِّـد الصّمـدُ الأعلـى بهـديكـمُ إذ كنتـمُ عَلَمـاً للـرّشـد يُتّبـعُ؟
مـا للحـوادثِ لا تجـري بظـالمكـم؟ مـا للمصـائـب عنكـم ليـس تـرتـدعُ؟

---

(١) مشق الخطّ: مدّه، وقيل: أسرع فيه.

(٢) أشار إلى ما ورد عن رسول الله ﷺ من قوله: «لو أنّ الأشجار أقلام، والبحر مداد، والجنّ حسّاب، والإنس كتّاب ما أحصوا فضائل عليّ بن أبي طالب». مناقب الخوارزمي: ص ٢، ٢٣٥ [ص ٣٢، ح١، ٣٢٨ ح٣٤١]، كفاية الطّالب: ص ١٢٣ [ص ٢٥١ باب ٦٢]، تذكرة السّبط: ص ٨ [ص ١٣] (المؤلّف).

(٣) الصِّيد: جمع أصيَد، وهو الذي يرفع رأسه كبراً، والمراد أنّهم أباة أعزّة النّفوس. الجحاجحة: جمع جحجاح، وهو السيّد الكريم، الغطارفة: جمع غطريف، وهو السيّد.

منكم طريدٌ ومقتولٌ على ظمأٍ ... ومنكمُ دنفٌ بالسّمرِ مُنصرعُ
وهاربٌ في أقاصي الغربِ مغتربٌ ... ودارعٌ بدمِ اللبّاتِ مندرعُ
ومقصدٌ من جدارٍ ظلّ مُنكدراً ... وآخر تحت ردم فوقه يقعُ
ومن محرّقٍ جسم لا يُزارُ له ... قبرٌ ولا مشهدٌ يأتيه مرتدعُ
وإن نسيتُ فلا أنسى الحسينَ وقد ... مالت إليهِ جنودُ الشّركِ تقترعُ
فجسمُهُ لحوامي الخيلِ مطّردٌ ... ورأسه لسنان السُّمر مرتفعُ

وله في رثائهم ـ سلام الله عليهم ـ قوله :

بنو المصطفى تَفْنَوْن بالسّيفِ عنوةً ... ويُسلمني طيفُ الهجوع فأهجعُ
ظُلِمتم وذُبّحتمْ وقُسّمَ فيئُكمْ ... وجارَ عليكمْ من لكمْ كانَ يخضعُ
فما بقعةٌ في الأرض شَرقاً ومغرباً ... وإلاّ لكمْ فيها قتيلٌ ومصرَعُ

وله في رثاء الإمام السّبط الشّهيد عليه السلام قوله :

أعاتبُ عيني إذا أقصرتْ ... وأفني دموعي إذا ما جَرَتْ
لذكراكمُ يا بني المصطفى ... دموعي على الخطِّ قد سُطّرتْ
لكم وعليكم جَفَتْ غَمْضَها ... جفوني عن النّومِ واستشعرتْ
أُمثّلُ أجسادكم بالعراقِ ... وفيها الأسنّةُ قد كُسّرتْ
أُمثّلكم في عراصِ الطّفوفِ ... بدوراً تكسّفُ إذا أقمرتْ
غدتْ أرضُ يثربَ من جمعكمْ ... كخطِّ الصّحيفةِ إذ أقفرتْ
وأضحى بكم كربلا مغرباً ... كزهر النّجوم إذا غوّرتْ
كأنّي بزينبَ حول الحسين ... ومنها الذّوائب قد نُشّرتْ
تُمرّغ في نحرهِ وجهَها ... وتُبدي من الوجدِ ما أضمرتْ
وفاطمةٌ عقلُها طائرٌ ... إذ السّوطَ في جنبها أبصرتْ
وللسّبطِ فوق الثّرى جثّةٌ ... بفيضِ دم النّحرِ قد عُفّرتْ
وفتيتُهُ فوق وجهِ الثّرى ... كمثلِ الأضاحي إذا جُزّرتْ
وأرؤسُهم فوقَ سُمرِ القنا ... كمثلِ الغصونِ إذا أثمرتْ

ورأسُ الحسيـن أمـام الـرّفـاقِ كغُـرّةِ صُبـحٍ إذا أسفـرتْ

وله في رثائه ـ صلوات الله عليه ـ قوله:

إبكي يا عين إبكي آلَ رسول الـ ـلّـه حتّى تُخدّ منكِ الخدودُ
وتقلّبْ يا قلبُ في ضَرم الحزنِ فما في الشّجا لهم تفنيدُ
فهمُ النّخل باسقاتٌ كما قال سوامٍ لهنّ طلعٌ نضيدُ
وهمُ في الكتابِ زيتونةُ النّور وفيها لكلّ نارٍ وقودُ
وبأسمائهم إذا ذُكِرَ اللهُ بأسمائِهِ اقترانٌ أكيدُ
غادرتهمْ حوادثُ الدّهرِ صرعى كلُّ شهمٍ بالنّفس منه يجودُ
لست أنسى الحسينَ في كربلاءَ وهو ظامٍ بين الأعادي وحيدُ
ساجدٌ يلثم الثّرى وعليهِ قُضُبُ الهندِ ركّعٌ وسجودٌ
يطلبُ الماءَ والفراتُ قريبٌ ويرى الماءَ وهو عنهُ بعيدُ
يا بني الغدر من قتلتُمْ لَعمري؟ قد قتلتمْ من قامَ فيه الوجودُ

وله في أهل البيت الطّاهر ـ سلام الله عليهم ـ:

قومٌ سماؤهمُ السّيوفُ وأرضُهمْ أعداؤهمْ ودمُ النّحورِ بحورها
يستمطرونَ من العجاجِ سحائباً صوبَ الحتوفِ على الزّحوف مطيرها
وحَنادسُ الفتنِ التي إن أظلمتْ فشموسها آراؤهم وبُدورها
ملكوا الجنانَ بفضلهم فرياضُها طرّاً لهم وخيامُها وقُصورها
وإذا الذّنوبُ تضاعفتْ فبحبّهمْ يُعطي الأمانَ أخا الذّنوبِ غَفورُها
تلك النّجومُ الزُّهرُ في أبراجِها ومن السّنين بهم تتمُّ شهورها

شعره الوصفي

تذكر كتب تاريخ الأدب[1] أنّ الزّاهي «كان حسن الشّعر في التّشبيهات»، وقيل: «إنّما لُقّب بالزّاهي لأنّه أوّل من زها في شعره»، أي أُعجب بشعره

(١) راجع: أعيان...، م.س.، ٨/١٦٣ و١٦٤.

وأعجب، وقال ابن خلّكان: «كان وصّافاً محسناً كثيرالملح»، وقال عميد الدّولة، أبو سعيد بن عبد الرّحيم، في «طبقات الشّعراء»: وشعره في أربعة أجزاء، وأكثر شعره في أهل البيت ومدح سيف الدّولة والوزير المهلبي وغيرهما من رؤساء وقته، وقال في جميع الفنون».

وأورد له ابن خلّكان في البنفسج:

ولا زَوَرْديــة تَــزْهُــو بــزُرْقتهـا — بين الرّياض على زرق اليواقيتِ
كـأنّهـا فـوق قـامـات ضعفـن بهـا — أوائـلُ النّـار فـي أطـراف كبـريـتِ

ومن جميل وصفه قوله في وصف الطّبيعة في ليلةٍ ممطرة عاصفة:

الرِّيحُ تعْصِفُ، والأغصانُ تَعْتنقُ — والمُـزنُ بـاكيـةٌ، والـزَّهـرُ معتبـقُ
كـأنَّ اللّيـلَ جفـنٌ والبـروقَ لـه — عيـنٌ مـن الشّمـس تبـدو ثـمّ تنطبـقُ

وقال في وصف الأُتْرُج[1]:

وذات جسم من الكافور في ذهبٍ — دارت عليه حـواشيه بمقـدارِ
كـأنّهـا، وهـي قـدّامـي ممثلـة — فـي رأس دوحتهـا، تـاجٌ مـن النّـارِ

وقال في وصف نساء جميلات:

وبيـضٍ بـألحـاظ العيـون كـأنّمـا — هـزَزْنَ سيـوفـاً واستلَلْـن خنـاجـرا
تصـدَّيـن لـي يـومـاً بمنعـرج اللِّـوى — فغـادرن قلبـي بـالتصبُّـر غـادرا
سفـرن بـدوراً وانتقبْـن أهلّـةً — ومِسْـن غصـونـاً والتفتـن جـآذرا
وأَطْلَعْـنَ فـي الأجيـاد بـالـدرِّ أنجمـاً — جعلـن لحبّـات القلـوب ضـرائـرا

* * *

(١) الأُتْرُج: واحدته الأُتْرُجة، شجر من جنس الليمون، يقال له أيضاً: التُرنج، وتسمّيه العامّة الكبّاد.

(٢٢)
أبو فراس الحمداني

التّعريف بالشّاعر

أبـو فـراس الحـارث بـن أبـي المعالي سعيد بن حمدان بن حمدون. . . الحمـدانـي التّغلبـي[١]. وأمّـه، أو جـدّتـه، مـن الرّوم؛ إذ يذكر في شعره أنّ «أخـوالـه الـرّوم»، وهو في الوقت الذي يفخر فيه بالانتساب إلى العرب، من حيث الأب، وإلى الرّوم من حيث الأمّ، يسجّل خوفه من أخواله «خطّة» ومن أعمـامـه «أربعـاً»، ما يعني أنّه كان يعيش حالةً من الخوف جعلته يترقّب الآتي بقلقٍ وعدم اطمئنانٍ. يقول أبو فراس في هذا الصّدد:

ـ إذا خـفتُ مـن أخـوالي الرّوم خطّةً تخـوّفـتُ مـن أعمامي العرب أرْبَعا
ـ وأعمــامــي ربيعــة، وهــي صيــدٌ وأخـوالـي بلصفـر، وهـي غلـب[٢]

ولد أبو فراس فـي منبـج سنـة ٣٢٠هـ.، وقيل: سنة ٣٢١هـ.، ومنبج

---

(١) راجع ترجمته في: مدينة دمشق: ٤/ ٩٧، وفي مختصر تاريخ دمشق: ٦/ ١٥٠، معالم العلماء: ص ١٤٩، الكامل في التاريخ: ٥/ ٣٥٥ حوادث سنة ٣٥٧هـ.، وفيات الأعيان: ٢/ ٥٨، رقم ١٥٣، المختصر في تاريخ البشر: ٢/ ١٠٨، حوادث سنة ٣٥٧هـ.، شذرات الذّهب: ٤/ ٣٠٠، حوادث سنة ٣٥٧هـ.، مجالس المؤمنين: ٢/ ٤١٢، رياض العلماء: ٥/ ٤٨٩، أمل الآمل: ٢/ ٥٩، رقم ١٥٠، روضات الجنّات: ٣/ ١٥، رقم ٢٣٢، الأعلام: ٢/ ١٥٥، كشف الظّنون: ١/ ٧٧٣، مؤلّفات جرجي زيدان الكاملة ـ تاريخ آداب اللّغة العربيّة ـ: ١٤/ ٧٨، الشّيعة وفنون الإسـلام: ص ١٤٠، معجـم المطبـوعـات: ١/ ٣٣٧، الغـديـر، م.س.، ٣/ ٥٤٥ ـ ٥٦٦. أعيان. . .، م.س.، ٤/ ٣٠٧ ـ ٣٦٥.

(٢) إسماعيل أبو العرب، إسحٰق أبو الرّوم ـ ربيعة منها تغلب قبيلة الشّاعر وبكر ـ بلصفر: أي بنو الأصفر، وهم الرّوم، كما كان يسمّيهم العرب آنذاك.

مدينة سوريّة، هي الآن مركز قضاء في محافظة حلب، وكانت آنذاك ثغراً من ثغور المسلمين. وقتل سنة ٣٥٧هـ. ، فيكون عمره ٣٧ سنة، لكنّه يقول في بعض قصائده:

أبَعْدَ الأربعين محرَّمات تمادٍ في الصَّبابة واغترار

وإن كان سيف الدّولة الحمداني قد مات سنة ٣٥٦هـ. ، وأبو فراس قتل بعد ذلك بسنةٍ، أو نحوها، يكن ذكره «الأربعين»، هنا، على سبيل التّقريب، أو الخطاب العام، وليس على سبيل التحديد والتعيين.

الحمدانيّون وإمارتهم

أبو فراس أمير من أمراء الحمدانيّين، وفي هؤلاء يقول الثعالبي: «كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصَّباحة وألسنهم للفصاحة وأيديهم للسَّماحة وعقولهم للرَّجاحة...». وفيهم يقول أبو فراس:

ـ فلم يُخلق بنو حمدان إلاَّ لمجدٍ، أو لبأسٍ، أو لجود
ـ ونحن أناسٌ لا توسُّط بيننا لنا الصَّدرُ دون العالمين أو القبرُ
ـ نحن البحار بل البحار مياهُها ملحٌ، وموردُنا لذيذُ المَطْعَم
ـ يلوح بسيماه الفتى من بني أبي وتَعرفه من غيره بالشّمائل
مُفدًّى، مرجًّى، يكثر النّاسُ حوله طويل نجاد السَّيف سبطُ الأنامل

أسَّس الحمدانيّون، في عصرٍ انقسمت فيه الدَّولة الإسلاميّة إلى ممالك وإمارات، إمارةً نهضت بالدِّفاع عن ثغور المسلمين، وكان أبو فراس فارساً من فرسانها، وفي بيان طبيعة هذا العصر وموقع إمارة بني حمدان فيه، يقول السيِّد محسن الأمين:

كان عصر الحمدانيّين عصراً انقسمت فيه المملكة الإسلاميّة المترامية الأطراف إلى ممالك وإمارات، جُلُّها غير عربيّة، فكانت خراسان وما والاها بيد السامانيّين، وما وراء النّهر بيد الغَزْنَويين، وكلتا الدّولتين غير عربيّة،

وبغداد وفارس بيد البويهيّين، وهم من الفرس، والخلافة العبّاسيّة في بغداد لا حول لها ولا طول وإنّما لها الخطبة والمشاركة في السكّة في البلاد الإسلاميّة، والشّام ومصر بيد الأخشيديّين، وهم أتراك، وشمال أفريقيا بيد الفاطميّين، والأندلس بيد الأمويّين، فأنشأ الحمدانيّون مملكة إسلاميّة عربيّة في الموصل وديار بكر وديار ربيعة والجزيرة وحلب والعواصم إلى منتهى البحر المتوسّط شمالاً وإلى مملكة الرّوم وقاعدتها القسطنطينيّة شرقاً وإلى فلسطين ودمشق غرباً، فردُّوا غارات الرّوم، وأغاروا على بلادهم، وفتحوا كثيراً منها، والرُّوم يومئذٍ في قوّتهم. وقهروا القرامطة والخوارج الشُّراة وغيرهم، وتسلّطوا على الأكراد وأخضعوهم وأخضعوا قبائل العرب المنتشرة في الجزيرة وبادية الشّام صاحبة العدد الكثير والقوّة، وأدخلوها في طاعتهم، وحاربوا الأخشيديّين في الشّام، وأخذوا منهم دمشق ثمّ عادوا إليها بمخامرة أهلها. وكانت هذه المملكة منقسمة بين ناصر الدّولة الحسن بن عبدالله بن حمدان وأخيه سيف الدّولة عليّ بن عبدالله بن حمدان، وكان لناصر الدّولة الموصل والجزيرة، ولسيف الدّولة حلب والعواصم وما إليها. وكان ناصر الدّولة لا يخلو من منازعة البويهيّين له وسيف الدّولة يحارب الرّوم غالباً، وسيّد بني حمدان ورئيسهم سيف الدّولة ووزيره وقائده الأوّل ومحلّ اعتماده في الحروب وقيادة الجيوش وحماية المملكة أبو فراس. لم يكن سيف الدّولة وأبو فراس طالبي ملك صرف وإمارة محضة، بل كان لهما باعث دينيّ وغيرة وطنيّة يبعثهما على حماية المملكة وحفظها، فسيف الدّولة يجمع من غبار غزواته للرّوم، التي كان يقصد منها ردّ عاديتهم عن بلاده، لبنة، ويوصي أن تُوضع تحت رأسه في قبره، وأبو فراس يقول لسيف الدّولة:

فأحوط للإسلام أن لا يضيعني ... ولي عنك فيه حوطة ومنابُ

وإنّ رجلاً كسيف الدّولة وابن عمّه أبي فراس يستطيعان إنشاء دولة قويّة عربيّة إسلاميّة نمت في ظلّها العلوم العربيّة والإسلاميّة والأدب العربي نموّاً

فـائقـاً في عصرٍ تفكّكت فيه عرى الإسلام والعروبة، وفي بقعةٍ محاطةٍ بالرّوم مـن جهـة وبـالأخشيـديّيـن والبويهيّين الأقوياء من جهات أُخرى، ومشحونة فـي داخلهـا بـدعـايـات القـرامطة والخوارج وفتنهم وبغزوات الأكراد والقبائل العـربيّـة وفسـادهم، لرجلان فريدان عظيمان خلّد التّاريخ ذكرهما في صفحاته بالعزّ والفخر.

وممّـا يلـفت النّظر أنّ جميع ملـوك الإسـلام كانوا، في ذلك الوقت، مشغـوليـن بلـذّاتـهم، أو بـالحـروب فـي مـا بينهم. وبنو حمدان وحدهم هم الحـامـون للثغـور، والواقفون في وجه الرّوم يصدّونهم عن غزو بلاد الإسلام، ولم يجسر الأجنبيّ على اقتحام تلك الثّغور إلاّ بعد انقضاء دولتهم، وإلى ذلك يشير بعض شعراء ذلك العصر بقوله يمدح سيف الدّولة وأبا فراس:

طلعـت لـهم فـوق الـدُّروبِ سحابةٌ … تهمـي بصـوبـي عثيـر وقتـامِ
والمسلمـون بمعـزلٍ منهـم سـوى … مـن أفـردوه لنصـرة الإسـلامِ
وأبـو فـراس فـي الهيـاج أمـامـه … مثـل الحسـام بـدا أمـام حسـامِ[1]

في رعاية سيف الدّولة

نشـأ أبـو فـراس يتيم الأب، فقد قتل ناصر الدّولة، الحسن بن عبدالله بن حمدان، والده، سعيد بن حمدان، حين جاء هذا إليه، إلى الموصل، وخاف أن يتغلّب عليها، فقتله غيلةً سنة ٣٢٣هـ.، وأبو فراس يومئذٍ طفل عمره ثلاث سنوات. ولمّا كنّا نعرف أنّ أمّه روميّة كان لنا أن نقدّر تلك الحالة التي عاشها أبو فراس، وهي حالـةٌ يكوّنهـا الإحسـاس بفقد الأب وبالظُّلم والغربة، علاوةً علـى الخـوف...، ويبـدو أنّ هـذه الحالة بقيت ملازمةً له طوال حياته...، فكان يقول:

وقـد علمـت أمّـي بـأنّ منيّتـي … بحـدِّ السِّنـان أو بحـدِّ قضيـبِ

---

(١) أعيان الشّيعة، م.س.: ٤/ ٣٢٨ و٣٢٩.

وكـان أن لقي، في ما بعد، مصير أبيه، فإن يكُ الأب قد قتله ابن أخيه، فإنَّ الابـن قـد قتلـه غـلام ابـن أختـه، والسَّبب واحد في كلتا الحالتين، وهو الخوف من الآخر على السُّلطان فيتمّ قتله، وقد خاطب أبو فراس، وهو يواجه مصيره، ابنته قائلاً:

زيـــنُ الشّبـــاب أبـــو فـــرا ... سٍ لـــم يُمتَّـــع بـــالشّبـــاب

ووجد اليتيم الغريبُ في أمير الدَّولة الحمدانيّة، سيف الدّولة، عليّ بن عبدالله بن حمـدان، وهو أخو ناصر الدّولة، المربّي البديل من الأب، فنشأ أبو فراس في حجره. . . ، وفي ذلك يقول مقدِّراً نعماء ابن عمِّه:

- هيهات لا أجحد النّعماء مُنعِمَها ... خَلَفْتَ، يا ابن أبي الهيجاء، فيّ، أبي
- هـــل للفصـــاحـــة والسّمـــا ... حـــة والعـــلا عنّـــي محيـــدُ؟
إذ أنـــت سيّـــدي الـــذي ... ربَّيتنـــي، وأبـــي سعيـــدُ
- أبٌ بـــرٌّ ومـــولـــى وابـــن عـــمّ ... ومستنـــد إذا الخطـــب جـــالا

ويقول مفتخراً:

وكيـف ينتصـفُ الأعـداءُ مـن رجـلٍ ... العـــزُّ أوّلــه، والمجـــدُ آخـــرُه
فمـن سعيـد بـن حمـدان ولادتـه ... ومـن علـيّ بـن عبـدالله سـائـرُه
لقـد فقـدتُ أبـي طفـلاً، فكـان أبـي ... مـن الـرِّجـال كـريـم العـود نـاضـرُه
هـو ابـنُ عمّـي دنيـا حيـن أنسبُـه ... لكنّـه لـي مـولـى لا أُنـاكـرُه

عُنـي سيـف الدَّولة بتربية أبي فراس، وكان لدى الفتى من الإمكانات ما جعله ينبغ في ميداني الأدب والحرب، وهو لم «تخطط عوارضه بعد»، فقد حكى ابن خالويه أنّه قال: غزونا مع سيف الدَّولة، وفتحنا حصن العيون، وأوغلنا في بلاد الرّوم، وفتحنا حصن الصفصاف، وسنّي إذ ذاك تسع عشرة سنة، وهو القائل:

فـلا تصفـنّ الحـرب عنـدي فـإنّهـا ... طعامي، مذ ذقت الصبا، وشرابي

وفيه يقول مهلهل بن نصر بن حمدان:

إن كان وجهك لم تخطط عوارضه فأنت كهل الحجى والفضل والأدب
وقفت، يا ابن سعيد، وقفةً شهرت لا زلت أدعوك فيها فارس العرب

كان أبو فراس يدرك مكانته من سيف الدّولة، فيخاطبه محدِّداً هذه المكانة فيقول: إنّه سيف «سيف الدّولة»، وليس سيف بقاطعٍ إن لم يُشدَّ بمعصم:

أنا سيفُ سيف الدّولة الماضي إذا نبت السّيوف، وخان كلُّ مصمِّم
أنا سيفُك الماضي، وليس بقاطعٍ سيفٌ إذا ما لم يُشدّ بمعصم

وتفيد قراءة شعر أبي فراس أنّه كان يعيش حالةً يتنازعه فيها شعوران: أوّلهما تقديره «نعماء» سيف الدّولة، ووفاؤه له وإعجابه به. . . ، وثانيهما نقمته على ناصر الدّولة واحتقاره لمخازيه، ومنها قتل والده، فنقرأ في قصيدة له قالها على أثر التجاء ناصر الدّولة إلى بلاط أخيه، بعد ما طرده معزّ الدّولة البويهي إلى بلاد الشّام من ديار ربيعة سنة ٣٤٧هـ. ، ما يمثّل هذه الحالة، فيقول مخاطباً سيف الدّولة:

. . . هذي شيوخ بني حمدان قاطبةً لاذوا بدارك، عند الخوف، واعتصمُوا

ثمَّ يقول معرِّضاً بناصر الدّولة، وكان أسنّ من أخيه:

شيوخهم سبقت، لا فضل ينعتها وليس يفضلُ فينا الفاضل الهرم
ولم يفضل عقيلاً في ولادته على عليٍّ أخيه السنُّ والقدم

ثمَّ يخاطب بنيه طالباً منهم ألاّ ينكروا ما يقوله، فالتِّرات لن تُنسى، وإن حال دونها شيخُهم، أي سيف الدّولة الذي أنقذ أخاه من المخازي التي كادت ترديه:

لا تُنكروا، يا بنيه، ما أقولُ فلن تُنسَى التِّراتُ، ولا إذ حال شيخكمُ
كادت مخازيه تُرديه، فأنقذه منها، بحسن دفاعٍ عنه، عمُّكمُ

لكنّه ينتهي إلى الرّضا بحكم الأهل، وإن كانوا جائرين في ذلك، ولو شاء منع ظلمهم ما قدروا عليه:

أستودع الله قوماً لا أفسّرهم ... بالظّالمين، ولو شئنا لما ظلمُوا
والقائلين، ونغضي عن جوابهم ... والجائرين، ونرضى بالذي حكمُوا
إنّي على كلّ حالٍ لست أذكرهم ... إلاّ وللشّوق دمعٌ واكفٌ سجِمُ
الأنفس، اجتمعت يوماً أو افترقت، ... إذا تأمّلت، نفسٌ، والدّماء دمُ
رعاهم الله ما ناحت مطوّقةٌ ... وحاطهم أبداً ما أورق السّلمُ(1)

وكان العفو، كما يبدو، سجيّة من سجايا أبي فراس، فهو القائل:

فلا تتركنّ العفو عن كلّ زلة ... فما العفو مذموماً، وإن عظُم الجرمُ

القائد الأمير

كان أبو فراس قائداً من قادة جيش سيف الدّولة وشريكه في أكثر غزواته، ومن هذه الغزوات أنّه سار معه إلى بلاد الرّوم، وأمره بالتقدّم في فرقةٍ من الجيش، فتقدّم، وافتتح حصن «عرقة»، ثمّ كمن لجيش الرّوم في موضع وكمن سيف الدّولة في موضعٍ آخر، ما أتاح لهما تحقيق النّصر... ومنها مسيره إلى الدّمستق وهرب هذا الأخير بعد أسر ابنه، وبناؤه قلعة «رعبان»، سنة ٣٤٥هـ، وهي من الثّغور، بعد أن خربتها الزّلازل، وبقيت خراباً خمس سنين، ولم يجرؤ أحدٌ على إعادة بنائها، ففعل ذلك أبو فراس في سبعةٍ وثلاثين يوماً...

ويلغ أبو فراس من المكانة، لدى سيف الدّولة حدّ أن جعله هذا خليفته على بلاد الشّام في أثناء غيابه عنها ومسيره إلى الثّغور سنة ٣٥١هـ لبناء عين زربة وحصونها... فسار نقفور بن بردس ملك الرّوم في جمعٍ من جيشه فلقيه

(1) أعيان...، م.س.: ٣١٨/٤.

أبو فراس في ألف فارس من العرب، فوقعت بينهم ستّ وقائع ظهر فيها جميعها أبو فراس. .

وليس من دون دلالةٍ أن يعهد سيف الدّولة لأبي فراس بإمارة منبج، فهي «ثغر» متقدّم تقع على حاميته مهمّة الدّفاع عن بلاد المسلمين، وقد كان أبو فراس القائد القادر على النّهوض بهذه المهمّة، فأقام في تلك المدينة ـ الثّغر يصدُّ غزوات الرّوم، ويتنقّل فيْ أرجاء دولة الحمدانيّين يؤدّي المهمّات التي توكل إليه.

في الأسر

وقد أدّى خوضه المعارك إلى أن يؤسر مرّتين:

أولاهما: في مغارة الكحل سنة ٣٤٨هـ. ، ولم يتعدّ به الرّوم، في هذه المرّة خَرْشنة، وهي بلدة تتاخم بلاد الشّام من بلاد الرّوم، وتقع قرب مَلَطية، والفرات يجري من تحت قلعتها، ويقال: إنّ أبا فراس ركب فرسه وهمزه برجله فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات. ويعلّق السيّد محسن الأمين على هذا القول، فيرى أنّ «هذا مستبعد، بل ممتنع عادةً، فما الذي أصعد الفرس إلى أعلى الحصن، والأسير لا يكون معه فرس ليركبه؟ والمشهور على الألسنة أنّه استعصى على الرُّوم فرس، فطلبوا إليه أن يروّضه. ويمكن أن يكون ذلك في أسفل الحصن، وهو مكشوف من جهة الفرات فأقحمه فيه، والله أعلم»[1]. ولم تطل مدّة أسر أبي فراس في هذه المرّة، وتخلّص من الأسر في خرشنة.

وثانيتهما: حدثت على مقربةٍ من منبج سنة ٣٥١هـ. ، ويدلّ شعره الذي أرسله إلى سيف الدّولة، أوّل ما أسر، أنّه لقي الرّوم، وهم ألف، بسبعين من أصحابه جلّهم من الخدم والأتباع وليس من الفرسان فأسر. ويدلُّ شعره،

(١) نفسه: ٤/ ٣٢٣.

أيضاً، على أنّه كان يمكنه الهرب، أو الانحياز عن الرّوم فلم يفعل... ومن شعره هذا نذكر قوله:

□ ولو لم تثق نفسي بمولاي لم أكن لأوردها في نصره كلّ مورِدِ
ولا كنت ألقى الألف زرقاً عيونها بسبعين فيها كلّ أشأم أنكد

□ يقولون لي: أقدمت في غير مقدم وأنت امرؤٌ ما حنّكته التّجاربُ
فقلت لهم: لو لم ألاقِ صدورها تناولني بالذمّ منهم عصائب
تكاثر لوّامي على ما أصابني كأن لم تنب إلاّ بأسري النّوائب
يقولون: لم ينظر عواقب أمره ومن لم يعن تجري عليه العواقب
ألم يعلم الذلأن أنّ بني الوغى كذاك سليبٌ بالرُّمح وسالبُ؟
وإنّ وراء الحزم فيها ودونه مواقف تُنسى عندهنّ التّجارب

□ وقال أُصيحابي: الفرار أو الرّدى فقلت: هما أمران أحلاهما المرُّ
ولكنّني أمضي لما لا يعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
يقولون لي: بعت السّلامة بالرّدى فقلت: أما والله ما نالني خسر

وقال ابن خالويه في بيان ما حدث: خرج بردس البطريق، وهو ابن أخت ملك الرّوم، في ألف فارس إلى نواحي منبج، فصادف الأمير أبا فراس يتصيَّد في سبعين فارساً، فأراده أصحابه على الهزيمة، فأبى وثبت حتّى أُثخن بالجراح فأُسر، وقد أصابه سهمٌ بقي نصله في فخذه.

وحُمِل مثخناً إلى خَرْشَنَة، ثمّ إلى القسطنطينيّة، وأقام في الأسر أربع سنين لتعذّر المفاداة، واستفكّه من الأسر سيف الدّولة سنة ٣٥٥هـ، وقد كانت تصدر أشعاره في الأسر والمرض، والشُّعور بأنّه أُضيع، وفرط الحنين إلى أهله وإخوانه وأحبّائه، والتبرّم بحاله ومكانه، عن صدرٍ جريح، وقلبٍ شجيٍّ...، وكانت، بمرور الزّمن، تزداد رقّةً ولطافةً، تُشجي سامعها، وتعلق بالحفظ لسلاستها، وسُمّيت بالروميّات.

قال ابن خالويه: قال أبو فراس: لمّا حملت إلى القسطنطينيّة أكرمني

ملك الرّوم إكراماً لم يكرمه أسيراً قبلي، وذلك أنّ من رسومهم أن لا يركب أسيرٌ في مدينة ملكهم دابّة قبل لقاء الملك، وأن يمشي في ملعب لهم يعرف بالبطوم مكشوف الرّأس، ويسجد فيه ثلاث سجدات أو نحوها، ويدوس الملك رقبته في مجمع لهم يعرف بالتوري، فأعفاني من جميع ذلك ونقلني لوقتي إلى دارٍ وجعل لي برطسان[1] يخدمني، وأمر بإكرامي، ونقل من أردته من أسارى المسلمين إليّ، وبذل لي المفاداة مفرداً، وأبيت بعدما وهب الله لي من الكرامة ورزقته من العافية والجاه أن أختار نفسي على المسلمين، وشرعت مع ملك الرّوم بالفداء، ولم يكن الأمير سيف الدّولة يستبقي أُسارى الرّوم، فكان في أيديهم فضل ثلاثة آلاف أسير ممّن أُخذ من الأعمال والعساكر، فابتعتهم بمئتي ألف دينار روميّة على أن يوقع الفداء وأشتري هذه الفضيلة، وضمنت المال والمسلمين، وخرجتُ بهم من القسطنطينيّة، وتقدّمتُ بوجوههم إلى خَرْشَنَةَ، ولم يعقد قطُّ فداء مع أسير ولا هدنة، فقلت في ذلك شعراً:

ولله عندي في الأسارِ وغيرِهِ ... مواهبُ لم يُخْصَصْ بها أحدٌ قبلي
حَلَلْتُ عقوداً أعجزَ الناسَ حلُّها ... وما زال عقدي لا يُذمُّ ولا حَلِّي
إذا عايَنَتْني الرّومُ كبّرَ صِيدُها ... كأنّهمُ أسرى لديّ وفي كَبْلي[2]
وَأوسَعُ أيّاماً حللتُ كرامةً ... كأنّيَ من أهلي نُقلتُ إلى أهلي
فَقُلْ لِبني عمّي وأبلِغْ بني أبي ... بأنّيَ في نَعْماءَ يشكرُها مِثلي
وما شاءَ ربّي غيرَ نَشْرِ محاسني ... وأنْ يعرفوا ما قد عرفتُمْ من الفضلِ

وقال يفتخر، وقد بلغه أنّ الرّوم قالت: ما أَسَرْنا أحداً لم نسلب ثيابَه غير أبي فراس:

أراك عصيّ الدّمع شيمتُك الصّبرُ ... أما للهوى نهيٌ لديك ولا أمرُ؟
بلى أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ ... ولكنّ مثلي لا يُذاع له سرُّ

(١) البرطسان: لفظ معرّب، ومعناه الذي يكتري للنّاس الإبل والحمير.
(٢) الكبل: القيد الضّخم.

إذا الليل أضواني بسطتُ يدَ الهوى   وأذللتُ دمعاً من خلائقهِ الكِبْرُ
تكادُ تضيءُ النارُ بين جوانحي   إذا هي أذكتْها الصّبابةُ والفِكْرُ

ويقول فيها:

أُسِرتُ وما صحبي بعُزْلٍ لدى الوغى   ولا فَرَسي مهرٌ ولا ربُّهُ غَمْرُ
ولكن إذا حُمَّ القضاء على امرئٍ   فليس له بَرٌّ يَقيهِ ولا بَحْرُ
وقال أُصَيْحابي: الفِرارُ أو الرَّدى   فقلتُ: هما أمرانِ أحلاهُما المرُّ
ولكنّني أمضي لما لا يَعيبُني   وحسبُكَ من أمرينِ خيرُهما الأسرُ
يقولون لي: بِعْتَ السّلامةَ بالرَّدى   فقلتُ لهم: واللهِ ما نالني خُسْرُ
هو الموتُ فاخترْ ما علا لك ذِكرُهُ   ولم يَمُتِ الإنسانُ ما حَيِيَ الذكرُ
ولا خَيْرَ في ردِّ الرَّدى بمذلّةٍ   كما ردّه يوماً بسوأته عَمْرو
يَمُنّونَ أن خَلّوا ثيابي وإنّما   عليَّ ثيابٌ من دمائهمُ حُمْرُ
وقائمُ سيفي فيهمُ دُقَّ نَصْلُهُ   وأعقابُ رمحي منهمُ حُطِّمَ الصّدْرُ
سيذكرني قومي إذا جدَّ جِدُّهُمْ   وفي الليلةِ الظّلماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
فإنْ عشتُ فالطّعنُ الذي يعرفونَهُ   وتلك القنا والبيضُ والضُّمَّرُ الشُّقْرُ
وإن متُّ فالإنسانُ لا بدّ ميّتٌ   وإن طالتِ الأيّامُ وانفسخَ العمرُ
ولو سدَّ غيري ما سددتُ اكتفَوا بهِ   وما كان يغلو التِّبرُ لو نفقَ الصُّفْرُ
ونحن أُناسٌ لا توسّطَ عندنا   لنا الصّدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا   ومن خَطَبَ الحسناءَ لم يُغْلِها المَهْرُ
أعَزُّ بني الدّنيا وأعلى ذوي العلا   وأكرمُ مَنْ فوقَ التّرابِ ولا فخرُ

وقال لمّا أُسر:

ما للعبيدِ من الذي   يقضي به اللهُ امتناعُ
ذُدْتُ الأُسودَ عن الفَرا   ئسِ ثمّ تفرسُني الضِّباعُ

وقال:

قد عَذُبَ الموتُ بأفواهِنا   والموتُ خيرٌ من مقامِ الذّليلْ
إنّا إلى اللهِ لما نابَنا   وفي سبيلِ اللهِ خيرُ السّبيلْ

وقال لمّا ورد أسيراً بخَرْشَنَةَ:

إن زُرْتُ خَـــرْشَنَـــةً أسيـــراً ... فَلَكَـــمْ حَلَلْـــتُ بهـــا مُغيـــرا
ولقـــد رأيـــتُ النّـــارَ تَنْـ ... ـتهـــبُ المنـــازلَ والقُصـــورا
وَلَقـــدْ رأيـــتُ السّبْـــيَ يُجْلَـ ... ـــبُ نَحْـــوَنـــا حُـــوّاً[1] وَحُـــورا
مَـــن كـــان مثلـــي لـــم يَبِـــتْ ... إلاّ أميـــراً أو أسيـــرا
ليســـتْ تَحِـــلُّ ســـراتُنـــا ... إلاّ الصّـــدورَ أو القبـــورا

ولمّـا ثقـل الجـراح وآيـس مـن نفسه وهو أسير، كتب إلى والدته يُعزّيها بنفسه:

مُصـابـي جليـلٌ والعـزاءُ جميـلُ ... وعلمـي بـأنّ اللهَ سـوفَ يُـديـلُ
وإنّـي لَفِـي هـذا الصّبـاحِ لَصـالِحٌ ... وَلـي كلّمـا جـنّ الظّـلامُ غَليـلُ
ومـا نـالَ منّـي الأسْـرُ مـا تـريـانِـهِ ... ولكنّنـي دامـي الجـراحِ عَليـلُ
جِـراحٌ تحـامـاهُ الأسـاةُ[2] مخـافـةً ... وسقمـانِ بـادٍ منهمـا ودخيـلُ
وأسـرٌ أقـاسيـه وليـلٌ نجـومُـه ... أرى كـلّ شـيءٍ غيـرهـنّ يـزولُ
تطـول بـيَ السّـاعـات وهـي قصيـرةٌ ... وفـي كـلّ دهـرٍ لا يسـرُّكَ طـولُ
تنـاسـانـيَ الأصحـابُ إلاّ عصـابـةً ... ستلحَـقُ بـالأخـرى غـداً وَتَحـولُ
وإنّ الـذي يبقـى علـى العهـد منهـمُ ... وإن كَثُـرَتْ دعـواهـمُ لقليـلُ
أقلّـبُ طـرفـي لا أرى غيـرَ صـاحـبٍ ... يميـلُ مـع النّعمـاءِ كيـف تَميـلُ
وصـرنـا نَـرى أنّ المُتـاركَ مُحسـنٌ ... وأنّ خليـلاً لا يضـرُّ وَصـولُ
وليـس زمـانـي وحـده بـيَ غـادرٌ ... ولا صـاحبـي دون الـرّجـال ملـولُ
ومـا أثَـري يـومَ اللّقـاءِ مُـذَمّـمٌ ... ولا مـوقفـي عنـد الأسـارِ ذليـلُ
تصفّحـتُ أقـوالَ الـرّجـالِ فلـم يكـن ... إلـى غيـرِ شـاكٍ للـزّمـانِ وُصـولُ
أكـلُّ خليـلٍ هكـذا غيـرُ مُنصـفٍ ... وكـلُّ زمـانٍ بـالكـرامِ بخيـلُ

---

(١) الحُوّ: جمع حوّاء: التي في شفتها حوّة، وهي سمرة مستحسنة.
(٢) الأساة: جمع آسٍ، وهو الطبيب.

نعمْ دَعَتِ الدّنيا إلى الغدرِ دَعوةً ... أجابَ إليها عالمٌ وجهولُ
وقبليَ كانَ الغدرُ في النّاسِ شيمةً ... وذُمَّ زمانٌ واسْتُلامَ خليلُ
وفارقَ عمرو بنَ الزّبيرِ شقيقَهُ ... وخلّى أميرَ المؤمنينَ عقيلُ
فيا حسرتا من لي بخِلٍّ موافقٍ ... يقولُ بشجوي مرّةً وأقولُ
وإنّ وراءَ السّترِ أمّاً بكاؤها ... عليَّ وإن طالَ الزّمانُ طويلُ
فيا أمّتا لا تَعْدَمي الصّبرَ إنّه ... إلى الخيرِ والنّجحِ القريبِ رسولُ
ويا أمّتا لا تحبطي الأجرَ إنّهُ ... على قَدَرِ الصّبرِ الجميلِ جزيلُ
ويا أمّتا صبراً فكلُّ مُلمّةٍ ... تجلّي على علّاتها وتزولُ
أما لكِ في ذاتِ النطاقين أُسْوةٌ(١) ... بمكّةَ والحربُ العَوانُ تجولُ
أرادَ ابنُها أخذَ الأمانِ فلم يُجِبْ ... وتعلمُ علماً إنّه لَقتيلُ
تأسّيْ كفاكِ اللهُ ما تحذرينَهُ ... فقد غالَ هذا النّاسَ قبلَكِ غُولُ
وكوني كما كانت بأُحدٍ صفيّةٌ ... ولم يُشْفَ منها بالبكاءِ غَليلُ
فما ردّ يوماً حمزةَ الخيرِ حُزْنُها ... إذا ما عَلَتْها زَفرةٌ وعويلُ
لَقيتُ نجومَ الأفقِ وهي صوارمٌ ... وخُضْتُ ظَلامَ اللّيلِ وهو خيولُ
ولم أرْعَ للنّفسِ الكريمةِ خِلّةً ... عشيّةَ لم يَعطِفْ عليَّ خليلُ
ولكن لَقيتُ الموتَ حتّى تركته(٢) ... وفيهِ وفي حدِّ الحُسامِ فُلولُ
ومن لم يَقِ الرّحمنُ فهو ممزَّقٌ ... ومن لم يُعزِّ اللهُ فهو ذليلُ
ومن لم يُرِدْهُ اللهُ في الأمرِ كلِّهِ ... فليسَ لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هو لم يَدْلُلْكَ في كلِّ مسلكٍ ... ضللتَ ولو أنّ السّماكَ دليلُ
إذا ما وقاكَ اللهُ أمراً تخافُهُ ... فما لكَ ممّا تتقيهِ مُقيلُ(٣)
وإن هو لم يَنْصُرْكَ لم تَلْقَ ناصراً ... وإن جلّ أنصارٌ وعزّ قبيلُ(٤)

---

(١) ذات النطاقين هي أسماء بنت أبي بكر (المؤلف).
(٢) في الدّيوان: تركتها.
(٣) هذا البيت والبيت الأخير من القصيدة غير موجودين في الدّيوان.
(٤) ورد في الدّيوان الشّطر الثاني من البيت هكذا: وإن عزّ أنصار وجلّ قبيل.

وما دامَ سيفُ الدّولةِ الملك باقياً فظلُّكَ فيّاحُ الجَناب ظليلُ

قال ابن خالويه: وقال يصف أيّامه ومنازله بمَنبج، وكان ولايته وأقطاعه وداره بها، ويعرِّض بقومٍ بلغه شماتتهم فيه وهو في أسر الرّوم:

قِفْ في رسومِ المستجابِ ونادِ أكنافَ المصلّى
فالجوسقِ الميمونِ فالسُقياءِ فالنّهرِ المُعلّى
أَوْطِنْتُها زمنَ الصِّبا وجعلتُ مَنْبِجَ لي مَحِلاّ
حُرِمَ الوقوفُ بها عليَّ وكانَ قبلَ اليوم حِلاّ
حيثُ التفتُّ وجدتُ ماءً سائحاً وسكنتُ ظِلاّ
تزداد وادِ عَيْرِ قا صِ منزلاً رحباً مُطِلاّ[1]
وتحلُّ بالجسرِ الجنانَ وتسكنُ الحِصنَ المعلّى
تجلو عرائسَهُ لنا بالبِشْرِ جنبَ العيشِ سهلا
والماءُ يفصلُ بين زَهْـرِ الرّوضِ في الشطّينِ فصلا
كبساطِ وشْيٍ جرّدتْ أيدي القيونِ[2] عليه نَصْلا
مَن كانَ سُرَّ بما عرا نيَ فَلْيمُتْ ضُرّاً وَهَزْلا
لم أخلُ في ما نابَني مِن أن أعزَّ وأن أُحلاّ
مثلي إذا لَقِيَ الأسا رَ فلن يُضامَ ولن يُذَلاّ
رُعْتُ القلوبَ مَهابةً وملأتها نُبلاً وفضلا
ما غضَّ منّي حادثٌ والقَرْمُ قَرمٌ حيث حَلاّ
أنّى حَلَلْتُ فإنّما يدعونيَ السّيفُ المحلّى
فَلَئِنْ خَلَصْتُ فإنّني غيظُ العِدى طفلاً وكهلا
ما كنتُ إلاّ السّيفَ زا دَ على صُروفِ الدّهرِ صَقْلا

---

(١) ورد هذا البيت في الدّيوان هكذا:

تَسَرَ دار وادي عَيـن قا صَرَ منزلاً رحباً مطلاّ

(٢) القيون: جمع قين، وهو الحدّاد.

ولئـــن قُتِلْـــتُ فـــإنّمـــا مـــوتُ الكـــرامِ الصِّيـــدِ قَتْـــلا
لا يَشْمتَـــنَّ بمـــوتِنـــا إلاّ فتـــىً يفنـــى ويبلـــى
يغتـــرُّ بـــالـــدّنيـــا الجهـــو لُ وليـــس فـــي الـــدّنيـــا مُمَـــلاّ

قال ابن خالويه: تأخّرت كتب سيف الدّولة عن أبي فراس في أيّام أسره، فذلك أنّه بلغه أنّ بعض الأسراء قال: إن ثَقُلَ هذا المال على الأمير كاتبنا فيه صاحب خراسان وغيره من الملوك، وخففت علينا الأسر، وذكر أنّهم قرّروا مع الرّوم إطلاق أسراء المسلمين بما يحملونه، فاتّهم سيف الدّولة أبا فراس بهذا القول، لضمانه المال للرّوم وقال: من أين تعرفه أهل خراسان؟ فقال أبو فراس هذه القصيدة، وأنفذها إلى سيف الدّولة.

قال الثعالبي: كتب أبو فراس إلى سيف الدّولة: مفاداتي إن تعذّرتْ عليك فائذن لي في مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني وينوبوا عنك في أمري.

فأجابه سيف الدّولة: من يعرفك بخراسان؟ فكتب إليه أبو فراس:

أَسَيْـفَ الهُـدى وقَـريـعَ العـربْ إلامَ الجفـــاءُ وفيـــمَ الغضـــبْ؟
ومـــا بـــال كُتْبِـــكَ قـــد أصبحـــتْ تَنَكّبُنـــي مَـــعَ هـــذي النّكـــبْ؟[1]
وأنـــتَ الكـــريـــمُ وأنـــتَ الحليـــمُ وأنـــت العطـــوفُ وأنـــتَ الحَـــدِبْ[2]
ومـــا زلـــتَ تسبقُنـــي بـــالجميـــ ـــل وتُنـــزِلُنـــي بـــالمكـــانِ الخَصِـــبْ
وإنّـــــك لَلْجَبَـــــلُ المُشْمَخِـــ ـــرُّ إليَّ بـــل لِقـــومِـــك بـــلِ للعـــربْ
وتـــدفـــعُ عـــن حـــوزتـــيَ الخطـــوبَ وتكشـــفُ عـــن نـــاظـــريَ الكُـــرَبْ
عُـــلاً يُسْتفـــادُ وعـــافٍ يُعـــادُ وعِـــزٌّ يشـــادُ ونعمـــى تُـــرَبْ[3]
ومـــا غـــضَّ منِّـــيَ هـــذا الإســـارُ ولكـــن خَلَصْـــتُ خُلـــوصَ الـــذّهـــبْ

(١) تنكّبني ـ مخفّف تتنكّبني ـ: تميل عنّي وتتجنّبني.
(٢) الحدب: من حدب وتحدب عليه: تعطف.
(٣) تربّ: تزاد.

ففيمَ يعرِّضني بالخمولِ ... مولىً به نِلْتُ أعلى الرتَبْ
وكان عتيداً لَدَيَّ الجوابُ ... ولكن لهيْبَتِهِ لم أُجِبْ
أتنكرُ أنّي شكوتُ الزّمانَ ... وأنّي عتبْتُكَ في من عَتَبْ؟
وإلاّ رجعتَ فَأَعْتَبْتَنِي ... وَصيّرتَ لي ولقومي الغَلَبْ[1]
فلا تنسبنّ إليّ الخمولَ ... أقمتُ عليكَ فلم أغتربْ
وأصبحتُ منكَ فإن كان فضلٌ ... وإن كان نقصٌ فأنتَ السّبَبْ
وإنّ خراسانَ إن أنكرَتْ ... عُلاي فقد عَرَفَتها حَلَبْ
ومن أين ينكرني الأبعدونَ ... أمِن نقصِ جدٍّ أمِن نقصِ أبْ؟
ألستَ وإيّاك من أسرةٍ ... وبيني وبينك عرق النّسبْ
ودارٌ تناسَبُ فيها الكرامُ ... وتربيَةٌ ومحلٌّ أشِبْ[2]
ونفسٌ تكبّرُ إلاّ عليكَ ... وترغبُ إلاّك عمّن رغبْ؟
فلا تَعْدِلَنّ فداكَ ابنُ عمِّكَ ... لا بل غلامُك عمّا يجبْ
وأنصفْ فتاكَ فإنصافُهُ ... من الفضلِ والشرفِ المُكْتَسَبْ
أكنتَ[3] الحبيبَ وكنتَ القريبَ ... ليالِيَ أدعوكَ من عن كَثَبْ؟
فلمّا بَعُدْتُ بَدَتْ جفوةٌ ... ولاحَ من الأمرِ ما لا أحبْ
فلو لم أكن بكَ ذا خبرةٍ ... لَقلْتُ: صديقُكَ مَن لم يَغِبْ

وكتب إليه أيضاً:

زماني كلّه غَضَبٌ وعَتْبُ ... وأنتَ عليَّ والأيّامُ إلْبُ[4]
وعيشُ العالمينَ لديك سهلٌ ... وعيشي وحدَهُ بِفنائكَ صَعْبُ

(القصيدة ١٨ بيتاً)

---

(١) في الدّيوان: ولقولي الغلب.
(٢) الأشب: الحصين.
(٣) في الدّيوان: وكنتَ.
(٤) تألب: اجتمع، والإلب: المجتمعون.

وبلغ إليه نعي أمّه وهو في الحبس، فقال يرثيها:

أيـا أمَّ الأسيـر بمـن أنـادي وقدْ مُتِّ الأيـادي والشّعورُ؟[1]
إذا ابنـكِ سـار فـي بَـرٍّ وبحـرٍ فمـن يـدعـو لـه أو يستجيـرُ؟
حـرامٌ أن يبيـتَ قـريـرَ عيـنٍ ولُـؤمٌ أن يُلِـمَّ بـه السّـرورُ
وقـد ذُقْـتِ المنـايـا والـرّزايـا ولا ولـدٌ لـديـكِ ولا عشيـرُ
وغـاب حبيـبُ قلبـكِ عـن مكـانٍ مـلائكـةُ السّمـاءِ بـه حضـورُ
لِيَبكِـكِ كـلُّ يـوم صُمْـتِ فيـه مصـابـرةً وقـد حَمِـيَ الهجيـرُ
لِيَبكِـكِ كـلُّ ليـلٍ قُمْـتِ فيـهِ إلـى أن يبتـدي الفجـرُ المنيـرُ
لِيَبكِـكِ كُـلُّ مضطهَـدٍ مَخـوفٍ أجـرتيـه وقـد قـلَّ المجيـرُ
لِيَبكِـكِ كـلُّ مسكيـنٍ فقيـرٍ أعنتيـه ومـا فـي العَظْـم ريـرُ[2]
أيـا أمّـاهُ كـم هـولٍ طـويـلٍ مَضَـى بـكِ لـم يكـن منـه نَصيـرُ
أيـا أمّـاهُ كـم سـرٍّ مصـونٍ بقلبـكِ مـاتَ ليـس لـه ظهـورُ
إلـى مـن أشتكـي وَلمـن أنـاجـي إذا ضـاقـت بمـا فيهـا الصّـدورُ؟
بـأيِّ دعـاءِ داعيـةٍ أُوَقَّـى بـأيِّ ضيـاءِ وَجْـهٍ أستنيـرُ؟
بمـن يُستـدفَـعُ القَـدَرُ المُـرجّـى بمـن يُستفتـحُ الأمـرُ العسيـرُ؟
تسلّـى عنـكِ أنّـا عـن قليـلٍ إلـى مـا صـرتِ فـي الأخـرى نصيـرُ

شخصيّته

أبو فراس أمير تجلّت فيه شيم الأمراء السّامية، فهو أبيٌّ، شجاع، كريم، خيِّر، محبٌّ للوطن والنّاس، رقيق الطّبع، طموحٌ إلى العلياء... كان هذا الأمير فارساً مقداماً وقائداً بطلاً....

(١) ورد البيت في الدّيوان هكذا:
أيـا أمّ الأسيـر لمـن تـربّـي وقـد مُـتّ الـذّوائـبُ والشّعـورُ؟
(٢) مخٌ رارٌ ورير: ذائب فاسد من الهزال (المؤلّف).

وكان شاعراً وجدانياً، صوَّر تجربته في هذه الحياة بصدقٍ، فخلَّف شعراً إنسانياً راقياً خالداً. . .، ترفده ثقافته الواسعة، فالمعروف أنّه كان عالماً باللّغة العربيّة وآدابها، فقد تخرَّج على ابن خالويه العالم اللّغوي الشّهير، والمعروف أيضاً أنّه كان عارفاً بتاريخ العرب في الجاهليّة والإسلام، تدلّ على ذلك قصيدته الميميّة التي يردّ بها على ابن سكّرة.

وكان أبو فراس متديّناً ينتمي إلى مذهب أهل البيت، وله في ذلك شعر كثير.

يقول السيِّد محسن الأمين لدى حديثه عن تميّز شخصيّة أبي فراس: «فلم يكن غريباً أن يتفوَّق أبو فراس ويتبوَّأ مركز الإمارة والقيادة عن جدارةٍ واستحقاقٍ؛ لأنَّ شخصيَّةً تستطيع أن تخرج من خلال هذه الغمرات النفسيّة خالصة الجوهر، صافية السجايا والخلايا، ممثّلةً روح التّضحية واليقين والفروسيّة، كما كانت في صدر الإسلام، لهي شخصيّة عبقريّة»[1]. أو هي البدر الذي يُفتقد في اللّيلة الظّلماء كما يقول أبو فراس في الحديث عن نفسه:

سيذكرني قومي، إذا جدّ جدّهم وفي اللّيلة الظّلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

ويمكن للقارئ أن يتلمّس سجايا الفارس العربيّ في شعر أبي فراس، ومن النّماذج الشّعريّة ذات الدّلالة نقرأ:

□ أفرُّ من السُّوء لا أفعله ومن موقف الضّيم لا أقبله
وقرب القرابة أرعى له وفضلُ أخي الفضل لا أجهله
وأبذل عدلي للأضعفين وللشّامخ الأنف لا أبذله
وأحسنُ ما كنتُ بقيا إذا أنالني الله ما آمله
وقد علم الحيّ، حيّ الضّباب وأصدق قيل الفتى أفضله
بأنّي كَفَفْتُ وأنّي عفَفْتُ وإن كره الجيش ما أفعله

(1) أعيان. . .، م.س.، : ٤/٣١١.

□ وساحبةِ الأذيال نحوي لقيتُها ... فلم يلقها جافي اللّقاء ولا وعرُ
وهبتُ لها ما حازه الجيش كلّه ... ورحتُ ولم يُكشف لها سترُ
□ أنا الجار لا زادي بطيء عليهم ... ولا دون مالي في الحوادث بابُ
ولا أطلبُ العوراء منهم أصيبُها ... ولا عورتي للطّالبين تُصابُ

ولم يكسر الأسر «قلب أبي فراس»، فيقول في ذلك:

وإن فتىً لم يكسر الأسرُ قلبه ... وخوض المنايا حدّه لعجيبُ

فقد جاء في «اليتيمة»: جرت مناظرة بين الدُمستق وأبي فراس، فقال الأوّل: إنّما أنتم كتّاب ولا تعرفون الحرب، فأجابه أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستّين سنة بالسّيوف أم بالأقلام؟ ولعلّه قال في هذه المناسبة بيته المعروف:

وصناعتي ضرب السّيوف وإنّني ... متعرّضٌ في الشّعر بالشّعراء

مقتله

لمّا مات سيف الدّولة عزم أبو فراس على التغلّب على حمص وتطلّع إليها، وكان مقيماً بها، فاتّصل خبره إلى ابن أخته أبي المعالي بن سيف الدّولة وغلام أبيه قرعويه، وجرت بذلك بين أبي فراس وبين أبي المعالي وحشة، فطلبه أبو المعالي فانحاز أبو فراس إلى صَدَد، وهي قرية في طريق البرّية عند حمص، فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وغيرهم وسيّرهم في طلبه مع قرعويه فأدركه بصَدَد، فكبسوه فاستأمن أصحابه واختلط هو بمن استأمن معهم، فقال قرعويه لغلام له: اقتله. فقتله وأخذ رأسه، وتركت جثّته في البرّية حتى دفنها بعض الأعراب.

قال الثعالبي: دلّت قصيدة قرأتها لأبي إسحاق الصّابي في مرثيّة أبي فراس، على أنّه قُتل في وقعةٍ كانت بينه وبين موالي أسرته.

وقال ابن خالويه: بلغني أنّ أبا فراس أصبح يوم مقتله حزيناً كئيباً، وكان قد قلق في تلك اللّيلة قلقاً عظيماً، فرأته ابنته امرأة أبي العشائر كذلك،

فأحزنها حزناً شديداً، ثمّ بكت وهو على تلك، فأنشأ يقول كالذي ينعى نفسه وإن لم يقصد، وهذا آخر ما قاله من الشّعر:

أبُنيَّتــــي لا تحــــزنـــي ... كـــلُّ الأنـــامِ إلـــى ذهـــابِ
أبُنيَّتــــي صبــــراً جميــــلاً ... للجليــــلِ مـــن المصـــابِ
نُـــوحِـــي علـــيَّ بحســـرةٍ ... مـــن خَلْـفِ سِتــركِ والحجــابِ
قـــولـــي إذا نـــاديتِنـــي ... فَعَيِيـــتُ عـــن ردِّ الجـــوابِ:
زيـــنُ الشّبـــابِ أبـــو فـــرا ... سٍ لـــم يُمَتَّـــعْ بـــالشّبـــابِ

وفـي غيـر واحـدٍ مـن المعـاجـم: أنّه لمّا بلغ أخته أمّ أبي المعالي وفاته قلعت عينها، وقيل: بل لطمت وجههـا فقلعت عينها، وقيل: قتله غلام سيف الدّولة ولم يعلم أبو المعالي، فلمّا بلغه الخبر شقّ عليه.

يجمع العلماء والأدباء على أنّ أبا فراس «كان المقدّم بين شعراء عصره كمـا كـان المتقـدّم علـى أمرائـه»، كمـا يقـول العـلاّمـة الأمينـي مـن العلمـاء المعاصرين، وعلـى أنّـه «كان فرد دهره وشمس عصره» كما يقول الثعالبي من القدماء. وفي ما يأتي نذكر شهادة هذين العالمين الكبيرين:

قـال الثعالبـي فـي «يتيمـة الـدّهر»: «كان فرد دهره، وشمس عصره أدباً وفضلاً، وكرماً ونبـلاً، ومجـداً وبـلاغـةً وبراعةً، وفروسيّةً وشجاعةً، وشعره مشهور سائر بيـن الحسن والجودة، والسّهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحـلاوة والمتـانـة، ومعـه رواء الطّبـع، وسمة الظّرف، وعزّة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلاّ في شعـر عبـدالله بن المعتزّ، وأبو فراس يُعدُّ أشعر منه عند أهل الصّنعة، ونَقَدَةِ الكلام، وكان الصّاحب يقول: بُدِئَ الشّعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس»(١).

قال الأميني فـي «الغـديـر»: «ربّما يرتج القول في المترجَم وأمثاله، فلا

(١) يتيمة الدهر: ج١، ص ٢٧.

يدري القائل ماذا يصف، أيُطريه عند صياغة القول؟ أو يصفه عند قيادة العسكر؟ وهل هو عند ذلك أبرع؟ أم عند هذا أشجع؟ وهل هو لِجُمَل القوافي أسبك؟ أم لأزِمّة الجيوش أملك؟ والخلاصة أنّ الرّجل بارع في الصّفتين، ومتقدِّمٌ في المقامين، جمع بين هيبة الملوك، وظرف الأدباء، وضمّ إلى جلالة الأمراء لطف مفاكهة الشّعراء، وجمع له بين السّيف والقلم؛ فهو حينما ينطق بفم كما هو عند ثباته على قدم، فلا الحرب تروعه، ولا القافية تعصيه، ولا الرّوع يهزمه، ولا روعة البيان تعدوه، فلقد كان المقدّم بين شعراء عصره، كما أنّه كان المتقدّم على أمرائه، وقد تُرجم بعض أشعاره إلى اللّغة الألمانيّة، كما في «دائرة المعارف الإسلاميّة».

تديُّنه وولاؤه لآل البيت

كان أبو فراس إنساناً مؤمناً تقيّاً، نقرأ في شعره ما يفيد أنّه كان يناجي الله مناجاة عابدٍ في محراب، ومن ذلك قوله:

□ أنظــر لضعفــي يـــا قـــوي وكـــن لفقـــري يـــا غنـــي
أحســـن إلـــيَّ فـــإنّنـــي عبـــد إلـــى نفســـي مســـي

ويقول مصوِّراً ثقته بالله تعالى:

ومــن لــم يــوق الله فهــو ممــزّق ومــن لــم يعــزّ الله فهــو ذليـــلُ
إذا لــم يعنــك الله فــي مــا تــريــده فليــس لمخلــوقٍ إليــه سبيـــلُ
وإن هو لم يدلُلْك في كلّ مسلكٍ ضلَلْــت، ولــو أن السّمــاك دليــلُ
وإن هــو لــم ينصــرك لــم تلقَ نــاصـراً وإن عــزَّ أنصــارٌ وجــلَّ قبيـــلُ

ويقول معلناً ولاءه لآل البيت وتعلّقه بمن يرجو النّجاة بهم:

لستُ أرجو النّجاةَ من كلّ ما أخـ ـشــاه إلاّ بـــأحمـــدٍ وعلـــيّ
وببنــتِ الــرّســول فــاطمــةَ الطّهـ ـــرِ وسبطيــه والإمــام علـــيّ
والـتّقــيِّ الـنّقــيِّ بــاقــر عــلــمِ الله فــيـنــا محمّــدِ بـــن علـــيّ
وأبـــي جعفـــرٍ ومـــوســـى ومـــولا يَ علـــيٍّ أكـــرمْ بـــه مـــن علـــيّ

وابنـه العسكـريُّ والقـائـمِ المظـ ـهـرِ حَقِّـي محمَّـدٍ وعلـيٍّ
بهـمُ أرتجـي بلـوغَ الأمـانـي يـومَ عَـرْضـي علـى الإلـه العلـيِّ
□ شـافعـي أحمـدُ النبـيُّ ومـولايَ علـيٌّ والبنـتُ والسِّبطـانِ
وعلـيٌّ وبـاقـرُ العلـمِ والصّـا دقُ ثـمّ الأميـنُ بـالتّبيـانِ
وعلـيٌّ ومحمَّـدُ بـنُ علـيٍّ وعلـيٌّ والعسكـريُّ الـدّانـي
والإمـامُ المهـديُّ فـي يـومِ لا ينفـعُ إلاّ غفـرانُ ذي الغفـرانِ

ومن شعره في الحكمة والموعظة:

غنـى النّفـسِ لمـن يعقـ ـلُ خيـرٌ مـن غِنـى المـالِ
وفضـلُ النّـاسِ فـي الأنفـ ـسِ ليـس الفضـلُ فـي الحـالِ

وقال:

المـرءُ نُصْـبُ مصـائـبٍ لا تنقضـي حتّـى يـوارى جسمُـهُ فـي رِمسـهِ
فمـؤجَّـلٌ يلفـي الـرّدى فـي أهلِـهِ ومُعَجَّـلٌ يلقـى الـرّدى فـي نفسـهِ

وله:

أَنفِـقْ مـن الصّبـرِ الجميـل فـإنّـهُ لـم يخـشَ فَقْـراً منفـقٌ مـن صبـرِهِ
والمـرءُ ليـس ببـالـغٍ فـي أرضِـهِ كـالصّقـرِ ليـس بصـائـدٍ فـي وَكْـرِهِ

شعره في الدِّفاع عن آهل البيت وفي «يوم الغدير»

كان من الطَّبيعيّ أن يقول أبو فراس، وهو الفارس الشّاعر المؤمن التقيّ الشِّعر في الدِّفاع عن أهل البيت، وفي بيان حقِّهم، ومن قصائده في ذلك قصيدته المعروفة بـ «الشّافية»، وهي:

الحـقُّ مُهتضـمٌ والـدِّيـنُ مُختـرمُ وفـيءُ آلِ رسـول الله مُقتَسَـمُ
والنّاسُ عنـدَكَ لا نـاسٌ فيُحْفِظُهم[1] سَـوْمُ الـرّعـاةِ ولا شـاءٌ ولا نَعَـمُ

(١) أحفظه: أغضبه فغضب.

إنّـي أبيـتُ قليـلَ النّـومِ أرّقنـي — قلـبٌ تَصـارعَ فيـه الهـمُّ والهِمَـمُ
وعـزمـةٌ لا ينـامُ اللّيـلَ صـاحبُهـا — إلاّ علـى ظَفَـرٍ فـي طيّـهِ كَـرَمُ
يُصـان مُهـري لأمـرٍ لا أبـوحُ بـه — والدّرعُ والرّمحُ والصّمصامةُ الحذمُ(١)
وكـلّ مـائـرةِ الضّبعيـن مسـرحُهـا — رِمْثُ الجزيرةِ والخذرافُ والعَنَمُ(٢)
وفتيـةٌ قلبهـمْ قلـبٌ إذا ركِبـوا — وليـس رأيهـمُ رأيـاً إذا عـزمـوا
يـا لَلـرّجـالِ أمـا لله مُنتصـرٌ — مـن الطّغـاةِ أمـا لله مُنتقـمُ؟
بنـو علـيٍّ رعـايـا فـي ديـارهـمُ — والأمـرُ تملكـه النّسـوان والخـدمُ
محلّـؤون فـأصفَـى شُـربِهـمْ وَشَـلٌ — عنـد الـورود وأوفـى وُدّهِـم لَمَـمُ(٣)
فـالأرض إلاّ علـى مُـلاّكهـا سعـةٌ — والمـال إلاّ علـى أربـابـهِ دِيَـمُ
فمـا السّعيـد بهـا إلاّ الـذي ظَلمـوا — ومـا الغنيّ بهـا إلاّ الـذي حـرمـوا(٤)
للمتّقيـن مـن الـدّنيـا عـواقبُهـا — وإن تعجّـلَ منهـا الظّـالـمُ الأثِـمُ
أتفخـرُون عليهـم لا أبـا لَكُـمُ — حتّـى كـأنّ رسـولَ الله جـدُّكـمُ؟
ومـا تـوازن فـي مـا بينكـم شـرفٌ — ولا تسـاوت لكـم فـي مـوطـنٍ قـدمُ
ولا لكـم مثلُهـم فـي المجـد متّصـلٌ — ولا لجـدّكـمُ معشـار جـدّهـمُ(٥)
ولا لعـرقِكـمُ مـن عـرقِهـم شَبَـهٌ — ولا نثيلتكـم مـن أمّهـم أمَـمُ(٦)
قـام النبـيُّ بهـا يـومَ الغـديـر لهـم — والله يشهـدُ والأمـلاكُ والأمـمُ
حتّى إذا أصبحتْ في غير صاحبِها — بـاتـت تنـازعهـا الـذّؤبـان والـرّخـمُ

(١) الحذم من السّيوف، بالحاء المهملة: القاطع.
(٢) مار: تحرّك. الضّبع: العضد، كناية عن السّمن. الرّمث ـ بكسر المهملة ـ: خشب يضمّ بعضه إلى بعض ويسمّى: الطوف. الخذراف ـ بكسر الخاء ثمّ الذّال المعجمتين ـ: نبات إذا أحسّ بالصّيف يبس. العَنم ـ بفتح المهملة ـ: نبات له ثمرة حمراء يشبّهُ به البنان المخضوب.
(٣) حلأه عن الماء: طرده. الوشل: الماء القليل. لمم: أي غبّ.
(٤) الشّطر الثاني في الأصل: وما الشقيّ بها إلاّ الذي ظلموا. والصّحيح، بحسب المعنى والقواعد النحويّة، ما أثبتناه عن الدّيوان، ص ٢٥٦.
(٥) في الدّيوان وأعيان الشّيعة: ٤/ ٣٤١: مسعاة جدّهم.
(٦) نثيلة: هي أمّ العبّاس بن عبد المطّلب. الأمم: القرب.

وصيّروا أمرهم شورى كأنّهمُ ... لا يعرفون ولاة الحقّ أيّهمُ
تالله ما جَهِلَ الأقوامُ موضعَها ... لكنّهمْ ستروا وجهَ الذي علمُوا
ثمّ ادّعاها بنو العبّاس مُلكَهمُ ... ولا لهم قَدَمٌ فيها ولا قِدمُ
لا يُذكَرون إذا ما معشرٌ ذُكِروا ... ولا يُحَكَّمُ في أمرٍ لهم حَكَمُ
ولا رآهم أبو بكرٍ وصاحبُهُ ... أهلاً لِما طَلبوا منها وما زَعموا
فهل همُ مدّعوها غيرَ واجبةٍ ... أم هل أئمّتُهمْ في أخذِها ظلموا؟
أمّا عليٌّ فأدنى من قرابتكم ... عند الولاية إن لم تُكفَرِ النِّعمُ
أيُنكِرُ الحَبْرُ عبدالله نعمتَهُ ... أبوكمُ أم عبيدُ الله أم قُثَمُ؟
بئس الجزاءُ جَزَيتُمْ في بني حسنٍ ... أباهُمُ العَلَمَ الهادي وأمّهمُ
لا بيعةٌ ردَعتكمْ عن دمائهمُ ... ولا يمينٌ ولا قُربى ولا ذِممُ
هلاّ صفحتمْ عن الأسرى بلا سببٍ ... للصّافحين ببدرٍ عن أسيركمُ[1]
هلاّ كففتمْ عن الدّيباجِ سوطَكُمُ[2] ... وعن بناتِ رسولِ الله شتمَكمُ[3]
ما نُزِّهتْ لرسولِ الله مُهجَتُهُ ... عن السّياطِ فهلاّ نُزِّهَ الحَرَمُ
ما نالَ منهمْ بنو حربٍ وإن عظُمَتْ ... تلكَ الجرائرُ إلاّ دون نَيلِكمُ
كم غدرةٍ لكم في الدّين واضحةٍ ... وكم دمٍ لرسول الله عندكمُ
أنتم له شيعةٌ[4] في ما ترونَ وفي ... أظفارِكُم من بنيه الطّاهرينَ دمُ
هيهاتَ لا قرّبتْ قُربى ولا رَحِمٌ ... يوماً إذا أقصَتِ الأخلاقُ والشِّيَمُ
كانت مودّةُ سلمانٍ له رَحِماً ... ولم يكن بين نوحٍ وابنه رَحِمُ

---

(١) أراد بالأسرى: عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام وأقاربه، وبأسيرهم ببدر: العبّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه.

(٢) الدّيباج: هو محمّد بن عبدالله العثمانيّ، أخو بني حسن لأمّهم فاطمة بنت الحسين السّبط، ضربه المنصور مئتين وخمسين سوطاً.

(٣) لعلّه أشار إلى قول المنصور لمحمّد الدّيباج: يا ابن اللخناء.
فقال محمّد: بأيّ أمّهاتي تعيّرني؟ أبفاطمة بنت الحسين أم بفاطمة الزّهراء أم برُقيّة؟

(٤) في الدّيوان وأعيان الشّيعة: أأنتم آله.

يا جاهداً في مساويهم يكتّمُها غَدْرُ الرّشيدِ بيحيى كيف ينْكَتِمُ؟[1]
ليس الرّشيدُ كموسى في القياسِ ولا مأمونُكُمْ كالرّضا لو أنصفَ الحكمُ
ذاق الزبيري غِبّ الحنثِ وانكشفت عن ابن فاطمةَ الأقوالُ والتُّهمُ[2]
باؤوا بقتلِ الرّضا من بعد بيعتِهِ وأبصروا بعضَ يومٍ رُشدَهم وعمُوا
يا عُصْبَةً شَقِيَتْ من بعدما سعدتْ ومَعْشَراً هلكوا من بعدما سلِمُوا
لَبِئسما لَقِيَتْ منهم وإن بليَتْ بجانبِ الطفِّ تلكَ الأعظمُ الرّممُ[3]
لاعن أبي مسلمٍ في نُصْحِهِ صفحوا ولا الهبيريَّ نجّا الحلفُ والقَسَمُ[4]
ولا الأمانُ لأهلِ الموصلِ اعتمدوا فيه الوفاءَ ولا عن غيِّهم حَلِموا[5]
أبلغ لديك بني العبّاس مالُكَةً[6] لا يدّعوا ملكَها ملاّكُها العجمُ
أيّ المفاخرِ أمستْ في منازِلِكُمْ وغيرُكُمْ آمرٌ فيها ومحتكِمُ؟
أنّى يَزيدُكُمُ في مفخرٍ عَلَمٌ وفي الخلافِ عليكمْ يخفِقُ العَلَمُ؟
يا باعةَ الخمرِ كفّوا عن مفاخركمْ لمعشرٍ بَيْعُهُمْ يومَ الهياجِ دَمُ
خلّوا الفَخَار لعلاّمينَ إن سُئلوا يومَ السّؤالِ وعَمّالينَ إن عَلِموا
لا يغضبونَ لغيرِ الله إن غضبوا ولا يُضيعُونَ حُكمَ الله إن حَكَموا
تُنشى التّلاوةُ في أبياتهم سَحَراً وفي بيوتكُمُ الأوتارُ والنّغَمُ

(١) أشار إلى غدر الرّشيد بيحيى بن عبدالله بن الحسن الخارج ببلاد الديلم سنة ١٧٦، فإنّه أمّنه ثمّ غدره وحبسه، ومات في حبسه.

(٢) الزبيري: هو عبدالله بن مصعب بن الزّبير، باهله يحيى بن عبدالله بن حسن فتفرّقا، فما وصل الزبيري إلى داره حتّى جعل يصيح: بطني بطني، ومات.

(٣) أشار إلى ما فعله المتوكّل بقبر الإمام الشّهيد.

(٤) أبو مسلم: هو الخراساني مؤسّس دولة بني العبّاس، قتله المنصور. والهبيريّ: هو يزيد بن عمر بن هبيرة، أحد ولاة بني أميّة، حاربه بنو العبّاس أيّام السفّاح ثمّ أمّنوه، فخرج إلى المنصور بعد المواثيق والأيمان، فغدروا به وقتلوه سنة ١٣٢.

(٥) استعمل السفّاح أخاه يحيى بن محمّد على الموصل فأمّنهم ونادى: من دخل الجامع فهو آمن. وأقام الرّجال على أبواب الجامع، فقتلوا النّاس قتلاً ذريعاً. قيل: إنّه قتل فيه أحد عشر ألفاً ممّن له خاتم، وخلقاً كثيراً ممّن ليس له خاتم، وأمر بقتل النّساء والصّبيان ثلاثة أيّام وذلك في سنة ١٣٢.

(٦) المألُكة: الرّسالة.

منكـمْ عُليّـةُ أم منهـم وكـان لكـمْ شيـخُ المغنّيـن إبـراهيـمُ أم لَهُـمُ؟[1]
إذا تلـوا سـورةً غنّـى إمـامُكـمُ قف بالطّلولِ التي لم يعفها القِدمُ
مـا فـي بيـوتهـمُ للخمـرِ مُعتصَـرٌ ولا بيـوتكـمُ للسّـوءِ مُعتَصَـمُ
ولا تبيـت لهـم خُنْثَـى تنـادمهـمْ ولا يُـرى لهـمُ قِـرْدٌ ولا حَشَـمُ[2]
الـرّكـن والبيـتُ والأستـارُ منـزلُهُـمْ وزمـزمٌ والصّفـا والحِجـرُ والحَـرَمُ
وليـس مـن قَسَـمٍ فـي الـذِكـر نعـرفـهُ إلاّ وهـم غيـرَ شـكٍّ ذلـكَ القَسَـمُ

ما يتبع الشّعر

تـوجـد هـذه القصيـدة كمـا رسمناها (٥٨) بيتاً في ديوانه[3] المخطوط، المشفوع بشرحه لابن خالويه النحوي المعاصر له المتوفّى بحلب في خدمة بني حمدان سنة ٣٧٠هـ.، وخمّس منها العلاّمة الشيخ إبراهيم يحيى العاملي (٥٤) بيتاً، وذكر تخميسه في «منن الرحمن» (١/ ١٤٣)، مستهلّه:

يـا للـرّجـال لجُـرحٍ ليـس يلتئـمُ عُمْـرَ الـزّمـانِ وداءٌ ليـسَ ينحسـمُ
حتّـى متـى أيّهـا الأقـوام والأمـمُ الحــقُّ مهتضــمُ.....
أودى هدى النّاس حتّى أنّ أحفظهم للخيـر صـار بقـولِ السّـوءِ ألفظهُـم
فكيـف تـوقظهـم إن كنـت مـوقظهـمْ والنّــاس عنــدك......؟

وهـي التـي شرحهـا أبو المكارم محمّد بن عبد الملك بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة الحلبي المتـوفّـى ٥٦٥هـ.، وشرحها ابن أمير الحاجّ بشرحه المعـروف المطبـوع، وتـوجـد بتمـامهـا في «الحدائق الورديّة»[4] المخطوط، وذكرهـا القـاضـي فـي «مجالس المؤمنين»[5] (ص ٤١١)، والسيّد ميرزا حسن

(١) عُليّة: بنت المهدي بن المنصور، كانت عوّادة، وإبراهيم أخوها كان مغنّياً وعوّاداً.
(٢) الخنثى: هو عبادة نديم المتوكّل. والقرد كان لزبيدة.
(٣) ديوان أبي فراس، ص ٢٥٥، طبعة دار صادر ـ بيروت.
(٤) الحدائق الورديّة: ٢/ ٢٢١، طبعة دار أسامة ـ دمشق.
(٥) مجالس المؤمنين: ٢/ ٤١٣.

الـزنـوزي في «رياض الجنّة» في الروضة الخامسة ستّين بيتاً، وهي التي شطّرها العلاّمة السيّد محسن الأمين العاملي. وإليك نصّ البيتين الزّائدين:

أمّـن تُشـاد لـه الألحـان سـائـرةً　　عليْهُـمْ ذو المعـالـي أم عليْكـمُ؟[1]

صلّـى الإلـهُ عليهـم كلّمـا سجعـت　　ورْقٌ فهم للورى كهفٌ ومعتصمُ[2]

وأسقـط نـاشر الدّيوان منها أبياتاً وذكرها (٥٣) بيتاً، وأحسب أنّه التقط أبياتاً ما كان يروقه مفادها، ودونك الإشارة إليها:

١ ـ وكلّ مائرة الضّبعين مسرحها...

٢ ـ وفتيةٌ قلبهم قلبٌ إذا ركبوا...

٣ ـ فما السّعيد بها إلاّ الذي ظلموا...

٤ ـ للمتّقين من الدنيا عواقبها...

٥ ـ ليس الرّشيد كموسى في القياس ولا...

٦ ـ يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم...

٧ ـ صلّى الإله عليهم كلّما سجعت[3]...

هـذه القصيـدة تُعـرف بالشـافيـة، وهي من القصائد الخالدة التي اتفقت المصادر على ذكـرهـا، أو ذكر بعضها[4] أو الإيعاز إليها، مطّردة متداولة بين الأدبـاء، محفـوظـة عنـد الشّيعة وقسمائهم منذ عهد نظمها ناظمها أمير السّيف والقلم وإلى الآن، وستبقـى خـالـدةً مـع الـدّهـر، وذلك لما عليها من مسحة البـلاغـة، ورونـق الجـزالـة، وجـودة السّـرد، وقوّة الحجّة، وفخامة المعنى،

(١) بعد البيت الـ ٥٣.

(٢) مختتم القصيدة (المؤلّف).

(٣) هذه الأبيات السّبعة كلّها ـ إلاّ البيت السّادس ـ موجودة في الطبعة التي بين أيدينا من الدّيوان، ولعلّ المؤلّف ـ قدّس سرّه ـ يشير إلى ناشر آخر.

(٤) ذكر سراج الدّين السيّد محمّد الرّفاعي، المتوفّى ٨٨٥هـ. في صحاح الأخبار: ص ٢٦ من القصيدة ثمانية أبيات، وقال: القصيدة طويلة ليس هذا محلّ ذكرها.

وسلاسة اللّفظ، ولمّا أنشد ناظمها الأمير، أمر خمسمئة سيفٍ، وقيل أكثر، أن تُشهر في المعسكر[1]، نظمها لمّا وقف على قصيدة ابن سكرة العبّاسي، التي أوّلها:

بني عليٍّ دعوا مقالتكمْ　　لا يُنقصُ الدرَّ وضعُ من وضعه

وللأمير أبي فراس هائيّة يمدح بها أهل البيت، وفيها ذكر الغدير وهي:

يومٌ بسفحِ الدّارِ لا أنساهُ　　أرعى له دهري الذي أولاهُ
يومٌ عمرتُ العُمْرَ فيه بفتيةٍ　　من نورهمْ أخذَ الزّمانُ بَهاهُ
فكأنّ أوجهَهمْ ضياءُ نهاره　　وكأنّ أوجهَهمْ نجومُ دجاهُ
ومُهفهفٍ كالغُصنِ حُسنُ قوامِهِ　　والظّبي منه إذا رنا عيناهُ
نازعتُهُ كأساً كأنّ ضياءَها　　لمّا تبدّت في الظّلامِ ضياهُ
في ليلةٍ حسُنتْ لنا بوصالِهِ　　فكأنّما من حُسْنها إيّاهُ
وكأنّما فيها الثريّا إذ بدتْ　　كفٌّ يشيرُ إلى الذي يهواهُ
والبدرُ منتصفُ الضّياء كأنّهُ　　متبسّمٌ بالكفِّ يسترقاهُ
ظبيٌ لَوَ انَّ الدرّ مرّ بخدّه　　من دون لحظةِ ناظرٍ أدماهُ
إن لم أكن أهواه أو أهوى الرّدى　　في العالمين لكلّ ما يهواهُ
فحُرِمتُ قُرْبَ الوَصلِ منه مثلما　　حُرِمَ الحسينُ الماءَ وهو يراهُ
إذ قال: اسقوني فعُوِّضَ بالقنا　　من شُربِ عَذبِ الماء ما أرواهُ
فاجتُزّ رأسٌ طالما من حِجرِهِ　　أدنتْهُ كفّا جدِّهِ ويداهُ
يومٌ بعينِ اللهِ كان وإنّما　　يُملي لِظلمِ الظّالمينَ اللهُ
وكذاك لو أردى عِداة نبيِّه　　ذو العرش ما عرَفَ النبيّ عِداهُ
يومٌ عليهِ تغيّرتْ شمسُ الضّحى　　وبكتْ دماً ممّا رأتهُ سَماهُ
لا عُذرَ فيه لمهجةٍ لم تنفطرْ　　أو ذي بكاءٍ لم تفضْ عيناهُ

---

(1) كما ذكره الفتوني في كشكوله، وأبو عليّ في رجاله: ص ٣٤٩ [ص ٤١٢].

تبّاً لقوم تابعوا أهواءهم ... في ما يسوؤهم غداً عُقباهُ
أتراهمُ لم يسمعوا ما خصّهُ ... منه النبيُّ من المقال أباهُ؟
إذ قال يومَ غدير خمٍّ معلناً: ... من كنتُ مولاه فذا مولاهُ
هذي وصيّته إليه فافهموا ... يا من يقول بأنّ ما أوصاهُ
أقروا من القرآن ما في فضلِهِ ... وتأمّلوه وافهموا فحواهُ

* * *

(٢٣)
أبو الفتح كشاجم

التّعريف بالشّاعر

أبـو الفَتْح محمود بن الحسين (أو ابن محمّد بن الحسين) بن السِّندي بن شـاهـك الـرّملـي[1]، نسبةً إلى الرَّملة في فلسطين، المعروف بكشاجم، وهذا اللّقـب منحـوتٌ مـن أسماء علومٍ كان يتقنها: الكاف للكتابة، والشّين للشّعر، والألف للإنشاء أو الأدب، والجيم للجدل أو الجود، والميم للمنطق أو المتكلّم أو المنجِّم؛ وقيل: أطلق عليه هذا اللّقب لأنّه كان كاتباً شاعراً أديباً جميلاً مغنّياً، وتعلّم الطبّ فزيد في لقبه «طاء» فقيل: «طكشاجم»، ولم يشتهر به.

أبـو الفتـح كشـاجـم فارسيّ الأصل، وكان أسلافه الأقربون في العراق، فجـدّه «السّنـدي بـن شـاهـك» كـان صاحب الشّرطة في عهد هارون الرّشيد، الخليفة العبّاسي المتوفّى سنـة ١٩٣هـ.، وهو من أهل الرَّملة في فلسطين كما تفيد نسبته إليها، ولعلّه نشأ فيها، فنسب إليها.

تفيد قصيدة مدح بها الشّاعر الوزير أبا علـيّ بـن مقلة، في أيّام وزارته، أي قبـل سنـة ٣٢٤هـ.، لأنّ هـذا الـوزيـر حُبـس في هذه السّنة، وتوفّي سنة

---

(١) راجع ترجمته في: الغدير، م.س.: ٤/١٩، جاء في الغدير: محمود بن محمّد بن الحسين، أعيان الشّيعة، م.س.: ١٠/١٠٣، جاء في الأعيان: محمود بن الحسين. خير الدّين الزركلي، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط١١، ١٩٩٥م، ٧/١٦٧ و١٦٨، جاء في الأعلام أنّ اسمه: محمود بن الحسين. في الدّيارات وشذرات الذهب وفهرست ابن النّديم، وفي حسن المحاضرة: محمود بن محمّد بن الحسين، ويعقّب صاحب الأعلام فيقول: «إلاّ أنّ المصادر الأخرى متّفقة على تسميته محمود بن الحسين».

٣٢٨هـ. ، أنَّ شيبه لاحت كواكبه، وأنَّ شبابه ولّى ومضى. وهذا يعني أنّه ولد في النّصف الثاني من القرن الثالث الهجري. وتفيد هذه القصيدة، أيضاً، أنّ حاله تغيَّرت بعد أن ولّى شبابه ودفع إلى القلّة، فقلَّ رُوّاد بابه بعد أن كانوا «ينتابونه ثلَّة بعد ثلّة». يقول الشّاعر في هذه القصيدة:

وإنّ شيبي قد لاحت كواكبُه　　　في ظلمةٍ من سواد اللمَّة الجثله
فهذه جملةٌ في العذر كافيةٌ　　　تغنيك فاغنِ عن التفصيل بالجمله
وبان منّي شبابٌ كان يشفع لي　　　سقياً له من شبابٍ بان سقياً له
قد كان بابي للعافين منتجعاً　　　ينتابه ثُلّة من بعدها ثُلّه
وكنت طود المنى يُؤوى إلى كنفي　　　كحائط مُشرف من فوقه ظلّه
أفنى الكثير فما إن زال ينقصني　　　متى دفعت إلى الأفنان والقلّه
وقد غنيت وأشغالي تبيَّن من　　　فضلي فقد سترته هذه العطله
والسّيف في الغمد مجهول جواهره　　　وإنّما يجتنيه عين من سلّه

واختلفت الرّوايات في تحديد سنة وفاته، ففي «شذرات الذّهب»، وتبعه «تاريخ آداب اللّغة العربيّة» أنّه توفّي سنة ٣٦٠هـ. ، وفي «كشف الظّنون» و «كتاب الشّيعة وفنون الإسلام» و «أعيان الشّيعة» و «الأعلام» أنّه توفّي سنة ٣٥٠هـ. ، وجاء في مقدّمة ديوانه أنّه توفّي سنة ٣٣٠هـ.

رحّالة

تفيد كتب تاريخ الأدب أنّه كان كثير التنقّل في البلاد، أو «رحّالة»، فقد غادر المدينة التي نشأ فيها إلى القدس ودمشق وحلب وبغداد، وزار مصر غير مرّة، ثمّ استقرَّ في حلب بعد تنقُّل بين هذه المدن. ويجد قارئ شعره ذكراً لتنقُّله ورحلاته، فهو يقول في قصيدته التي يمدح بها الوزير ابن مقلة في العراق:

هذا على أنّني لا استفيقُ، ولا　　　أفيقُ من رحلةٍ في إثرها رحله
وما على البدر نقصٌ في إضاءته　　　أن ليس ينفكُّ من سيرٍ ومن نُقْله

وتفيد قراءة إحدى قصائده أنّه كان، قبل أن يزور مصر، يتشوّق إلى زيارتها، ثمّ بعد أن قدم إليها، أطال الإقامة فيها، فغدت له داراً، ينصرف فيها صباحاً إلى «الدّواوين» لتحصيل العلم، ثمّ ينصرف إلى قضاء «لُبانات» الشّباب و «أوطاره». ونجد، في أحد أبيات هذه القصيدة ما يفيد أنّه لم ينل فيها ما يراه لنفسه من مكانة، فهو يقول:

قد كان شوقي إلى مصر يؤرّقني ... فاليوم عدتُ، وعادت مصر لي دارا
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مُصطحباً ... طوراً، وطوراً أرجّي السّير أطوارا
بينا أسامي رئيساً في رئاسته ... إذ رحتُ أُحْسَبُ في الحانات خمّارا
فللدّواوين إصباحي ومُنصَرفي ... إلى بيوت دُمى يعلمن أوتارا
أمّا الشّباب فقد صاحبت شرّته ... وقد قضيتُ لباناتٍ وأوطارا
من شادنٍ من بني الأقباط يعقد ما ... بين الكثيب وبين الخصر زنّارا

ويبدو أنّه كان يعاني الشّوق في أسفاره ورحلاته لكنّه يصبر. . . ، ويودّ أنّ يخبر أخوته أنّ «حياته لبعدهم كَدِرَة»، وقد هام شوقاً إلى وجوههم، ويحاول أن يسلو. . وهو يصوِّر حالته هذه في قصيدةٍ يخاطب فيها امرأةً يكنّي عنها بـ «هذه»، فيمدح «أخوته»، ويتساءل: متى يرى نفسه في مصر جاراً لهؤلاء الأخوة، والنّيل مستكملٌ زيادته. . . ، ويتمنّى ألاّ يكون قد رأى العراق، أو سمع بذكر الأهواز والبصرة، ولكن ما العمل وهي الأيّام؟ فكأنّ يدها طالبته بـ «تره»:

يا هذه، قلتُ فاسمعي لفتىً ... في حاله عبرةٌ لمُعْتَبِرَه
أُمِرْت بالصّبر والسُّلوِّ، ولو ... عَشِقْتِ ألفيتِ غيرَ مُصْطَبِرَه
مَنْ مبلغٌ إخوتي، وإن بعدوا: ... إنّ حياتي لبُعْدهم كدِرَه؟
قد همتُ شوقاً إلى وجوههم ... تلك الوجوه البهيّة النّضره
أبناءُ ملكٍ عُلاهمُ بهمُ ... على العلا والفخار مفتخره
ترمي بهم نعمةٌ تُزيِّنُها ... مروءةٌ لم تكن تُرى نزره
ما انفكَّ ذا الخلق بين منتصرٍ ... على الأعادي بهم ومنتصره

جبـالُ حلـمٍ، بـدورُ أنـديـةٍ ... أُسْـدُ وغـىً فـي الهيـاجِ مُبْتَـدِرَه
بيـضُ كـرامِ الفعـالِ لا بخـلِ الأ ... يـدي، وليسـت مـن النّـدى صفـره
للنّـاس منهـم منـافـعٌ، ولهـم ... منـافـعٌ فـي الأنـام مُشْتهـره
متـى أرانـي بمصـر جـارهـم ... نسبـي بهـا كـلُّ غـادةٍ خضـره
والنّيـل مستكمـلٌ زيـادتـه ... مثـل دروع الكمـاة منتشـره
تغـدو الـزواريـق فيـه مُصعـدةً ... بنـا وطـوراً تـروح منحـدره
والـرّاحُ تسعـى بهـا مـذكّـرةٌ ... أردانهـا بـالعبيـر مُختمـره
بكـران لكـن لهـذه مئـة ... وتلـك ثنتـان وثنتـا عشـره
يـا ليتنـي لـم أرَ العـراق ولـم ... أسمـع بـذكـر الأهـواز والبصـره
تـرفعنـي تـارةً وتُخفضنـي ... أخـرى فمـن سهلـة ومـن وَعِـرَه
فـوق ظهـر سلهبـة[1] ... قِطـانهـا والبـدار مُغتفـره
وتـارةً فـي الفـرات طـاميـة ... أمـواجـه كـالخيـال معتكـره
حتّـى كـأنَّ العـراق تعشقنـي ... أو طـالبتنـي يـد النّـوى بتـره

استـقـرَّ أبـو الـفـتـح في حلب، فكان من شعراء أبي الهيجاء، عبدالله بن حمدان (والـد سيـف الدّولة)، ثمَّ من شعراء ابنه سيف الدّولة، وقيل: كان في بداية أمره طبّاخاً لسيف الدّولة، ثمَّ نبغ في غير فنٍّ من فنون العلم كما مرَّ بنا.

نشاته وتعلّمه

ليس في المصادر المتوافرة بين أيدينا ما يفيد عن نشأته وتعلُّمه، غير أنّنا نستطيـع، مـن خـلال قـراءة إحدى قصائده، أن نعرف أنّه تَتَلْمذ على الأخفش الأصغر، عليّ بن سليمان، المتوفّى سنة ٣١٥هـ. ، وهو إمّا قرأ عليه في مصر أيّام كان الأخفش فيها بين عامي ٢٨٧ و٣٠٦هـ. ، أو في بغداد قبل أن يغادرها

(١) السّلهبة: الطويلة الجسيمة، وهي النّاقة هنا. قِطان: جمع قُطن، وهو عود الهودج، البدار: جمع بادرة، وهي اللحمة بين المنكب والعنق. مغتفرة: من «غفر»، أي ستر وغطى، والمعنى أنّه يمتطي ناقة عظيمة مهيّأة للسّفر الطّويل.

الأخفش إلى مصر، والقصيدة المذكورة مدحيّة أنشأها كشاجم في الأخفش، عندما كان في الشّام، ومنها:

فلمّــــا خُيِّــــل الصُّبــــحُ ولمّــــا يبــــدُ تبليجــــه
... إلــــى كعبــــة آداب بــــأرض الشّــــام محجــــوجــــه
إلــــى معــــدنٍ بــــالحكمــــة والآداب ممــــزوجــــه
ومــــن يعــــدل بــــالعلــــم مــــن المنــــآد تعــــويجــــه
بــــه تغــــدو مــــن الشــــكّ قلــــوب القــــوم مثلــــوجــــه
لكــــي يفــــرِّج عنّــــي الخطــ ب لا أستطيــــع تفــــريجــــه
وكــــي يمنحنــــي تــــأديــ ــــه المحــــض وتخــــريجــــه
ومــــن أولــــى بتقــــريــــ خــــلا مــــن كنــــت ضــــرِّيجــــه[1]
ومــــن تــــوّجنــــي مــــن علــ ــمــــه أحســــن تتــــويجــــه

مكانته بين أقرانه

وكمـا كـان كشاجم يجلُّ أستاذه كان يلقى هو الإجلال نفسه من الشّعراء والأدبـاء أقـرانـه وأصدقائه، فهذا السّري الرّفاء، الشّاعر المعروف، كان على الـرُّغـم مـن تقـدّمـه فـي فنـون الشّعر والأدب، مهتمّاً بشعر كشاجم، مشغولاً بنسخه، وكان كما قيـل: «فـي طريقه يذهب وعلى قالبه يضرب»، ولشهرته في هذا الأمر قال أحدهم:

يـا بـؤس مـن يُمْنَى بدمـعٍ ساجـم يهمى على حُجُب الفؤاد الواجم
لــولا تعلّلــه بكــأس مــدامــةٍ ورســائـل الصّـابـي وشعـر كشـاجـم

ونجـد فـي شعـره مـا يفيد أنّه كان صديقاً للشّاعر الصنوبريّ المعروف، فعندما تتوفّى للصنوبريّ بنت في حياته، يخاطبه كما يخاطب الصّديق صديقه، ويعزِّيه بلسان الإنسان التقيّ المؤمن، فيقول:

(١) ضرَّج الكلام: حسّنه وزوّقه.

أتــاســى يــا أبــا بكــرِ ... لمـــوتِ الحُـــرّةِ البِكـــرِ
وقـــد زوّجتَهـــا قَبْـــراً ... ومـــا كـــالقبــرِ مـــن صِهـــرِ
وعُـــوِّضـــتَ بهـــا الأجــرَ ... ومـــا لـــلأجـــرِ مـــن مَهْـــرِ
زفـــافٌ أُهـــدِيَـــتْ فيـــهِ ... مـــن الخِـــدْرِ إلـــى القبـــرِ
فتــــــاةٌ أسبـــــلَ اللهُ ... عليهـــا أسبـــغَ السِّتـــرِ
ورده أشبـــــــه النّعمـ ... ـــةَ فـــي المـــوقـــعِ والقَـــدْرِ
وقـــد يختـــارُ فـــي المكـــرو ... هِ للعبـــدِ ومـــا يـــدري
فقـــابـــلْ نعمـــةَ اللهِ الـ ... ـتـــي أولاكَ بـــالشُّكـــرِ
وعـــزِّ النّفـــسَ ممّـــا فـــا ... ت بـــالتّسليـــمِ والصَّبـــرِ

شخصيّته

كـان كشاجـم يتقن علوماً كثيرة، وهو يذكر ذلك في شعره، ويفخر به، وبأصله الفارسي، وسجاياه الحميدة، فيقول:

شهـرت نـداي منـاصـبٌ لـي ... وفـي ذرى كسـرى صـريحـهْ
وسجيّـــةٌ لـــي فـــي المكـــا ... رم إنّنـــي فيهـــا شحيحـــهْ
متحيِّـــزاً فيهـــا معلّـــى المجـ ... ـــد مجتنبـــاً مَنِيْحَـــهْ
ولقـــد سننـــت مـــن الكتـــا ... بـــة للـــورى طـــرقـــاً فسيحـــهْ
وفضضـــت مـــن عـــذر المعـــا ... نـــي الغـــرُّ فـــي اللُّغـــة الفصيحـــهْ
وشفعـــت مـــأثـــور الـــرُّوا ... يـــة بـــالبـــديـــع مـــن القـــريحـــهْ
ووصلـــت ذاك بهمَّـــةٍ ... فـــي المجـــد ســـائبـــةٍ طمـــوحـــهْ
عـــزيمـــةٍ لا بـــالكليـ ... ـلـــة فـــي الخطـــوب ولا الطّليحـــهْ
كلتـــاهمـــا لـــي صـــاحـــبٌ ... فـــي كـــلِّ داميـــةٍ جمـــوحـــهْ (١)

(١) شحيحه: حريص عليها. المَنِيْح: سهم من سهام الميسر لا نصيب له، ويكوّن مع «المعلّى» ثنائية تضادّ. الطّليحة: التّعبة.

ويعيد القول في تميّزه بالخلق العالي والشِّعر الجميل والقلم الرَّشيق والكتابة المبتكرة والرَّأي النيِّر وحسن الصُّحبة. . . ، فنقرأ له:

لو بحقٍّ تناول النَّجمَ خلقٌ نلتُ أعلى النُّجوم باستحقاقِ
أوَ ليس اللِّسان منِّي أمضى من ظبات المهنَّدات الرِّقاقِ؟
ويدي تحملُ الأناملُ منها قلماً ليس دمعُه بالرَّاقي
أفعواناً تهابُ منه الأعادي حيَّةً يستعيذ منها الرَّاقي
وتراهُ يجودُ من حيث تجري منه تلك السُّموم بالدِّرياقِ
مطرقاً يهلك العدوّ عقاباً ويريش الوليّ ذا الأخفاقِ
وسطورٌ خططتها في كتاب مثل غيم السّحابة الرّقراقِ
صغت فيه من البيان حليّاً باختراع البعيد لا الإشفاقِ
وقوافٍ كأنّهنّ عقودُ الد رّ منظومةٌ على الأعناقِ
غررٌ تظهر المسامعَ تيهاً حين يسمَعْنَها على الأحداقِ
ويحار الفهمُ الرّقيق إذا ما جال منهنّ في المعاني الرّقاقِ
ثاويات معي وفكري قد سـ ـيَّرها في نوازح الآفاقِ
وإذا ما ألمَّ خطبٌ؛ فرأسي فيه مثلُ الشِّهاب في الأعناقِ
وإذا شئتُ كان شعري أحلى من حديث الفتيانِ والعشّاقِ. . .

وفي قصيدةٍ يمدح بها ابن مقلة يفخر بخلاله الحميدة، ومنها ما يبدو «ذلّة»، وهو رفعة. . . ولعلّه يقصد التّواضع ولين العريكة. . . ، ومنها الكتابة والابتكار فيها، والكرم الذي لا يقابل دائماً بالوفاء من الأصحاب. . .

لكن الشّاعر يقنع، فلا يطلب شيئاً من أحدٍ، وهذا هو شأن الأحرار، وكأنّه هنا يُلفت نظر ابن مقلة إلى حاجته:

كم فيَّ من خلّةٍ لو انّها امتُحنت أدّت إلى غبطةٍ أو سدّت الخَلّه[1]

---

(١) الخِلّة: الصّداقة الصّادقة. الخَلّة: الشقّ أو الثقب، والخَلّة، أيضاً، الحاجة والفقر. الآلة: =

وهمَّةٍ في محلِّ النّجم موقعها ... وعزمةٍ لم تكن في الخطب منحلّه
وذلَّةٍ أكسبتني عزّ مكرمةٍ ... وربّما يُستفاد العزُّ بالذلّه
صَاحبتُ سادات أقوام فما عثروا ... يوماً على هفوةٍ منّي ولا زلّه
واستمتعوا بكفاياتي وكنت لهم ... أوفى من الدّرع أو أمضى من الألّه
خطٌّ يروق وألفاظٌ مهذَّبة ... لا وعرة النّظم بل مختارةٌ سهله
لو أنّني منهلٌ منها أخا ظمأ ... روت صداه فلم يحتج إلى غلّه
وكم سننتُ رسوماً غير مشكلةٍ ... كانت لمن أمّها مُسترشداً قبله
عَمَّت فلا منشئُ الدّيوان مكتفياً ... منها ولم يغن عنها كاتب السلّه
وصاحبتني رجالاتٌ بذلت لها ... مالي فكان سماحي يقتضي بَذْلَه
فأعمل الدّهر في ختلي مكائده ... والدّهر يعمل في أهل الهوى ختله
لكن قنعت فلم أرغب إلى أحدٍ ... والحرُّ يحمل عن إخوانه كلّه

وإن غاب الصّديق يعزُّ عليه البين، فيشكو ويحنّ، ويقول:

□ يا مَن لعينٍ ذَرَفَتْ ... ومَن لروحٍ تَلِفَتْ
مُنهلَّةٌ عبرتُها ... كأنّها قد طُرفتْ
إن أَمِنَتْ فاضتْ، وإن ... خافتْ رقيباً وَقَفَتْ
وإنّما بكاؤها ... على ليالٍ سَلَفَتْ
□ يا مُعرِضاً لا يَلْتَفِتْ ... بمثلِ ليلي لا تَبُتْ
برّح هجرانك بي ... حتّى رثى لي من شَمِتْ
عَلّقتَ قَلْبي بالمُنى ... فأحيِهِ أو فأمِتْ

ويضطرُّ، في حالاتٍ، إلى الهجاء، فيُخيَّل إلى قارئ هجائه أنّه واعظ بارٌّ يخطب، أو نصُوح يعاتب، أو مجادل دون حقِّه يجادل، وتجده، أحياناً، قد

= الحرية. كاتب السلّه: يقابل منشئ الديوان، ولعلّه يقصد الكاتب، سريع الكتابة، وهو يقابل المتأنّي المتأنّق في كتابته. الختل: الخداع. كلّه: من الكلل وهي الحالة، أي أنّ الحرّ يحمل إخوانه في جميع حالاتهم.

اتّخذ الهجاء وسيلةَ دفاع...، ومن نماذج شعره هذا قوله في «رئيسٍ من رؤساء عصره» أرسل إليه كتاباً فلم يجبه عنه:

هـا قـد كتبتُ فما رَدَدْتَ جوابي ... ورجَّعتَ مختوماً عليَّ كتابي
وأتى رسولاً مستكيناً يشتكي ... ذلَّ الحجاب ونخوة البوّاب
وكأنّني بك قد كتبت معذِّراً ... وظلمتني بملامةٍ وعتاب
فارجع إلى الإنصاف، واعلم أنّه ... أولى بذي الآداب والأحساب
يا رحمةَ الله التي قد أصبحت ... ، دون الأنام، عليَّ سوطَ عذاب
بأبي وأمّي أنت من مستجمعٍ ... تيه القيان ورقّة الكتّاب

وقوله الآخر في هجاء جماعةٍ من الرؤساء:

عدمت رئاسة قوم شقوا ... شباباً ونالوا الغنى حين شابوا
حديثٌ بنعمتهم عهدُهم ... فليس لهم في المعالي نصابُ
يرون التكبّر مُستصوباً ... من الرّأي، والكبر لا يُستصابُ
وإن كاتبوا صارفوا في الدّعاء ... كأنَّ دعاءهمُ مُستجابُ

ونقرأ له فخره بحفظ المودّة والوفاء بالعهد...، فهمُّه «مكارم الأخلاق»، أيّاً تكن الحالات التي يحياها:

ولدينا لذي المودّة حفظٌ ... ووفاءٌ بالعهد والميثاقِ
أتراخى رضاه جهدي فلمّا ... مسّه الضرُّ مسّه إرفاقي
تلك أخلاقنا ونحن أناسٌ ... همُّنا في مكارم الأخلاقِ

ولهذا، فهو يعاتب من يعرض عنه بلا جرمٍ، ولا معنى، رقيقَ العتاب، لكنّه، وإن أصرّ المُعْرِضُ على موقفه يكن عنه غنيّاً ولا يبادله الخيانة بمثلها وإنّما يحسن الظنَّ به:

أناسٌ أعرضوا عنّا ... بلا جُرمٍ ولا معنى
أساؤوا ظنّهم فينا ... فهلّا أحسنوا الظنّا
وخلّونا، ولو شاؤوا ... لعادوا كالّذي كنّا
فإن عادوا لنا عُدنا ... وإن خانوا لَما خُنّا

وإن كـــانـــوا قـــد اشتغلـــوا   فـــإنّـــا عنهـــمُ أغنـــى

ولكشاجـم، الشّاعـر الأديب الكاتب، رؤية متميِّزة إلى «الرّئاسة»، أو «السُّلطة»، وهي رؤية صادقة، يمكن للمرء أن يتبيَّن صدقها في كلّ زمانٍ ومكانٍ، فللسّلطة، كما يرى كشاجم، كفٌّ سحريّة تُلبِسُ صاحبها لباس التكبُّر، وتبعده عن إخوانه وتقعده عن تلبية حاجاتهم. ولهذا نجده يبتعد عمَّن تحوَّله السّلطة شخصاً آخر، ولا يأتي له منزلاً، ولو كان يسكن «المروه»، وهي المكان الذي يسعى إليه المسلمون في أثناء حجّهم:

رأيــت الــرّئــاســة مقــرونــةً   بلبـــس التكبُّـــرِ والنَّخـــوهْ
إذا مـــا تقمَّصهـــا لابـــسٌ   تـــرفَّـــع فـــي الجَهْـــر والخَلْـــوهْ
ويقعُـــد عـــن حـــقّ إخـــوانـــه   ويطمـــعُ أن يَهْـــرَعُـــوا نحـــوهْ
وينقصهـــم مـــن جميـــل الـــدُّعـــاء   ويـــأمـــل عنـــدهـــم الحظـــوهْ
فـــذلـــك إن أنـــا كـــاتبتـــه   فـــلا يسمـــع الله لـــي دعـــوهْ
ولســـتُ بـــآتٍ لـــه منـــزلاً   ولـــو أنّـــه يسكـــن المـــروهْ

وانطلاقاً من هذه الرؤية، كتب إلى صديقٍ له تولّى «البريد»:

صرت لي عامل البريد مقينا[1]   وقـديمـاً إلـيَّ كنـت حبيبـا
كنت تستثقل الـرّقيب فقد صر   ت علينـا بمـا وُلِّيـتَ رقيبـا
كـرهتك النّفوس وانحـرفت عنـ   ـك قلوبٌ، وكنت تسبي القلوبا
أفـلا يعجـب الأنـام بشخـصٍ   صـار ذئبـاً وكـان ظبيـاً ربيبـا؟!

التأمُّل والحكمة

وكان كشاجم، الإنسان العاقل الحكيم، الذي حصَّل علماً في مختلف صنوف المعرفة، والذي اكتسب خبرة بالحياة، يتأمَّل أمور الدُّنيا والنّاس، ويخلص إلى الحكمة، فيصوغها شعراً جميلاً، ومن نماذج ذلك قوله:

---

(١) مقين: مذكَّر المقينة، وهي الماشطة.

□ ليس خلقٌ إلاّ وفيه، إذا ما ... وقع الفحص عنه، خيرٌ وشرُّ
لازمٌ ذاك في الجبلّة لا يـ ... ـدفعه مَن له بذلك خبرُ
حكمة الصّانع المدبّر أن لا ... شيء إلاّ وفيه نفعٌ وضرُّ
فاجتهد أن يكون أكبرَ قسمـ ... ـيك من النّفع، والأقلّ الأضرُّ
وتحمّل مرارة الرّأي واعلم ... أنّ عقبى هواك منه أمرُّ
رُض بفعل التّدبير نفسك واقصر ... ها عليه، ففيه فضلٌ وفخرُ
لا تُطِعْها على الذي تبتغيه ... وليَرُعْها منك اعتسافٌ وقهرُ
إنّ مِن شأنها مجانبةَ الخـ ... ـيسر وإتيان كلّ ما قد يغرُّ

ويقول في كيفيّة قسمة الإنسان عمره بين نيل حظّه من الدُّنيا وقضاء ما يجب عليه لله، فبذلك، كما يقول، تتمّ سعادة الإنسان ورشده:

عجبي ممّن تعالتْ حالُه ... وكفاه الله زلأتِ الطّلبْ
كيف لا يقسمُ شَطْرَي عمره ... بين حالين: نعيمٌ وأدب؟!
فإذا ما نال دهراً حظّه ... فحديثٌ ونشيدٌ وكتبْ
مرّة جِدّاً وأخرى راحةً ... فإذا ما غسق اللّيل انتصبْ
يقتضي الدّنيا نهاراً حقّها ... وقضى لله ليلاً ما يجبْ
تلك أقسامٌ متى يعمل بها ... عاملٌ يسعد ويرشد ويصبْ

ويقول فيترويض الإنسان لنفسه ورضاه عنها:

لم أرضَ عن نفسي مخافة سخطها ... ورضى الفتى عن نفسه إغضابُها
لو أنّني عنها رضيت لقصّرت ... عمّا تُريد بمثلها آدابُها
وبِبَيْنَنا آثارُ ذاك وأكثرت ... عذلي عليه وطال فيه عتابُها

ويقول في بيان ضرر الحرص والطّمع، مجسّداً ذلك في صورة جميلة مبتكرة:

بالحرص في الرّزق يُذَلُّ الفتى ... والصّبْرُ فيه الشّرفُ الشّامخُ

ومُستزيدٌ في طلاب الغنى ... يجمع لحماً ما له طابخُ
يُضيّع ما نال بما يرتجي ... والنّار قد يطفئها النافخُ

ويتأمّل كشاجم حياة الإنسان فيرى أنّ الشّباب آونة تمرّ، وحلية مستعارة، وعلى المرء أن يُشغَل في طلب العلا، وينبغي ألاّ تثنيه عن ذلك مشاغل الصِّبا، وحبّ النّساء الجميلات، فأوّله حلو وآخره مرارة. . ، ومن غدا سيِّداً في شبابه نتيجة أعماله الطّيبة الحميدة يغدُ سيِّداً طوال عمره. . . ، ولهذا عليه أن يجدّ في طلب العلا وأن يمتلك أدواته ويمضي في سبله:

حُلل الشّبيبة مستعارةْ ... فدع الصِّبا واهجر ديارةْ
لا يشغلنّك عن العلا ... خودٌ تمنّيك الزيارةْ
خودٌ تطيِّب طيبها ... ويزين ساعدها سوارةْ
يحلو أوائل حبّها ... ويشوب آخره مرارةْ
ما عذر مثلك خالعاً ... في سكر لذّته عذارةْ
من بعد ما شدَّ الأشدَّ ... دَ على تلابيه إزارةْ
من ساد في عصر الشّبا ... ب غدت لسودده غفارةْ
ما الفخر أن يغدو الفتى ... متشبِّعاً ضخم الحرارةْ
كلفاً بشرب الرّاح مشـ ... ـغوفاً بغزلان الستارةْ
مهجورةً عرصاته ... لا تقرب الأضياف دارةْ
الفخر أن يُشجي الفتى ... أعداءه ويُعزُّ جارةْ
وَيذبُّ عن أعراضه ... ويَشبُّ لِلطّرّاق نارةْ
ويروح إمّا للإما ... رة سعيه أو لِلوزارةْ
فرد الكتابة والخطا ... بة والبلاغة والعبارةْ
متيقّظ العزمات يجـ ... ـتنب الكرى إلاّ غرارةْ
فكأنّه من حدّةٍ ... ونفاذ تدبيرٍ شرارةْ
حتّى يُخاف ويُرتجى ... ويُرى له نشبٌ وشارةْ
في موكبٍ لجبٍ كأنّ ... اللّيل ألبسه خمارةْ

تــزهــي بــه عصــبٌ تنفّــض — عــن منــاكبــه غبــارهْ
ويُطيــل أبنــاء الــرغــا — ئــب فــي مشــاكلــه انتظــارهْ
فــاداب لمجــدٍ حــادثٍ — أو ســالــفٍ يعلــي منــارهْ
واعمــر لِنفســك فــي العــلا — حــالاً وكــن حســن العمــارهْ
واقمــر لهــا ســوقــاً يُنـ — ـفّقهــا وتــاجــرهــا تجــارهْ
لا تَغــدُ كــلاًّ واجتنــب — أمــراً يخــاف الحــرُّ عــارهْ
وإذا عــدمــت عــن المــآ — كــل خيــرهــا فكــل الحجــارهْ

مؤلّفاته

١ ـ ديوان شعره، جمعه أبو بكر محمّد بن عبدالله الحمدوني مرتّباً على الحروف، ثمَّ ألحق به، بعدما تمَّ جمعه، زيادات أخذها عن ابنه، أبي الفرج كشاجم، وسمَّاه «الثّغر الباسم في شعر كشاجم»، والدّيوان مطبوع، وقد أسقط النّاشر، في إحدى الطّبعات، من بعض القصائد، أو الأبيات التي تخالف مذهبه.
٢ ـ كتاب الرّسائل.
٣ ـ كتاب المصائد والمطارد.
٤ ـ خصائص الطّرب.
٥ ـ الطّبيخ.
٦ ـ البيرزة في علم الصّيد.
٧ ـ أدب النّديم.

رأى كشاجم، في الشّعر، إحدى مآثره الجمّة، وعدَّه فضيلةً من الفضائل التي تميَّز بها، وكثيراً ما كان يفخر بتميُّز ما ينشده، فنقرأ له على سبيل المثال:

وإذا شئــتُ كــان شعــري أحلــى — مــن حــديــث الفتيــان والعشّــاق

وما كان يتّخذه عدّة للمدح، ولا جنّة في الهجاء. . . ، نفهم هذا من قوله:

ولئــن شعــرتُ لمــا قصــد — ت هجــاء شخــصٍ أو مــديحــه
لكــن وجــدت الشّعــر للـ — آداب تــرجمــةً فصيحــه

عقيدته

تعدَّدت النِّحل والمذاهب في القرن الرَّابع الهجري، وشاعت الأهواء والآراء المتنوّعة المتباينة، وقلّ المجاهرون بآرائهم الحقيقيّة، وكثر الذين يعلنون رأياً ويضمرون آخر، لكنّ أبا الفتح كشاجم كان، كما يقول صاحب «الغدير» وسواه من المؤرّخين: «إماميّاً صادق التشيُّع، موالياً لأهل بيت الوحي، متفانياً في ولائهم، ويجد الباحث، في خلال شعره، بيِّنات تظاهره بالتهالك في ولاء آل الله، وبثّه الدّعوة إليهم بحججه القويّة، والتفجّع في مصابهم والذبِّ عنهم، والنَّيل من مناوئيهم، واعتقاده فيهم أنَّهم وسائله إلى المولى في الحاضرة، وواسطة نجاحه في الآخرة.

وكان من مصاديق الآية الكريمة: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ﴾ [الأنعام/٩٥]، فإنَّ نُصب جدِّه السَّندي بن شاهك وعدائه لأهل البيت الطَّاهر وضغطه واضطهاده الإمام موسى بن جعفر، صلوات الله عليه، في سجن هارون ممّا سار به الرُّكبان، وسوّدت به صحيفة تاريخه؛ إلاّ أنَّ حفيده هذا باينه في جميع نزعاته الشيطانيّة، فهو من شعراء أهل البيت المجاهرين بولائهم، المتعصِّبين لهم، الذابِّين عنهم، ولا بدع فإنَّ الله هو الذي يخرج الدُّر من بين الحصى، ويُنبت الورد محتفّاً بالأشواك».

ولكشاجم في مدح آل البيت عليهم السلام وبيان حقّهم، وفي نصرة مذهبهم شعر كثير. نذكر منها نماذج منه في ما يأتي:

غديريّة أبي الفتح كشاجم

لـه شُغُـلٌ عـن سؤال الطَّلَـلْ ... أقـام الخليـطُ بـه أم رحـلْ؟
فمـا ضمنتـه لحـاظُ الظِّبـا ... تطـالعـه مـن سُجُـوف الكِلَـلْ
ولا تستفـزُّ حجـاه الخـدودُ ... بمصفـرَّة واحمـرار الخجـلْ
كفـاه كفـاه فـلا تعـذلاه ... كـرّ الجـديـديـن كـرّ العـذلْ

طـوى الغـيّ مشتعـلاً فـي ذراه ... فتطفـى الصَّبـابـةُ لمّـا اشتعـلْ
لـه فـي البكـاء علـى الطّـاهـريـن ... منـدوحـةٌ عـن بُكـاء الغـزلْ
فكـم فيهـمُ مـن هِـلالٍ هـوى ... قُبيـل التمـام وبـدرٍ أفـلْ
هـمُ حجـج الله فـي خلقـه ... ويـوم المعـاد علـى مـن خـذلْ
ومَـن أنـزل الله تفضيلهـم ... فـردٌ علـى الله مـا قـد نـزلْ
فجـدّهـمُ خـاتـمُ الأنبيـاء ... ويعـرف ذاك جميـع الملـلْ
ووالـدُهـم سيِّـد الأوصيـاء ... ومُعطـي الفقيـر ومُـردي البطـلْ
ومـن علّـم السّمـر طعـن الحلـي ... لـدى الرّوع والبيـض ضـرب القلـلْ
ولـو زالـت الأرض يـوم الهيـاج ... مـن تحـت أخمصـه لـم يـزلْ
ومـن صـدّ عـن وجـه دنيـاهـمُ ... وقـد لبسـت حليهـا والحلـلْ
وكـان إذا مـا أضيفـوا إليـه ... فـأرفعهـم رتبـةً فـي المَثَـلْ
سمـاءٌ أضيـف إليهـا الحضيـض ... وبحـرٌ قـرنـت إليـه الـوَشَـلْ
بجـودٍ تعلّـم منـه السَّحـابُ ... وحلـمٍ تـولّـد منـه الجبَـلْ
وكـم شبهـةٍ بهُـداه جـلا ... وكـم خطّـةٍ بحجـاه فصـلْ
وكـم أطفـأ الله نـار الضَّـلال ... بـه وهـي تـرمـي الهـدى بـالشُّعلْ
ومَـن ردَّ خـالقنـا شَمْسَـه ... عليـه، وقـد جنحـت للطَّفَـلْ
ولـو لـم تعـد كـان فـي رأيـه ... وفـي وجهـه مـن سنـاهـا بـدلْ
ومـن ضَـرب النّـاس بـالمرهفـات ... علـى الـدِّيـن ضـرب عـراب الإبـلْ
وقـد علمـوا أنّ يـوم الغـديـر ... بغـدرهـمُ جـرَّ يـوم الجمـلْ
فيـا معشـر الظّـالميـن الـذيـن ... أذاقـوا النبـيَّ مضيـض الثكـلْ

إلى أن قال:

يُخـالفكـم فيـه نـصُّ الكتـاب ... ومـا نـصَّ فـي ذاك خيـرُ الـرُّسـلْ
نبـذتـم وصيَّتـه بـالعـراء ... وقلتـم عليـه الـذي لـم يقـلْ

«إلى آخر قصيدته الموجودة في نسخ ديوانه المخطوط (٤٧) بيتاً، وقد

أسقط ناشر ديوانه من القصيدة ما يخالف مذهبه، وليست هذه بأوّل يد حرّفت الكلم عن مواضعها»[1].

ومن نماذج شعره في المذهب قوله:

بكــاءٌ، وقــلَّ غنــاءُ البكــاءِ … علــى رزء ذرّيّــة الأنبيــاءِ
لئــن ذلَّ فيــه عــزيــزُ الــدُّمــوع … لقــد عــزَّ فيــه ذليــلُ العــزاءِ
أعــاذلتــي إنَّ بــرد التّقــى … كســانيــه حبّــي لأهــل الكســاءِ
سفينــة نــوح فمــن يعتلــق … بحبِّهــمُ يعتلــق بــالنَّجــاءِ
لعمــري لقــد ضــلَّ رأي الهــوى … بــأفئــدةٍ مــن هــواهــا هــوائــي
وأوصــى النبــيُّ، ولكــن غــدت … وصــايــاه مُنبــذةً بــالعــراءِ
ومــن قبلهــا أمــر الميِّــون … بــردِّ الأمــور إلــى الأوصيــاءِ
ولــم ينشــر القــومُ غــلّ الصــدو … ر حتّــى طــواه الــرَّدى فــي رداءِ
ولــو سلّمــوا لإمــام الهــدى … لقــوبــل معــوجّهــم بــاستــواءِ
هــلالٌ إلــى الــرّشــد عــالــي الضيــا … وسيفٌ على الكفر ماضي المضاءِ
وبحــرٌ تــدفّــق بــالمعجــزات … كمــا يتــدفّــق ينبــوع مــاءِ
علــومٌ سمــاويّــةٌ لا تُنــال … ومــن ذا ينــال نجــوم السّمــاء؟
لعمــري الأولــى جحــدوا حقّــه … ومــا كــان أولاهــمُ بــالــولاءِ
وكــم مــوقــفٍ كــان شخــص الحمــام … مــن الخــوف فيــه قليــلَ الخفــاءِ
جــلاه فــإن أنكــروا فضلــه … فقــد عــرفــت ذاك شمــس الضّحــاءِ
أراهــا العجــاج قُبيــل الصَّبــاح … وردَّت عليــه بُعيــد المســاءِ
وإن وتــر القــوم فــي بــدرهــم … لقــد نقــض القــوم فــي كــربــلاءِ
مطــايــا الخطــايــا خــذي فــي الظّــلام … فمــا هــمَّ إبليــس غيــر الحــداءِ

(1) الغدير: ٤/١٩ و٢٠. الخليط: القوم الذين أمرهم واحد، قبائل كانت تختلط لدى غدران الماء. الشجوف: جمع سجف، الشقّ بين ستري الباب. الكِلل: جمع كِلّة: السّتر الرّقيق. أخمص القدم: ما لا يصيب الأرض من باطنها. الوشل: الماء القليل. طفلت الشّمس: دنت للغروب.

لقـــد هتكـــت حـــرم المصطفـــى وحـــلَّ بهـــنَّ عظيـــم البـــلاءِ
وســـاقـــوا رجـــالهـــمُ كـــالعبيـــد وحـــادوا نســـاءهـــمُ كـــالإمـــاءِ
فلـــو كـــان جـــدُّهـــمُ شـــاهـــداً ليتبـــع أظعـــانهـــم بـــالبكـــاءِ
حقـــودٌ تضـــرَّم بـــدريَّـــةٌ وداءُ الحقـــود عـــزيـــزُ الـــدّواءِ
تـــراه مـــع المـــوت تحـــت اللّـــوا ء والله والنّصـــر فـــوق اللّـــواءِ
غـــداة خميـــس إمـــام الهـــدى وقـــد غـــاث فيهـــم هـــزبـــر اللّقـــاءِ
وكـــم أنفـــسٍ فـــي سعيـــرٍ هـــوت وهـــامٍ مطيَّـــرة فـــي الهـــواءِ
بضـــربٍ كمـــا انقـــدَّ جيـــب القميـــص وطعـــنٍ كمـــا انحـــلَّ عقـــد السّقـــاءِ
وخيـــرة ربّـــي مـــن الخيـــرتيـــن وصفـــوة ربّـــي مـــن الأصفيـــاءِ
طهـــرتـــم فكنتـــم مـــديـــح المـــديـــح وكـــان ســـواكـــم هجـــاء الهجـــاءِ
قضيـــت بحبّكـــمُ مـــا علـــيَّ إذا مـــا دُعيـــت لفصـــل القضـــاءِ
وأيقنـــت أنَّ ذنـــوبـــي بـــه تســـاقـــط عنّـــي سقـــوط الهبـــاءِ
فصلّـــى عليكـــم إلـــه الـــورى صـــلاةً تـــوازي نجـــوم السّمـــاءِ

وقوله في مدحهم صلوات الله عليهم:

آل النبـــيّ فضّلتـــمُ فضـــل النّجـــوم الـــزّاهـــره
وبهـــرتـــمُ أعـــداءكـــم بـــالمـــأثـــرات السّـــائـــره
ولكـــم مـــع الشّـــرف البـــلا غـــة والحلـــوم الـــوافـــره
وإذا تفـــوخـــر بـــالعـــلا منكـــم عـــلاكـــم فـــاخـــره
هـــذا وكـــم أطفـــأتـــمُ عـــن أحمـــد مـــن نـــائـــره
بـــالسّمـــر تخضـــب بـــالنّجيـــع[1] وبـــالسّيـــوف البـــاتـــره
تشفـــى بهـــا أكبـــادكـــم مـــن كـــلّ نفـــسٍ كـــافـــره
ورفضتـــمُ الـــدّنيـــا لـــذا فـــزتـــم بحـــظِّ الآخـــره

(١) النّجيع: من الدّم ما كان مائلاً إلى السّواد.

وقوله في ولاء أمير المؤمنين عليه السلام:

حبُّ الوصيّ مبرَّةٌ وصله ... وطهارةٌ بالأصل مكتفله
والنّاس عالمهم يدين به ... حبّاً ويجهل حقَّه الجهله
ويرى التشيّع في سراتهمُ ... والنّصب في الأرذال والسّفله

وقوله في المعنى نفسه:

حبُّ عليٍّ علوّ همَّه ... لأنّه سيِّد الأئمَّه
ميِّز محبِّيه هل تراهم ... إلاّ ذوي ثروة ونعمه؟!
بين رئيسٍ إلى أديبٍ ... قد أكمل الظّرف واستتمَّه
وطيّب الأصل ليس فيه ... عند امتحان الأصول تُهمه
فهم إذا خلصوا ضياء ... والنّصب الظالمون ظلمه

ولكشاجم يرثي آل الرّسول صلى الله عليه وآله قوله:

أجل هو الرّزء فادحهُ ... باكره فاجعٌ ورائحهُ
لا ربع دارٍ عفا ولا طلل ... أوحش لمّا نأت ملاقحهُ
فجائعٌ لو درى الجنين بها ... لعاد مبيضَّةً مسالحهُ
يا بُؤس دهرٍ على آل رسو ... ل الله تجتاحهم جوائحهُ(١)
إذا تفكّرت في مصابهمُ ... أثقب زند الهموم قادحه
بعضهمُ قربت مصارعه ... وبعضهم بوعدت مطارحهُ
أظلم في كربلاء يومهمُ ... ثمّ تجلّى وهم ذبائحهُ
لا يبرح الغيث كلّ شارقةٍ ... تهمي غواديه أو روائحهُ
على ثرى حلّة غريب رسو ... ل الله مجروحةٌ جوارحه
ذلّ حماه وقلّ ناصره ... ونال أقصى مناه كاشحهُ

(١) جاحه وأجاحه واجتاحه: استأصله وأهلكه. جوائح: جمع جائحة: البليّة والداهية العظيمة.

وسيـق نسـوانـه طِـلاح[1] أحسـن أن تهـادى بهـم طـلائحـهُ
وهـنَّ يمنعـن بـالـوعيـد مـن النّـ ـوح والمـلأ الأعلـى نـوائحـهُ
عـادى الأسـى جـدّه ووالـده حيـن استغـاثتهمـا صـوائحـهُ
لـو لـم يُـرد ذو الجـلال حـربهـم بـه لضـاقـت بهـم فسـائحـهُ
وهـو الـذي اجتـاح حيـن مـا عقـر ت نـاقتـه إذ دعـاه صـالحـهُ
يـا شيـع الغـيّ والضّـلال ومـن كلّهـمُ جمّـة فضـائحـهُ
غششتـمُ الله فـي أذيّـة مَـن إليكـمُ أُدّيـت نصـائحـهُ
عفـرتـمُ بـالثّـرى جبيـن فتـىً جبـريـل قبـل النبـيّ مـاسحـهُ
سيّـان عنـد الإلـه كلُّكـمُ خـاذلـه منكـمُ وذابحـهُ
علـى الـذي فـاتهـم بحقّهـم لعـنٌ يغـاديـه أو يُـراوحـهُ
جهلتـمُ فيهـم الـذي عـرفـه البيـ ـت ومـا قـابلـت أبـاطحـهُ
إن تصمتـوا عـن دعـائهـم فلكـم يـوم وغـىً لا يُجـاب صـائحـهُ
فـي حيـث كبـش الـرّدى يُنـاطـح مـن أبصـر كبـش الـورى يُنـاطحـهُ
وفـي غـدٍ يعـرف المخـالـف مـن خـاسـر ديـنٍ منكـم ورابحـهُ
وبيـن أيـديكـمُ حـريـق لظـى يلفـح تلـك الـوجـوه لافحـهُ
إن عبتمـوهـم بجهلكـم سفهـاً مـا ضـرَّ بـدر السّمـاء نـائحـهُ
أو تكتمـوا الحـقّ فـالقـرآن مشكلـه بفضلهـم نـاطـقٌ وواضحـهُ
مـا أشـرق المجـد مـن قبـورهـم إلاّ وسكّـانهـا مصـابحـهُ
قـومٌ أبـى حـدُّ سيـف والـدهـم للـدّيـن أو يستقيـم جـامحـهُ
وهـو الـذي استـأنـس الـزّمـان بـه والـدّيـن مـذعـورةٌ مسـارحـهُ
حـاربـه القـوم وهـو نـاصـره قِـدمـاً وغشّـوه وهـو نـاصحـهُ
وكـم كسـى منهـم السّيـوف دمـاً يـوم جـلاد يطيـح طـائحـهُ
مـا صفـح القـوم عنـدمـا قـدروا لمّـا جنـت فيهـمُ صفـائحـهُ

(١) طلاح: معيبة من السّفر.

بـل منحـوه العنـاد واجتهـدوا ... أن يمنعـوه والله مـانحـهُ
كـانـوا خفـافـاً إلـى أذيّتـه ... وهـو ثقيـل الـوقـار راجحـهُ

وله قوله:

زعمـوا أنَّ مـن أحـبَّ عليّـاً ... ظـلَّ لِلفقـر لابسـاً جلبـابـا
كـذبـوا مـن أحبَّـه مـن فقيـرٍ ... يتحلّـى مـن الغنـى أثـوابـا
حـرّفـوا منطـق الـوصـيِّ بمعنـى ... خـالفـوا إذ تـأوّلـوه الصَّـوابـا
إنّمـا قـال: ارفضـوا عنكـم الـدّ ... نيـا إذا كنتـمُ لنـا أحبـابـا

براعة في الوصف

برع كشاجم في الوصف، وبخاصّة وصف الطَّبيعة والطَّير والحيوان، ومن نماذج وصفه نذكر ما يقوله في رحلة صيدٍ كان فارسها «صقر» جريئاً على قتل الظُّباء:

جـريٌّ علـى قتـلِ الظُّبـاء، وإنَّـه ... ليُعجبني أن يقتلَ الـوحـشَ طـائـرُ
قصيـرُ الـذّنـابـى والقـدامـى كـأنَّهـا ... قـوادمُ نسـرٍ، أو سيـوفٌ بـواتـرُ
ورقـش منـه جـوجـؤ فكـأنّمـا ... أعـارتـه أعجـام الحـروفِ الـدّفـاتـرُ
وتحملُـه منّـا أكـفٌّ كـريمـةٌ ... كمـا زُيّنـتْ بـالخـاطبيـن المنـابـرُ
فعـنَّ لنـا مـن جـانـب السَّفـح ربـربٌ ... علـى سنـنٍ تستـنُّ منـه الجـآذر
فجلّى وحلَّت عقدة السَّيف فانتحى ... لأوّلهـا إذ أمكنتـه الأواخـر
يحـثّ جنـاحيـه علـى حـرٍّ وجهـه ... كمـا فُصِّلـت فـوق الخـدود المغـافـر
فمـا تـمَّ رجـع الطّيـف حتّـى رأيتهـا ... مصـرّعـةً تهـوي إليهـا الخنـاجـر
كـذلـك لـذّاتـي، ومـا نـال لـذّةً ... كطالب صيدٍ ينتفي، وهو ظافر[1]

---

(١) الذّنابى والقدامى: ريش الصَّقر. القوادم: ريش الطّائر قوادم وخواف. والقوادم تعلو الخوافي. جؤجؤ الطّائر: صدره. الرّبرب: القطيع من بقر الوحش. المغافر: جمع مغفر، وهو زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة.

وقوله في الأترج:

كـأنّ أتـرجهـا تميـل بـه ... أغصـانهـا حـامـلاً ومحمـولا
سـلاسـل مـن زبـرجـد حملـت ... مـن ذهـب أصفـر قنـديـلا

ويأتي كشاجم بالصُّورة المبتكرة بلغةٍ سهلة، فنقرأ على سبيل المثال قوله في الحبيب البعيد عن النَّظر:

قلـت، وقـالـوا بـأنَّ أحبـابـه ... مبـدلـوه البعـد بـالقـربِ
والله مـا شطَّـت نـوى ظـاعـنٍ ... سـار مـن العيـن إلـى القلـبِ

ولـده

أعقب المترجم ولديه أبا الفرج وأبا نصر أحمد، ويُكنّي كشاجم نفسه بالثاني في قوله:

قالوا: أبو أحمد يبني. فقلت لهم: كمـا بنـت دودة بنيـان السّـرق
بنتـه حتّـى إذا تـمَّ البنـاء لهـا ... كان التّمام وشك الخير في نَسق

ويثني عليه ويصفه بقوله:

نفسي الفداء لمن إذا جرح الأسى ... قلبي أسوت بـه جروح أسائـي
كبـدي وتـامـوري وحبّـة نـاظـري ... ومـؤمِّلـي فـي شـدَّتـي ورخـائـي
ربَّيتـه متـوسّمـاً فـي وجهـه ... مـا قبـل فـيَّ تـوسَّمـت آبـائـي
ورزقتـه حسـن القبـول مبيّنـاً ... فيـه عطـاء الله ذي الآلاء
وغـدوت مقتنيـاً لـه عـن أمّـه ... وهـي النّجيبـة وابنـة النّجبـاءِ
وعمـرت منـه مجـالسـي ومسـالكي ... وجمعـت منـه مـآربـي وهـوائـي
فـأظـلُّ أبهـج فـي النّهـار بقـربـه ... وأُريـه كيـف تنـاول العليـاءِ
وأُزيـره العلمـاء يـأخـذ عنهـمُ ... ولشـدَّ مـن يغـدو إلـى العلمـاءِ
وإذا يجـنُّ اللّيـل بـات مسـامـري ... ومجـاوري وممثّـلاً بـإزائـي
فـأبيـت أُذنـي مهجتـي مـن مهجتـي ... وأضـمُّ أحشـائـي إلـى أحشـائـي

وكان أبو نصر احمد بن كشاجم شاعراً أديباً، ومن شعره يذمُّ به بخيلاً قوله:

صديقٌ لنا من أبرع النّاس في البُخْلِ ... وأفضلِهم فيه، وليس بذي فضلِ
دعاني كما يدعو الصَّديقُ صديقه ... فجئت كما يأتي إلى مثله مثلي
فلمّا جلسنا للطّعام رأيتُه ... يرى أنّه من بعض أعضائه أكلي
ويغتاظ أحياناً ويشتم عبدهُ ... وأعلم أنَّ الغَيْظَ والشَّتْمَ من أجلي
فأقبلتُ أستلُّ الغذاء مخافةً ... وألحاظ عينيه رقيبٌ على فعلي
أمدُّ يدي سرّاً لأسرقَ لقمةً ... فيلحظني شزراً فأعبث بالبقلِ
إلى أن جنت كفّي لحتفي جنايةً ... وذلك أنّ الجوع أعدمني عقلي
فجرَّت يدي للحين رجل دجاجةٍ ... فجرت كما جرَّت يدي رجلها رجلي
وقدَّم من بعد الطّعام حلاوَة ... فلم أستطع فيها أمرّ ولا أحلي
وقمت لو أنّي كنت بيَّتُّ نيّة ... ربحت ثواب الصَّوم مع عدم الأكل

* * *

(٢٤)
النَّاشئ الصَّغير

التَّعريف بالشَّاعر

أبـو الحسـن، أو أبـو الحسيـن[١]، علـيّ بـن عبـدالله بن وصيف النَّاشئ الصَّغيـر، أو الأصغـر[٢]. البغـدادي، مـن بـاب الطَّـاق، نـزيـل مصـر. ولـد عام ٢٧١هـ.

يُعرَف النَّاشئ الصَّغير بـ «الحلاَّء»، لأنّ أباه كان يعمل حِلْية السُّيوف، فسُمِّي «حـلاَّء»، وجـاء، فـي «فوات الوفيّات»، أنّه «كان يعمل حلية المداخن والمقدَّمات، ويعمل الصُّفر، ويخرِّمه، وله فيه صنعة بديعة»[٣]. وجاء في «معجم الأدباء»، رواية عنه، قوله: «كان جدِّي وصيف مملوكاً، وكان عبدالله أبـي عطَّـاراً فـي الحضـرة بـالجـانـب الشـرقـي»[٤]، ولعـلَّ والـده كـان يجمـع الصِّناعتين: صناعة الحلية وصناعة العطارة.

وتروي كتب الأدب أنّه كان شيخاً طويلاً جسيماً، عظيم الخلقة، عريض الألـواح، مـوفـور القـوّة، جَهْـوَري الصَّـوت، عُمِّـر نيفـاً وتسعيـن سنـة، ولـم تضطرب أسنانه ولا قلع سنّاً منها ولا من أضراسه[٥]، توفِّي سنة ٣٦٥هـ.

---

(١) الغدير، م.س.، ٤/ ٤٤ ـ ٥١. في فهرست الشيخ، ص ٨٩، رقم ٣٧٣، ورجال ابن داود، ص ١٤٢، رقم ١٠٩٧، ومعجم الأدباء، ١٣/ ٢٨٠، وفوات الوفيّات، ٢١/ ٢٠٢، أبو الحسين.

(٢) في فوات الوفيّات، ٢١/ ٢٠٤: الأصفر.

(٣) نفسه. الصّفر: الدنانير، الذهب، النحاس الأصفر.

(٤) معجم الأدباء، ١٣/ ٢٨١.

(٥) نفسه، ١٣/ ٢٨٤ و٢٨٥، فوات الوفيّات، ٢١/ ٢٠٣.

ويُروى عنه أنّه نشأ مع أبيه في دكّانه، وكان ابن الرّومي يجلس عندهم، وهو لا يعرفه، ولمّا مات سأل عنه فذُكر له، فندم لأنّه لم يأخذ عنه شيئاً وتشاغل بـ «الصّنعة عن طلب العلم». وهذا يفيد أنّه نشأ في دكّان يجلس فيها الشُّعراء، ما يُشير إلى اهتمام والده بهم، كما يفيد أنّ الفتى كان يتعلّم الصّنعة ويطلب العلم في الوقت نفسه. يقول ياقوت: «وكان يعمل الصُّفْرَ ويخرِّمه، وله فيه صنعةٌ بديعة. ومن عمله قنديلٌ بالمشهد بمقابر قريش مُرَبَّعٌ غايةٌ في حسنه»[1].

ثمّ عُرف بوصفه عالماً شاعراً؛ ولعلّ هذا يفسِّر اكتسابه لقب الناشئ، لأنّ هذا اللقب يقال لمن نشأ في فنٍّ من فنون الشعر، كما قال السمعاني في «الأنساب»[2].

في الطليعة من العلماء المتكلّمين... والشُّعراء

يروى أنّ الناشئ لقي ثعلباً، وأخذ عنه أبياتاً منها:

إنّ أخا الإخوان من يَسْعى معك ومن يضُرُّ نفسه لينفعك

ويروى، أيضاً، أنّه أخذ العلم عن أبي سهل إسماعيل بن عليّ بن نوبخت، وهو من أعاظم متكلّمي الشيعة.

كان أحد من تضلّع في النَّظر في علم الكلام، وبرع في الفقه، ونبغ في الحديث، وتقدّم في الأدب، وظهر أمره في القريض... وكان في الطليعة من علماء الشيعة ومتكلّميها ومحدّثيها وفقهائها وشعرائها...

روى عنه الشيخ الإمام محمّد بن النعمان المفيد، وبوساطته يروي عنه شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي، كما في فهرسته، واحتمل في «رياض العلماء» رواية الشيخ الصّدوق عنه أيضاً، وقال: «لعلّه الذي كان من مشايخ الصّدوق».

(١) معجم الأدباء، ١٣/ ٢٨٥.
(٢) الأنساب، ٥/ ٤٤٥.

وقال شيخ الطائفة في فهرسته: وكان يتكلّم على مذهب أهل الظاهر في الفقه. وأهل الظاهر هم أصحاب أبي سليمان داود بن عليّ بن خلف الإصبهاني المعروف بالظاهري (المتوفّى ٢٧٠)، قال ابن النديم في الفهرست: هو أوّل من استعمل قول الظاهر وأخذ بالكتاب والسنّة، وألغى ما سوى ذلك من الرأي والقياس. وقال ابن خلّكان في تاريخه: كان أبو سليمان صاحب مذهب مستقلّ، وتبعه جمع كثير يُعرَفون بالظاهريّة.

وفي رجال النجاشي: إنّ للمترجم كتاباً في الإمامة، لكن الشيخ الطوسي يذكر له كتباً في الفهرست. وفي تاريخ ابن خلّكان: إنّ له تصانيف كثيرة، وفي الوافي بالوفيّات: إنّ شعره مدوّنٌ، وإنّ مدائحه في أهل البيت عليهم السلام لا تحصى كثرةً، ولذلك عدّه ابن شهرآشوب في «معالم العلماء» من مجاهري شعراء أهل البيت عليهم السلام.

وفي معجم الأدباء: قال الخالع: كان الناشئ يعتقد الإمامة، ويناظر عليها بأجود عبارة، فاستنفد عمره في مديح أهل البيت حتى عُرف بهم، وأشعاره فيهم لا تُحصى كثرةً، ومدح مع ذلك الراضي بالله وله معه أخبارٌ، وقصد كافوراً الإخشيدي بمصر وامتدحه، وامتدح ابن حنزابة وكان ينادمه، وقصد البريديَّ بالبصرة وأبا الفضل بن العميد بأرّجان.

يحظى من آل البيت عليهم السلام بالقبول والتقدير

ويستفاد من غير واحد من الأخبار أنّ الناشئ على كثرة شعره في أهل البيت عليهم السلام حظي منهم بالقبول والتقدير، وحسبُه ذلك مأثرةً لا يقابلها أيّ فضيلة، ومكرمةً خالدةً تكسبه فوز النشأتين.

روى الحموي في «معجم الأدباء»، قال: حدّثني الخالع، قال:

كنتُ مع والدي في سنة ستّ وأربعين وثلاثمئة، وأنا صبيٌّ في مجلس الكبوذي في المسجد الذي بين الورّاقين والصّاغة، وهو غاصٌّ بالناس، وإذا

رجـلٌ قد وافى وعليه مرقعة وفي يده سطيحة وركوة ومعه عكّاز، وهو شعث، فسلّم على الجماعة بصوت يرفعه، ثمّ قال:

أنـا رسـول فاطمـة الزهراء عليها السلام. فقالوا: مرحباً بك وأهلاً، ورفعوه. فقال: أتعرّفون لي أحمد المزوّق النائح؟ فقالوا: ها هو جالسٌ.

فقـال: رأيـت مـولاتنـا عليها السلام فـي النّـوم، فقالت لي: امضِ إلى بغداد واطلبه وقل له: نُح على ابني بشعر الناشئ الذي يقول فيه:

بنـي أحمـدٍ قلبـي بكـمْ يتقطّـعُ ... بمثلِ مصابي فيكمُ ليس يُسمعُ

وكـان النـاشـئ حاضـراً، فلطم لطماً عظيماً على وجهه، وتبعه المزوّق والناس كلّهـم، وكـان أشـدّ الناس في ذلك الناشئ ثمّ المزوّق، ثمّ ناحوا بهذه القصيدة في ذلك اليوم إلى أن صلّى الناس الظهر، وتقوّض المجلس، وجهدوا بالرجل أن يقبل شيئاً منهم، فقال: والله لو أُعطيت الدنيا ما أخذتها، فإنّني لا أرى أن أكـون رسول مولاتي عليها السلام، ثمّ آخذ عن ذلك عوضاً. وانصرف ولم يقبل شيئاً.

قال: ومن هذه القصيدة وهي بضعة عشر بيتاً:

عجبتُ لكـم تفنـون قتـلاً بسيفِكـم ... ويسطو عليكم من لكم كان يخضعُ
كـأنّ رسـولَ الله أوصـى بقتلِكـمْ ... وأجسـامُكـم فـي كـلّ أرض تُـوزّعُ

قال الأميني: أوّل هذه القصيدة:

بنـي أحمـدٍ قلبـي لكـم يتقطّـعُ ... بمثـل مصـابي فيكـمُ ليس يُسمعُ
فما بقعةٌ في الأرض شرقاً ومغرباً ... وليـس لكـم فيهـا قتيـلٌ ومصـرعُ
ظُلمتـم وقُتّلتـمْ وقُسّـم فيئكـم ... وضاقت بكم أرضٌ فلم يَحمِ موضعُ
جسومٌ على البوغاء تُرمى وأرؤسٌ ... على أرؤس اللُّدْن الذوابل تُرفعُ[1]
تُـوارَوْن لـم تَـأْوِ فـراشـاً جنـوبُكـمْ ... ويُسلمنـي طيـبُ الهجـوعِ فـأهجـعُ

(١) البوغاء: التراب الناعم، واللُّدْن الذوابل: هي الرّماح.

وقال الحموي: حدّثني الخالع قال: اجتزت بالناشئ يوماً، وهو جالسٌ في السرّاجين، فقال لي: قد عملت قصيدةً وقد طُلبت وأُريد أن تكتبها بخطّك حتى أُخرجها، فقلت: أمضي في حاجة وأعود، وقصدت المكان الذي أردته وجلست فيه، فحملتني عيني فرأيت في منامي أبا القاسم عبد العزيز الشطرنجي النائح، فقال لي: أُحبُّ أن تقوم فتكتب قصيدة الناشئ البائيّة فإنّا قد نُحنا بها البارحة بالمشهد، وكان هذا الرَّجل قد توفّي وهو عائدٌ من الزيارة، فقمت ورجعت إليه وقلت: هات البائيّة حتى أكتبها، فقال: من أين علمت أنّها بائيّة؟ وما ذكرت بها أحداً، فحدّثته بالمنام فبكى، وقال: لا شكّ أنّ الوقت قد دنا، فكتبتها فكان أوّلها:

رجائي بعيدٌ والممات قريبُ ... ويُخطئ ظنّي والمنونُ تُصيبُ

قال الأميني: ومن البائيّة في المديح قوله:

أُناسٌ علوا أعلى المعالي من العلى ... فليس لهم في الفاضلين ضريبُ
إذا انتسبوا جازوا التناهي لمجدِهمْ ... فما لهمُ في العالمين نسيبُ
همُ البحرُ أضحى درّه وعُبابه ... فليس له من منتفيه رسوبُ
تسير به فُلكُ النجاةِ وماؤها ... لشُرّابه عذبُ المذاق شروبُ
هو البحر يُغني من غدا في جواره ... وساحلُه سهلُ المجالِ رحيبُ
همُ سببٌ بين العباد وربِّهمْ ... محبُّهمُ في الحشر ليس يخيبُ
حَوَوا علم ما قد كان أو هو كائنٌ ... وكلُّ رشادٍ يحتويه طلوبُ
وقد حفظوا كلَّ العلوم بأسرِها ... وكلُّ بديعٍ يحتويه غيوبُ
همُ حسناتُ العالمينَ بفضلِهمْ ... وهم للأعادي في المعادِ ذنوبُ

شعره في آل البيت وفي يوم الغدير

وجمع العلاّمة السماوي شعر الناشئ في أهل البيت عليهم السلام [وهو] يربو على ثلاثمئة بيت. ومن هذا الشعر نذكر قوله في قصيدة:

□ يا آلَ ياسينَ من يحبّكمُ ... بغير شكٍّ لنفسِهِ نَصَحا
أنتمْ رشادٌ من الضلالِ كما ... كلُّ فسادٍ بحبّكمْ صَلُحا
وكلُّ مستحسَنٍ لغيرِكمُ ... إن قِيسَ يوماً بفضلكم قبُحا
ما مُحيتْ آيةُ النهارِ لنا ... وآيةَ الليل ذو الجلال محا
وكيف تُمحى أنوارُ رشدِكمُ ... وأنتمُ في دُجى الظّلام ضُحى
أبوكمُ أحمدٌ وصاحبُهُ ... الممنوحُ من علم ربِّه منحا
ذاك عليٌّ الذي تفرَّدَهُ ... في يوم خُمٍّ بفضله اتّضحا
إذ قال بين الورى وقامَ به ... مُعتضداً في القيام مُكتشحا:
من كنتُ مولاه فالوصيُّ لهُ ... مولىً بوحي من الإله وحى
فَبَخْبَخُوا، ثمّ بايعوهُ، ومَنْ ... يُبايعِ اللهَ مخلصاً ربحا
ذاك عليٌّ الذي يقولُ له ... جبريلُ يومَ النزالِ مُمتدحا:
لا سيفَ إلاّ سيفُ الوصيِّ ولا ... فتىً سواهُ إنْ حادثٌ فَدَحا
لو وزنوا ضربَةً لعمروٍ وأعما ... لَ البرايا لَضَربُه رَجَحا
ذاك عليٌّ الذي تراجع عن ... فتح سواه وسارَ فافتتحا
في يوم حصن اليهودَ حين أقلّ الباب من حصنهم وحين دحا
لم يشهدِ المسلمون قطُّ رحى ... حربٍ وألفوا سواه قطبَ رحى
صلّى عليه الإله تزكيةً ... ووفّقَ العبدَ يُنشئ المِدَحا

وقال في قصيدة يوجد منها (٣٦) بيتاً:

ألا يا خليفةَ خيرِ الورى ... لقد كفرَ القومُ إذ خالفوكا
أدلُّ دليلٍ على أنّهم ... أبَوْك وقد سمعوا النصّ فيكا
خلافُهمُ بعد دعواهمُ ... ونكثُهمُ بعدما بايعوكا

إلى أن قال:

فيا ناصرَ المصطفى أحمدٍ ... تعلّمتَ نصرتَهُ من أبيكا
وناصبتَ نُصّابَهُ عنوةً ... فلعنةُ ربّي على ناصبيكا

فـأنـت الخليفـةُ دون الأنـام فمـا بـالهُـمْ فـي الـورى خلّفـوكـا
ولا سيّمـا حيـن وافيتَـهُ وقـد سـار بـالجيـشِ يبغـي تبـوكـا
فقـال أنـاسٌ: قـلاهُ النبـيُّ، فصـرتَ إلـى الطّهْـرِ إذ خفّضـوكـا
فقـال النبـيُّ جـوابـاً لمـا يـؤدّي إلـى مسمـعِ الطّهـرِ فـوكـا:
ألـمْ تـرضَ أنّـا علـى رغمهـمْ كمـوسـى وهـارونَ إذ وافقـوكـا؟
ولـو كـان بعـدي نبـيٌّ كمـا جُعِلـتَ الخليفـةَ كنـتَ الشـريكـا
ولكنّنـي خـاتـمُ المـرسليـنَ وأنـتَ الخليفـةُ إن طـاوعـوكـا
وأنـت الخليفـةُ يـوم انتجـاك علـى الكـور حينـاً وقـد عـاينـوكـا
يـراك نجيّـاً لـه المسلمـون وكـان الإلـه الـذي ينتجيكـا
علـى فـمِ أحمـدٍ يـوحـي إليـك وأهـلُ الضغـائـن مُستشـرفـوكـا
وأنـت الخليفـةُ فـي دعـوةِ العشيـرةِ إذ كـان فيهـم أبـوكـا
ويـومَ الغـديـرِ ومـا يـومُـهُ ليتـرُكَ عُـذراً إلـى غـادريكـا
لهـم خَلـفٌ نصـروا قـولَهـمْ ليبغـوا عليـكَ ولـم ينصـروكـا
إذا شـاهـدوا النـصّ قـالـوا لنـا: تـوانـى عـن الحـقِّ، واستضعفـوكـا
فقلنـا لهـم: نـصُّ خيـرِ الـورى يُـزيـلُ الظنـونَ وينفـي الشكـوكـا

وله، يمدح آل الله، قوله:

بـآلِ محمّـدٍ عُـرِف الصـوابُ وفـي أبيـاتِهـمْ نَـزَل الكتـابُ
هـمُ الكلمـاتُ والأسمـاءُ لاحـتْ لآدمَ حيـن عـزَّ لـهُ المتـابُ
وهـم حُجـجُ الإلـهِ علـى البـرايـا بهـمْ ويحكمهـمْ لا يُستـرابُ
بقيّـةُ ذي العُلـى وفـروعُ أصـلٍ بحُسْـنِ بيـانِهـمْ وضـحَ الخِطـابُ
وأنـوارٌ تُـرى فـي كـلِّ عصـرٍ لإرشـادِ الـورى فَهُـمُ شِهـابُ
ذراري أحمـدٍ وبنـو علـيٍّ خليفتِـهِ فهـمْ لـبٌّ لبـابُ
تنـاهَـوا فـي نهـايـةِ كـلِّ مجـدٍ فطهَّـرَ خَلْقَهـمْ وزكـوا وطـابـوا
إذا مـا أعـوز الطـلّابَ علـمٌ ولـم يـوجـدْ فعنـدهـمُ يُصـابُ

محبّتهم صراطٌ مستقيمٌ ... ولكنْ في مسالِكِهِ عِقابُ[1]
ولا سيّما أبو حسنٍ عليّ ... له في الحربِ مرتبةٌ تُهابُ
كأنّ سِنانَ ذابِلِهِ ضميرٌ ... فليسَ عن القلوبِ له ذِهابُ
وصارمُهُ كبيعتِهِ بخمٍّ ... معاقدُها من الخلقِ الرقابُ
عليٌّ الدرُّ والذّهبُ المصفّى ... وباقي الناس كلّهمُ تُرابُ
إذا لم تَبرَّ من أعدا عليٍّ ... فما لكَ في محبّتِهِ ثوابُ[2]
إذا نادتْ صوارمُهُ نفوساً ... فليس لها سوى نَعَمٍ جوابُ
فبينَ سِنانِهِ والدرعِ سِلْمٌ ... وبين البيضِ والبيضِ اصطحابُ
هو البكّاءُ في المحرابِ ليلاً ... هو الضحّاكُ إن جدَّ الضرابُ
ومن في خُفِّه طرحَ الأعادي ... حُباباً كي يلسّبَهُ الحُبابُ[3]
فحينَ أرادَ لُبسَ الخُفِّ وافى ... يُمانعُهُ عن الخُفِّ الغُرابُ
وطارَ به فأكفأهُ وفيهِ ... حُبابٌ في الصّعيدِ له انسيابُ[4]
ومن ناجاهُ ثعبانٌ عظيمٌ ... ببابِ الطّهرِ ألقتهُ السّحابُ
رآه الناس فانجفلوا برعبٍ ... وأُغلِقتِ المسالكُ والرّحابُ[5]
فلمّا أن دنا منهُ عليٌّ ... تدانى الناسُ واستولى العُجابُ
فكلّمه عليٌّ مُستطيلاً ... وأقبلَ لا يَخافُ ولا يَهابُ
ودنَّ لحاجرٍ وانسابَ فيه ... وقالَ وقد تغيّبه التّرابُ[6]:

---

(١) عِقاب، جمع عَقَبة، وهي ما يعرض للطريق من الصعوبة والشدّة.
(٢) كذا في تخميس العلّامة الشيخ محمّد علي الأعسم.

وفي كتاب الإكليل، والتحفة:

ومن لم يبرَ من أعدا عليٍّ ... فليس له النجاة ولا ثواب

(٣) لسبته الحيّة: لدغته.
(٤) انسابت الحيّة: جرت وتدافعت.
(٥) انجفل وتجفل القوم: هربوا مسرعين.
(٦) [دنّ: طأطأ وانحنى]. الحاجر: الأرض المرتفعة ووسطها منخفض.

أنـا مَلَـكٌ مُسِخـتُ وأنت مـولـيّ ... دُعـاؤك إن مَننـتَ بـه يُجـابُ
أتيتُـكَ تـائبـاً فـاشفـعْ إلـى مَـن ... إليـه فـي مهاجـرتـي الإيـابُ
فـأقبـلَ داعيـاً وأتـى أخـوهُ ... يـؤمّـنُ والعيـونُ لهـا انسكـابُ
فـلمّـا أن أُجيبـا ظـلّ يعلـو ... كمـا يعلـو لـدى الجـدّ العقـابُ
وأنبـتَ ريـشَ طـاووسٍ عليـهِ ... جـواهـر زانهـا التّبـرُ المُـذابُ
يقـولُ: لقـد نجـوتُ بـأهـلِ بيتٍ ... بهـم يُصلـى لظـىً وَبِهـمْ يُثـابُ
هـمُ النبـأُ العظيـمُ وفُلْـكُ نـوحٍ ... وبـابُ الله، وانقطـع الخطـابُ

يخلط بجدَله ومناظراته هزلاً مستملَحاً

يقـول يـاقـوت الحمـوي إنّه كان يخلط بجدَله ومناظراته هَزْلاً مستملحاً ومجوناً مستطـابـاً يعمد به إلى إخجال خصمه وكسر حدِّه، وله في ذلك أخبار مشهورة، نذكر منها:

حدّثني الناشئ، قال: أدخلني ابن رائق على الراضي بالله ـ وكنتُ مدّاحاً لابـن رائـق ونـافقـاً عليـه ـ، فلمّـا وصلتُ إلى الراضي، قال لي: أنت الناشئ الرافضيّ؟ فقلت: خادم أمير المؤمنين الشيعيّ. فقال: من أيِّ الشيعة؟ فقلت: شيعـة بـني هـاشـم. فقـال: هذا خبث حيلة. فقلت: مع طهارة مولد. فقال: هات ما معك.

فأنشدته، فأمر أن يُخلَع عليَّ عشر قطع ثياباً، وأُعطى أربعة آلاف درهم، فـأُخـرِج إلـيّ ذلـك وتسلّمتـه وعُـدت إلـى حضرته، فقبّلت الأرض وشكرته، وقـلـت: أنـا ممّـن يلـبس الطيلسـان. فقـال: هاهنا طيالس عدنيّة، أعطوه منها طيلساناً وأضيفوا إليها عمامة خزٍّ، ففعلوا.

فقال: أنشدني من شعرك في بني هاشم، فأنشدته:

بنـي العبّـاس إنّ لكـم دمـاءً ... أراقتهـا أُميّـةُ بـالـذُّحُـولِ
فليـس بهـاشمـيٍّ مَـن يُـوالـي ... أُميّـة واللّعيـن أبـا زبيـلِ

فقال: ما بينك وبين أبي زبيل؟ فقلت: أمير المؤمنين أعلم. فابتسم وقال: انصرف.

وناظر أبا الحسن عليّ بن عيسى الرُّماني في مسألة، فانقطع الرّماني، وقال: أعاود النَّظر، وربَّما كان في أصحابي من هو أعلم منِّي بهذه المسألة، فإن ثبت الحقّ معك وافقتُك عليه، فأخذ ينَدِّد به. ودخل أبو الحسن عليّ بن كعب الأنصاري، أحد المعتزلة، فقال: في أيِّ شيء كنتم، فقال: في ثيابنا، فقال: دعنا من مجونك، وأعد المسألة، فلعلّنا أن نقدح فيها، فقال: كيف تقدح وحرَّاقك رطْبٌ!؟ أي كيف تقدح ونارك رطبة لا تشتعل، وفي هذا تورية ساخرة.

ومنه حكايته المشهورة مع الأشعري الذي ناظره في مسألة «الجبر» فصفعه، فقال له: ما هذا يا أبا الحسين؟ فقال: هذا فعل الله بك، فلم تغضب منّي!؟ فقال: ما فعله غيرك، وهذا سوء أدب وخارج عن المناظرة. فقال: ناقضت. إن أقمت على مذهبك فهو من فعل الله، وإن انتقلت فخُذ العِوض، فانقطع المجلس بالضَّحك، وصارت نادرة.

ومن هزله أنّه ناظر بعض المجبِّرة، فحرَّك الجبري يده، فقال للناشئ: هذه من حرَّكها؟ فقال الناشئ: من أمُّه زانية، فغضب الرّجل، فقال له: ناقَضْت، إذا كان المحرِّك غيرك فلم تَغْضب!؟

كان النَّاشئ شاعراً مجيداً يملي شعره في المسجد الجامع، ويكتب متذوِّقو الشعر ما يمليه، ويروي الخالع، كما جاء في «معجم الأدباء»[1]، أنّ المتنبِّي كتب بعض شعره وتأثَّر به. وممّا جاء في هذه الرّواية أنّ الناشئ كان يملي القصيدة التي أوّلها:

بآل محمَّدٍ عُرِفَ الصَّوابُ ... وفي أبياتهم نزل الكتابُ

(١) معجم الأدباء، ١٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢.

وقال فيها؛ في الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام :

كــأنّ سنــانَ ذابلــه ضميــرٌ فليــس عــن القلــوب لــه ذهــابُ
وصــارمُــه كبيعتــه بخــمٍّ مقـاصـدُهـا من الخَلْقِ الرّقابُ (١)

فكتب المتنبّي، وهو بعدُ لم يُعْرَف، البيتين، ومنهما أخذ قوله:

كــأنّ الهــام فــي الهيجـا عيـونٌ وقـد طُبِعَـت سيـوفُـك مـن رقـاد
وقـد صغـت الأسنّـة مـن همـومٍ فمـا يخطـرن إلاّ فـي فـؤاد

وقال الخالع: وأصل هذا لأبي تمام:

مـن كـلّ أزرقَ نطّـارٍ بـلا نظـرٍ إلـى المقـاتـلِ مـا فـي متنـه أودُ
كـأنّـه كـان تـرب الحـبِّ مـذ زمـنٍ فليـس يُعْجـزُه قَلْـبٌ ولا كبـدُ (٢)

وسبق إلى ذلك ديك الجنّ، أيضاً، في قوله:

قنـاً تنصـبُّ فـي ثُغَـرِ التّـراقـي كمـا يَنْصَـبُّ فـي المُقَـل الـرُّقـادُ (٣)

وللناشئ شعر في الوصف جميلٌ، ومنه:

□ وليلٍ توارى النّجمُ من طول مُكثه كمـا ازورّ محبـوبٌ لخـوف رقيبـهِ
كـأنّ الثُّـريـا فيـه بـاقـةُ نـرجـسٍ يجـيء بهـا ذو صَبْـوةٍ لحبيبـه
□ وكـأنّ عَقْـرَبَ صُـدْغـه وقفـت لمّـا دنـت مـن نـارِ وجنتـه
□ كـأنّ مشيبـي إذ يلـوحُ عقـاربٌ وأَقْتـلُ مـا أبْصَـرْت بيـضُ العقـارب
كـأنّ الثُّـريّـا عُـوذَةٌ فـي تميمـةٍ وقد حليت واستُوْدِعَتْ حرز كاعبِ
□ إذا أنـا عـاتبـتُ الملـوك فـإنّنـي أخـطُّ على صفـح مـن المـاء أحـرفـا
وهبهُ ارعوى، بعد العتاب، ألم تكن مـودّتُـه طبعـاً فصـارت تكلُّفـا

* * *

(١) هكذا وردت في الأصل، الغدير، ٤/ ٤٣.
(٢) الأزرق: السّنان والرّمح. الأود: الاعوجاج. المقاتل: جمع مقتل، المكان الذي يكون منه الموت.
(٣) الثغر: جمع ثغرة، وهي النقرة في النحر، وكلّ نقرة بين عظمي الترقوتين.

(٢٥)
البَشْنَوي الكردي

التَّعريف بالشَّاعر

أبو عبدالله، الحسين بن داود البَشْنوي، الكردي[١]. من الشّعراء المجاهرين في مدح العترة الطّاهرة عليهم السلام، كما عدّه ابن شهرآشوب في «معالم العلماء»[٢]. ويشهد على ذلك شعره الكثير فيهم، وتوجد نماذج من هذا الشّعر في كتاب «المناقب» للسّروي. ومن شعره الدّالّ على ولائه لآل البيت عليهم السلام قوله:

يا مُصْرف النَّص، جهلاً عن أبي حسنٍ   باب المدينة عن ذي الجهل مقفولُ
مدينة العلم ما عن بابها عِوضٌ   لطالبِ العلم؛ إذ ذو العلم مسؤولُ
مولى الأنام عليٌّ، والوليّ[٣] معاً   كما تفوّه عن ذي العرش جبريلُ

وتذكر بعض الكتب أنّه كان «شاعر بني مروان»، فالمقصود بهؤلاء ملوك ديار بكر من أولاد أخت «باذ الكردي»، أوّلهم أبو علي بن مروان، استولى على ما كان يحكمه خاله من ديار بكر[٤]. وله في تأييد دولة بني مروان هؤلاء قصيدة يقول فيها:

البشنويّة أنصارٌ لدولتكم   وليس في ذا خفاً في العُجْم والعَرَب

---

(١) الغدير، م.س.، ٤/ ٣٠ ـ ٦١.

(٢) معالم العلماء، ص ١٤٩.

(٣) في أعيان الشيعة وردت: والوصيُّ.

(٤) راجع: الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٩/ ٧٠ ـ ٧٤، حوادث سنة ٣٨٠هـ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

ينتمي الحسين بن داود البشنوي إلى قبيلة «البشنويّة» الكرديّة، وكانت تسكن فوق الموصل، قرب جزيرة ابن عمر، ويقول ياقوت الحموي عن أبناء هذه القبيلة: «وفيهم مروّة وعصبيّة، ويحمون من يلتجئ إليهم ويحسنون إليه». ويقول السيّد محسن الأمين: «وكأنّها منسوبة إلى بشنو»، وهي لفظة فارسيّة، معناها: استمع[1].

ذكر صاحب «معالم العلماء» أنّ للبشنوي، الحسين بن داود، كتاب «الدّلائل والرسائل البشنويّة»[2]، وقال ابن الأثير في «اللُّباب»: إنّ له ديوان شعرٍ مشهوراً. وتفيد الأحداث التي عاصرها، أنّه توفّي بعد عام ٣٨٠هـ، وهو عام ابتداء دولة بني مروان الكرديّة.

شعره في يوم الغدير

وقد شَهِدُوا عيدَ الغديرِ وأسمعوا ... مقالَ رسولِ اللهِ من غيرِ كتمانِ:
ألستُ بكم أولى من الناسِ كلّهم؟ ... فقالوا: بلى يا أفضلَ الإنسِ والجانِ
فقام خطيباً بين أعوادِ منبرٍ ... ونادى بأعلى الصوتِ جهراً بإعلانِ
بحيدرةٍ والقومُ خرسٌ أذلّةٌ ... قلوبُهمُ ما بين خلفٍ وعينانِ
فلبّى مُجيباً ثمّ أسرع مقبلاً ... بوجهٍ كمثلِ البدرِ في غُصُنِ البانِ
فلاقاه بالتّرحيب، ثمّ ارتقى به ... إليه، وصار الطهر للمصطفى ثاني
وشال بِعَضديه وقال وقد صغى ... إلى القولِ أقصى القوم تالله والداني:
عليٌّ أخي لا فرقَ بيني وبينه ... كهارونَ من موسى الكليمِ ابنِ عمرانِ
ووارثُ علمي والخليفةُ في غدٍ ... على أمّتي بعدي إذا زُرتُ جثماني
فيا ربُّ من والى عليّاً فوالِهِ ... وعادِ الذي عاداه واغضب على الشاني

وله قوله من قصيدة:

أتترك مشهورَ الحديثِ وصدقَهُ ... غداةَ بخمٍّ قامَ أحمدُ خاطباً؟:
ألستُ لكم مولىً ومثلي وليُّكمْ ... عليٌّ؟ فوالوه وقد قلتُ واجبا

(١) معجم البلدان، ٤/ ٢٧٨. أعيان الشيعة، ٦/ ١١.
(٢) معالم العلماء، ص ٤٢، رقم ٢٦٨.

وله قوله:

يــومُ الغــديــر لــذي الــولايـةِ عيـدُ ... ولــدى النــواصــبِ فضلُـه مجحــودُ
يــومٌ يُــوسَّــمُ فــي السمــاءِ بــأنّــهُ ... العهــدُ فيــه وذلــك المعهــودُ
والأرضُ بـالميراثِ أضحتْ وسمـه ... لــو طــاع مــوتــور وكــفٌّ حســودُ

نماذج من شعره

ومن شعر شاعرنا البشنوي في المذهب، قوله:

خيــر الــوصيِّــن من خير البيوت ومن ... خيـرِ القبـائـلِ معصـومٌ مـن الـزّلـلِ
إذا نظـرتَ إلـى وجـه الـوصـيِّ فقـد ... عبـدتَ ربّـك فـي قـولٍ وفـي عمـلِ

أشار بالبيت الأخير إلى ما رواه محبّ الدّين الطبري في «رياضه»[1] عن أبي بكر، وعبدالله بن مسعود، وعمرو بن العاص، وعمران بن الحصين، وعن غيرهم عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «النظر إلى وجه عليٍّ عبادة».

ورواه الكنجي في «كفاية الطالب»[2] عن ابن مسعود بطريقين، وقال: الحديث الأوّل أحسن إسناداً من الثاني، والحديث الثاني روته الحفّاظ كأبي نعيم في «حليته»[3]، والطبراني في «معجمه»[4]، وهو حسن عالٍ جليل غريب من هذا الوجه، والحديث الأوّل عالٍ حسن السياق.

ورواه، بطريق آخر عن معاذ بن جبل[5]، فقال: وأخرجه الحافظ الدمشقي في تاريخه[6] عن غير واحدٍ من الصحابة، منهم: أبو بكر، وعمر،

(١) الرياض النضرة، ٣/ ١٧٢.
(٢) كفاية الطالب، ص ١٥٦ ـ ١٥٨، باب ٣٤.
(٣) حلية الأولياء، ٥/ ٥٨، رقم ٢٩٥.
(٤) المعجم الكبير، ١٠/ ٧٦، ح ١٠٠٠٦.
(٥) كفاية الطالب، ص ١٦١، باب ٣٤.
(٦) ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام من تاريخ ابن عساكر، الطبعة المحقّقة، رقم ٨٩٤ ـ ٩١١، وفي مختصر تاريخ دمشق، ١٨/ ٧ـ٨.

وعثمان، وجابر، وثوبان، وعائشة، وعمران بن الحصين، وأبو ذرّ، وفي حديث أبي ذرّ: قال رسول الله ﷺ: «مثل عليٍّ فيكم ـ أو قال: في هذه الأمّة ـ كمثل الكعبة المستورة، النظر إليها عبادةٌ، والحجُّ إليها فريضةٌ». ورواه[1] بطريق آخر عن عليٍّ عليه السلام.

وله قوله:

ولستُ أبالي بأيِّ البلاد ... قضى الله نحبي إذا ما قضاهُ
ولا أين خُطَّ إذاً مضجعي ... ولا مَن جفاه ولا مَن قلاهُ
إذا كنتُ أشهدُ أن لا إلهَ ... سوى اللهِ والحقُّ في ما قضاهُ
وأنّ محمّداً المصطفى ... نبيٌّ وأنّ عليّاً أخاهُ
وفاطمة الطّهر بنت الرّسولِ ... رسولٌ هدانا إلى ما هداهُ
وابناهما فهما سادتي ... فطوبى لعبدٍ هما سيّداهُ

وله قوله:

يا ناصبي بكلِّ جهدِك فاجهد ... إنّي علِقتُ بحبِّ آلِ محمّدِ
الطيّبين الطّاهرين ذوي الهدى ... طابوا وطابَ وليُّهمْ في المولدِ
واليتُهمْ وبرِئتُ من أعدائِهمْ ... فاقللْ ملامَك لا أبا لك أو زِدِ
فهمُ أمانٌ كالنّجومِ وإنّهمْ ... سُفنُ النّجاةِ من الحديثِ المسندِ

وله قوله:

فقالَ كبيرُهم: ما الرأيُ في ما ... ترون يردّ ذا الأمرَ الجليّ؟
سمعتمْ قولَهُ قولاً بليغاً ... وأوصى بالخلافة في عليٍّ
فقالوا: حيلةٌ نُصبت علينا ... ورأيٌ ليس بالعقدِ الوفيِّ
ندبّر غير هذا في أمورٍ ... ننال بها من العيش السنيِّ
سنجعلها إذا ما مات شورى ... لتيميٍّ هنالك أو عديٍّ

---

(١) كفاية الطّالب، ص ٢٥٢، باب ٦٢.

وله قوله:

يــا قــارئَ القــرآنِ مــعْ تــأويلِــهِ ... مـع كـلِّ محكمـةٍ أتـتْ فـي حـالِ
أعمــارةُ البيــتِ المحــرّمِ مثلُــهُ ... وسقـايـةُ الحجّـاجِ فـي الأمثـالِ
أم مثلــه التيمــيُّ أو عــدويُّهــمْ ... هـل كـان فـي حـالٍ مـن الأحـوالِ
لا والــذي فــرضٌ علــيَّ ودادُهُ ... مـا عنـديَ العلمـاءُ كـالجهّـالِ

وله قوله:

فمـدينـةُ العلـمِ التـي هـو بـابُهـا ... أضحـى قسيـمَ النـارِ يـوم مـآبـهِ
فعـدوُّه أشقـى البـريّـةِ فـي لظـىً ... ووليُّـهُ المحبـوبُ يـومَ حسـابـهِ

وله قوله:

خيـرُ البـريّـة خـاصفُ النعـلِ الـذي ... شهـدَ النبـيُّ بحقِّـه فـي المشهـدِ
وبعلمِــهِ وقضــائِــهِ وبسيفِــهِ ... شهدَ الرّسولُ مع الملائكِ فاشهدِ

وله في الصدّيقة الزّهراء عليها السلام قوله:

وقـفَ النـدا فـي مـوضـعٍ عبـرتْ ... فيـه البتـولُ: عيـونكـمْ غضّـوا
فتغــضُّ[1] والأبصــارُ خــاشعــةٌ ... وعلـى بنـانِ الظـالـمِ العـضُّ
تســودُّ حينئــذٍ وجــوهُهــمُ ... ووجــوهُ أهــلِ الحــقِّ تبيَــضُّ

وله، يمدح الإمام جعفراً الصادق عليه السلام، قوله:

سليــلُ أئمّــةٍ سلكــوا كــرامــاً ... علـى منهـاجِ جـدِّهـمُ الـرّسـولِ
إذا مــا مشكــلٌ أعيــا علينــا ... أتَــوْنـا بـالبيـانِ وبـالـدليـلِ

* * *

(١) كذا في المناقب، وفي أعيان الشيعة، ٦/ ١١: فتمرُّ.

(٢٦)
الصّاحب بن عبّاد

التّعريف بالشّاعر

إسماعيل بن أبي الحسن عبّاد بن العبّاس بن عبّاد. . . ، يُكنّى بأبي القاسم، ويُلقّب بـ «الصّاحب» و «كافي الكفاة»، وقد صار اللّقب الأوّل اسماً علماً له يُعرف به[١].

وُلد لأربع عشرة ليلة بقيت، من ذي القعدة سنة ٣٢٦هـ، في «أصطخر» فارس، وقيل: في «الطّالقان»، طالقان قزوين؛ ولهذا يُنسب إليها، فيقال: الصّاحب بن عبّاد الطّالقاني القزويني.

وتوفّي ليلة الجمعة، ٢٤ من صفر سنة ٣٨٥هـ في الرّيّ، ونُقل جثمانه إلى أصفهان، ودفن في قبّةٍ بمحلّة تُعرف بـ «باب دَرِيه»؛ وهي، كما جاء في «معجم البلدان»، «أوّل ما يستقبلك من أصفهان»، وتدعى اليوم، كما جاء في «روضات الجنّات»، بـ «باب الطوقجي» و «الميدان» و «العتيق». لم يكن للصّاحب، من الأولاد، غير بنت واحدة.

وقد لُقّب بـ «الصّاحب» لأنّه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له: صاحب ابن العميد، ثمّ أطلق عليه هذا اللقب لما تولّى الوزارة، وقيل: إنّه لُقّب بهذا اللّقب لأنّه صحب «مُؤيّد الدّولة البويهي» منذ الصّبا فسمّاه الصّاحب، فاستمرّ عليه هذا اللّقب واشتهر به، ثمّ سُمّي به كلّ من ولي الوزارة بعده.

---

(١) ترجمته مأخوذة من الغدير، ٤/ ٦٤ ـ ١١٦، ومعجم الأدباء، ٦/ ١٦٨ ـ ٣١٧، وأعيان الشّيعة، ٣/ ٣٢٨ ـ ٣٧٦.

وقد جمع بعض الشّعراء اسمه ولقبه وكنيته في بيت من الشّعر، فقال أبو سعيد الرُّستمي، مبدلاً عبَّاد الثانية في نسب الصَّاحب بعبدالله:

يَهْنِيْ أبنَ عبَّادِ بنِ عبّاسِ بن عبـ ـدِ الله نُعْمى بالكرامة تُرْدَفُ

وقال عبدالله الخازن:

حضــرة الجليــل أبــي القــا ســم كــافـي الكفــاة اسمــاعيــل

نشأته

نشأ الصَّاحب في بيت علمٍ وفضلٍ، تولّى أربابه الوزارة، فقد كان أبوه وجدُّه من الوزراء، قال الثَّعالبي: سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: «إنّ مولانا الصَّاحب نشأ من الوزارة في حجرها. . .»، كما قال أبو سعيد الرُّستمي فيه:

ورث الــوزارة كــابـراً عــن كــابـرٍ مــوصــولــة الأسنــاد بــالأسنــاد
يــروي عـــن العبَّــاس عبــادٌ وزا رتــه وإسمــاعيــل عـــن عبَّــاد

ويُروى عن الصَّاحب قوله: «مُدحت، والعلمُ عند الله، بمئة ألف قصيدة عربيّة وفارسيّة، وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء والزّوَّار والقُصَّاد، فما سُرِرْتُ بشعر، ولا سرَّني شاعر كما سرَّني أبو سعيد الرّستمي الأصفهاني بقوله: ورث. . .».

وأُتيح للصَّاحب من القدرات الشَّخصيَّة والتَّربية والتَّعليم ما جعله شخصيَّة متميِّزة على غير مستوى، ومن الأخبار الدَّالَّة على تأصُّل حميد الخصال فيه ما يُروى أنّه كان منذ الصِّغر، إذا أراد الذَّهاب إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً ودرهماً في كلّ يوم، وتقول له: تصدَّق بهذا على أوّل فقيرٍ تلقاه، فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر، وصار يقول للفرَّاش كلّ ليلة: اطرح تحت هذا الفراش ديناراً ودرهماً لئلاّ تنساه. . .، وكان يتصدَّق بهما، علاوةً على ما كان يبذله من مالٍ وفيرٍ في مجالسه، وقد بلغ هذا البذل حدَّ إنفاق أمواله على الشّعراء والأدباء والزّوّار والقصَّاد، كما مرَّ بنا قبل قليل.

كاتبٌ فوزير

يقول ياقوت الحموي: وكان الصَّاحب، في بدء أمره، من صغار الكتَّاب، يخدم أبا الفضل بن العميد، عليّاً خاصَّة، فترقَّت به الحال إلى أن كتب لمؤيِّد الدولة بن ركن الدّولة، ابن بويه أَخِي عَضُدِ الدَّوْلَةِ، بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ الدَّيْلَمِيِّ من سنة ٣٤٧هـ إلى سنة ٣٦٦هـ، وسافر معه إلى بغداد سنة ٣٤٧هـ، وَمُؤَيِّدُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ أَمِيرٌ، وَأَحْسَنَ فِي خِدْمَتِهِ، وَحَصَلَ لَهُ عِنْدَهُ بِقِدَمِ الخِدْمَةِ قَدَمٌ، وَأَنِسَ مِنْهُ مُؤَيِّدُ الدَّوْلَةِ كِفَايَةً وَشَهَامَةً، فَلَقَّبَهُ بِالصَّاحِبِ، كَافِي الْكُفَاةِ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ رُكْنُ الدَّوْلَةِ، وَوَلِيَ مُؤَيِّدُ الدَّوْلَةِ بِلَادَهُ بِالرَّيِّ وَأَصْبَهَانَ، وَتِلْكَ النَّوَاحِي، خَلَعَ عَلَى أَبِي الْفَتْحِ بْنِ الْعَمِيدِ وَزِيرِ أَبِيهِ خِلَعَ الْوَزَارَةِ، وَأَجْرَاهُ عَلَى مَا كَانَ فِي أَيَّامِ أبيهِ، إِلَى أَنْ قُتِلَ، وَاسْتَوْزَرَ الصَّاحِبَ من سنة ٣٦٦هـ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أُمُورِهِ، وَحَكَّمَهُ فِي أَمْوَالِهِ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ مُؤَيِّدُ الدَّوْلَةِ سنة ٣٧٣هـ، وَكَانَ فَخْرُ الدَّوْلَةِ أَخُو مُؤَيِّدِ الدَّوْلَةِ، قدْ هَرَبَ مِنْ أَخِيهِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ، وَالْتَجَأَ بِخُرَاسَانَ إِلَى السَّامَانِيَّةِ، هُوَ وَقَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ، فِي أَخْبَارٍ يَضِيقُ كِتَابُنَا عَنْهَا، فَنَفَذَ الصَّاحِبُ إِلَيْهِ وَأَحْضَرَهُ، وَمَلَّكَهُ الْبِلَادَ، فَأَقَرَّ الصَّاحِبَ عَلَى أَمْرِهِ، فَأَرَادَ الصَّاحِبُ اخْتِبَارَهُ، هلْ فِي نَفْسِهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ، مِمَّا كَانَ فِي أَيَّامِ مُؤَيِّدِ الدَّوْلَةِ الذي أوجب هرب فخر الدّولة؟ فاستعفاه من الخدمة والوزارة، فقال له فخر الدّولة: لك في هذه الدّولة من إرث الوزارة كما لنا من إرث الإمارة، فسبيل كلّ واحدٍ منّا أن يحتفظ بحقّه، ولم يُعْفه. ولم يزل على أمره معه إلى أن مات الصَّاحب. والأمور تصدر عن أمره، والملك يُدبَّر برأيه. وكان إذا قال فخر الدّولة قولاً وقال الصَّاحب قولاً امتثل قول الصَّاحب وتُرك قول فخر الدّولة[1].

---

(١) نفسه، ص ١٧٣ و١٧٤.

شخصيّة فريدة

تستفيض كتب الأدب[1] في بيان صفات هذه الشخصيّة المتميِّزة، ومن ذلك ما يقوله الثعالبي في «يتيمة الدّهر»: «ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علوّ محلِّه في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرّده بغايات المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر...»، ثمّ يستدرك فيتحدّث عن فضائل يمكن تركيزها في ما يأتي:

ـ كانت مجالسه محطّ رحال العلماء والأدباء والشّعراء، ومجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم وثمار الخواطر...

ـ بلغ من البلاغة ما يكاد يدخل في حدّ الإعجاز.

ـ تمثّلت همّته في مجدٍ يشيده وإنعام يجدّده وفاضل يصطنعه وكلام حسن يصنعه أو يسمعه.

ـ كانت أمواله تنفق في سبيل تحقيق هذه الهمّة ـ الهدف.

ـ جمعت مجالسه، أينما حلّ، في أصفهان وجرجان والرّيّ، عدداً من العلماء والأدباء والشّعراء يربو على العدد الذي اجتمع في بلاط كبار الخلفاء، مثل هارون الرّشيد.

وعن تاريخ الوزراء: «كان الصّاحب الكافي إسماعيل بن عبّاد وحيد عصره وفريد دهره في العلم والفضل والفهم والفطنة مُقدّماً في إصابة الرّأي والتّدبير وإضاءة الخاطر وصفاء الضّمير».

كرمه

وله أيّام وزارته عطاؤه الجزل، وسَيْب يده المتدفّق، وبرُّه المتواصل إلى العلماء والشّعراء. قال الثعالبي: حدّثني عون بن الحسين، قال: كنت يوماً في

(١) راجع للمزيد: أعيان الشّيعة، ٣/ ٣٣٠.

خزانة الخلع للصَّاحب فرأيت في ثبت حسابات كاتبها ـ وكان صديقي ـ مبلغ عمائم الخزّ التي صارت تلك الشتوة للعلويِّين والفقهاء والشّعراء خاصّة ـ غير الخدم والحاشية ـ ثمانمئة وعشرين، وكان يُنفذ إلى بغداد في السنة خمسة آلاف دينار تفرّق على الفقهاء والأدباء، وكانت صِلاته وصدقاته وقرباته في شهر رمضان تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة، فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان أحدٌ، كائناً من كان، فيخرج من داره إلاَّ بعد الإفطار عنده، وكانت داره لا تخلو في كلّ ليلةٍ من لياليه من ألف نفس مفطرة فيها(١).

عهده عهد علم وأدب

كان عهده أخصب عهد للعلم والأدب بتقريبه رجالات الفضيلة، وتشويقه إيّاهم، وتنشيطهم لنشر بضائعهم الثمينة حتى نفق سوقها، وراج أمرها، وكثرت طلاّبها، ونبغت روّادها، فكانت قلائد الدّرر منها تُقابَل بالبِدَر والصرر، فمدحه على فضله المتوفِّر، وجوده المديد الوافر خمسمئة شاعر، تجد مدائحهم مبثوثةً في الدَّواوين والمعاجم. قال الحموي(٢): حدّث ابن بابك، قال: سمعت الصّاحب يقول: مُدحت ـ والعلم عند الله ـ بمئة ألف قصيدة شعراً عربيّة وفارسيّة. وقد خلّدت تلك القصائد له على صفحة الدّهر ذكراً لا يبلى، وعظمةً لا يخلقها مرُّ الجديدين. ومن أولئك الشّعراء:

١ ـ أبو القاسم الزعفراني عمر بن إبراهيم العراقي، له قصائد في الصَّاحب، منها نونيّة مطلعها:

سواك يعدُّ الغنى واقتنى ... ويأمره الحرصُ أن يخزنا
وأنت ابنُ عبّادِ المرتجى ... تعدُّ نوالَكَ نيلَ المنى

(١) يتيمة الدّهر، ٣/ ٢٢٧، ٢٣٠.
(٢) معجم الأدباء، ٦/ ٢٦٣.

٢ ـ أبو القاسم عبد الصّمد بن بابك، يمدح الصّاحب بقصيدة أوّلها:

خلعتْ قلائدَها عن الجوزاءِ   عذراءُ رقّصها لعابُ الماءِ

٣ ـ أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الوزير من آل بويه، له قصيدة منها:

أقول وقلبي في ذراك مخيِّمٌ   وجسمي جنيبٌ للصّبا والجنائبِ
يُجاذب نحو الصّاحبِ الشّوقُ مِقْودي   وقد جاذبتني عنه أيدي الشّواذبِ

٤ ـ الوزير أبو العبّاس الضبّي: المتوفّى سنة ٣٩٨هـ، أحد شعراء الغدير الآتي شعره.. إلخ.

كانت للصّاحب مكتبة عامرة، وقد نوّه بها لمّا أرسل إليه صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني في السير يستدعيه إلى حضرته ويرغّبه في خدمته، وبذل البذول السنيّة، فكان من جملة أعذاره قوله: ثمّ كيف لي بحمل أموالي مع كثرة أثقالي، وعندي من كتب العلم خاصّة ما يُحمل على أربعمئة حمل أو أكثر؟

وفي معجم الأدباء[1] قال أبو الحسن البيهقي: وأنا أقول: بيت الكتب الذي بالريّ دليلٌ على ذلك بعدما أحرقه السّلطان محمود بن سبكتكين، فإنّي طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلّدات، فإنّ السلطان محموداً لمّا ورد إلى الريّ قيل له: إنّ هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع، فاستخرج منها كلّ ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه.

يظهر من كلام البيهقي هذا، أنّ عمدة الكتب التي أُحرقت هي خزانة كتب الصّاحب، وهكذا كانت تعبث يد الجور بآثار الشّيعة وكتبهم ومآثرهم.

وكان خازن تلك المكتبة ومتولّيها: أبو بكر محمّد بن إبراهيم بن عليّ المقري المتوفّى سنة ٣٨١هـ، وأبو محمّد عبدالله الخازن ابن الحسن الأصبهاني.

(١) المصدر نفسه، ٦/٢٥٩.

عالمٌ أديب..

أخذ العلم والأدب عن والده وأبي الفضل بن العميد، وأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي، وأبي الفضل العبّاس بن محمّد النحوي الملقّب بعرام، وأبي سعيد السيرافي، وأبي بكر بن مقسم، والقاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن شجرة، وعبدالله بن جعفر بن فارس، ويروي عن الأخيرين.

قال السمعاني[1]: إنّه سمع الأحاديث من الأصبهانيّين والبغداديّين والرازيّين، وحدّث، وكان يحثُّ على طلب الحديث وكتابته. وروى عن ابن مردويه أنّه سمع الصّاحب يقول: من لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الإسلام.

وكان يُملي الحديث على خلقٍ كثير، فكان المستملي الواحد ينضاف إليه الستّة كلٌّ يبلّغ صاحبه، فكتب عنه النّاس الكثير الطيّب؛ منهم: القاضي عبد الجبّار، والشيخ عبد القاهر الجرجاني، وأبو بكر ابن المقري، والقاضي أبو الطيّب الطبري، وأبو بكر بن عليّ الذكواني، وأبو الفضل محمّد بن محمّد بن إبراهيم النسوي الشافعي.

ثمّ شاع نبوغه في العلوم وتضلّعه في فنون الأدب، واعترف به الشّاهد والغائب، حتى عدّه شيخنا بهاء الملّة والدّين في رسالة غسل الرّجلين ومسحهما من علماء الشّيعة، في عداد ثقة الإسلام الكليني، والصّدوق، والشيخ المفيد، والشّيخ الطّوسي، والشّيخ الشّهيد، ونظرائهم. ووصفه العلاّمة المجلسي الأوّل في حواشي «نقد الرّجال» بكونه من أفقه فقهاء أصحابنا المتقدّمين والمتأخّرين، وعدّه في مقام آخر من رؤساء المحدّثين والمتكلّمين. وأطراه شيخنا الحرُّ العاملي في «أمل الآمل»[2]، بأنّه محقّقٌ، متكلّمٌ، عظيم الشّأن، جليل القدر في العلم.

---

(١) الأنساب، ٤/ ٣٠.

(٢) أمل الآمل، ٢/ ٣٤، رقم ٩٦.

كما أنّ الثعالبي في «فقه اللّغة» جعله أحد أئمّتها الذين اعتمد عليهم في كتابه؛ أمثال: اللّيث، والخليل، وسيبويه، وخلف الأحمر، وثعلب الأحمشي، وابن الكلبي، وابن دريد. وعدّه الأنباري أيضاً من علماء اللّغة، فأفرد له ترجمة في كتابه: «طبقات الأدباء النّحاة»[1]، وكذلك السُّيوطي في «بغية الوعاة في طبقات اللغويِّين والنّحاة»[2]، ورآه العلاّمة المجلسي في مقدّمة «البحار»[3] علَماً في اللّغة والعروض والعربيّة من الإماميّة.

وقال ابن الجوزي في «المنتظم»[4]: كان يخالط العلماء والأدباء ويقول لهم: نحن بالنّهار سلطان وباللّيل إخوان، وسمع الحديث وأملى، وروى أبو الحسن عليّ بن محمّد الطبري المعروف بـ (كيا) قال: سمعت أبا الفضل زيد بن صالح الحنفي يقول: لمّا عزم الصّاحب إسماعيل بن عبّاد على الإملاء ـ وكان حينئذٍ في الوزارة ـ خرج يوماً متطلّساً متحنّكاً بزيّ أهل العلم، فقال: قد علمتم قدمي في العلم، فأقرّوا له بذلك. فقال: وأنا متلبِّسٌ بهذا الأمر وجميع ما أنفقته من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي وجدّي، ومع هذا فلا أخلو من تبعات، أشهد الله وأشهدكم أنّي تائبٌ إلى الله من كلِّ ذنب أذنبته. واتّخذ لنفسه بيتاً وسمّاه بيت التوبة، ولبث أسبوعاً على ذلك، ثمّ أخذ خطوط الفقهاء بصحّة توبته، ثمّ خرج فقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير، وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستّة كلٌّ يبلِّغ صاحبه، فكتب الناس حتى القاضي عبد الجبّار، وكان الصّاحب يُنفِذ كلَّ سنة إلى بغداد خمسة آلاف دينار تُفرَّق في الفقهاء وأهل الأدب، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم.

---

(١) نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء والنّحاة، ص ٣٢٥، رقم ١٢٨.

(٢) بغية الوعاة، ١/ ٤٤٩، رقم ٩١٨.

(٣) بحار الأنوار، ١/ ٤٢.

(٤) المنتظم، ١٤/ ٣٧٦، رقم ٢٩١١.

تشجيعه قيام حركة تاليف

وتقديراً لعلمه وأدبه ألّف له غير واحد من الأعلام الأفذاذ تآليف قيّمة؛ منهم:

١ ـ شيخنا الصّدوق أبو جعفر القمّي، ألّف له كتابه: «عيون أخبار الرّضا».

٢ ـ الحسين بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، كتابه: «نفي التشبيه»، كذا في «لسان الميزان»[١] نقلاً عن فهرست النجاشي[٢]، ويظهر من النجاشي أنّه غيره ولم يسمّه.

٣ ـ الشيخ الحسن بن محمّد القمّي، ألّف له كتابه: «تاريخ قم».

٤ ـ أبو الحسن أحمد بن فارس الرازي اللّغوي، كتابه: «الصاحبيّ».

٥ ـ القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجاني، كتابه: «التهذيب».

٦ ـ أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان داود الصوّاف المالكي، ألّف للصّاحب كتابه: «الحجر»، ووجّهه إليه، فقال الصّاحب: رُدّوا «الحجر» من حيث جاء. ثمّ قبله ووصله عليه، ذكره ابن فرحون في «الديباج المذهّب»[٣].

مؤلّفاته

وللصّاحب آثارٌ خالدةٌ في العلم والأدب منها:

١ ـ كتاب: «أسماء الله وصفاته» ٢ ـ كتاب: «نهج السبيل في الأصول» ٣ ـ كتاب: «الإمامة في تفضيل أمير المؤمنين» ٤ ـ كتاب: «الوقف والابتداء» ٥ ـ كتاب: «المحيط في اللّغة»، في عشر مجلّدات[٤] ٦ ـ كتاب: «الزيديّة»

(١) لسان الميزان، ٢/ ٣٧٤، رقم ٢٧٨٢.
(٢) رجال النجاشي، ص ٦٨، رقم ١٦٣.
(٣) الديباج المذهّب، ١/ ١٦٧، رقم ٣٤.
(٤) كذا في معجم الأدباء، [٦/ ٢٦٠]. وفي كشف الظنون، [٢/ ١٦٢١]: في سبع مجلّدات. [طبع=

٧ ـ كتاب: «المعارف في التاريخ» ٨ ـ كتاب: «الوزراء» ٩ ـ كتاب: «القضاء والقدر» ١٠ ـ كتاب: «الروزنامچه»، ينقل عنه الثعالبي في «يتيمة الدهر» ١١ ـ كتاب: «أخبار أبي العيناء» ١٢ ـ كتاب: «تاريخ الملك واختلاف الدول» ١٣ ـ كتاب: «الزيديِّين» ١٤ ـ كتاب: «جوهرة الجمهرة» لابن دُريد ١٥ ـ كتاب: «الإقناع في العروض» ١٦ ـ كتاب: «نقض العروض» ١٧ ـ كتاب: «ديوان رسائله»، في عشر مجلّدات ١٨ ـ كتاب: «الكافي»، في الرّسائل وفنون الكتابة ١٩ ـ كتاب: «الأعياد وفضائل النيروز» ٢٠ ـ كتاب: «ديوان شعره» ٢١ ـ كتاب: «الشواهد» ٢٢ ـ كتاب: «التذكرة» ٢٣ ـ كتاب: «التعليل» ٢٤ ـ كتاب: «الأنوار» ٢٥ ـ كتاب: «الفصول المهذّبة للعقول» ٢٦ ـ كتاب: «رسالة الإبانة عن مذهب أهل العدل» ٢٧ ـ كتاب في الطبّ ٢٨ ـ كتاب في الطبّ أيضاً ٢٩ ـ كتاب: «الكشف عن مساوئ شعر المتنبّي»، طبع بمصر في (٢٦) صحيفة.

قال الثعالبي في «اليتيمة»[١]: ولمّا عمل الصّاحب هذه الرّسالة عمل القاضي أبو الحسن عليّ بن عبد العزيز الجرجاني كتابه «الوساطة بين المتنبّي وخصومه في شعره»، وقال فيه بعض أدباء نيسابور:

أيا قاضياً قد دَنَتْ كُتْبُه ... وإن أصبحتْ دارُهُ شاحطه[٢]
كتابُ الوساطةِ في حسنِهِ ... لِعقدِ معاليك كالواسطه

٣٠ ـ رسالةٌ في فضل سيّدنا عبد العظيم الحسني، المدفون بالريّ ٣١ ـ كتاب: «السّفينة»، نسبها إليه الثعالبي في «تتمّة اليتيمة»[٣] ٣٢ ـ كتابٌ مفرد في ترجمة الشافعي محمّد بن إدريس ـ إمام الشافعيّة ـ كما في «الكواكب الدريّة» (ص ٢٦٣).

= أخيراً في عشر مجلّدات وفهارس بتحقيق الشيخ محمّد حسن آل ياسين] المؤلّف.

(١) يتيمة الدهر، ٤/٤ ـ ٥.

(٢) شاحطة: بعيدة.

(٣) تتمّة يتيمة الدّهر، ٥/٣٧.

وشافهني الأستاذ حسين محفوظ الكاظمي بأنّه رأى من تآليف الصّاحب ما يلي:

١ ـ «الفصول الأدبيّة والمراسلات العباديّة»، مرتّبة على خمسة عشر باباً، في كلّ باب خمسة عشر فصلاً، والنّسخة مؤرّخةٌ بسنة ٦٢٨.

٢ ـ رسالة في الهداية والضلالة، مخطوطةٌ بالخطّ الكوفي، نسخت من نسخة المؤلّف وعليها خطّه.

٣ ـ «الأمثال السّائرة من شعر أبي الطيّب المتنبّي»، وهي (٣٧٢) بيتاً، والنسخة بخطّ الباخرزي مؤرّخة بسنة ٤٣٤.

أحد أفذاذ العلم والسّياسة

والقارئ جِدُّ عليم بأنّ مؤلّف هذه الكتب المتنوّعة، أحد أفذاذ العلم الذين لم يعدُهم أيُّ مقام منيع من الفنون، فهو: فيلسوف، متكلّم، فقيه، محدِّث، مؤرّخ، لغويّ نحويّ، أديب، كاتب، شاعر سياسيّ محنّك، وإداريّ بارع، فما ظنّك بمثله من نابغة؟

تعصُّب أبي حيَّان التوحيدي عليه

وجاء، في «لسان الميزان»، بعد ذكر فضائل الصّاحب بن عبّاد: «وكان يبغض من يميل إلى الفلسفة، ولذلك أقصى أبا حيّان التوحيدي، فحمله ذلك على أن جمع مُصنّفاً في مثالبه أكثره مختلق». والمصنّف المذكور هو كتاب أبي حيّان التوحيدي الموسوم بعنوان: «مثالب الوزيرين»، وقد ذمّ فيه الوزيرين: ابن العميد والصّاحب بن عبّاد. ويقول السيّد محسن الأمين في هذا الصّدد: «وقد تعصّب أبو حيّان كثيراً على الصّاحب، وسلبه محاسنه. والذي يظهر أنّ أبا حيّان لم يرضَ عن الصّاحب؛ إمّا لأنّه كان أمل منه أكثر ممّا وصله به، أو لأنّه طُبع على التأفّف والسّخط، أو لأنّه طلبه ليقتله كما قيل [لسوء اعتقاده، وصنعه رسالةً على لسان أبي بكر وعمر إلى الإمام عليّ يردُّ فيها على الشّيعة]،

فلمّا لم يرضَ عنه هجاه. . . وقد كان هذا دأب الشّعراء يهجون من لم يرضوا عن جوائزه بأقبح الهجو، ويمدحون الناس بما فيهم وبما ليس فيهم طلباً لجوائزهم، وأبو حيّان كان كاتباً بليغاً أكثر منه شاعراً فهجا الصّاحب لمّا لم يرضَ عنه بنثره البليغ، كما يهجو الشّاعر بشعره، فذمّه للصّاحب وابن العميد لا قيمة له في عالم الحقيقة كما لا قيمة لهجو الشّعراء في عالمها. نعم، له قيمته الأدبيّة التي تترك أثراً في النفوس على ممرّ الدّهور. . .»[1].

ويقول ياقوت الحموي في هذا الشّأن: «إنّ أبا حيّان كان قصد ابن عبّاد إلى الريّ، فلم يُرزق منه، فرجع عنه ذامّاً له، وكان أبو حيّان مجبولاً على الغرام بثلب الكرام، فاجتهد في الغضّ من ابن عبّاد، وكانت فضائل ابن عبّاد تأبى إلاّ أن تسوقه إلى المدح، وإيضاح مكارمه، فصار ذمُّه له مدحاً. . .»[2].

وقد نقل الحموي ما قاله أبو حيّان في الصّاحب، عن كتابيه: «مثالب الوزيرين»، و «الإمتاع والمؤانسة»، ومنه، على سبيل المثال: «وقال لي الثقة من أصحابه: ربّما شرع في أمرٍ يحكمُ فيه بالخطأ فيقلبه جَدُّه صواباً، حتى كأنّه عن وحي، وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيّة، ولو جرت الأمور على موضوع الرّأي، وقضيّة العقل، لكان معلّماً على مصطبةٍ في شارع، أو في دار، فإنّه يُحرج الإنسان بتَفَيْهُقِهِ وتشادقه واستحقاره، واستكباره، وإعادته وإبدائه، وهذه أشكال تعجب الصِّبيان. . .»[3].

ثمّ قال: «هذا قول صاحب «الإمتاع» فيه، وممّا وجدت في بعض الكتب من مكارم الأخلاق للصّاحب: أَنَّهُ اسْتَدْعى يَوْماً شَرَاباً مِنْ شَرَابِ السُّكَّرِ، فَجِيءَ بِقَدَحٍ مِنْهُ، فَلَمَّا أَرَادَ شُرْبَهُ، قَالَ لَهُ بَعْضُ خَوَاصِّهِ: لاَ تَشْرَبْهُ فَإِنَّهُ مَسْمُومٌ، فَقَالَ لَهُ: وَمَا الشَّاهِدُ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ؟ قَالَ: بِأَنْ تُجَرِّبَهُ عَلَى مَنْ

(١) أعيان. . .، ٣/ ٢٣٢.
(٢) معجم الأدباء، ٦/ ١٨٦ و١٨٧.
(٣) نفسه، ص ١٨٤.

أَعْطَاكَهُ، قَالَ: لاَ أَسْتَجِيزُ ذَلِكَ وَلاَ أَسْتَحِلُّهُ. قَالَ: فَجَرِّبْهُ عَلَى دَجَاجَةٍ. قَالَ: إِنَّ التَّمْثِيلَ بِالْحَيَوانِ لاَ يَجُوزُ، وَأَمَرَ بِصَبِّ مَا فِي الْقَدَحِ، وَقَالَ لِلْغُلاَمِ: انْصَرِفْ عَنِّي، وَلاَ تَدْخُلْ دَارِي بَعْدَهَا، وَأَقَرَّ رِزْقَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لاَ تَدْفَعِ الْيَقِينَ بِالشَّكِّ. وَالْعُقُوبَةُ بِقَطْعِ الرِّزْقِ نَذَالَةٌ.

قَالَ: وَدَخَلَ إِلَى الصَّاحِبِ رَجُلٌ لاَ يَعْرِفُهُ، فَقَالَ لَهُ الصَّاحِبُ: أَبُو مَنْ؟ فَأَنْشَدَ الرَّجُلُ:

وتتَّفقُ الأسماءُ في اللّفظ والكنى ... كثيراً، ولكن لا تلاقى الخلائقُ

فقال له: اجلس، يا أبا القاسم.

وكان يقول لجلسائه: «نحن بالنّهار سلطان وباللّيل إخوان».

ويعلّق محقّق كتاب «معجم الأدباء» على ما يرد من نقل أوّلٍ وثانٍ فيقول: «أفمن هذا عمله وتلك دخيلة نفسه يكون من النّفر الذين أشير إليهم في الكلام سالف ذكره!؟»[1].

ولا يجد أبو حيّان مفرّاً من الحقيقة، فأقرّ بها عِنْدَمَا قَارَبَ الْفَرَاغَ مِنْ كِتَابِهِ فِي «أَخْلاَقِ الْوَزِيرَيْنِ»، فقال: «وَلَوْلاَ أَنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ؛ أَعْنِي ابْنَ عَبَّادٍ، وَابْنَ الْعَمِيدِ، كَانَا كَبِيرَيْ زَمَانِهِمَا، وَإِلَيْهِمَا انْتَهَتِ الأُمُورُ، وَعَلَيْهِمَا طَلَعَتْ شَمْسُ الْفَضْلِ، وَبِهِمَا ازْدَانَتِ الدُّنْيَا، وَكَانَا بِحَيْثُ يُنْشَرُ الْحَسَنُ مِنْهُمَا نَشْراً، وَالْقَبِيحُ يُؤْثَرُ عَنْهُمَا أَثْراً، لَكُنْتُ لاَ أَتَسَكَّعُ فِي حَدِيثِهِمَا هَذَا التَّسَكُّعَ، وَلاَ أُنْحِي عَلَيْهِمَا بِهَذَا الْحَدِّ، وَلَكِنَّ النَّقْصَ مِمَّنْ يَدَّعِي التَّمَامَ أَشْنَعُ..»[2].

مذهبه

إنّ كون الصّاحب من عليّة الشيعة الإماميّة ممّا لا يمتري فيه أيّ أحد من علماء مذهبه الحقّ، كما يشهد بذلك شعره الكثير الوافر في أئمّة

(١) نفسه، ص ١٨٥ و١٨٦.

(٢) نفسه، ٦/ ٢٣٢.

أهل البيت عليهم السلام، ونشره المتدفّق منه لوائح الولاية والتفضيل، وهو يهتف بقوله:

فكم قد دعوني رافضيّاً لحبّكم ... فلم يَثْنِني عنكم طويلُ عوائِهم

وقد نصَّ على مذهبه هذا السيّد رضيُّ الدِّين بن طاووس في كتاب «اليقين»[1]، وقد مرَّ عن المجلسي الأوّل أنّه من أفقه فقهاء أصحابنا، واقتفى أثره ولده في مقدِّمات «البحار»[2]، فصرّح بأنّه كان من الإماميّة، وعدّه القاضي الشّهيد في «مجالسه»[3] من وزراء الشّيعة، ويقول شيخنا الحرّ في «أمل الآمل»[4]: إنّه كان شيعيّاً إماميّاً، وعدّه ابن شهرآشوب في «المعالم»[5] من شعراء أهل البيت المجاهرين، وشيخنا الشّهيد الثاني[6] من أصحابنا، وفي «معاهد التنصيص»[7]: إنّه كان شيعيّاً جلداً كآل بويه معتزليّاً.

وقبل هذه الشّهادات كلّها شهادة الشيخين العَلَمين: رئيس المحدِّثين الصّدوق في «عيون أخبار الرّضا»[8]، وشيخنا المفيد في ما حكاه عنه ابن حجر في «لسان الميزان»[9]، ورسالته في أحوال عبد العظيم الحسني المندرجة في خاتمة «المستدرك»[10]، من جملة الشّواهد أيضاً، وفي «لسان الميزان»: كان الصّاحب إماميّ المذهب، وأخطأ من زعم أنّه

(١) اليقين في إمرة أمير المؤمنين، ص ٤٥٧، باب ١٧٤.
(٢) بحار الأنوار، ١/ ٤٢.
(٣) مجالس المؤمنين، ٢/ ٤٤٧.
(٤) أمل الآمل، ٢/ ٣٤، رقم ٩٦.
(٥) معالم العلماء، ص ١٤٨.
(٦) الدراية، ص ٩٢.
(٧) معاهد التنصيص، ٤/ ١٢٣، رقم ٢٠٨.
(٨) عيون أخبار الرضا، ١/ ١٢.
(٩) لسان الميزان، ١/ ٤٦٤، رقم ١٣٠٠.
(١٠) نقلاً عن نسخة بخطّ بعض بني بابويه مؤرّخة بسنة ٥١٦.
وقد حقّقه الشيخ محمّد حسن آل ياسين ـ حفظه الله ـ ونشره في بغداد سنة ١٣٧٤هـ.

كان معتزليّاً، وقد قال عبد الجبّار القاضي لمّا تقدّم للصلاة عليه[1]: ما أدري كيف أصلّي على هذا الرافضيّ. وعن ابن أبي طيّ: أنّ الشيخ المفيد شهد بأنّ الكتاب الذي نُسب إلى الصّاحب في الاعتزال وُضع على لسانه ونُسب إليه، وليس هو له.

وهناك نُقولٌ متهافتةٌ يبطل بعضها بعضاً تفيد اعتناق الصّاحب مذهب الاعتزال تارةً وتمذهبه بالشافعيّة أخرى، وبالحنفيّة طوراً، وبالزيديّة مرّةً، وفي القاذفين من يحمل عليه حقداً يريد تشويه سمعته بكلّ ما توحي إليه ضغائنه، كأبي حيّان التوحيدي[2].

وما وقع إلينا في المحكيّ عن «رسالة الإبانة» للصّاحب من إنكار النصّ على أمير المؤمنين عليه السلام، فهو حكايةٌ محضةٌ عمّن يقول بذلك، بل ما في «الإبانة» يكفي بمفرده في إثبات كونه إماميّاً، وإليك نصّ كلامه مشفوعاً بمقاله في «التذكرة» حول الإمامة.

قال في «الإبانة»: زعمت العثمانيّة وطوائف الناصبيّة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مفضولٌ في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير فاضل، واستدلّت بأنّ أبا بكر وعمر وُلّيا عليه.

وقالت الشّيعة العدليّة: فقد ولّى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليهما عمرو بن العاص في غزوة ذات السّلاسل فليقولوا: إنّه خيرٌ منهما، فقالت الشّيعة: عليٌّ عليه السلام أفضل الناس بعد النبيّ؛ فلذلك آخى بينه وبينه حين آخى بين أبي بكر وعمر، فلم يكن ليختار لنفسه إلاّ الأفضل، وقد ذكر ذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»، ثمّ إنّه لم يستثنِ إلاّ النبوّة، وفيه قال: «اللّهمّ آتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي هذا الطّير».

(١) الذي صلّى عليه هو أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم الضبيّ الذي تولّى الوزارة بعده.
(٢) الإمتاع والمؤانسة، ١/ ٥٤ و٥٥.

وقـد قال: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه» إلى آخر الدعاء.

وبعدُ، فالفضيلةُ تُستَحقُّ: بالمسابقة، وهو أسبقهم إسلاماً، وقد قال الله تعالى: ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة/ ١٠ و١١].

وبـالجهـاد، وهـو لم يغمد حساماً، ولم يقصر إقداماً، كشّاف الكروب، وفرّاج الخطوب، ومسعر الحروب، قاتل مرحب، وقالع باب خيبر، وصارع عمـرو بـن عبد ودّ، ومن قال فيه النبيُّ ﷺ: «لأعطينَّ الرّاية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسـولـه، ويحبّـه الله ورسـولـه، كـرّاراً غيـر فـرّار»، وقد قال الله تعالى: ﴿وفَضَّلَ اللهُ ٱلمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء/ ٩٥].

وبالعلم، والنبيُّ ﷺ قـال: «أنـا مدينة العلـم وعليٌّ بابها»، وأثر ذلك بيّـنٌ؛ لأنّه عليه السلام لـم يسـأل مـن الصّحابة أحداً وقد سألوه، ولم يستفتهم وقد استفتـوه؛ حتـى إنّ عمـر يقول: لولا عليٌّ لهلك عمر، ويقول: لا أعاشني الله لمشكلـة لـيس لهـا أبـو الحسن، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٩].

وبـالـزّهـد والتّقوى والبرّ والحسنى، فإذا كان أعلمهم فهو أتقاهم، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى ٱللهَ مِن عِبادِهِ ٱلعُلَماءُ﴾ [فاطر/ ٢٨].

وبعدُ، فهو الذي آثر المسكين واليتيم والأسير على نفسه مخرجاً قوته كلّ ليلة إليهم عند فطره، حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمَـاً وَأَسِيـراً﴾ [الإنسان/ ٨]. فـأخبـر نبيّـه وعده عليه الجنّة. والحديث طويل وفضله كثير، وهو الـذي تـصدّق بخاتمـه في ركوعه حتى أنزل الله فيه: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة/ ٥٥].

والـذي أرتئيـه ويسـاعـدنـي فيـه الـدَّليل أنّ الصَّاحب، كغيره من أعلام الإمـاميَّة، كـان يـوافـق المعتـزلـة فـي بـعض المسـائـل، كمسألة العدل التي

تطابقت اراء الشّيعة والمعتزلة فيها على مجابهة الأشاعرة في الجبر، واستلزامه تجوير الحقّ تعالى، وإن افترقا من ناحيةٍ أخرى في باب التفويض وأمثال هذه، فقد كان يصعب على الباحث التمييز بين الفريقين، فيُرمى كلٌّ فريق باسم قسيمه، ومن هنا أُتي الصّاحب بهذه القذيفة كغيره من أعلام الطّائفة، مثل علم الهدى السيّد المرتضى وأخيه الشريف الرضي.

وأمّا نسبته إلى الشافعيّة فيدفعها عزوه إلى الحنفيّة، ومن أبدع التناقض قول أبي حيّان في كتاب «الإمتاع» (١/ ٥٥): إنّه كان يتشيّع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيديّة. وأمّا انتسابه إلى الزيديّة فيدفعه تعداده الأئمّة عليهم السلام في شعره، كقوله:

بمحمّدٍ ووصيِّه وابنيهما | الطّاهرينَ وسيّدِ العبّادِ
ومحمّدٍ وبجعفرِ بنِ محمّدٍ | وسميِّ مبعوثٍ بشاطي الوادي
وعليٍّ الطوسيِّ ثمّ محمّدٍ | وعليٍّ المسمومِ ثمّ الهادي
حسنٍ وأتبعْ بعده بإمامةٍ | للقائم المبعوثِ بالمرصادِ

وقوله:

بمحمّدٍ ووصيِّه وابنيهما | وبعابدٍ وبباقرين وكاظمٍ
ثمّ الرّضا ومحمّدٍ ثمّ ابنهِ | والعسكريِّ المتّقي والقائمِ
أرجو النّجاة من المواقف كلِّها | حتّى أصيرَ إلى نعيمٍ دائمِ

ومن الأدلّة القاطعة على تشيُّعه أنّه كان له خاتمان، نقش أحدهما هذه الكلمات:

على الله توكّلتُ | وبالخَمسِ توسّلتُ

ونقش الآخر:

شفيعُ إسماعيلَ في الآخرَه | محمّدٌ والعترةُ الطّاهره

شعره في يوم الغدير

قالت: فمن صاحبُ الدِّينِ الحنيفِ؟ أجبْ، فقلتُ: أحمدُ خيرُ السَّادةِ الرُّسُلِ
قالت: فمن بعده تُصفي الولاءَ له؟ قلتُ: الوصيُّ الذي أربى على زُحَلِ
قالت: فمن بات من فوقِ الفراشِ فدىً؟ فقلتُ: أثبتُ خلقِ اللهِ في الوَهَلِ[1]
قالت: فمن ذا الذي آخاه عن مقةٍ؟ فقلتُ: من حاز ردَّ الشّمس في الطَّفَلِ[2]
قالت: فمن زوَّجَ الزهراءَ فاطمةً؟ فقلتُ: أفضلُ من حافٍ ومُنتعلِ
قالت: فمن والدُ السّبطينِ إذ فرعا؟ فقلتُ: سابقُ أهلِ السّبقِ في مَهلِ
قالت: فمن فاز في بَدرٍ بمعجزها؟ فقلتُ: أضربُ خلقِ اللهِ في القُلَلِ
قالت: فمن أسدُ الأحزابِ يفرسُها؟ فقلتُ: قاتلُ عمروِ الضيغمِ البطلِ
قالت: فيوم حُنين من فرا وبَرا؟ فقلتُ: حاصدُ أهلِ الشّركِ في عجَلِ
قالت: فمن ذا دُعي للطّير يأكلُهُ؟ فقلتُ: أقربُ مَرضيٍّ ومُنتحلِ
قالت: فمن تِلوُهُ يومَ الكساءِ؟ أجبْ فقلتُ: أفضلُ مَكسوٍّ ومُشتمِلِ
قالت: فمن سادَ في يومِ الغديرِ؟ أبِنْ فقلتُ: من كان للإسلام خيرَ ولي
قالت: ففي من أتى في «هل أتى» شرفٌ؟ فقلتُ: أبذلُ أهلِ الأرضِ للنفَلِ؟
قالت: فمن راكعٌ زكّى بخاتمهِ؟ فقلتُ: أطعنُهم مذ كان بالأسَلِ
قالت: فمن ذا قسيمُ النّارِ يسهمُها؟ فقلتُ: من رأيُه أذكى من الشُّعَلِ
قالت: فمن باهَل الطّهرُ النبيُّ به؟ فقلتُ: تاليهِ في حِلٍّ ومُرتحَلِ
قالت: فمن شبهُ هارونَ لنعرفَه؟ فقلتُ: من لم يَحُلْ يوماً ولم يَزُلِ
قالت: فمن ذا غدا بابَ المدينةِ؟ قل فقلتُ: من سألوهُ وهو لم يَسلِ
قالت: فمَن قاتل الأقوامَ إذ نكثوا؟ فقلتُ: تفسيرُهُ في وقعةِ الجملِ
قالت: فمَن حاربَ الأرجاسَ إذ قسطوا؟ فقلتُ: صفّين تُبدي صفحةَ العملِ
قالت: فمَن قارعَ الأنجاسَ إذ مرقوا؟ فقلتُ: معناه يوم النهروانِ جَلي

---

(١) الوَهَل: الفزع.
(٢) المقة: المحبّة. طفلت الشّمس: مالت للغروب.

قالت : فمَن صاحبُ الحوضِ الشّريفِ غداً؟ فقلتُ : مَن بيتُهُ في أشرفِ الحللِ
قالت : فمَن ذا لواء الحمدِ يحملُه؟ فقلتُ : مَن لم يكن في الرّوعِ بالوجلِ
قالت : أكلُّ الذي قد قلتَ في رجلٍ؟ فقلتُ : كلُّ الذي قد قلتُ في رجلِ
قالت : فمَن هو هذا الفردُ؟ سِمهُ لنا فقلتُ : ذاك أميرُ المؤمنين علي

وله من قصيدة :

يا كفوَ بنتِ محمّدٍ لولاكَ ما زُفّتْ إلى بشرٍ مدى الأحقابِ
يا أصلَ عترةِ أحمدٍ لولاكَ لم يكُ أحمدُ المبعوثُ ذا أعقابِ
كان النبيُّ مدينةَ العلمِ التي حَوَتِ الكمالَ وكنتَ أفضلَ بابِ
رُدّتْ عليكَ الشّمسُ وهي فضيلةٌ بهرتْ فلم تُستَر بلفِّ نقابِ
لم أحكِ إلاّ ما روتْهُ نواصبٌ عادتكَ فهي مُباحةُ الأسلابِ
عوملتَ يا تِلْوَ النبيِّ وصنوَهُ بأوابدٍ جاءَتْ بكلِّ عُجابِ
قد لقّبوك أبا ترابٍ بعدما باعوا شريعتَهمْ بكفِّ ترابِ
لم تعلموا أنّ الوصيَّ هو الذي آتى الزّكاةَ وكان في المحرابِ
لم تعلموا أنّ الوصيَّ هو الذي حَكَمَ الغديرُ له على الأصحابِ

وله قوله :

وقالوا : عليٌّ علا قلت : لا فإنّ العُلى بعليٍّ عَلا
ولكن أقولُ كقولِ النبيِّ وقد جمعَ الخلقَ كلَّ الملا :
ألا إنّ من كنتُ مولىً له يُوالي عليّاً وإلاّ فلا

وله من قصيدة قوله :

وكم دعوةٍ للمصطفى فيه حُقّقَتْ وآمالُ من عادى الوصيَّ خوائبُ
فمن رَمَدٍ آذاه جَلاّه داعياً لساعته والرّيحُ في الحربِ عاصبُ
ومن سطوةٍ للحرِّ والبردِ دوفعت بدعوتِهِ عنه وفيها عجائبُ
وفي أيّ يومٍ لم يكن شمسُ يومِهِ إذا قيل : هذا يومُ تُقضى المآربُ

أفي خطبةِ الزّهراءِ لمّا استخصّهُ كِفاءً لها والكلُّ من قبلُ طالبُ
أفي الطّيرِ لمّا قد دعا فأجابَهُ وقد ردّه عنه غبيٌّ موارِبُ
أفي رفعِهِ يومَ التباهلِ قدرَهُ وذلك مجدٌ ما علمت مواظبُ
أفي يومِ خمٍّ إذ أشاد بذكرِهِ وقد سمع الإيصاءَ جاءٍ وذاهبُ
أيعسوبَ دينِ اللهِ صنوَ نبيِّه ومن حبُّهُ فرضٌ من اللهِ واجبُ
مكانُكَ من فوقِ الفراقدِ لائحٌ ومجدُكَ من أعلى السماكِ مَراقبُ
وسيفُكَ في جيدِ الأعادي قلائدٌ قلائدُ لم يعكفْ عليهنّ ثاقبُ

نماذج من شعره في المذهب

ذكر له الثعالبي في الكتاب:

ناصبٌ قال لي: معاويةٌ خا لُكَ خيرُ الأعمامِ والأخوال
فهو خالٌ للمؤمنين جميعاً قلت: خالٌ لكن من الخيرِ خالي

وذكر له فقيه الحرمين الكنجي الشافعي المتوفّى سنة ٦٥٨ في «كفاية الطّالب»[١]، والخوارزمي في «المناقب»[٢]:

يا أميرَ المؤمنين المرتضى إنّ قلبي عندكم قد وقفا
كلّما جدّدتُ مدحي فيكمُ قال ذو النّصب: نسيتَ السلَفا[٣]
من كمولاي عليٍّ زاهدٌ طلّق الدنيا ثلاثاً ووفى؟
من دُعي للطّيرِ أن يأكلَهُ؟ ولنا في بعض هذا مكتفى
من وصيُّ المصطفى عندكمُ؟ ووصيّ المصطفى من يُصطفى

وذكر الفقيه الكنجي في الكتاب[٤]، وسبط ابن الجوزي في «تذكرة

---

(١) كفاية الطّالب، باب ٤٦، ص ١٩٢.
(٢) المناقب، ص ١١٥، ح١٢٥.
(٣) تسبّ السلفا. الخوارزمي (المؤلّف).
(٤) كفاية الطّالب، باب ٩٤، ص ٣٢٤ و٣٢٥.

خواصّ الأمّة»[1]، والخوارزمي في «المناقب»[2]:

حبُّ النبيِّ وأهل البيت معتمدي[3] ... إن الخطوب أساءت رأيها فينا
أيا ابن عمِّ رسولِ اللهِ أفضلَ من ... ساسَ الأنامَ وسادَ الهاشميّينا
يا نُدرةَ الدِّينِ يا فردَ الزّمانِ أصخْ ... لمدحِ مولىً يرى تفضيلَكمْ دينا
هل مثلُ سيفِك في الإسلام لو عرفوا ... وهذه الخصلةُ الغرّاءُ تكفينا؟
هل مثلُ علمِك إذ زالوا وإذ وهنوا ... وقد هديتَ كما أصبحتَ تهدينا؟
هل مثلُ جمعِك للقرآنِ تعرفُهُ ... لفظاً ومعنىً وتأويلاً وتبيينا؟
هل مثلُ حالِك عند الطّيرِ تحضرُهُ ... بدعوةٍ نلتَها دون المصلّينا؟
هل مثلُ بَذْلِكَ للعاني الأسيرِ وللـ ... ـطفلِ الصّغير وقد أعطيتَ مسكينا؟
هل مثلُ صبرِك إذ خانوا وإذ ختروا ... حتى جرى ما جرى في يوم صفّينا؟
هل مثلُ فتواك إذ قالوا مجاهرةً: ... لولا عليٌّ هلكنا في فتاوينا؟
يا ربُّ سهِّل زياراتي مشاهدَهمْ ... فإنّ روحيَ تهوى ذلك الطّينا
يا ربُّ صيِّر حياتي في محبّتهمْ ... ومحشري معهم آمين آمينا

وذكر ابن شهرآشوب[4] من هذه القصيدة بعد البيت الثاني من أوّلها:

أنتَ الإمامُ ومنظورُ الأنامِ فمن ... يردُّ ما قلتُه يُقْمَعْ براهينا
هل مثلُ فعلِكَ في ليلِ الفراشِ وقد ... فديتَ بالرّوحِ ختّامَ النبيّينا؟
هل مثلُ فاطمةَ الزّهراءِ سيّدةٌ ... زُوِّجتها يا جمالَ الفاطميّينا؟
هل مثلُ برِّك في حالِ الرّكوعِ وما ... برٌّ كبرِّكَ برّاً للمزكّينا؟
هل مثلُ فعلِكَ عند النعلِ تخصفُها ... لو لم يكن جاحدو التفضيل لاهينا؟

(١) تذكرة الخواص، ص ١٤٨.
(٢) المناقب، ص ١٠٣.
(٣) هذه الأبيات المحكيّة عن الكتب الثلاثة لا يوجد في أعيان الشيعة سوى ثلاثة منها (المؤلّف).
(٤) مناقب آل أبي طالب، ٢/ ٧٣، ٢٠٧، و٣/ ١٣، ١٩، ٥٧.

هل مثلُ نجليكَ في مجدٍ وفي كرمٍ ... إذ كُوّنا من سلالِ المجدِ تكوينا؟

وله في «مناقب الخطيب الخوارزمي»[1]، و «كفاية الطّالب» للكنجي الشافعي[2]، و «تذكرة خواصّ الأمّة»[3]، و «مناقب ابن شهرآشوب»[4] وغيرها قصيدةٌ، ولوقوع الاختلاف فيها نجمع بين رواياتها ونشير إلى ما روته رجال العامّة بـ (ع):

بلغتْ نفسي مُناها ... بالموالي آلِ طه
برسولِ الله من حا ... زَ المعالي وحواها
وببنتِ المصطفى من ... أشبهتْ فضلاً أباها
(ع) من كمولاي عليٍّ ... والوغى تحمي لظاها؟
(ع) من يصيدُ الصّيدَ فيها ... بالظبا حتى[5] انتضاها
يوم أمضاها عليهمْ ... ثمّ أمضاها عليهم فارتضاها[6]
(ع) من له في كلِّ يومٍ ... وقعاتٌ لا تُضاهى
(ع) كم وكم حربٍ ضروسٍ ... سدَّ بالمرهفِ فاها
(ع) أذكروا أفعال بدرٍ ... لستُ أبغي ما سواها
(ع) أذكروا غزوةَ أُحدٍ ... إنّه شمسُ ضُحاها
(ع) أذكروا حربَ حنينٍ ... إنّه بدرُ دُجاها
(ع) أذكروا الأحزابَ قِدماً ... إنّه ليثُ شراها
(ع) أذكروا مهجةَ عمرٍو ... كيف أفناها شجاها

(١) المناقب، ص ١٧٤.
(٢) كفاية الطّالب، ص ٣٨٨.
(٣) تذكرة الخواص، ص ٥٢ و٥٣.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ٢/١٤٧، و٣/١٤١.
(٥) في جميع المصادر والدّيوان: حين.
(٦) ورد هذا البيت في الدّيوان، ص ١١٥، هكذا:

انتضاها ثمّ أمضا ... ها عليهم فارتضاها

(ع) أذكـــروا أمـــر بـــراءه ... واخبـــرونـــي مـــن تـــلاهـــا
(ع) أذكـــروا مـــن زُوِّج الـــزهـــراءَ قـــد طـــاب ثـــراهـــا[1]
(ع) أذكـــروا بكـــرةَ طيـــرٍ ... فلقـــد طـــارَ ثنـــاهـــا
(ع) أذكـــروا لـــي قُلَـــلَ العلـــمِ ومـــن حـــلَّ ذُراهـــا
(ع) حـــالـــهُ حـــالـــةُ هـــارو ... نَ لمـــوســـى فـــافهمـــاهـــا
(ع) أعلـــى حـــبُّ علـــيٍّ ... لامنـــي القـــومُ سفـــاهـــا؟
(ع) أهملـــوا قـــربـــاه جهـــلاً ... وتخطَّـــوا مُقتضـــاهـــا
(ع) أوّلُ النّـــاس صـــلاةً ... جعـــل التّقـــوى حُـــلاهـــا
(ع) رُدّتِ الشمـــسُ عليـــه ... بعـــدمـــا غـــابَ سنـــاهـــا
(ع) حجّـــةُ اللهِ علـــى الخلـــقِ شقـــى مـــن قـــد قـــلاهـــا
ويحبّـــي[2] الحســـنَ البـــا ... لـــغَ فـــي العَليـــا مـــداهـــا
والحسيـــنَ المـــرتضـــى يـــو ... مَ المســـاعـــي إذ حـــواهـــا
ليـــس فيهـــم غيـــرُ نجـــمٍ ... قـــد تعـــالـــى وتنـــاهـــى
عتـــرةٌ أصبحـــتِ الـــدنـــيـــا جميعـــاً فـــي حمـــاهـــا
مـــا تحـــدّت عُصَـــب البغـــي بـــأنـــواع عمـــاهـــا
أَردَتِ الأكبـــرَ بـــالســـمِّ ومـــا كـــانَ كفـــاهـــا
وانبـــرتْ تبغـــي حسينـــاً ... وعـــرّتـــه وعـــراهـــا
منعتْـــهُ شـــربـــةً والطّـــيـــرُ قـــد أروتْ صـــداهـــا
فـــأفـــاتـــتْ نفســـه يـــا ... ليـــت روحـــي قـــد فـــداهـــا
بنتُـــهُ تـــدعـــو أبـــاهـــا ... أُختـــه تبكـــي أخـــاهـــا
لـــو رأى أحمـــدُ مـــا كـــا ... ن دهـــاه ودهـــاهـــا

---

(١) في لفظ أهل السنّة:

أذكـــروا مـــن زُوِّجَ الـــزهـــراءَ كيمـــا تتبـــاهـــى

(٢) في الدّيوان: وبحبِّ.

لشكــــا الحــــالَ إلــــى اللهِ وقـــــد كــــان شــكـــــاهـــــــا[1]

وله في مناقبي ابن شهرآشوب[2] والخطيب الخوارزمي[3] قصيدة نجمع بينهما لاختلافهما في عدد الأبيات، ألا وهي:

مـــا لعلـــيٍّ العُلـــى أشبـــاهُ ... لا والـــذي لا إلـــه إلاّ هـــو

مبنـــاه مبنـــى النبـــيِّ تعـــرفُـــهُ ... وابنـــاه عنـــد التفـــاخـــر ابنـــاهُ

إنّ عليّـــاً عـــلا إلـــى شـــرفٍ ... لـــو رامَـــهُ الـــوهـــمُ ذلَّ[4] مـــرقـــاهُ

أيـــا غـــداةَ الكســـاءِ لا تهنـــي ... عـــن شـــرح عليـــاه إذ تكسّـــاهُ[5]

يـــا ضحـــوةَ الطّيـــرِ تنبّئـــي[6] شـــرفـــاً ... فـــاز بـــه لا يُنـــال أقصـــاهُ

بـــراءةُ استعملـــي بـــلاغَـــكِ مَـــن ... أقعـــد عنـــه ومـــن تـــولاّهُ

يـــا مـــرحـــبَ الكفـــرِ قـــد أذاقَـــكَ مَـــن ... مـــن حـــدِّ مـــا قـــد كـــرهـــتَ ملقـــاهُ

يـــا عمـــرو مـــن ذا الـــذي أنـــالَـــك مـــن ... حـــارة[7] الحتـــف حيـــن تلقـــاهُ؟

لـــو طلـــبَ النّجـــمَ ذاتُ أخمُصـــهِ ... عـــلاه والفـــرقـــدانِ نعـــلاهُ

أمـــا عـــرفتـــمْ سمـــوّ منـــزلـــه ... أمـــا عـــرفتـــم علـــوَّ مثـــواهُ؟

أمـــا رأيتـــمْ محمّـــداً حـــدِبـــاً ... عليـــه قـــد حـــاطـــه وربّـــاهُ؟

واختصّـــه يـــافعـــاً وآثـــرَهُ ... واعتـــامـــه مخلصـــاً وآخـــاهُ[8]

زوّجـــه بَضْعَـــةَ النّبـــوّة إذ ... رآه خيـــر امـــرئٍ وأتقـــاهُ

يـــا بـــأبـــي السيّـــدَ الحسيـــنَ وقـــد ... جـــاهـــد فـــي الـــدِّيـــنِ يـــومَ بلـــواهُ

(١) غير واحد من الأبيات لا يوجد في أعيان الشّيعة: ٣/ ٣٥٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٥٨.

(٣) المناقب، ص ٢٣٤.

(٤) في الدّيوان، ص ٦١: زلّ.

(٥) هذا البيت وما بعده إلى أربعة أبيات لا توجد في مناقب ابن شهرآشوب، بل رواها الخوارزمي (المؤلّف).

(٦) في الدّيوان، ص ٦٣: بيّني.

(٧) في المناقب والدّيوان، ص ٦٣: صارمِهِ.

(٨) اعتام: اختار.

يــا بــأبــي أهلَــه وقــد قُتِلــوا ... مــن حــولِـهِ والعيــونُ تــرعــاهُ
يــا قبّــح اللهُ أمّــةً خــذلــتْ ... سيّــدَهــا لا تــريــدُ مــرضــاهُ
يــا لعــنَ اللهُ جيفــةً نجســاً ... يقــرعُ مــن بغضِــهِ ثنــايــاهُ

ولـه داليّـة ذكـرهـا الخـوارزمي في «المناقب»[1]، وابن شهرآشوب في «مناقبه»[2]، ونجمع بين الرّوايتين، وهي:

هـو البـدرُ فـي هيجـاءِ بـدرٍ وغيـرِهُ ... فـرائصُـهُ مـن ذكـرِه السّيـفَ تـرعـدُ
علـيٌّ لـه فـي الطّيـرِ مـا طـارَ ذكـرُهُ ... وقـامـت بـه أعـداؤه وهـي تشهـدُ
علـيٌّ لـه فـي «هـل أتـى» مـا تلـوتـمُ ... علـى الـرّغـمِ مـن آنـافِكـمْ فتفـرّدوا
وكـم خبـرٍ فـي خيبـرٍ قـد رويتـمُ ... ولكنّكـم مثـلُ النّعـام تشـرّدوا
وفـي أُحُـدٍ ولّـى رجـالٌ وسيفُـهُ ... يسـوِّد وجـهَ الكفـرِ وهـو مسـوّدُ
ويـومَ حنيـنٍ حـنَّ للغـلِّ بعضُكـمْ ... وصـارمُـهُ عضـبُ الغـرارِ مهنّـدُ
تـولّـى أمـورَ النّـاسِ لـم يستغلّهـمْ ... الا ربّمـا يـرتـابُ مـن يتقلّـدُ
ولـم يـكُ محتـاجـاً إلـى علـمِ غيـرِهِ ... إذا احتـاجَ قـومٌ فـي قضـايـا تبلّـدوا
ولا سـدَّ عـن خيـرِ المسـاجـدِ بـابـهُ ... وأبـوابُهـمْ إذ ذاك عنـه تُسـدَّدُ
وزوجتُـه الـزّهـراءُ خيـرُ كـريمـةٍ ... لخيـرِ كـريـمٍ فضلُهـا ليـس يُجحـدُ[3]
وبـالحسنيـنِ المجـدُ مـدَّ رواقَـه ... ولـولاهمـا لـم يبـقَ للمجـدِ مشهـدُ
تفـرّعـتِ الأنـوارُ لـلأرضِ منهمـا ... فللّـه أنـوارٌ بـدت تتجـدّدُ
هم الحُجَجُ الغُرُّ التي قد توضّحتْ ... وهـم سُـرُجُ اللهِ التـي ليـس تخمـدُ
أُواليكـمُ يـا آلَ بيـتِ محمّـدٍ ... فكلُّكـمُ للعلـمِ والـدّيـن فـرقـدُ
وأتـركُ مـن نـاواكـمُ وهـو هتكُـهُ ... يُنـادى عليـه مـولـدٌ ليـس يُحمَـدُ

---

(١) المناقب، ص ٢٣٣، ح٣٥٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب، ٢/ ١٧٠، ٢٠٧، ٣٢٠ و٣/ ١٤٠، ٤٢٨ و٤/ ٩٠.

(٣) هذا البيت رواه الخوارزمي [في المناقب، ص ٢٣٤]، ولا يوجد في ما جمع له السيّد في أعيان الشّيعة (المؤلّف).

وذكر له الحمّوئي صاحب «فرائد السّمطين»[1]، في السّمط الثاني في لباب الأوّل:

منائحُ اللهِ عندي جاوزتْ أملي ... فليس يدركُها شكري ولا عملي
لكنّ أفضلَها عندي وأكملَها ... محبّتي لأمير المؤمنين علي

وذكر العلاّمة المجلسي في «البحار»[2] نقلاً عن بعض الكتب القديمة[3] من قصيدةٍ طويلةٍ له:

أجرَوا دماءَ أخي النبيِّ محمّدٍ ... فلتَجْرِ غزرُ دموعِنا ولتهملِ
ولتصدرِ اللّعناتُ غيرَ مزالةٍ ... لعداهُ من ماضٍ ومن مُستقبلِ
وتجرّدوا لبنيهِ ثمّ بناتِهِ ... بعظائمٍ فاسمعْ حديثَ المقتلِ
منعوا الحسينَ الماءَ وهو مجاهدٌ ... في كربلاءَ فَنُحْ كنوحِ المُعولِ
منعوهُ أعذبَ منهلٍ وهمُ غداً ... يَردون في النّيرانِ أوخمَ منهلِ
أَيُحَزُّ رأسُ ابنِ النبيِّ وفي الورى ... حيٌّ أمامَ ركابِهِ لم يُقتَلِ
وبنو السّفاحِ تحكّموا في أهلِ حيِّ على الفلاحِ بفرصةٍ وتعجّلِ
نكتَ الدعيُّ ابن البغيِّ ضواحكاً ... هي للنبيّ الخيرِ خيرُ مُقبَّلِ[4]
تُمضي بنو هندٍ سيوفَ الهندِ في ... أوداجِ أولادِ النبيِّ وتعتلي
ناحتْ ملائكةُ السّماءِ لقتلهمْ ... وبكوا فقد أُسقوا[5] كؤوس الذُبّلِ
فأرى البكاءَ على[6] الزّمانِ محلّلاً ... والضّحكَ بعد الطفِّ غيرَ محلَّلِ
كم قلتُ للأحزانِ: دومي هكذا ... وتنزّلي في القلبِ لا ترحّلي

(١) فرائد السّمطين، ٢/ ١٢، ح٣٥٨.
(٢) بحار الأنوار، ٤٥/ ٢٨٤.
(٣) هو كتاب مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي، والقصيدة فيه: ١/ ١٤١.
(٤) لم يذكر سيّدنا الأمين في أعيان الشّيعة: ٣/ ٣٦٠ من القصيدة إلاّ هذا البيت.
(٥) في البحار والدّيوان، ص ٨٧: سُقُوا.
(٦) في الدّيوان: مدى.

هـذه نبـذة مـن شعـره فـي الأئمّة ﷺ، وفي «مناقب ابن شهرآشوب» منـه نبـذ منثـورة علـى أبـواب الكتـاب جمعها السيّد محسن الأمين في «أعيان الشّيعة».

طرائف من سيرته

وتـروي كـتب الأدب طـرائـف مـن سيـرتـه تدلّ على كريم خلقه وحميد خصـالـه ولطـف تـدبيـره، وقـد شـاعـت هذه الطّرائف بين النّاس، وعُدَّت من النّوادر. ونذكر في ما يأتي بعضها:

□ كتب إليه بعض العلويّين يخبره بأنّه قد رُزق مولوداً ويسأله أن يسمّيه ويكنّيه، فوقّع في رقعته:

«أسعـدك الله بـالفارس الجديد، والطّالع السّعيد، فقد ـ والله ـ ملأ العين قرّة، والنّفس مسرّة مستقرّة، والاسم عليٌّ ليعلي الله ذكره، والكنية أبو الحسن ليحسن الله أمره، فإنّي أرجـو لـه فضـل جَـدّه[1]، وسعادة جَدّه[2]، وقد بعثتُ لتعويذه ديناراً من مئة مثقال، قصدتُ به مقصد الفال، رجاء أن يعيش مئة عام، ويخلص خلاص الذّهب الإبريز من نُوَب الأيّام، والسّلام»[3].

□ كتب بعض أصحاب الصّاحب إليـه رقعـةً في حاجة فوقّع فيها، ولمّا رُدّت إليه لم يَرَ فيها توقيعاً، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها، فعرضها علـى أبـي العبّـاس الضبّـي، فمـا زال يتصفّحهـا حتـى عثر بالتوقيع وهو ألِفٌ واحـدة، وكـان فـي الـرّقعـة: فـإن رأى مـولانـا أن ينعـم بكذا، فَعَلَ. فأثبت الصّاحب أمام فَعَلَ ألفاً يعني: أفعلُ[4].

---

(١) أي جدّه أمير المؤمنين عليّ ﷺ.
(٢) الجَدّ: الحظ.
(٣) يتيمة الدّهر، ٣/ ٢٣١.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٣.

□ كتب الصّاحب إلى أبي هاشم العلويّ، وقد أهدى إليه في طبق فضّة عطراً:

العبدُ زاركَ نازلاً بـرواقكـا ... يستنبطُ الإشـراقَ مـن إشـراقِكـا
فـاقبـل مـن الطّيـبِ الـذي أهـديتـهُ ... مـا يسـرق العطّـارُ مـن أخـلاقِكـا
والظّرف يـوجب أخـذه مع ظَـرْفـه ... فـأضِـف بـه طبقـاً إلـى أطبـاقكـا

□ مرض الصّاحب في الأهواز بإسهال، فكان إذا قام عن الطست ترك إلى جانبه عشرة دنانير، حتى لا يتبرّم به الخدم، فكانوا يودّون دوام علّته، ولمّا عوفي تصدّق بنحو من خمسين ألف دينار[1].

في «اليتيمة»[2]: عن أبي نصر ابن المرزبان أنّه قال: كان الصّاحب إذا شرب ماءً بثلج أنشد على أثره:

قعقعـةُ الثّلـجِ بمـاءٍ عـذْبِ ... تستخرجُ الحمدَ منَ أقصى القلبِ

ثمّ يقول: اللّهمّ جدِّد اللّعنَ على يزيد.

□ وَمِمَّنْ كَانَ بِبَابِهِ: قَاضِي الْقُضَاةِ عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ أَحْمَدَ الأَسَدَآبَاذِيُّ، وَكَانَ قَدْ فَوَّضَ إِلَيْهِ قَضَاءَ هَمَذَانَ وَالجِبَالِ، وَاسْتَقْبَلَ الْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ الصَّاحِبَ يَوْماً، فَلَمْ يَتَرَجَّلْ لَهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا الصَّاحِبُ، أُرِيدُ أَن أَتَرَجَّلَ لِلْخِدْمَةِ، وَلَكِنَّ العِلْمَ يَأْبَى ذَلِكَ[3].

□ دَخَلَ النَّاسُ فِي مَذْهَبِ ابْنِ عَبَّادٍ، وَقَالُوا بِقَوْلِهِ، رَغْبَةً فِي مَا لَدَيْهِ، وَاجْتَهَدَ بِالحُسَيْنِ الْمُتَكَلِّمِ الْكِلَابِيِّ، أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى مَذْهَبِهِ، فَقَالَ الحُسَيْنُ: دَعْنِي أَيُّهَا الصَّاحِبُ أَكُنْ مُتَحَدًّا لَكَ، فَمَا بَقِيَ غَيْرِي، فَإِنْ دَخَلْتُ في الْمَذْهَبِ، لَمْ يَبْقَ بَيْنَ يَدَيْكَ، مَنْ يَنْبُو عَلَيْكَ قَبِيحُهُ، وَيَبْدُو لِلنَّاسِ

(١) البداية والنهاية، ١١/ ٣٦٠، حوادث سنة ٣٨٥.
(٢) يتيمة الدّهر، ٣/ ٢٣٣.
(٣) معجم الأدباء، ٦/ ٢٥٧.

عَـوَارُهُ، فَضَحِـكَ وَقَـالَ: قَـدْ أَعْفَيْنَـاكَ يَـا أَبَا عَبْدِاللهِ. «وَبَعْدُ» فَمَا نَبْخَلُ عَلَيْكَ بِنَارِ جَهَنَّمَ(١).

أين من كان يفزع الدَّهر منه؟

وأيّاً علا شأن الإنسان فإنّه عائدٌ إلى بارئه، علينا أن نعي هذا ونتّخذ منه عبرةً، وقد تأمَّل الشّعراء حياة الصَّاحب ورأوا داره بعد وفاته، فقالوا شعراً نذكر نموذجاً منه:

مرَّ أبو العبَّاس الضبيّ بباب الصَّاحب بعد وفاته، فقال داعياً إلى أخذ العبرة:

أيُّهـا البـابُ لِـمْ عـلاكَ اكتئـابٌ؟ أيـن ذاك الحِجـابُ والحُجّـابُ؟
أيـن مـن كـان يفـزعُ الـدَّهـرُ منـه؟ فهـو اليـومَ فـي التّـراب تـرابُ

* * *

(١) المصدر نفسه، ٦/ ٢٢٥.

(٢٧)
الجوهريّ الجرجانيّ

أبـو الحسـن عليّ بن أحمد الجرجاني، ويعرف بـ «الجوهري»، كما ذكر ذلك في غير قصيدةٍ من شعره، ومن ذلك قوله في ختام قصيدة يرثي بها الإمام السّبط الشّهيد عليه السلام:

... هي الحُلى لبني طه وعترتهم		هـي الـرَّدى لبنـي مـروان
هـي الجـواهـر جـاء الجـوهـريُّ بهـا		محبَّـة لكـم مـن أرض جـرجـان

كـان الجـوهـريّ الجرجانيّ واحداً من شعراء الصّاحب بن عبّاد وندمائه، نظـم الشّعـر فـي ريعـان شبابه، وكان يرمي إلى المغازي البعيدة بلفظٍ قريب. وكـان الصّـاحـب يُعجـب بـه أشدَّ الإعجاب، وقد اختاره للسّفارة بين العمّال والأمراء، فكان يمثّله أحسن تمثيل.

ويمكن أن نتبيَّـن صفـات الجوهريّ من رسالة أرسلها الصّاحب بن عبّاد إلى أبي العبّاس الضبّي في أصفهان، وفيها يبدي إعجابه بالجوهريّ، ويحثّ أبا العبّاس الضبّي على إكرامه. يقول الصّاحب في رسالته[1] هذه:

«فإن يقل مولاي: من ذا الذي هذا خطبه وهذه خطّته؟

أقل: مَنْ فضلُه برهانُ حقّ، وشعره لسان صدق. ومن أطْبَقَ أهل جلدته على أنّه معجزة بلـدتـه، فـلا يُعَدُّ لجرجان بعيداً ولا قريباً، أو لأختها طبرستان قـديمـاً ولا حـديثـاً، مثلـه، ومن أخذ برقاب النّظم أخذه، وملك رقّ القوافي

(١) يتيمة الدّهر، ٤/ ٣١.

ملكه، ذاك على اقتبال شبابه وريعان عمره، وقبل أن تحدثه الآداب، وقيل: جري المذكيات غلاب، أبو الحسن الجوهري أيّده الله، وبناؤه منذ حين وخصوصه بي كالصبح المبين، إلاّ أنَّ لمشاهدة الحاضر ومعاينة النّاظر، مزيّةً لا يستقصيها الخبر، وإن امتدَّ نفسه وطال عنانه ومرسه، وقد ألف إلى هذه الفضيلة التي فرع بنيها[1]، وأوفى على ذوي التجربة والتقدمة فيها، نفاذاً في أدب الخدمة، ومعرفةً بحقِّ الندام والعشرة، وقبولاً يملأ به مجلس الحفلة، إنصاتاً للمتبوع إلاّ إذا وجب القول، وإعظاماً للمخدوم إلاّ إذا خرج الأمر، وظرفاً يشحن مجلس الخلوة، وحديثاً يسكت به العنادل، ويطاول البلابل، فإن اتّفق أن يفسح له في الفارسيّة نظماً ونشراً طفح آذيّه، وسال آتيّه، فألسنة أهل مصره ـ إلاّ الأفراد ـ بروقٌ إذا وطئوا أعقاب العجم، وقيودٌ إذا تعاطَوا لغات العرب، حتى إنّ الأديب منهم المقدّم والعليم المسوّم يتلعثم إذا حاضر بمنطقه، كأنّه لم يدرِ من عدنان، ولم يسمع من قحطان، ومن فضول أخينا، أو فضله، أنّه يدّعي الكتابة، ويدارس البلاغة، ويمارس الإنشاء، ويهذي فيه ما شاء، وكنت أخرجته إلى ناصر الدّولة أبي الحسن محمّد بن إبراهيم، فوفّق التوفيق كلّه صيانةً لنفسه، وأمانةً في ودائع لسانه ويده، وإظهاراً لنسك لم أعهده في مسكه، حتى خرج وسلم على نقده، وإنّ نقده لشديدٌ لمثله، ومولاي يجريه بحضرته مجراه بحضرتي، فطعامه ومنامه وقعوده وقيامه إمّا بين يديّ، أو بأقرب المجالس لديّ، ولا يقولنّ: هذا أديب وشاعر، أو وافد وزائر، بل يحسبه قد تخفّف بين يديه أعواماً وأحقاباً، وقضى في التصرُّف لديه صِباً وشباباً، وهذا إنّما يحتاج إلى وسيط وشفيع ما لم ينشر بزّه، ولم يظهر طرزه، وإلاّ فسيكون بعدُ شفيع من سواه، ووسيط من عداه، فهناك ـ بحمد الله ـ درقه وحدقه[2]، ووجنة مطرفه، وما أكثر ما يفاخرنا بمناظر جرجان

---

(١) فرع بنيها: علاهم شرفاً وجاهاً.

(٢) الدّرق: الصّلب من كلّ شيء، ومنها الدّرقة وهي التّرس، وحدقه: أي نظره وإحاطته.

وصحاريها ورفارفها وحواشيها، فليملأ مولاي عينه من منتزهات أصبهان، فعسى طماحه أن يخفَّ وجماحه أن يقلَّ».

يستفاد من هذه الرِّسالة أنّ الجوهريّ كان، وهو في ريعان الشباب، أمراً فاضلاً وشاعراً مجيداً، متقناً لآداب خدمة «السُّلطان» ومنادمته، يجيد الإنصات والكلام، ويعرف موضع كلٍّ منهما، ظريفاً، كاتباً، يدارس البلاغة، كُلِّف بمهمَّاتٍ ونجح في أدائها، أميناً. . .، ما جعل أبناء قومه يجمعون على أن ليس في جرجان وطبرستان مثله، قديماً وحديثاً. . .

ويستفاد من الرِّسالة، أيضاً، أنّ الجوهريّ كان متعلِّقاً بموطنه جرجان: «وما أكثر ما يفاخرنا بمناظر جرجان. . .»، وأنَّ الصَّاحب أرسله إلى أبي العبَّاس الضبِّي في أصفهان وأوصاه بأن يعامله كما كان يعامله هو: «ومولاي يجريه بحضرته مجراه بحضرتي. . .» ليكون قريباً من موطنه، فيملأ عينه من منتزهات أصبهان «فعسى طماحه أن يخفّ، وجماحه أن يقلّ».

وفي شعر الجوهريّ ما يفيد أنّه كان يألف بلده «جَيّ» حيث أهله وولده، وهي مدينة بينها وبين أصفهان نحو ميلين غير أن طلب الرِّزق والمعاش يجعل أي بلد تنعم بها حاله بلده. يقول الجوهريّ:

قالوا: أَلِفتَ ربى جيٍّ فقلت لهم: الحبُّ أهلٌ وإدراك المنى ولدُ
أندى محاسن جيٍّ أنّه بلدٌ طَلْقُ النّهار، ولكن ليله نكدُ
إذا استُحبَّ بلاد للمعاش بها فحيثما نَعِمَتْ حالي به بلدُ

قدم الجوهريّ إلى أصفهان بعد سنة ٣٧٧هـ؛ إذ أرسله الصَّاحب في هذه السنة رسولاً إلى الأمير أبي الحسن ناصر الدولة في نيشابور، وبعد أن أدّى مهمَّته بنجاح، وعاد إلى الرَّيّ، حيث ابن عبَّاد، عاد هذا وأرسله إلى أبي العبَّاس الضبِّي في أصفهان، ومن هناك قصد موطنه في جرجان، وتوفِّي هناك قبل أن يتوفَّى الصَّاحب بن عبَّاد، أي قبل عام ٣٨٥هـ، فوفاته، كما يرجّح صاحب «الغدير»، تقع في حدود ٣٨٠هـ. .

شعره في يوم الغدير

أما أخذتُ عليكمْ إذْ نزلتُ بكمْ ... غديرَ خمٍّ عقوداً بعد أيمانِ
وقد جذبتُ بضبعَيْ خيرِ من وَطِئَ الـ ... ـبطحاءَ من مضرِ العليا وعدنانِ
وقلتُ والله يأبى أن أُقصِّرَ أو ... أعفي الرِّسالةَ عن شرحٍ وتبيانِ:
هذا عليٌّ لَمَولى من بُعِثتُ له ... مولى وطابقَ سرِّي فيه إعلاني
هذا ابنُ عمّي ووالي منبري وأخي ... ووارثي دون أصحابي وإخواني
محلُّ هذا إذا قايستُ من بدني ... محلُّ هارونَ من موسى بنِ عمرانِ[1]

وله في «المناقب» لابن شهر آشوب[2] قوله:

وغديرُ خمّ ليس يُنكِرُ فضلَهُ ... إلّا زنيمٌ فاجرٌ كفّارُ
من ذا عليه الشَّمسُ بعد مغيبِها ... رُدّت ببابل فاستبن يا حارُ
وعليه قد رُدّت ليومِ المصطفى ... يوماً وفي هذا جرتْ أخبارُ
حازَ الفضائلَ والمناقبَ كلَّها ... أنّى تُحيطُ بمدحِهِ الأشعارُ

شعره في رثاء الإمام السِّبط الشَّهيد

ومن قوله في رثاء الإمام السِّبط الشَّهيد عليه السلام:

وجدي بكوفان ما وجدي بكوفانِ ... تهمي عليه ضلوعي قبل أجفاني
أرضٌ إذا نفحتْ ريحُ العراق بها ... أتت بشاشتُها أقصى خراسانِ
ومن قتيلٍ بأعلى كربلاء على ... جهد الصدى فتراه غيرَ صديانِ
وذي صفائح يستقي البقيعُ به ... ريّ الجوانح من رَوْحٍ ورضوانِ
هذا قسيمُ رسولِ الله من آدم ... قُدّا معاً مثل ما قُدَّ الشّراكانِ
وذاك سبطا رسولِ اللهِ جدّهما ... وجهُ الهدى وهما في الوجه عينانِ

(١) مناقب ابن شهر آشوب، ٥٣٢/١، والصراط المستقيم، للبياضي العاملي، ٣١١/١.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣٥٥/٢.

واخجلتا من أبيهم يومَ يشهدُهمْ ... مضرّجين نشاوى من دم قانِ
يقول: يا أمّةً حفَّ الضّلالُ بها ... واستبدلتْ للعمى كفراً بإيمانِ
ماذا جنيتُ عليكم إذ أتيتكمُ ... بخيرِ ما جاء من آيٍ وفرقانِ؟
ألم أُجرْكمْ وأنتمْ في ضلالتِكمْ ... على شفا حفرةٍ من حرِّ نيرانِ؟
ألم أؤلِّف قلوباً منكمُ فرقاً ... مثارةً بين أحقادٍ وأضغانِ؟
أما تركتُ كتابَ اللهِ بينكمُ ... وآيةُ العزِّ في جمعٍ وقرآنِ؟
ألم أكن فيكمُ غوثاً لمضطهَدٍ؟ ... ألم أكن فيكمُ ماءً لظمآنِ؟
قتلتمُ ولدي صبراً على ظمأٍ ... هذا وترجون عند الحوض إحساني
سَبيتمُ ثكِلتكمْ أمّهاتكمُ ... بني البتول وهم لحمي وجثماني
مزّقتمُ ونكثتمْ عهدَ والدِهم ... وقد قطعتمْ بذاك النكثِ أقراني
يا ربُّ خُذ ليَ منهم إذ همُ ظلموا ... كرامَ رهطي وراموا هدمَ بنياني
ماذا تجيبون والزّهراءُ خصمكمُ ... والحاكمُ اللهُ للمظلوم والجاني؟
أهلَ الكساءِ صلاةُ الله ما نزلتْ ... عليكم الدّهرَ من مثنىً ووُحدانِ
أنتم نجومُ بني حوّاءَ ما طلعتْ ... شمسُ النّهارِ وما لاح السّماكانِ
ما زلتُ منكم على شوقٍ يهيّجُني ... والدّهرُ يأمرني فيه وينهاني
حتّى أتيتُكَ والتّوحيدُ راحلتي ... والعدلُ زادي وتقوى الله إمكاني
هذي حقائقُ لفظٍ كلّما برقتْ ... ردّتْ بلألائها أبصارَ عميانِ
هي الحلى لبني طه وعترتهمْ ... هي الرّدى لبني حربٍ ومروانِ
هي الجواهرُ جاء الجوهريُّ بها ... محبّةً لكمُ من أرض جُرجانِ[1]

وله قصيدة يرثي بها الإمام الشّهيد قتيل الطفّ عليه السلام في يوم عاشوراء، ذكرها له الخوارزمي في مقتله[2]، وابن شهرآشوب في

(١) أعيان الشيعة، ٨/ ١٥٥.
(٢) مقتل الحسين، ٢/ ١٣٦.

«مناقبه»(١)، والعلاّمة المجلسي في المجلّد العاشر من «البحار»(٢).

يا أهلَ عاشورَ يا لهفي على الدِّينِ ... خذوا حدادكمُ يا آلَ ياسينِ
اليوم شُقِّقَ جيبُ الدِّين وانتُهبتْ ... بناتُ أحمدَ نهبَ الرُّوم والصِّينِ
اليومَ قامَ بأعلى الطفِّ نادبُهم ... يقولُ: من ليتيمٍ أو لمسكينِ؟
اليوم خُضِّبَ جيبُ المصطفى بدمٍ ... أمسى عبيرَ نحورِ الحورِ والعينِ
اليوم خرَّ نجوم الفخر من مضرٍ ... على مناخرِ تذليلٍ وتوهينِ
اليومَ أُطفِئَ نورُ الله متَّقداً ... وجرَّرتْ لهمُ التَّقوى على الطِّينِ
اليوم هُتِّكَ أسبابُ الهدى مزقاً ... ويُرقعتْ غرّةُ الإسلامِ بالهونِ
اليوم زُعزِعَ قدسٌ من جوانبِهِ ... وطاحَ بالخيلِ ساحاتُ الميادينِ
اليومَ نالَ بنو حربٍ طوائلَها ... ممّا صلَوهُ ببدرٍ ثمّ صفِّينِ
اليوم جُدِّلَ سبطُ المصطفى شرقاً ... من نفسه بنجيعٍ غيرِ مسنونِ
زادوا عليه بحبسِ الماء غلّتَهُ ... تبّاً لرأي فريقٍ منه مغبونِ
نالوا أزمّةَ دنياهم ببغيهمُ ... فليتهمْ سمحوا منها بماعونِ
حتّى يصيح بقنّسريَن(٣) راهبُها ... يا فرقة الغيِّ يا حزبَ الشَّياطينِ
أتهزؤون برأسٍ باتَ منتصباً ... على القناةِ بدينِ الله يوصيني؟
آمنتُ ويحكمُ باللهِ مهتدياً ... وبالنبيّ وحبُّ المرتضى ديني
فجدّلوه صريعاً فوق جبهتِهِ ... وقسّموهُ بأطرافِ السَّكاكينِ
وأوقروا صهواتِ الخيلِ من إحنٍ ... على أُساراهمُ فعلَ الفراعينِ
مصعّدين على أقتابِ أرحلِهمْ ... محمولةً بين مضروبٍ ومطعونِ
أطفالُ فاطمةَ الزَّهراءِ قد فُطموا ... من الثديّ بأنيابِ الثّعابينِ

(١) مناقب آل أبي طالب، ٤/١٣٦.
(٢) بحار الأنوار، ٤٥/٢٥٣، ٢٧٩.
(٣) قنّسرين ـ بكسر أوّله وفتح ثانيه وتشديده ـ: مدينة بينها وبين حلب مرحلة، معجم البلدان، ٤/٤٠٤.

يـا أمّـةً ولـي الشّيطـانُ رايتَهـا ... ومكّـنَ الغـيُّ منهـا كـلّ تمكيـنِ
مـا المـرتضى وبنـوه مـن معـاويـةٍ ... ولا الفـواطـمُ مـن هنـدٍ وميسـونِ
آلُ الرّسول عباديد[1] السّيوف فمن ... هـامٍ على وجهِـهِ خـوفـاً ومسجـونِ
يـا عيـنُ لا تـدّعـي شيئـاً لغـاديـةٍ ... تهمـي ولا تـدّعـي دمعـاً لمحـزونِ
قومي على جدثٍ بالطفّ فانتفضي ... بكـلّ لـؤلـؤٍ دمـعٍ فيـكِ مكنـونِ
يـا آل أحمـد إنّ الجـوهـريَّ لكـم ... سيـفٌ يقطّـع عنكـمَ كـلَّ مـوضـونِ

* * *

(١) العباديد: المتفرّقون.

(٢٨)
ابن الحجّاج البغدادي

التّعريف بالشّاعر

أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمّد بن جعفر بن محمّد بن الحجّاج، الكاتب، المحتسب، النّيلي البغدادي[١].

يُنسب إلـى «النّيل»، وهي بلدة تقع بين بغداد والكوفة، على نهر، آخذ من الفرات، حفره الحجّاج بن يوسف الثّقفي، وسمّاه باسم نيل مصر. كان ابن الحجّاج يسكن هـذه البلدة، ولعلّه ولد فيها فنُسب إليها، ثمّ سكن بغداد في محلّةٍ تُدعى «سوق يحيى»، وكان، بعد سكناه بغداد، يتردّد إلى بلدته، فلذلك توفّي فيها. و «سوق يحيى» محلّة في الجانب الشّرقي من بغداد، تُنسَب إلى يحيى بن خالد البرمكي، وفيها يقول ابن الحجّاج:

خليليَّ اقطعا رسني وحلّا ... إزاري وانزعا عنّي شكالي
إلى وطني القديم بسوق يحيى ... فقلبي عن هواه غير سالِ

ذكره ابن شهرآشوب، في «معالم العلماء»، في شعراء أهل البيت المجاهرين، فقال: «ابن الحجّاج... الكاتب المحتسب، البغداديّ، قرأ على ابن الرّومي، وكان من بلاد العجم».

ويظهر من شعره أنّه من نسل الحجّاج بن يوسف الثّقفي، وهذا ينافي

---

(١) راجع: الغدير، ٤/١٢٧ ـ ١٤٣، أعيان...، ٥/٤٢٧ ـ ٤٤٦.

كونه من بلاد العجم، إلاَّ أن يكون، كما يقول السيِّد محسن الأمين: ولد فيها، أو يكون ثقفيًا بالولاء.

ويرجِّح نسبته إلى الحجَّاج صلته ببلدة النِّيل التي لم تنقطع، وهذه البلدة كان قد أنشأها الحجَّاج، كما مرَّ بنا، ولعلَّها كانت ملكاً له ولبنيه من بعده. توفِّي ابن الحجَّاج يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة في بلدة النِّيل، وحمل إلى مشهد الإمام موسى الكاظم عليه السلام (الكاظميَّة)، ودفن فيه، وكان قد أوصى أن يُدْفَن هناك. ولا تذكر كتب تاريخ الأدب سنة ولادته. ويستفيد الباحث من القرائن أنَّه ولد في أواخر القرن الثَّالث الهجري وعُمِّر طويلاً، ومن هذه القرائن:

ما ذكره ابن شهرآشوب[1] من أنَّه قرأ على ابن الرُّومي (ت ٢٨٢هـ)، وما ذكره ابن خلِّكان من أنَّه تولَّى الحسبة قبل الإمام الإصطخري (ت ٣٢٨هـ)[2]، والإصطخري تولَّى الحسبة بأمر المقتدر بالله سنة ٣٢٠هـ[3]. شعره الموجود في ديوانه في هجاء أبي عبدالله هارون بن عليّ بن أبي منصور المنجِّم (ت ٢٨٨هـ). وقال في «ديوانه»: قاله، وهو حَدَث السِّنّ. قصيدته الموجودة في «ديوانه» في أبي الفضل عبّاس بن الحسين وزير المكتفي بالله (قتل ٢٩٦هـ).

وفي شعره كثيراً ما يذكر الشَّيخوخة والهرم، وفي بعضه يصرِّح بعمره، مثل قوله:

وقائلة: تعيش مظلوماً بسيف[4]
فقلت لها: أباكي ذاك حزني على مئة فُجِعْتُ بها ونيف

(١) معالم العلماء، ص١٤٩.
(٢) وفيَات الأعيان، ٢/١٦٨، رقم ١٩٢.
(٣) شذرات الذّهب، ٤/١٤٧، حوادث سنة ٣٢٨.
(٤) الغدير، ٤/١٤٢، نقلاً عن ديوانه، ويعلِّق المؤلِّف أنَّه وجد البيت هكذا، وفيه سقط.

شخصيّة غنيّة متعدّدة الجوانب

وفي شعره ينسب نفسه إلى القساوة التي عرف بها الحجّاج، فإليه يُنمى أبوه، وينسب قلبه إلى بني عذرة المشهورين بالحبّ العفيف الصّادق، ما يعني أنّه كان ذا شخصيّة مركّبة متعدّدة الجوانب.

يقول ابن الحجّاج في وصف نفسه:

أنــا ابــن حجّــاج إليــه أبــي ... يُنمــى، وقلبــي مــن بنــي عــذره
لم يخلُ جسمي في الهوى من ضنى ... قــطّ، ولا عينــي مــن عبــره
حبــائــب مثــل حصــى عكبــرا ... والــرُّقبــا مثــل نــوى البصــره

يوصف ابن الحجّاج بـ «المحتسب»؛ وذلك لأنّه تولّى «الحسبة»، مرّةً بعد أخرى، في عاصمة العالم آنذاك، بغداد[1]. والحسبة من المناصب الرّفيعة العلميّة التي كان يُخصّ تولّيها في العصور القديمة بأئمّة الدّين وزعماء الإسلام وكبراء الأمّة. وهي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بين الناس كافّة، وممّن وليها ببغداد قبل ابن الحجّاج الفيلسوف الكبير أحمد بن الطيّب السرخسي (قتل ٢٨٣هـ)، وممّن وليها بعد عزله عنها فقيه الشافعيّة أبو سعيد الحسن بن أحمد الاصطخري (ت ٣٢٨هـ).

من شروط والي الحسبة، كما يقول الماوردي، أن يكون حرّاً، عدلاً، ذا رأيٍ وصرامة، وخشونةٍ في الدّين، وعلم بالمنكرات في الدّين[2].

وإن تكن هذه الشّروط متوافرة في ابن الحجّاج، فإنّ كتب الأدب تذكر أنّ «جُلّ شعره مُجُون وسُخف»[3]. وقد اعتنى الشّريف الرضيّ بشعره، فجمع

(١) كما في تاريخ ابن خلّكان، ٢/١٦٨، رقم ١٩٢، وتاريخ ابن كثير، ١١/٣٧٨، حوادث سنة ٣٩١هـ.

(٢) الأحكام السلطانية، ٢/٢٤١، باب ٢٠.

(٣) معجم الأدباء، ٩/٢٠٧.

من ديوانه ما خلا من «السُّخف والمجون»، وسمَّاه: «الحسن من شعر الحسين». ورثاه بعد موته بقصيدة ارتجلها، ووصفه فيها بأنّه «رضيع صفاءٍ له شعبةٌ من القلب...»، وبأنّه «خفَّة روح الزَّمان»؛ ولذا ينبغي أن يبكي عليه الزّمان... هذا فضلاً عن إشادته بشعره، وبخاصَّة «تسرُّعه للنضال» بلسانٍ كأنّه السَّيف المشبع بريق الأفعوان:

نَعَوْهُ على ضنٍّ قلبي به فللَّه ماذا نعى النَّاعيان
رضيعُ صفاءٍ له شعبةٌ من القلبِ مِثلُ رضيعِ اللِّبان
... وما كنتُ أحْسَبُ أنَّ المنونَ تفلُّ مضارب ذاك اللِّسان
لسانٌ هو الأزرق القعضبيُّ تَمَضْمَضَ في ريقه الأفعواني
... فأين تسرُّعه للنّضال وهبَّاته للطِّوال اللِّدان
... يهاب الشّجاع غذاميره على البعد منه مهاب الجَبانِ
وتعنو الملوكُ له خِيفةً إذا راع قبل اللَّظى بالدُّخان
... ليبكِ الزَّمانُ طويلاً عليك فقد كنت خِفَّة روح الزَّمان[1]

كان ابن الحجَّاج شاعراً كبيراً يناضل عن معتقده، ويهابه أقرانه، ويخشى الملوك غضبه، فيلبُّون طلبه بمجرَّد أن يروِّعهم بدخانه لئلاَّ يصليهم بناره.

صاحب طريقةٍ في الشِّعر

ويرى غير مؤرِّخ أنَّ ابن الحجَّاج، كان في ما يسمَّى «مُجُوناً» «صاحب طريقة اخترعها»، وبهذا كان يقرن بامرئ القيس، وقد عقد الثعالبي الفصل السَّابع من كتابه «يتيمة الدَّهر» له، فقال: «الفصل السَّابع نذكر فيه محاسن أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحجَّاج وغرائبه: هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف ولا يبني جلّ قوله إلاَّ على سخف، فإنّه من سَحَرة الشِّعر وعجائب العصر، وقد اتّفق من رأيته وسمعت به من أهل البصيرة في

(١) نفسه، ٩/٢٢٩ ـ ٢٣٢. القعضبي: نسبة إلى رجل كان يصنع الأسنَّة، غذاميره: صياحه وغضبه.

الأدب وحسن المعرفة بالشّعر على أنّه فرد زمانه في فنّه الذي شُهر به، وأنّه لم يسبق إلى طريقته ولم يلحق شأوه في نمطه ولم يُرَ كاقتداره على ما يريده من المعاني، مع سلامة الألفاظ وعذوبتها وانتظامها في سلك الملاحة والبلاغة، وإن كانت مفصحة عن السّخافة، مشوبة بلغات الخلديين والمكدين وأهل الشّطارة. ولولا «أنّ جدّ الأدب جدّ وهزله هزل»، كما قال إبراهيم بن المهدي، لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام أهل المجون، ولكنّه على علاّته تتفكه الفضلاء والكبراء والأدباء بثمار شعره، وتستملحه، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه، ومنهم من يغلو في الميل إلى ما يُضْحك ويُمْتع من نوادره. ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرّؤساء فلم تخل قصيدة فيهم من هزل وفحش، وهو عندهم مقبول الجملة، غالي مهر الكلام، موفور الحظّ من الإكرام والإنعام، مجاب إلى مقترحه من الصّلات الجسام والأعمال التي ينقلب منها إلى خير حال، وكان طول عمره يتحكّم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكّم الصبيّ على أهله، ويعيش في أكنافهم عيشة راضية[1].

وترجم له ياقوت الحموي، فقال: «... الكاتب الشّاعر... شاعرٌ مفلق قالوا إنّه في درجة امْرِئ القَيْسِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مِثْلُهُمَا، وَإِنْ كَانَ جُلُّ شِعْرِهِ مُجُونٌ وَسُخْفٌ، وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الأَدَبِ عَلَى أَنَّهُ مُخْتَرِعُ طَرِيقَتِهِ فِي الخَلاَعَةِ وَالمُجُونِ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ، وَلَمْ يَلْحَقْ شَأْوَهُ فِيهَا لاَحِقٌ، قَدِيرٌ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنَ الْمَعَانِي الْغَايَةِ فِي الْمُجُونِ مَعَ عُذُوبَةِ الأَلْفَاظِ وَسَلاَسَتِهَا، وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ فِي الْجِدِّ أَشْيَاءُ حَسَنَةٌ لَكِنَّهَا قَلِيلَةٌ، وَيَدْخُلُ شِعْرُهُ فِي عَشْرِ مُجَلَّدَاتٍ أَكْثَرُهُ هَزْلٌ مَشُوبٌ بِأَلْفَاظِ الْمُكْدِينَ وَالخُلْدِيِّينَ وَالشُّطَّارِ، وَلَكِنَّهُ يَسْمَعُهُ أَهْلُ الأَدَبِ عَلَى عِلاَّتِهِ، وَيَتَفَكَّهُونَ بِثَمَرَاتِهِ، وَيَسْتَمْلِحُونَ بَنَاتِ صَدْرِهِ الْمُتَهَتِّكَاتِ، وَلاَ يَسْتَثْقِلُونَ حَرَكَاتِهِنَّ لِخِفَّتِهَا وَإِنْ بَلَغَتْ فِي الْخِفَّةِ غَايَةَ الْغَايَاتِ.

---

(١) أعيان... ، ٥/٤٢٨. المكدي: السّائل الملحّ. الخلديون: يقصد البغداديّين. الشطار: جماعة كانت تحصّل ما تريد بأساليب تجمع الظّرافة إلى الذّكاء والخداع... ، عن يتيمة الدّهر، ٣/٣٥.

وَلَقَدْ مَدَحَ الْمُلُوكَ وَالأُمَرَاءَ وَالوُزَرَاءَ وَالرُّؤَسَاءَ، فَلَمْ يَخْلُ شِعْرُهُ فِيهِمْ مَعَ هَيْبَةِ الْمَقَامِ مِنْ هَزْلٍ وَخَلاَعَةٍ. فَلَمْ يَعُدُّوهُ مَعَ ذَلِكَ مِنَ الشَّنَاعَةِ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَقْبُولاً مَسْمُوعاً غَالِيَ الْمَهْرِ وَالسِّعْرِ، وَكَانَ يَتَحَكَّمُ عَلَى الأَكَابِرِ وَالرُّؤَسَاءِ بِخَلاَعَتِهِ، وَلاَ يُحْجَبُ عَنِ الأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ مَعَ سَخَافَتِهِ، يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالْبَشَاشَةِ وَالإِكْرَامِ، وَيُقَابِلُونَ إِسَاءَتَهُ بِالإِحْسَانِ وَالإِنْعَامِ»(١).

وجاء في «نسمة السّحر»: «إنّه يعدّ المعلّم الثاني، والمعلّم الأوّل: إمّا المهلهل بن وائل أو امرؤ القيس، اخترع منهجاً لم يُسبق إليه، ومن أتباعه أبو الرقعمق وصريع الدّلاء»(٢). ويصف ابن الحجّاج شعره، فيقول:

رجلٌ يدّعي النبوّة في السُّخـ ... ـف، ومن ذا يشكُّ في الأنباءِ؟!
جاء بالمعجزات يدعو إليها ... فأجيبوا، يا معشر السُّخفاء!
حدَثُ السِّنِّ لم يزل يتلقّى ... علمه بالمشايخ الكبراء

كان ابن الحجّاج يدرك ما يفعله، وقد اختار طريقته وقصد إلى أن يأتي فيها بما يسمّيه «المعجزات»، ويدعو معشر السُّخفاء إلى الإجابة على سخريته بهم، وفي هذا تحدٍّ لهؤلاء، الذين يشعر أنّه ضائع بينهم، فيقول:

غير أنّي أصبحت أضيع في القو ... م من البدر في ليالي الشّتاء(٣)

وهو، عندما يريد الجدّ، ينشئ شعراً يرى فيه المتلقي «كواكب الليل» كيف تسري، فهو يقول:

لو جدّ شعري رأيت فيه ... كواكب اللّيل كيف تسري

وهو، من ناحية ثانية، ينصرف إلى الهزل ليمشي به في المعاش أمره:

وإنّما هزله مُجونٌ ... يمشي به في المعاش أمري(٤)

---

(١) معجم الأدباء، ٩/٢٠٧ و٢٠٨.
(٢) نسمة السّحر، مج٧/ ج١/ ص ٢٠٥.
(٣) معجم الأدباء، ٩/٢٠٨ و٢٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ٩/٢٠٩.

وكتب إليه أحد الرُّؤساء يعاتبه على سخف شعره، قائلاً:

يـــا أبــــا عبــــد الإلـــــه   بـــك أصبحــــت أبــــاهــــي
غيــــر أنَّ السُّخــــف فــــي شعـ   ـرك قـــد جــاز التنــاهــي...

فأجابه:

سيِّــدي سخفــي الــذي قــد   صــار يــأتــي بــالــدَّواهــي
أنــــت تــــدري أنَّــــه يــــد   فــع عــن مــالــي وجــاهــي[1]

ويصف شعره بأنَّه ظريف ممتع، فيقول:

فــــإنَّ شعــــري ظــــريــــفٌ   مــــن بــــابــــة الظُّــــرفــــاء
ألـــذُّ معنـــىً وأشهـــى   مـــن استمـــاع الغنـــاء[2]

ويفخر بشاعريَّته، ويزعم أنَّه تفوَّق في القصائد على جرير، وفي الأراجيز على العجاج، وكلٌّ من هذين كبير في ميدانه:

حَلَقتُ، في الطِّوال ذقن جرير   والأراجيــز لحيــة العجَّــاج

محنة الأديب المتميِّز

وعلى الرُّغم من أنَّ كتب تاريخ الأدب تذكر أنَّه كان يتحكَّم برؤساء عصره ويعيش في كنفهم عيشة راضية، فإنَّ شعره يفيد أنَّه كان سيِّئ الحال، وقد أكثر من الشكوى في خطابه لأولي الأمر في زمنه، ويفيد شعره هذا أنَّه كان يعرف قَدْره وتميّزه وشهرة ذلك، لكنّه كان يعيش في محنةٍ تضيق بها حيلته، وليس من أحدٍ ينهي أمره إلى أولي الكرم، وقد تماسك طويلاً، غير أنَّه لم يعد قادراً على الصَّبر، وليس به قدرة على الارتحال.

ولعلَّ هذه «المحنة» هي التي دفعته إلى اعتماد طريقته في الهزل والسّخرية.

---

(١) أعيان...، ٥/٤٣١.

(٢) معجم الأدباء، ٩/٢١٠.

يقول ابن الحجّاج في وصف سوء حالته؛ في رسالةٍ إلى ابن العميد:

... حديثي، منذ عهدك بي، طويلٌ فهل لك في الأحاديث الطِّوال؟
فإنّي بين قومٍ ليس فيهم فتىً ينهي إلى الملك اختلالي
فلحمي ليس تطبخه قُدُوري وحوتي ليس تقليه المقالي
ومائي قد خلت منه جبابي وخبزي قد خلت منه سلالي
وكيسي الفارغُ المطروح خلفي بعيد العهد بالقطع الحلال
أفكّر في مُقامي، وهو صعبٌ وأصعبُ منه عن وطني ارتحالي(١)

ويقول في الموضوع نفسه:

... بديهتي، في الخصام، حاضرةٌ أشهر في الخافقين من علم
والخطُّ خطّي كما تراه، ولا الزُّ زُهرة بين القرطاس والقلم
هذا وخبزي حافٍ بلا مرقٍ فكيف لو ذقتُ لذّة الدّسم؟
ما لي وللّحم إنّ شهوته قد تركتني لحماً على وضم
وما لحلقي، والخبز يجرحه بالمِلْحِ يشكو مرارة اللقم(٢)

ويقول كاشفاً ما فعله به الدّهر:

... وكنت تماسكت في ما مضى فقد خانني الدّهر في مسكتي
إلى منزلٍ لا يواري إذا تربّعت فيه سوى سوأتي
مقيماً أروح إلى حجرةٍ كقبري وما حضرت مِنْيتي
... وكنت مليحاً أروق العيو ن قبلاً، فقد قُبّحت خلقتي
وقوّسني الهمُّ حتى انطويتُ فصرتُ كأنّي أبو جدّتي...(٣)

---

(١) نفسه، ٩/ ٢١٢ و٢١٣. جباب: جمع جب: البئر.
(٢) نفسه، ٩/ ٢١٣ و٢١٤. الخافقان: المشرق والمغرب، علم: هنا جبل، وضم: خشبة الجزّار يقطع عليها اللّحم.
(٣) نفسه، ٩/ ٢١٤ ـ ٢١٨. المُسْكة، ما يُتَبلّغ به من الأكل والشّراب.

ويبلغ بـه الأمـر إلـى أن يتمنّى أن يكون «خركوشاً سلوقيّاً»؛ إذ يروى أنّه رأى كلاب عزّ الدَّولة بختيار تُطْعَم لحوم الجداء، فقال:

رأيـتُ كـلابَ مـولانـا وقـوفـاً ... ورابضـةً علـى ظهـر الطَّـريـق
فمـن وردٍ لـه ذنـبٌ طـويـلٌ ... يعقفـه ومهلـوب خلـوقـي
تغـذّى بـالجـدا فـوددتُ أنّـي، ... وحـقِّ الله، خـركـوش سلـوقـي
فيـا مـولاي رافقنـي بكلـبٍ ... لآكـل كـلّ يـومٍ مـع رفيقـي[1]

الطَّريقة / الظَّاهرة

يفيـد هـذا الشِّعـر، أيّـاً تكـن مبالغة صاحبه، أنَّ ابن الحجَّاج كان يعاني الفقر، على الرَّغم من تميُّزه بالجـدل ـ الخصام، أو بالهجاء، وبالشِّعر بعامّة، وبـالخـطّ = الكتـابـة، وهو يسوِّغ ابتداع طريقته في الهزل واتّباعها بهذا الواقع الـذي يـعيش فيه مع «معشر السُّخفاء»، وهو لم يكن فرداً في ذلك، في زمنه، فقد كـانت هذه الطَّريقة تمثّل ظاهرةً في الشِّعر كان ابن الحجَّاج علم أعلامها، وشاركه فيها كثيرون مثل ابن سكّرة الهاشمي، وكان يقال في بغداد آنذاك: «إنَّ زماناً جاد بابن سكّرة وابن الحجّاج لسخيٌّ جدّاً»[2].

ديوان شعره

كان ابن الحجَّاج غزير الإنتاج الشعـري، ويبدو أنّه كان يقول الشِّعر عفو الخاطر، وقد ترك ديواناً اشتهر اشتهاراً مفرطـاً، ورغب الناس في اقتنائه. قال الثّعالبي: بلغني أنّه كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين إلـى سبعين ديناراً. وقال أيضـاً: وديـوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال[3]. وقال ابن خلّكان: ديوانه كبير وأكثر ما يوجد في عشرة مجلّدات.

(١) يتيمة الدّهر، ٣/ ٦٧.
(٢) أعيان. . ، ٥/ ٤٣٠.
(٣) يتيمة الدّهر، ٣/ ٣٦.

انتخب البديع الاسطرلابي، الشّاعر هبة الله بن الحسن (ت ٥٣٤هـ)، مختارات من شعره، رتّبها في ١٤١ باباً، وجعل كلّ باب في فنٍّ من فنون الشّعر، وسمّى مختاراته: «درّة التّاج في شعر ابن الحجّاج»، وهذه المختارات، كما يقول العلاّمة الأميني «محفوظة في باريس (رقم ٥٩١٣) وبها مقدّمة لابن خشّاب النحوي»[(١)]. وانتخب جمال الدّين محمّد بن محمّد بن نباتة (ت ٧٦٢هـ) مختارات من شعره، وسمّى مختاراته «تلطيف المزاج من شعر ابن الحجّاج».

وللشّريف الرّضي، كما مرّ بنا، انتخاب ما استجوده من شعره سمّاه: «الحَسَنُ من شعر الحسين» ورتّبه على الحروف، وكان ذلك في حياة الشّاعر، وقال الشّاعر يشكر له هذا الصّنيع:

أتعرفُ شعري إلى من ضوى ... فأضحى على ملكه يحتوي
إلى البدر حسناً إلى سيّدي ... الشّريف أبي الحسن الموسوي
... فتىً كنت مسخاً بشعري السّخيف ... وقد ردّني فيه خلقاً سوي
تأمّلته، وهو طوراً يصحّ ... وطوراً بصحّته يلتوي
فميّز معوجّه والرّديّ ... فيه من الجيّد المستوي
وصحّح أوزانه بالعروضِ ... وكرّرَ فيه حرف الرّوي
وأرشده لطريق السّداد ... فأصلح شيطان شعري الغوي
... فلا زال يحيا، وقلبُ الحسود ... بالغيظ من سيّدي مكتوي
له كبدٌ فوق جمر الغضا ... على النّار مطروحة تشتوي...

اتّجاهان شعريّان

يمكن تصنيف شعر ابن الحجّاج في اتّجاهين مختلفين تمام الاختلاف؛ أوّلهما تقليدي يتّبع فيه الشّاعر المألوف من الشّعر العربي، ولا يتميّز فيه الشّاعر إلاّ بتوليد المعاني وصياغتها، والثّاني جديد، مثّل طريقة نسبت إلى ابن

(١) الغدير، ٤/ ١٣٣.

الحجّاج، وجعلت النقّاد يضعونه في مصاف امرئ القيس من حيث اختراع طريقة في الشّعر، والمعروف أنّ المؤرّخين ينسبون إلى امرئ القيس طريقة «تقصيد القصائد». أطلق أناس ذلك العصر على هذه الطّريقة اسم «السّخف»، وهي في الحقيقة طريقة تمثّل تجربة فرديّة ـ اجتماعيّة عاشتها طائفة من النّاس في القرن الرّابع الهجري، وتمثّلها الشّعراء ومثّلوها لغةً شعريةً مختلفة تسخر وتهزل، وكان ابن الحجّاج أبرز هؤلاء الشّعراء، فنسبت هذه الطّريقة إليه.

يمثّل شعر ابن الحجّاج رؤية لا يتحرّج صاحبها من ذكر أيّ شيء، وفي أيّ مقام، كأنّه يسعى إلى انتهاك قيم مجتمع يراها زائفة، وإلى كشف أغطية رقيقة أو سميكة، لتظهر الحقيقة، أو كأنّه يريد أن يقول للنّاس، وهو يسخر من مظاهرهم: هذه حقيقتكم... يقول:

وشعري سخفٌ لا بدٌّ منه　　　فقد طبنا وزال الاحتشام

وقد أقبل النّاس، عامّةً وخاصّةً، على شعر ابن الحجّاج، إقبالهم من قبل على شعر أبي نواس، على الرّغم ممّا كان فيه من «سخف»، كما يقولون؛ فالرّوايات تفيد «أنّ النّاس العاديّين وأهل الأدب كانوا يتفكّهون بثمراته، ويستملحون تهتّكه»، وتفيد أيضاً أنّ شعره في الملوك والأمراء والوزراء لم يخل من هزل، وعلى الرّغم من ذلك كان يُستقبل بالبشاشة والإكرام؛ وذلك لأنّه كان ينفذ إلى جوهر الظّواهر فيكشفه ويمثله لغةً شعريّة، عذبة الألفاظ البسيطة التّركيب، متماسكة البناء، مشوبة بألفاظ «المكدّين» و«الشطّار»؛ أي بكلام عامّة النّاس، فكأنّ شعره الهزلي كان لسان النّاس العاديّين النّاطق بما تراه عيونهم وتتبيّنه بصائرهم.

وهكذا يتبيّن أنّ شخصيّة الشّاعر، كما يقول الدكتور علي جواد الطّاهر: «عجيبة، ولعلّها أكثر من شخصيّة في رجل واحد، إنّها تصلح ـ فوق ما تصلح له ـ أن تكون مدار دراسة نفسيّة يستقصي صاحبها ما وراء السّطور، ويلمح الجدّ وراء الهزل، ويحسّ المرارة في الحلاوة».

كاتب عالم من كبار شعراء الشّيعة

ويبدو أنّ جانب الهزل، في شخصيّة ابن الحجّاج، المتمثّل في شعر متميّز مثّل ظاهرة في عصره، غطّى الجوانب الأخرى من جوانب هذه الشخصيّة الغنيّة، فابن الحجّاج، كما تفيد كتب تاريخ الأدب، كاتب، عالم، من كبار شعراء الشّيعة، ولم يكن الشّعر سوى فنّ من الفنون التي يجيدها، وفي هذا الصّدد يقول العلاّمة الأميني: «أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمّد بن جعفر بن محمّد بن الحجّاج النّيلي البغدادي، أحد العمد والأعيان من علماء الطّائفة، وعبقريّ من عباقرة حملة العلم والأدب، وقد عدّه صاحب «رياض العلماء»[1] من كبراء العلماء، كما عدّه ابن خلّكان[2] وأبو الفداء من كبار الشّيعة، والحموي في «معجم أدبائه»[3] من كبار شعراء الشّيعة، وآخر من فحول الكتّاب، فالشّعر كان أحد فنونه، كما أنّ الكتابة إحدى محاسنه الجمّة، وله في العلم فنّ راسية، وقدمٌ راسخة، غير أنّ انتشار أدبه الفائق، ومقاماته البديعة فيه، وتعريف الأدباء إيّاه بأدبه الباهر، وقريضه الخسروانيّ والثناء عليه بأنّه ثاني معلّميه، كما في «نسمة السّحر»[4]، أخفى صيت علمه الغزير، وغطّى ذكره العلميّ، ونحن نقوم بواجب الحقّين جميعاً.

ينمّ عن مقامه الرّفيع في العلوم الدينيّة وتضلّعه فيها وشهرته في عصره بها تولّيه الحسبة[5] مرّةً بعد أخرى في عاصمة العالم في ذلك اليوم ـ بغداد. . .».

ويبدو أنّ شعر ابن الحجّاج السّاخر مثّل مشكلةً لبعض المؤمنين الأتقياء، فهم من ناحية أولى لا يستسيغون هذا الشّعر غير المتحرّج من ذكر أيّ شيء،

---

(١) رياض العلماء، ٢/ ١١.

(٢) وفيّات الأعيان، ٢/ ١٧١، رقم ١٩٢.

(٣) معجم الأدباء، ٩/ ٢٢٩.

(٤) نسمة السّحر، مج٧/ ج١/ ص ٢٠٥.

(٥) كما في تاريخ ابن خلّكان، ٢/ ١٦٨، رقم ١٩٢، تاريخ ابن كثير، ١١/ ٣٧٨، حوادث سنة ٣٩١هـ.

فقاطعوا شعر ابن الحجّاج، لكنّهم، ومن ناحيةٍ ثانية، كانوا يجدون شعره في «العترة الطّاهرة» جيّداً وموضع إقبال النّاس، فأحبّوا أن يرووه، غير أنّ تحرّجهم كان يمنعهم، وقد وجدوا حلاً لهذه المشكلة يتمثّل في منامات ترويها كتب الأدب[1]، ونذكر هنا بعضها.

في «رياض العلماء»: قال السيّد بهاء الدّين علي بن عبد الحميد النجفي الحسيني في كتاب مقتله الموسوم بـ «الدرّ النّضيد في تعازي الإمام الشّهيد»: حكى الشّيخ الصّالح عزّ الدّين حسن بن عبدالله بن حسن التغلبي أنّ الشيخين الصّالحين عليّ بن محمّد الزّرزور السوراوي ومحمّد بن قارون السيبي كانا يستهزئان بشعر أبي عبدالله الحسين بن الحجّاج ويمنعان من إنشاد أشعاره ويزريان على من ينظر في ديوانه لما فيه من السُّخف والقبايح والهجاء الفاضح، وبقيا على ذلك برهة من الزّمان، فاتّفق أنّ الشيخ شمس الدّين محمّد ابن قارون زار الإمام الحسين عليه السلام فرأى في منامه كأنّه في الحضرة الشّريفة الحائرية، وفاطمة (صلوات الله عليها) والأئمّة عليّ والحسنان وزين العابدين والباقر والصّادق عليهم السلام هناك، وعليّ بن الزرزور جالس غير بعيد عنهم، ورأى نفسه قائماً بين أيديهم، ثمّ التفت فإذا أبو عبدالله بن الحجّاج مار في صحن الحضرة الشّريفة بهيأة حسنة، قال: فقلت لعليّ بن الزرزور: ألا تنظر إلى ابن الحجّاج؟ فقال: دعني فإنّي لا أحبّه. فقالت الزّهراء: من لا يحبّه فليس منّا، وكذلك خرج الكلام من بين الأئمّة عليهم السلام، ولم أدر من قاله منهم، ثمّ انتبهت فزعاً مرعوباً ممّا فرط منّي في حقّ ابن الحجّاج، ثمّ نسيت هذا المنام كأنّي لم أره، ثمّ توجّهت مرّة أخرى للزّيارة في الحائر فإذا بجماعة من الموالين في الطّريق سائرين وهم ينشدون أشعار ابن الحجّاج وبينهم عليّ بن الزرزور، فحين رأيته ذكرت المنام فقلت لصاحب معي: ألا أطرفك بشيء عجيب؟ فقال: هات. فحكيت له المنام ثمّ لحقنا القوم، فدنوت من ابن الزرزور

---

(١) راجع: الأعيان... ٥/٤٢٩، الغدير، ٤/١٣٨ و١٣٩.

وسلّمت عليه وقلت له: ألم أعهدك تنكر على من ينشد شعر ابن الحجّاج، فما بالك اليوم تصغي إلى إنشاده؟! فقال: ألا أحدّثك بما رأيت في حقّه؟ فقلت: بلى. فقصّ عليّ ذلك المنام الذي رأيته لم ينقص منه حرفاً واحداً، وصاحبي يسمع ويتعجّب. فقلت: أنا قد رأيت كما رأيت، ووفّقني الله حتى حكيت ذلك لصاحبي آنفاً قبل أن أسمع كلامك، فالحمد لله الذي صدّق رؤياي ورؤياك وعصمنا من الوقيعة في هذا المجال المحبّ للآل، قال: ثمّ إنّي اجتمعت بعد ذلك بالشيخ محمّد بن قارون في الحضرة الحائرية وحكى لي هذه الحكاية وأراني المواضع التي رأى فيها الأئمّة والزّهراء عليهم السلام.

قال صاحب «الرّياض»: وهذا موافق لما جرى له في أيّام حياته مع السيّد المرتضى؛ وهو أنّ السُّلطان مسعود بن بويه لمّا بنى سور المشهد الشّريف بالنّجف، دخل الحضرة الشّريفة فوقف ابن الحجّاج بين يديه، وأنشده قصيدته التي يقول فيها:

يا صاحب القبّة البيضاء على النّجف ... من زارك واستشفى لديك شُفي

فلمّا وصل إلى الهجاء الذي فيها والمجون مع ابن سكّرة الهاشمي الهاجي لآل محمّد عليهم السلام منعه الشّريف المرتضى من إكمالها، فرأى ابن الحجّاج في منامه تلك الليلة أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام وهو يقول له: لا ينكسر خاطرك، فقد بعثنا المرتضى يعتذر إليك فلا تخرج إليه. ورأى المرتضى تلك الليلة النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام فلم يقبلوا عليه، فعظم ذلك عنده، وقال لهم: أنا عبدكم وولدكم ومواليكم، فبم استحققت هذا؟ قالوا: بما كسرت خاطر شاعرنا ابن الحجّاج، فتمضي إليه وتعتذر، فمضى إليه وطرق الباب، فقال له ابن الحجّاج: يا سيّدي، الذي بعثك إليّ أمرني أن لا أخرج إليك، فدخل إليه واعتذر ومضى به إلى السّلطان، فقصّا عليه القصّة، فأمره بإنشاد القصيدة فأنشدها وأنعم عليه وحباه.

شعره في يوم الغدير وفي آل البيت عليهم السلام

يـا صـاحبَ القبّةِ البيضاءِ في النّجفِ ... من زارَ قبرَكَ واستشفى لديك شُفي
زوروا أبـا الحسـن الهـادي لعلّكـمُ ... تحظَوْنَ بـالأجرِ والإقبـالِ والزُّلَفِ
زوروا لمن تُسمَعُ النّجوى لديه فمن ... يـزرْهُ بـالقبـر ملهـوفـاً لـديـه كُفي
إذا وصلـتَ فـأحـرمْ قبـل تـدخلَـهُ ... ملبّيـاً واسْـعَ سعيـاً حـولـه وطُـفِ
حتّـى إذا طفـتَ سبعـاً حـول قبّتِـهِ ... تـأمّـل البـابَ تلقـى وجهـه فقـفِ
وقـل: سـلامٌ مـن اللهِ السّـلامِ علـى ... أهـلِ السّـلام وأهـلِ العلـمِ والشّـرفِ
إنّـي أتيتـك يـا مـولاي مـن بلـدي ... مُستمسكاً من حبال الحقّ بالطّرفِ
راجٍ بـأنّـك يـا مـولاي تشفـعُ لـي ... وتسقِنـي مـن رحيـقٍ شـافـي اللّهـفِ
لأنّـك العـروةُ الـوثقـى فمـن علِقَـتْ ... بهـا يـداه فلـن يشقـى ولـم يخـفِ
وإنّ أسمـاءَك الحسنـى إذا تُليـت ... على مريضٍ شُفي من سقمه الدّنفِ
لأنّ شـأنـك شـأنٌ غيـرُ مُنتقـصٍ ... وإنّ نـوركَ نـورٌ غيـر منكسـفِ
وإنّـك الآيـةُ الكبـرى التـي ظهـرتْ ... للعـارفيـن بـأنـواعٍ مـن الطّـرفِ
هـذي مـلائكـةُ الـرحمـنِ دائمـةً ... يهبطـنَ نحـوكَ بـالألطـافِ والتّحـفِ
كالسّطلِ والجامِ والمنديلِ جاء به ... جبـريـلُ لا أحـدٌ فيـه بمختلـفِ
كـان النبـيُّ إذا استكفـاك معضلـةً ... مـن الأمـور وقـد أعيـت لـديـه كُفي
وقصّـةُ الطّـائـر المشـويِّ عـن أنـسٍ ... تخبـر بمـا نصّـهُ المختـارُ مـن شـرفِ
والحَبُّ والقضبُ والزّيتونُ حين أتوا ... تكـرُّمـاً مـن إلـه العـرش ذي اللّطـفِ
والخيـلُ راكعـةٌ فـي النّقـعِ سـاجـدةٌ ... والمشرفيّاتُ قد ضجّت على الحَجَفِ(١)
بعثـتَ أغصـانَ بـانٍ فـي جمـوعِهـمُ ... فـأصبحـوا كـرمـادٍ غيـر منتسـفِ
لو شئتَ مسخَهمُ في دورِهمْ مُسِخوا ... أو شئتَ قلتَ لهم: يا أرض إنخسفي
والمـوتُ طـوعُـكَ والأرواحُ تملكُهـا ... وقـد حكمـتَ فلـم تظلِمْ ولـم تحـفِ

(١) الحَجَف محرّكة: التّروس من جلود بلا خشب ولا عقب. واحدتها: الحَجَفَة.

لا قـدَّس اللهُ قـومـاً قـال قـائلُهـمْ: بـخٍ بـخٍ لـك مـن فضـلٍ ومـن شـرفِ
وبـايعـوك بخـمٍّ ثـمّ أكّـدَهـا محمّـدٌ بمقـالٍ منـه غيـرِ خفـي
عـافـوك واطّـرحـوا قـولَ النبـيِّ ولـم يمنعهـمُ قـولُـه: هـذا أخـي خلَفـي
هـذا وليُّكُـمُ بعـدي فمـن علِقَـتْ به يداهُ فلن يخشى ولم يخفِ . . .[1]

(القصيدة تناهز الـ ٦٤ بيتاً)

ولـه من قصيدة أجاب بها عن قصيدة ابن سكّرة[2] المتحامل بها على آل الله وشـاعـرهـم ابـن الحجّـاج ـ المترجَم ـ أخذناها من ديوانه المخطوط سنة (٦٢٠هـ) بقلم عمر بن إسماعيل بن أحمد الموصلي، أوّلها:

لا أكـذِبُ اللهَ إنّ الصِّـدقَ يُنجينـي يـدُ الأميـر بحمـد الله تُحيينـي

إلى أن قال:

فمـا وجـدتَ شفـاءً تستفيـدُ بـه إلاّ ابتغـاءَكَ تهجـو آلَ يـاسيـنِ
كـافـاكَ ربُّـكَ إذ أجـرَتْـكَ قـدرتُـهُ بسـبِّ أهـلِ العُلـى الغـرِّ الميـاميـنِ
فقـرٌ وكفـرٌ هميـعٌ[3] أنـت بينهمـا حتّـى الممـاتِ بـلا دنيـاً ولا ديـنِ
فكـان قـولُـكَ فـي الـزّهـراءِ فـاطمـةٍ قـولَ امـرىءٍ لَهِـجٍ بـالنّصـبِ مفتـونِ
عيّـرتَهـا بـالـرّحـا والـزّادِ تطحنُـه لا زال زادُكَ حَبّـاً غيـرَ مطحـونِ
وقلـتَ: إنّ رسـول الله زوّجَهـا مسكينـةً بنـتَ مسكيـنٍ لمسكيـنِ
كذبتَ يا ابن التي بابُ استِها سَلِسُ الـ أغـلاقِ بـاللّيـلِ مفكـوكُ الزّرافيـنِ[4]
ستُّ النّساء غداً في الحشر يخدمُها أهـلُ الجنـانِ بحـورِ الخـرّدِ العيـنِ

---

(١) رياض العلماء، ٢/ ١٤.

(٢) محمّد بن عبدالله بن محمّد الهاشمي البغدادي، من ولد عليّ بن المهدي العبّاسي، له ديوان شعر يربو على خمسين ألف بيت، توفّي سنة ٣٨٥.

(٣) أي لا تزال باكياً.

(٤) سلست الخشبة: نخرت وبليت، والسّلس: الليّن السّهل. الغلق: ما يغلق به الباب، والجمع أغلاق. الزرفين، واحدة الزرافين: الحلق الصغيرة للباب.

فقلتَ: إنَّ أميرَ المؤمنين بغى ... على معاويةٍ في يومِ صفّين
وإنّ قتلَ الحسين السِّبطِ قامَ به ... في اللهِ عزمُ إمامٍ غيرِ موهونِ
فلا ابنُ مرجانةٍ فيه بمحتقبٍ(١) ... إثمَ المسيءِ ولا شمرٌ بملعونِ
وإنّ أجرَ ابنِ سعدٍ في استباحته ... آلَ النبوّةِ أجرٌ غيرُ ممنونِ
هذا وعُدتَ إلى عثمانَ تندبُهُ ... بكلّ شعرٍ ضعيفِ اللّفظِ ملحونِ
فصرتَ بالطّعنِ من هذا الطّريقِ إلى ... ما ليس يخفى على البله المجانينِ
وقلتَ: أفضلُ من يومِ الغديرِ إذا ... صحّتْ روايتُه يومُ الشّعانينِ
ويومُ عيدِك عاشورا تُعِدُّ له ... ما يستعدّ النّصارى للقرابينِ
تأتي بيوتكُم فيه العجوزُ وهل ... ذكرُ العجوزِ سوى وحيِ الشياطينِ؟
عاندتَ ربَّكَ مغترّاً بنقمتِهِ ... ويأمنُ ربَّك بأسٌ غيرُ مأمونِ
فقال: كن أنت قِرداً في أسته ذَنَبٌ ... وأمرُ ربِّكَ بين الكافِ والنّونِ
وقال: كن لي فتىً تعلو مراتبُه ... عند الملوك وفي دورِ السّلاطينِ
والله قد مسخ الأدوار قبلك في ... زمان موسى وفي أيّامِ هارونِ
بدون ذنبك فالحق عندهم بهمُ ... ودع لحاقك بي إن كنت تنويني

(القصيدة ٥٨ بيتاً)

وله من قصيدة قوله:

بالمصطفى وصهره ... ووصيّه يوم الغدير

نماذج من شعره

□ صنَعْتَ، في دارك، فوّارةً ... أغْرَقْتَ، في الأرض، بها الأنجُما
فاض، على نجم السُّهى ماؤها ... فأصبحت أرضُك تسقي السَّما
□ هذا حديثي تنمي عجائبُه ... بكثرة القال فيه والقِيلِ
أعجزني دفنُه، فشاع، كما ... أعجزَ قابيلَ دفنُ هابيلِ

---

(١) احتقب الإثم: جمعه.

□ يـا رائحـاً، فـي داره، غـاديـاً ... بغيـر معنـى وبـلا فـائـدهْ
قـد جُـنَّ أضيـافـك مـن جـوعهـمْ ... فـاقـرأ عليهـم سـورة المـائـده

□ قد قلتُ، لما غدا مدحي، فما شكروا ... وراح ذمّـي فمـا بـالـوا ولا شعـروا:
علـيَّ نحـتُ القـوافـي مـن معـادنهـا ... ومـا علـيّ إذ لـم تفهـم البقـرُ

□ طـاقـةُ آسٍ جنيـتُ منهـا ... بلحظتـي نـرجسـاً ووردا
أرضـاه مـولاي، وليـس يـرضـى ... مـولاي بـي فـي هـواه عبـدا

□ وردت عليه رقعة من خصم له، فكتب في ظهرها:

إن جعلـتُ إجـابتـي فـي ظهـرهـا ... عمـداً ليمكـن فضُّهـا فـي المجلـس
كـانـت كنيفـاً فـائضـاً فـزرعـت فـي ... ظهـر الكنيـف حـديقـة نـرجـس

□ وقال لقائل بالجبر:

يـا قـائـلاً بـالجبـر مهـلاً ... أنكـرت تـوحيـداً وعـدلا
وزعمـت مـا للعبـد فـي الـ ... حـركـات والسَّكنـات فعـلا
أأبـوك شـال بـرجـل أمِّـك؟ ... قـل: نعـم أو لا، فقـل: لا

□ هجـرتُـكِ لا أنَّ البعـاد أفـادنـي ... سلـوّاً ولا أنّـي بعهـدك غـادرُ
ولكـن هـو الـدَّهـر الـذي كـلُّ كـائـن ... لمـدَّتـه فيـه، وإن طـال، آخـرُ

□ قـالـت: لقـد أشمَتَّ بي حُسَّدي ... إذ بُحْـتَ بـالسِّـرِّ لهـم مُعْلِنـا!
قلت: أنا؟ قالت: نعم، أنت هو. ... قلـتُ: أنـا؟ قـالـت: وإلاّ أنـا!؟
قلـت: نعـم، أنـتِ التـي صَيَّـرتْ ... أجفـانُهـا قلبـي حليـفَ الضَّنـا
قـالـت: فَلُـمْ طَـرْفَـك فهـو الـذي ... جَنَـى علـى قلبـكَ مـا قَـدْ جَنـى
قلـت: فقـد كـان الـذي كـان مـن ... طَـرْفـي، فكـونـي مثـلَ مـن أحسنـا
قالت: فما الإحسان؟ قلت: اللُّقى. ... قـالـت: لقـانـا غيـر مـا أمْكَنـا
قلـت: فمنِّينـي بتقبيلـةٍ. ... قـالـت: أمنِّيـك بطـولِ العَنـا
قلـت: فمـا بحـتُ بسـرِّ الهـوى. ... قـالـت: ولـو بُحْـتَ فمـا ضـرَّنـا
قلـت: فـإنّـي ميِّـتٌ هـالـكٌ. ... قـالـت: فَمُـتْ فهـو لقلبـي مُنَـى

قلــت : حـــرامٌ قتــلُ نفــسٍ بـــلا ذنــبٍ . فقــالــت : ذاك حــلٌ لنــا
مــن يعشــقُ العينيــن مكحــولـةً بـــالسِّحـــر لا يـــأمـــنُ أن يُفْتَنــا

نموذج من مديحه

قَالَ فِي الأَمِيرِ عِزِّ الدَّوْلَةِ بَخْتَيَارَ:

فَــدَيْــتُ وَجْــهَ الأَمِيــرِ مِــنْ قَمَــرٍ يَجْلُــو الْقَــذَى نُــورُهُ عَــنِ الْبَصَــرِ
فَــدَيْــتُ مَـــنْ وَجْهُـــهُ يُشَكِّكُنِـــي فِـــي أَنَّـــهُ مِـــنْ سُـــلاَلَـــةِ الْبَشَـــرِ
إِنَّ زُلَيْخَـــا لَـــوْ أَبْصَـــرَتْـــكَ لَمَـــا مَلَّـــتْ إِلَـــى الْحَشْـــرِ لَـــذَّةَ النَّظَـــرِ
وَلَـــمْ تَقِـــسْ يُـــوسُفـــاً إِلَيْـــكَ كَمَـــا نَجْـــمُ السُّهَـــى لاَ يُقَـــاسُ بِـــالْقَمَـــرِ
وَكَـــانَ يَـــا سَيِّـــدِي قَمِيصُـــكَ إِنْ هَـــرَبْـــتَ مِنْهَـــا يُقَـــدُّ مِـــنْ دُبُـــرِ
بَـــلْ وَحَيَـــاتِـــي لَـــوْ كُنْـــتَ يُـــوسُفَهَـــا لَـــمْ تَـــكُ مِـــنْ تُهْمَـــةِ الْعَـــزِيـــزِ بَـــرِى
لأَنَّنِـــي عَـــالِـــمٌ بِـــأَنَّـــكَ لَـــوْ شَمَمْـــتَ رَيَّـــا نَسِيمِهَـــا الْعَطِـــرِ
سَبَقْتَهَـــا وَانْـــزَلَقْـــتَ تَتْبَعُهَـــا مَـــا بَيْـــنَ تِلْـــكَ الْبُيُـــوتِ وَالْحُجَـــرِ
وَقَـــدْ عَلِمْنَـــا بِـــأَنَّ سَيِّـــدَنَـــا الْـ أَمِيـــرَ مِمَّـــنْ يَقُـــولُ بِـــالْبَظَـــرِ
وَلَـــمْ تَكُـــنْ تِلْـــكَ تَشْتَكِـــي أَبَـــداً مَـــا كَـــانَ مِـــنْ يُـــوسُـــفٍ مِـــنَ الْحَـــذَرِ
طَبْعُـــكَ كَـــالْمَـــاءِ فِـــي سُهُـــولَتِـــهِ لَكِـــنْ أَبُـــو الـــزِّبْـــرِقَـــانِ مِـــنْ حَجَـــرِ
إنَّ الملـــوك الشَّبـــاب مـــا خُلقـــوا إلاَّ صـــلاب الفيـــش والكَمَـــر

* * *

(٢٩)
أبو العبّاس الضّبّي

التّعريف بالشّاعر

أبـو العبَّاس، أحمد بن ابراهيم الضَّبّي[١]، نسبةً إلى ضبّة، يلقّب بالكافي الأوحـد، كـان مـن أصحـاب «الصّـاحب بـن عبّاد» وندمائه. وفي بيان صلته بالصّاحب ومكانته ينقل ياقوت الحموي عن الثّعالبي قوله:

«هُـو جَـذْوَةٌ مِـنْ نَـارِ ٱلصَّـاحِبِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ، وَنَهْرٌ مِنْ بَحْرِهِ، وَخَلِيفَتُهُ ٱلنَّائِبُ مَنَابَـهُ فِي حَيَاتِهِ، ٱلْقَائِمُ مَقَامَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَكَانَ الصَّاحِبُ ٱسْتَصْحَبَهُ مُنْذُ ٱلصِّبَـا، وَاجْتَمَـعَ فِيـهِ الـرَّأْيُ وَٱلْهَوَى، فَاصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَدَّبَهُ بِآدَابِهِ، وَقَدَّمَهُ بِفَضْلِ الإِخْتِصَاصِ عَلَى سَائِرِ صَنَائِعِهِ وَنُدَمَائِهِ، وَخَرَّجَ مِنْهُ صَدْراً يَمْلأُ الصُّدُورَ كَمَالاً، وَيَجْرِي فِـي طَـرِيقِـهِ تَرَسُّماً وَتَرَسُّلاً، وَفِي ذُرَا ٱلْمَعَالِي تَوَقُّلاً، وَيُحَقِّقُ قَوْلَ أَبِي مُحَمَّدٍ فِيهِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

ضَبَّـةُ بِـالْمَـاجِـدِ ابْـنِ مَـاجِـدِهَـا ... تُـزْهَـى بِـأَتْـرَابِهَـا كَمَـا زُهِيَـتْ
هِـلاَلُهَـا بَـدْرُهَـا عُطَـارِدُهَـا ... سَمَـائِهَـا شَمْسُهَـا غَمَـامَتُهَـا
كَـافِـي كُفَـاةِ ٱلْـوَرَى وَوَاحِـدُهَـا ... يَـرْوِي كِتَـابَ ٱلْفَخَـارِ أَجْمَـعَ عَـنْ

وَقَـدْ كَـانَتْ بَـلاَغَـةُ العَصْرِ بَعْـدَ الصَّاحِبِ وَالصَّابِئ بقيت متماسكة بأبي العبَّاس...»[٢].

---

(١) الغدير، ٤/ ١٤٥ ـ ١٥٧، ومعجم الأدباء: ٢/١٠٦ ـ ١٠٨.

(٢) معجم الأدباء، ٢/١٠٦ ـ ١٠٨، الجذوة: هي الجمرة التي لا تنطفئ حتى تصير رماداً. اصطنعه لنفسه: اختاره لخاصّة أمره. الترسّل والترسّم: السّير في تمهّل، ويقابلهما الخبب والوخد والعَنَق=

وكان أبو العبّاس يجلّ الصّاحب ويقدّر فضله، وقد كتب إليه يقول:

أكـافي كفاةِ الأرض مُلْكُـكَ خـالدٌ ... وعِـزُّك مـوصـولٌ فَأَعْظم بها نُعْمى
نَثَـرْتَ علـى القِـرطـاس دُرّاً مبـدَّداً ... وآخـر نَظْمـاً قـد فَـرَغْـت بـه النَّجْمـا
جـواهـرُ لـو كـانـت جـواهـرَ نُظِّمـت ... ولكنّهـا الأعـراضُ لا تقبـلُ النَّظمـا

وتـفيد رسالة أرسلها الصّاحب إليه يوصيه بـالجوهري الجرجاني أنّه كان يتولّـى أمـر أصفهان في أيّام الصّاحب، وقد مرّ الكلام على هذه الرّسالة عندما تحدّثنا عن الشّاعر الجوهريّ الجرجانيّ.

وزارته

ولـمّـا توفّي الصّاحب رأى فخر الدّولة أنّ من الصّلاح لأمره الإشراك بين أبـي العبّـاس وأبـي عليّ الحسن بن أحمد بن حمولة، الملقّب بالجليل، وهو كاتب وقـائد من رجـال الصّاحب، في وزارته، وجمع بينهما في النّظر، وخلع عليهما خلعتين متساويتين.

وجرت الحال على هذا الأمر إلى أن توفّي فخر الدّولة، وولي الأمر بعده ابنـه مجـد الدّولة، أبو طالب رستم، واستولت والدته على الأمر، وأُجْرِيَ أمر الوزيرين على حاله من التّشارك في تدبير المملكة.

ولـمّـا نجـم أمـر قـابوس بن وشمكير، صاحب خراسان، واستولى على جـرجـان، دعـت الضّـرورة إلـى تجهيـز جيش إليه، . . . ووقعت القرعة على الجليل أبي عليّ، فخرج، ودارت بينه وبين قابوس معارك استنفدت ما معه من مال، ولمّا لم يأته المدَد رجع إلى الرّيّ مهزوماً.

ثمّ أقام الوزيـران مـدّة علـى أمـرهـما من الاشتراك، ولم يلبث السّعاة أن سعوا بينهما، وقالـوا: فساد الأمر إنّما هو من اشتراكهما. . . وانتهى الأمر إلى

= للإسراع في السّير. التوقّل: الصّعود في الجبل. الصّابئ: أبو إسحق، كاتب مشهود له بالسّبق.

القبض على أبي عليّ، بأمر أم مجد الدّولة، وسُجن في قلعة «استوناوند»، ثمّ قتل فيها.

فراره ووفاته

تفرّد أبو العبّاس بأمر الوزارة مدّة، ثمّ اتّهمته امّ مجد الدّولة بأنّه سمّ ابن أخيها[1] وطلبت منه مئتي ألف دينار نفقةً في مأتمه فلم يفعل، والتجأ إلى «بُرُوجَرْد» سنة ٣٩٢هـ؛ وهي من أعمال بدر بن حسنويه الكردي، أحد أمراء الجبل، ثمّ بدا له أن يرجع إلى الوزارة، فبذل مئتي ألف دينار ليُعاد إلى وزارته، فلم يُجب إلى ذلك.

وبقي في «بُرُوجرد» إلى أن مات سنة ٣٩٨هـ، وقيل إنّ أبا بكر بن رافع، أحد قوّاد فخر الدّولة، واطأ أحد غلمانه فسقاه سمّاً فمات. فأرسل ابنه أبو القاسم سعد تابوته إلى بغداد مع أحد حجّابه، وكتب إلى أبي بكر الخوارزمي، يعرّفه أنّه أوصى بدفنه في مشهد الإمام الحسين عليه السلام، ويسأله القيام بأمره، وابتياع تربة له بخمسمئة دينار، فقيل للشّريف الطّاهر أبي أحمد، والد السيّدين المرتضى والرضي، أن يبيعه موضع قبره بخمسمئة دينار، فقال: هذا رجل التجأ إلى جوار جدّي فلا آخذ لتربته ثمناً. ثمّ خرج بنفسه وتولّى الصّلاة عليه ودفنه.

شعره في يوم الغدير

كان أبو العبّاس الضبّي من الموالين لآل البيت عليهم السلام، وقد أوصى، كما مرّ بنا، أن يدفن في مشهد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وتروي كتب الأدب أبياتاً له قالها في يوم الغدير هي الآتية، ولعلّها ما بقي من قصيدة:

لعلـــــيٍّ الطّهــــــر الشّهيـــــــر مجـــــدٌ أنـــــافَ علـــــى ثبيـــــرِ

---

(١) معجم الأدباء، ٢/ ١١٠، وجاء في الغدير: «اتّهمته امّ مجد الدّولة بأنّه سمّ أخاه»، وفي هامش معجم الأدباء: هكذا قال، أي «سمّ ابن أخيها». وجاء في هامش الطّبعة الثانية إنّه الصّواب.

صِنْـــوُ النَّبـــيِّ محمَّـــدٍ ووصيُّـــه يـــومَ الغـــديـــرِ
وحليـــل فـــاطمـــة ووا لـــدُ شبَّـــر وأبـــو شبيـــر

وفـي بيـان مـا في هذا الشِّعر من دلالة، يقول العلاَّمة الأميني: ثَبير، من أعظم جبـال مكّـة، بينها وبين عرفة. ويروي، بسنده، عن ابن عبَّاس أنّه قال: أخذ النبيّ ﷺ، ونحن بمكّة بيدي وبيد عليّ، فصعد بنا إلى ثبير، ثمَّ صلَّى بنا أربع ركعات، ثمَّ رفع رأسه إلى السَّماء، فقال:

«اللَّهـمَّ إنَّ موسى بن عمران سألك، وأنا محمَّد نبيّك أسألك أن تشرح لـي صـدري، وتيسِّـر لـي أمـري، وتحلـل عقـدةً مـن لسـاني يفقهوا قولي، واجعـل لـي وزيـراً مـن أهلـي، علـيّ بـن أبـي طـالب أخي، اشدد به أزري واشـركـه فـي أمري». قال ابن عبّاس: فسمعت منادياً ينادي: «يا أحمد، قد أُوتِيتَ ما سألت»(١).

مآثره

تـروي كتـب الأدب أن أبا العبّاس «كان نعم الخليفة لسلفه الصَّاحب»، وأنّ له، عندما كان متولّياً أمر أصفهان، في جامعها خانات عامرة متّسعة، قد وُقفت لأبناء السَّبيل، وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزانتها... وكان فهرست المكتبة يتألّف من ثلاثة مجلّدات كبيرة.

وكان مجلسه مقصداً للشّعراء والأدباء، وتروى قصائد كثيرة في مدحه، وممّن مدحه الشّاعر مهيار الديلمي، بقصائد، قال في إحداها:

أَجِيرَانَنَا بالغَوْرِ، والرَّكب منهُمُ أَيَعْلَمُ خالٍ كيف بات المتيَّمُ؟
رحلتُم، وعمرُ اللَّيل فينا وفيكُمُ سواءٌ، ولكن ساهرون ونوَّمُ
... وهل غيرُ مدحي طبّقَ الأرض فيكمُ وإن كان ملء الأرض ما قد مُدِحتمُ

(١) الغدير، ٤/١٤٥ و١٤٦.

ولمّا مات رثاه مهيار أيضاً بقصيدة منها:

... أبكيك لي ولمُرْمَلين بنوهُم الـ أيتـامُ بعـدك والنّسـاءُ أرامـلُ
ولمستجيرٍ والخطوبُ تنوشُه مستطعمٌ والدّهر فيه آكلُ
ولمعشرٍ طَرْقَ العلوم ذنوبُهم في النّاس، وهي لهم إليك وسائلُ
قد كنتُ ملتحفاً بمدحك حلّةً فخراً تُجَرُّ لها عليَّ ذلاذلُ
فاليوم أشكرك الصّنيع مراثياً خرس المشيب عندها والغازل

ويخاطب الشاعر ابنه سعداً فيقول:

أجملْ له، يا سعدُ، واحمل وزْرَه ما طال باعٌ، أو أطاعك كاهل[1]

نماذج من شعره

ولأبي العبّاس شعر جميل، نذكر في ما يأتي نماذج منه:

□ لا تركَنَنَّ إلى الفراقِ فإنّه مرُّ المذاقِ
الشّمسُ عند غروبِها تصْفَرُّ من فَرَق الفراقِ[2]

□ خلتُ الثّريّا إذ بدت طالعةً في الحندس
سنبلةً من لؤلؤ أو باقةً من نرجس

□ ربَّ ليلٍ سهرتُه مفكِّراً في امتداده
كلّما زدتُ رعيَه زادني من سواده
فتبيّنتُ أنّه تائهٌ في رقاده
أو تفانت نجومُه فبدا في حداده

□ قلتُ لمن أحضرني زهرة ومجلسي بالأنس بسّامُ
وقرّةُ العين نَيْلُ المنى عندي، ولا سامٌ ولا حامُ:
تجنّب النّمّام لا تَجْنِه فإنّما النّمّام نمّامُ

---

(١) المُرْمِل: من نفد زاده. الوزر: الحمل الثقيل.
(٢) في معجم الأدباء: من ألم الفراق، ٢/ ١٠٨.

أخشى علينا العين من أعينٍ   يبعثها بالسُّوء أقوام

وأنموذج من نثره

وَهَذِهِ رِسَالَةٌ مِنْ نَثْرِهِ كَتَبَهَا إِلَى أَبِي سَعِيدٍ الشَّيْبِيِّ: «وَقَدْ أَتَانِي كِتَابُ شَيْخِ الدَّوْلَتَيْنِ، فَكَانَ فِي الْحُسْنِ رَوْضَةَ حَزْنٍ، بَلْ جَنَّةَ عَدْنٍ، وَفِي شَرْحِ النَّفْسِ، وَبَسْطِ الأُنْسِ، بَرْدَ الأَكْبَادِ وَالْقُلُوبِ، وَقَمِيصَ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبَ».
وَمِنْهَا: «وَبَعْدُ، فَإِنَّ الْمُنَازِعِينَ لِلأَمِيرِ حُسَامِ الدَّوْلَةِ نُسُورٌ قَدْ اقْتَنَصَتْهَا الْقُصُورُ، وَدَوْلَتَهُ ـ حَرَسَهَا اللهُ ـ فِي إِبَّانِ شَبَابِهَا وَاعْتِدَالِهَا، وَرَيْعَانِ إِقْبَالِهَا وَاقْتِبَالِهَا، قَدْ أُسِّسَتْ عَلَى صَلَاحٍ وَسَدَادٍ، وَعِمَارَةِ دُنْيَا وَمَعَادٍ، وَهِيَ مُؤْذِنَةٌ بِالدَّوَامِ، فِي ظِلِّ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ»(١).

* * *

(١) الحَزْن: ما ارتفع من الأرض: وإذا كانت الرّوضة في حزن كانت أينع وأزهر. إبّان الشّباب زمانه وريعانه وشرخه وميعته: مقتبله. المعاد: الآخرة. فيه تعاد الخلائق بالبعث والنّشور مؤذنة: أي معلمة.

(٣٠)
«أبو الرّقعمق» الأنطاكي

التّعريف بالشّاعر

أبو حامد، أحمد بن محمَّد الأنطاكي، المعروف بأبي «الرّقعمق»[١]. أصله من أنطاكية، وهي مدينة شهيرة تقع عند مصبّ نهر العاصي في البحر الأبيض المتوسّط، عاصمة لواء الأسكندرون. نشأ في بلاد الشّام، ثمَّ رحل إلى مصر، وأقام فيها، وأحرز فيها شهرة طائلة، ومكانة من الأدب عظيمة، ومدح خلفاءها: المعزّ والعزيز والحاكم، ورؤساءها: جوهر القائد ويعقوب بن كلس الوزير إلخ... وتوفّي فيها سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م. وهو كما يقول صاحب «الأعلام»: «شاعر فكه، تصرّف بالشّعر جدّاً وهزلاً ومجوناً... ومن المدّاح المجيدين»[٢].

شاعر فكه

صادف، في مصر، جماعة من أهل الهزل والمجون، فأوغل فيهما كلّ الإيغال، حتّى لُقّب بأبي الرّقعمق، ويقال إنّه هو الذي لقّب نفسه بهذا اللّقب، لأنّه كان دائم التّصريح بأنّه حليف «الرّقاعة»، والرّقاعة، كما هو معروف، الحمق وقلّة الحياء، ومن شعره في ذلك:

□كفّي ملامَكِ يا ذاتَ الملاماتِ	فما أريد بديلاً بالرّقاعاتِ
كأنّني وجنودُ الصّقعِ تتبعني	وقد تلوثُ مزاميرَ الرّطاناتِ

---

(١) الغدير، ٤/١٥٩ ـ ١٦٦.

(٢) الأعلام، ١/٢١٠.

قَسّيسُ ديرٍ تلا مزمارَهُ سحراً ... على القسوسِ بترجيعٍ ورنّاتِ
وقد مجنتُ وعلّمتُ المجونَ فما ... أُدعى بشيءٍ سوى ربُّ المَجاناتِ
وذاك أنّي رأيتُ العقلَ مُطَّرَحاً ... فجئتُ أهلَ زماني بالحماقاتِ
□ففيَّ ما شئتَ من حمقٍ ومن هوسٍ ... قليلُهُ لكثيرِ الحمقِ إكسيرُ
كم رامَ إدراكَهُ قومٌ فأعجزَهم ... وكيفَ يُدركُ ما فيهِ قناطيرُ؟
لأشكرنَّ حماقاتي لأنّ بها ... لواءَ حمقيَ في الآفاقِ منشورُ
ولستُ أبغي بها خِلّاً ولا بدلاً ... هيهاتَ غيري بتركِ الحمقِ معذورُ
لا عيبَ فيَّ سوى أنّي إذا طربوا ... وقد حضرتُ يُرى في الرأس تفجيرُ
□ فاسمعنْ منّي ودعني ... من كثيرٍ وقليلِ
وصغيرٍ وكبيرٍ ... ودقيقٍ وجليلِ
قد ربحنا بالحما ... قاتِ على أهلِ العقولِ
فرعى اللهُ ويُبقي ... كلَّ ذي عقلٍ قليلِ
ما له في الحمقِ والخفّةِ مثلي من عديلِ
فمتى أُذكَرُ قالوا: ... شيخُنا طبلُ الطبولِ
شيخنا شيخٌ، ولكن ... ليس بالشَّيخِ النَّبيلِ

يعلن «أبو الرَّقعمق» أنّ العقل ليس من شأنه، ويستغفر الله إن كان قد نطق به ـ أي بالعقل ـ، ويقسم بالله الذي جعله «أحدوثة»، وبحبِّ الحمق أغراه إلى أن غدا «ربّ المجانات»... ويعيد ما صار إليه إلى زمانه، فهو يأتي أهل هذا الزّمان بالحماقات بعدما رأى العقل مطَّرَحاً؛ ما يعني أنّه يقصد إلى المضيّ في طريق، يروم سلوكه كثيرون، لكنّهم لم يدركوا مرامهم، وهو يشكر «حماقاته»؛ لأنّها رفعت لواء شهرته في الآفاق ونشرته، وبذلك يكون قد ربح على أهل العقول...

يفيد هذا الشِّعر أنّ اختيار «أبي الرقعمق» هذا المنحى في السُّلوك والشِّعر كان بفعل زمانه؛ ما يعني أنّه يتّخذ موقفاً من هذا الزّمن الذي تدفع أحداثه إلى انتهاك قيمه بالخروج من العقل إلى «الرَّقاعة»، فالزّمن الرَّقيع يتمُّ التعامل معه

بـالسُّلـوك الـرَّقيـع، ويتمّ التَّعبير عنه بهذا النَّوع من الشِّعر الذي يمثِّل عصراً لم يتـرك للشّعـراء مـن منفـذٍ للشّهـرة، أو للتحقّـق، إلاَّ الهزل والمُجون، فـ «أبو الـرقعمـق» يسخـر مـن زمـن يسخـر مـن أبنـائـه، ويحـوّل واحدهم إلى «طبل الطّبول»، كما يقول هو عن نفسه:

... فمتـى أُذْكَـرُ قـالـوا: شيخنـا طبـلُ الطُّبـول
شيخنـا شيـخٌ ولكـن ليـس بـالشَّيـخ النَّبيـل

شعره يمثّل تجربته الحياتيّة

ومـن الأخبار الدَّالَّة على طبيعة تجربته، في ذلك الزّمن الذي «اطُّرح فيه العقل»، خبرٌ يرويه السَّيِّد العبَّاسي في «معاهد التَّنصيص»[1]، وهو:

قـالـوا: اقتـرح شيئاً نجدْ لك طبخَهُ قلـت: اطبخـوا لـي جبّـةً وقميصـا

قـال السيّـد العبّـاسـي في «معاهد التنصيص»: هو قول «أبي الرقعمق»، يـروى أنّـه قـال: كـان لـي إخـوان أربعـة وكنـت أنـادمهم أيّام الأستاذ كافور الأخشيدي، فجاءني رسولهم في يوم بارد وليست لي كسوة تحصنني من البرد، فقال: إخوانك يقرأون عليك السَّلام ويقولون لك: قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاةً سمينة فاشتهِ علينا ما نطبخ لك منها، قال: فكتبت إليهم:

إخـوانُنـا قصـدوا الصَّبـوحَ بسحـرةٍ فـأتـى رسـولهُـمُ إلـيّ خصـوصـا
قالوا: اقترح شيئاً نجدْ لك طبخَهُ قلـت: اطبخـوا لـي جبّـةً وقميصـا

قـال: فـذهـب الـرَّسـول بالـرّقعة، فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع وأربع صُرر في كلّ صُرّة عشرة دنانير، فلبست إحدى الخلع وسرت إليهم.

يفيد هذا الخبر أنَّ الشَّاعر لم يكن يملك كسوةً في أيّام البرد، وقد أدّت معاناته إلى ابتداع أسلـوبٍ أطلق عليه علماء البيان «أسلوب المشاكلة»؛ ويعني

(١) معاهد التنصيص، ٢/ ٢٥٢، رقم ١١٩.

أن يـذكـر الشّـاعرَ شيئاً بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقول «أبي الرقعمق»: اطبخوا، وهو يريد: خيطوا. وفي هذا الأسلوب سخرية ظاهرةً تمثّل حالةً تدفع إلى النُّطق بما يريده الشّاعر فعلاً، كأنَّ الحالة غلبت فتمثّلت باللّفظ السّابق.

ويبـدو أنَّ هـذا الخروج إلى الهزل والمجون، وانتهاك القيم مثّل ظاهرةً في ذلك العصر، فمؤرِّخو الأدب يتحدَّثون عن شبه بين «أبي الرقعمق» الشّامي وابن الحجّـاج العـراقي، فيقولون: «هو بالشّام كابن الحجّاج في العراق» «في تغلُّب المجون على شعره».

شاعر مُجيد

ولم يحـل تـغلُّب المجـون على شعر «أبي الرقعمق» دون أن يكون هذا الشّاعر السّاخرُ، الفكه، شـاعـراً مُجيداً، فابن خلّكان يقول: «أكثر شعره جيّد على أسلوب صريع الدّلاء والقصّار البصري»[1]. والثعالبي ترجم له في «يتيمة الدّهر»[2]، وذكر من شعره أربعمئـة وأربعـة وتسعيـن بيتـاً، وقال عنه: «نادرة الـزّمـان، وجملـة الإحسـان، وممَّـن تصـرَّف بـالشِّعـر الجـزل في أنواع الجدّ والهـزل، وأحـرز قصـد الفضـل، وهـو أحـد المـدَّاح المجيـديـن والفضـلاء المحسنين، وهو بالشّام كابن الحجّاج في العراق».

من شعراء الشّيعة

يعدُّ «أبو الرَّقعمـق» من الشُّعراء الشّيعة، يقول صاحب «الغدير»: «ولعلّ كونه كابن الحجّاج ـ السّابق ذكره ـ ينمُّ عن تشيّعه؛ فإنَّ ذلك أظهر أوصاف ابن الحجّـاج وأجـلّ مـا يُـؤثـر عنـه، فقـد عرفه من عرفه بولائه الصّلب لأهل بيت الوحي عليهم السلام والتجهّم أمـام أضدادهم والوقيعة فيهم، فقاعدة التّشبيه تستدعي

(١) وفيات الأعيان، ١/ ١٣٢، رقم ٥٤.
(٢) يتيمة الدّهر، ١/٣٧٩ـ٤٠٨.

أن يكـون شـاعـرنـا المترجَم مثله أو قريباً منه، على أنّ صاحب «نسمة السَّحر» عدّه ممّن تشيّع وشعر، وعقد له ترجمةً ضافية الذّيول».

شعره في يوم الغدير

يـذكـر «أبـو الرّقعمق»، في إحدى قصائده، يوم الغدير بوصفه حقيقةً لا جدال فيها، ويقسم بمن نطق النبيُّ بفضله في هذا اليوم. والقصيدة مدحيّة يتَّبع فيها أسلوبه الذي عرف به:

كتـب الحصيـرُ إلـى السّـريـرِ … أنّ الفصيـلَ ابـنُ البعيـرِ
فلمثلهـا طـرب الأمـ … ـيـر إلـى طباهجـة بقيـر[1]
فـلأمنعـنّ حمـارتـي … ستيـن مـن علـفِ الشّعيـرِ
لا تُحَـمَّ إلاّ أن تطـ … ـيـرَ مـن الهـزالِ مـع الطُّيـورِ
فـلأخبـرنّـك قصّتـي … فلقـد وقعـتَ علـى الخبيـرِ
إنّ الـذيـن تصـافعـوا … بـالقـرعِ فـي زمـنِ القشـورِ
أسفـوا علـيّ لأنّهـمْ … حضـروا ولـم أكُ فـي الحضـورِ
لـو كنـتُ ثَـمّ لقيـلَ: هـل … مـن آخـذٍ بيـدِ الضّريـرِ؟
ولقـد دخلـتُ علـى الصّديـ … ـقِ البيـتَ فـي اليـوم المطيـرِ
متشمّـراً متبختـراً … للصّفـع بـالـدّلـوِ الكبيـرِ
فـأدرتُ حيـن تبـادروا … دلـوي فكـانَ علـى المـديـرِ
يـا للـرّجـالِ تصـافعـوا … فـالصّفـعُ مفتـاحُ السّـرورِ
لا تغفلـوهُ فـإنّـه … يستـلُّ أحقـادَ الصّـدورِ
هـو فـي المجـالسِ كـالبخـو … ر فـلا تملّـوا مـن بخـورِ
ولأذكـرنّ إذا ذكـرتُ … أحبّتـي وقـتَ السّحـورِ

---

(١) يقال: تطبّج في الكلام، إذا تفنّن فيه. البقير من النّوق: التي شُقّ بطنها عن ولدها. لعلّه أراد القول إنّه يتفنّن في الكلام، فينشئ قصيدةً تفتّق = تولّد المعاني وتتفنّن في صياغتها.

ولأحـــــزنَـــــنَّ لأنّهـــــم لمّـــا دنـــا نضـــجُ القـــدورِ
رحلـــوا وقـــد خبـــزوا الفطيـ ـــرَ ففـــاتهـــم أكـــلُ الفطيـــرِ
لا والـــذي نـطـــق النّبـــيُّ بفضلِـــــهِ يـــومَ الغـــديـــــرِ
مـــا لـــلإمـــامِ أبـــي علـــيٍّ فـــي البـــريّـــةِ مـــن نظيـــرِ

شعره في مدح العلويّين

ومن شعره الذي يفيد بتشيُّعه قصائد يمدح بها نقيب الأشراف بمصر أبا إسماعيل إبراهيم بن أحمد الرَّسّي العلوي (المتوفّى ٣٦٥هـ)، نذكر منها:

□ وعجيـــبٌ والحسيـــنُ لـــه راحـــةٌ بـــالجـــودِ تنسكـــبُ
إنّ شـــربـــي عنـــده رَنَـــقٌ ولـــديـــهِ مـــربعـــي جـــدِبُ
ولـــه الـــوِردُ المُعـــاذُ بـــه والجنـــابُ المُمـــرِعُ الخصـــبُ
وهـــو الغيـــثُ المُلِـــثُّ إذا أعـــوزتنـــا دَرَّهـــا السّحـــبُ
وإلـــى الـــرّسّـــيّ ملجـــؤنـــا مـــن صـــروف الـــدّهـــر والهـــربُ
سيّـــدٌ شـــادتْ عـــلاه لـــه فـــي العـــلا آبـــاؤه النّجـــبُ
ولـــه بيـــتٌ تُمَـــدُّ لـــه فـــوق مجـــرى الأنجـــمِ الطّنـــبُ
حسبـــه بـــالمصطفـــى شـــرفـــاً وعلـــيٌّ حيـــن ينتســـبُ
رتبـــةٌ فـــي العـــزّ شـــامخـــةٌ قصـــرتْ عـــن نَيْلِهـــا الـــرّتـــبُ
ذاك فخـــرٌ ليـــس تنكـــرُهُ لكـــمُ عجـــمٌ ولا عـــربُ
ولأنتـــمْ مـــن بفضلهـــمُ جـــاءتِ الأخبـــارُ والكتـــبُ
وإليكـــم كـــلُّ منقبـــةٍ فـــي الـــورى تُعـــزى وتُنتســـبُ
وبكـــم فـــي كـــلِّ معـــركـــةٍ تفخـــرُ الهنـــديّـــةُ القضُـــبُ
وبكـــم فـــي كـــلِّ عـــارفـــةٍ تُـــرفـــعُ الأستـــارُ والحجـــبُ
وإذا سمـــرُ القنـــا اشتجـــرتْ فبكـــمْ تُستكشَـــفُ الكُـــرَبُ
□ بـــاح وجـــداً بهـــواهُ حيـــن لـــم يُعـــطَ مُنـــاهُ
مغـــرمٌ أغـــرى بـــه السّقـ ـــمُ فمـــا يُـــرجـــى شفـــاهُ

كــادَ يُخفيهِ نحولُ الـ ـجسمِ حتّى لا تـراهُ
لـو ضنـاً يُخفي عن الـ ـعينِ لأخفاهُ ضناهُ
... حبّذا الرسّيُّ مـولىً رضيَ النّاسُ ولاهُ
جعـلَ اللهُ أعـاديـ ـهِ مِنَ السّوءِ فداهُ
فلقد أيقنَ بالثّر وةِ من حلَّ ذراهُ
مَن رقى حتّى تناهى في المعالي مرتقاهُ
فاقَ أن يبلغَ في الـ ـسّؤددِ والمجدِ مداهُ
ملكٌ مذ كان بالـ ـسّطوةِ ممنوعٌ حماهُ
بحرُ جودٍ ليس يُدرى أينَ منهُ منتهاهُ
لم يَضِعْ من كان إبرا هيمُ في النّاسِ رجاهُ
لا ولا يفرقُ من صرفِ زمانٍ إن عراهُ
مَن به استكفى أذى الـ أيّامِ والدّهرَ كفاهُ
كيف لا أمدحُ من لم يخلُ خلقٌ من نداهُ؟

من جميل شعره

ومن غرر محاسنه قوله يمدح من قصيدة، أوّلها:

قد سمعنا مقالَهُ واعتذاره وأقلناه ذنبَهُ وعِثاره
والمعاني لمن عنيتُ ولكن بكِ عرّضتُ فاسمعي يا جاره
من مراديهِ أنّه أبدَ الدّهـ ـرِ تراه محلّلاً أزراره
عالمٌ أنّه عذابٌ من اللّـ ـهِ مباحٌ لأعينِ النظّاره
هتكَ اللهُ سترَهُ فلَكَم هتّكَ من ذي تستّرٍ أستاره
سحرتني ألحاظُه وكذا كـ ـلُّ مليحٍ ألحاظُه سحّاره
ما على مؤثرِ التّباعدِ والإ عراضِ لو آثرَ الرّضا والزّياره
وعلى أنّني وإن كان قد عذّ بَ بالهجرِ مؤثرٌ إيثاره
لم أزل لا عَدمتُه من حبيبٍ أشتهي قربه وآبى نفاره

ويقول في مدحها:

لـم يـدَعْ للعـزيـزِ فـي سـائـرِ الأر ... ض عـــدوّاً إلاّ وأخمـــدَ نـــاره
فلهـــذا اجتبـــاه دون ســـوا ... هُ واصطفـــاه لنفسِـــهِ واختـــاره
لـــم تشيَّـــد لـــه الـــوزارةُ مجـــداً ... لا ولا قيـــل رفّعَـــتْ مقـــداره
بـل كسـاهـا وقـد تخـرّمهـا الـدّهـ ... ـــرُ جـــلالاً وبهجـــةً ونضـــاره
كـلَّ يـومٍ لـه علـى نُـوَب الـدّهـ ... ـر وكـرُّ الخطـوبِ بـالبـذلِ غـاره
ذو يـدٍ شـأنُهـا الفـرارُ مـن البُخـ ... ـلِ وفـي حـومـةِ الـوغـى كـرّاره
هـيَ فلّـتْ عـن العـزيـز عِـداه ... بـالعطـايـا وكثّـرتْ أنصـاره
هكـذا كـلُّ فـاضـلٍ يـدُه تُمـ ... ـسي وتُضحـي نفّـاعـةً ضـرّاره
فـاستجـرْهُ فليـس يـأمـنُ إلاّ ... مـن تَفَيّـا بظلّـه واستجـاره
فـإذا مـا رأيتـه مطـرِقـاً يُعْـ ... ـمِـلُ فـي مـا يـريـدُهُ أفكـاره
لـم يـدَعْ بـالـذّكـاءِ والـذّهـنِ شيئـاً ... فـي ضميـرِ الغيـوب إلاّ أنـاره
لا ولا مـوضعـاً مـن الأرضِ إلاّ ... كـان بـالـرّأي مـدركـاً أقطـاره
زادهُ اللهُ بسطـــةً وكفـــاهُ ... خـوفَـه مـن زمـانِـه وحـذاره

☐ وقوله:

لـو نيـلَ بـالمجـدِ في العلياءِ منزلةٌ ... لنـال بـالمجـدِ أعنـاقَ السّمـاواتِ
يـرمـي الخطـوبَ بـرأيٍ يُستضـاء بـه ... إذا دجـا الـرّأيُ مـن أهـلِ البصيـراتِ
فليـس تلقـاهُ إلاّ عنـد عـارِفِـهِ ... أو واقفـاً فـي صـدور السّمهـريّـاتِ

* * *

(٣١)
أبو العلاء السَّرَوي

التَّعريف بالشَّاعر

أبـو العـلاء محمَّـد بـن إبـراهيـم السَّـرَوي[١]. يصفـه بـعض مـؤرِّخي الأدب بـأنَّـه «شـاعـر طبـرستـان الأوحـد»، تفيـد مراسلاته أنَّه كان مقيماً في «جَـيّ»؛ وهـي مدينـة نـاحيـة أصفهـان القـديمة، وأنَّه كان ذا مكانة مرموقة، فكتـب الأدب تـذكـر لـه مسـاجـلات ومكـاتبـات مع أبي الفضل بـن العميد (المتوفَّى ٣٦٠هـ)، ومن رسائل هذا إليه رسالـة ينكر فيها عليه تعصُّبه للعجم على العرب:

«إقبل وصيَّة خليلك، وامتثل شَوْرة نصيحك، ولا تتمادَ في ميدان الجهل ينضُّك، ولا تتهافت في إلحاح يغرُّك...»[٢].

وتذكر هذه الكتب أنَّ الصَّاحب بن عبَّاد أرسل له أبياتاً يبشِّره فيها بمقدمه إليـه، ويقـول له: لا بدَّ من «جيّ» وساكنها، وإن بعُدت. ويبدو أنَّ الصَّاحب، فـي تلـك الآونـة، كـان علـى مقربةٍ من بغداد عندما أتته دعوة السَّروي، يقول الصَّاحب في رسالته الشِّعريَّة للسَّروي:

أبـا العـلاءِ ألا أبشـرْ بمقـدمِنـا فقـد وردنـا علـى المهـريّـةِ القـودِ
هــذا وكــان بعيــداً أن أراجعَكــمْ علـى التَّعـاقـبِ بيـن البيضِ والسُّـودِ

---

(١) الغدير، ٤/١٦٧ ـ ١٧٣.

(٢) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٣١٠، رقم ٤٦٨.

مـن بعـد مـا قـرُبـتْ بغـدادُ تطلبُنـي واستنجـزْتنـيَ بـالأهـوازِ مـوعـودي
وراسلتنــي بــأن بــادِرْ لتملكَنــي ويجريَ الماءُ ماءُ الجود في العودِ
فقلتُ: لا بدّ من جَيٍّ[1] وساكِنِها ولـو رددت شبـابـي خيـر مـردودِ
فــإنّ فيهــا أودّائــي ومعتمــدي وقــربهــا خيــرُ مطلــوبٍ ومنشــودِ
الســتُ أشهــدُ إخــوانـي ورؤيتُهــم تفــي بملــكِ سليمــانَ بــنِ داودِ؟

كما تذكر هذه الكتب أنّ مجلسه كان مقصوداً من الشُّعراء، وأنّه كان يحتجب أحياناً بسبب ضائقةٍ تمرُّ به، فقد كتب إليه شاعر غريب يشكو إليه حجّابه، وممّا جاء في كتابه:

جئــتُ إلــى البــاب مــراراً فمــا إن زرتُ إلاّ قيـلَ لـي: قـد ركِـبْ
وكــان فــي الــواجــب يــا سيّـدي أن لا تُــرى عــن مثلِنــا تحتجِــبْ

فأجابه على ظهر رقعته:

ليس احتجـابي عنـك مـن جفـوةٍ وغفلــةٍ عــن حــرمــةِ المغتــربْ
لكــنْ لــدهــرٍ نكِــدٍ خــائــنٍ مقصِّــرٍ بــالحــرِّ عمّــا يجــبْ
وكنــت لا أحجــبُ عــن زائــرٍ فــالآن مــن ظلّــيَ قــد أحتجــب

من شعره في يوم الغدير

كان أبو العلاء السَّروي شيعيّاً، وله شعر في يوم الغدير، منه قوله:

علــيٌّ إمــامــيَ بعــدَ الــرَّســولِ سيشفــعُ فـي عَـرصـةِ الحـقِّ لـي
ولا أدّعــــي لعلــــيٍّ ســــوى فضــائــلَ فـي العقـلِ لـمْ يشكـلِ
ولا أدّعــي أنّــه مــرسَــلٌ ولكـــن إمـــامٌ بنـــصٍّ جلـــي
وقــول الــرَّســول لــه إذ أتــى لــه شبــهُ الفــاضــل المفضــلِ:
ألا إنّ مــن كنــتُ مــولــىً لــه فمــولاه مــن غيــرِ شــكٍّ علــي

---

(١) جَيّ: اسم مدينة ناحية أصبهان القديمة.

وفي مدح أهل البيت عليهم السلام

وله في مدح أهل البيت عليهم السلام قوله:

ضدّانِ جالا على خدّيك فاتّفقا ... من بعدما افترقا في الدّهر واختلفا
هذا بأعلامِ بيضٍ اغتدى فبَدا ... وذا بأعلامِ سودٍ انطوى فعفا
أعجِبْ بما حكيا في كتبِ أمرهما ... عن الشّعارينِ في الدّنيا وما وصفا
هذا ملوكُ بني العبّاس قد شرعوا ... لبسَ السّواد وأبقوه لهم شرفا
وذي كهولُ بني السِّبطين رايتُهم ... بيضاءُ تخفق إمّا حادثٌ أزفا
كم ظلَّ بين شبابٍ لا بقاءَ له ... وبين شَيْبٍ عليهِ بالنُّهى عطفا
هل المشيبُ إلى جنبِ الشّبابِ سوى ... صبحٍ هنالك عن وجهِ الدُّجى كشفا؟
وهل يُؤدّي شبابٌ قد تعقّبه ... شيبٌ سوى كدرٍ أعقبتَ منه صفا؟
لو لم يكنْ لبني الزّهراءِ فاطمةٍ ... من شاهدٍ غير هذا في الورى لكفى
فرايةٌ لبني العبّاس عابسةٌ ... سوداءُ تشهد فيه التِّيهَ والسَّرفا
ورايةٌ لبني الزّهراءِ زاهرةٌ ... بيضاءُ يَعرفُ فيها الحقَّ من عرفا
شهادةٌ كشفت عن وجهِ أمرهما ... فبُح بها وانتصف إن كنتَ مُنتصِفا
حازَ النّبيُّ وسبطاه وزوجتُه ... مكانَ ما أفنتِ الأقلامَ والصّحفا
والفخر لو كان فيهم صورةً جسداً ... عادت فضائلُهم في أذنِهِ شنفا
وقد تناكرتِ الأحلامُ وانقلبتْ ... فيهم فأصبحَ نورُ الله مُنكسفا
ألا أضاءَ لهم عنها أبو حسنٍ ... بعلمِهِ وكفاهم حرَّها وشفا
وهل نظيرٌ له في الزّهدِ بينهمُ ... ولو أصاخَ لدنيا أو بها كلفا؟
وهل أطاع النّبيَّ المصطفى بشرٌ ... من قبله وحذا آثارَهُ وقفا؟
وهل عرَفنا وهل قالوا سواه فتىً ... بذي الفقارِ إلى أقرانِه زلَفا؟
يدعو النّزال وعجلُ القوم محتبسٌ ... والسّامريُّ بكفِّ الرُّعبِ قد نزفا
مفرِّجٌ عن رسولِ اللهِ كربتَهُ ... يوم الطِّعانِ إذا قلبُ الجبانِ هفا
تَخالُهُ أسداً يحمي العرينَ إذا ... يوم الهياجِ بأبطالِ الوغى رجفا

يُظِلُّهُ النّصرُ والرّعبُ اللّذان هما ... كانا له عادةً إن سار أو وقفا
شواهدٌ فرضتْ في الخلقِ طاعتَهُ ... برغمِ كلِّ حسودٍ مالَ وانحرفا
ثمّ الأئمّةُ من أولادِهِ زُهُرٌ ... مُتَوّجون بتيجانِ الهدى حُنُفا
من جالسٍ بكمالِ العلمِ مشتهرٍ ... وقائمٍ بغرارِ السَّيفِ قد زحفا
مطهّرون كرامٌ كلُّهم عَلَمٌ ... كمثلِ ما قيلَ كشّافون لا كُشُفا

شعره في وصف الطَّبيعة

والسَّروي بارع في وصف الطَّبيعة وأشيائها ومظاهرها، ولعلَّ ولَعَه بوصف الأشجار والأزهار أكسبه لقب السَّرْوي (نسبة إلى سَرْو)؛ وفي ما يأتي نماذج من شعره في وصف الطَّبيعة وأزهارها ورياضها:

قال في وصف طبرستان:

إذا الرِّيحُ فيها جرّتِ الرِّيحَ أعجلتْ ... فواختَها في الغصنِ أن تترنّما
فكم طيّرتْ في الجوّ ورداً مُدنّراً ... يقلّبه فيه ووردا مُدرهَما
وأشجارُ تفّاحٍ كأنَّ ثمارَها ... عوارضُ أبكارٍ يُضاحكنَ مُغرَما
فإن عقدَتها الشّمسُ فيها حسبتَها ... خدوداً على القضبانِ فذّاً وتوأما
ترى خطباءَ الطّيرِ فوق غصونِها ... تبثُّ على العشّاقِ وجداً مُعتّما[1]

وفي وصف الرَّوض:

مررنا على الرَّوضِ الذي قد تبسّمتْ ... ذراه وأوداجُ الأبارقِ تُسفَكُ
فلم نَرَ شيئاً كان أحسن منظراً ... من الرَّوض يجري دمعُهُ وهو يضحكُ

وله في النَّرجس:

□ حيِّ الرَّبيعَ فقد حيّا بباكورِ ... من نرجسٍ ببهاءِ الحسنِ مذكورِ

(١) الفواخت: جمع فاختة، نوع من الحمام البرِّي المطوّق، قيل لها فاختة للونها؛ لأنَّه يشبه «الفَخْت»؛ أي ظلّ القمر. مدنّر: شبيه بالدِّينار، كنى بذلك عن حمرة الورد. مدرهم: شبيه بالدِّرهم في بياضه.

كـأنّمـا جفنُـهُ بـالغُنـجِ منفتحـاً ... كأسٌ من التّبرِ في منديلِ كافورِ

□ أنظـر إلـى نـرجـسٍ تبـدّتْ ... صبحـاً لعينيـكَ منـه طـاقـه
واكتـب أسـامـي مُشْبِهيـهِ ... بـالعيـنِ فـي دفتـرِ الحمـاقـه
وأيّ حُسـنٍ يُـرى لطـرفٍ ... مـعْ يَـرقـانٍ يحـلُّ مـاقـه
كـرّاثـةٌ رُكّبـتْ عليهـا ... صفـرةُ بيـضٍ علـى رُقـاقـه

وقال في وصف الأشجار المنظومة كسموط الدُّرّ وخطباء الطّير تغرّد فوق قضبها:

أما ترى قُضُبَ الأشجارِ قد لبِستْ ... أنـوارَهـا تنثني مـا بيـن جُـلاّسِ
منظـومـةً كسمـوطِ الـدرِّ لابسـةً ... حسنـاً يُبيـحُ دمَ العنقـودِ للحـاسـي
وغـرّدتْ خطبـاءُ الطّيـرِ سـاجعـةً ... علـى منـابـرَ مـن وردٍ ومـن آسِ

قال الثّعالبي: أظنُّ أوّل من اخترع هذه الاستعارة المليحة أبو العلاء السروي في قوله المذكور.

وذكر له صاحب «محاسن أصبهان» في الوصف قوله:

أَوَما ترى البستانَ كيف تجاوبتْ ... أطيـارُهُ وزهـا لنـا ريحـانُـهُ
وتضـاحكـت أنـوارُهُ وتسلسلـتْ ... أنهـارُهُ وتعـارضـتْ أغصـانُـهُ؟
وكـأنّمـا يفتـرُّ غـبُّ القطـرِ عـن ... حُلَـلٍ نشـرنَ ريـاضُـهُ وجنـانُـهُ

وذكر له قوله:

كـأنّ حمـامَ الـرّوضِ نشـوانُ كلّمـا ... تـرنّـمَ فـي أغصـانِـه وتـرجّجـا
فـلاذ نسيمُ الجـوِّ مـن طـول سيـرِهِ ... حسيـراً بـأطـرافِ الغصـونِ مطلّجـا

ومن شعره الجميل، أيضاً، قوله في الشّيب والشّباب:

حـيّ شيبـاً أتـى لغيـر رحيـلِ ... وشبـابـاً مضـى لغيـر إيـابِ
أيُّ شـيءٍ يكـون أحسـنَ مـن عـا ... جِ مشيـبٍ فـي آبنـوس شبـاب

* * *

(٣٢)
أبو محمّد طلحة العوني

التّعريف بالشّاعر

أبـو محمّـد طلحـة بـن عبيـدالله بن أبي عون الغسّاني[١]. شاعر مشهور بطُرفه ويجودة شعره وتفانيه في الولاء لأهل البيت عليهم السلام، وإنشاده الشّعر في بيان حقّهم وفضائلهم، وقد سرى الرّكبان بشعره، فلهج به النّاس في الأماكن القريبة والبعيدة، وكان ينشده المنشدون في الأندية والمجتمعات التي يُتَحرّى فيها تشنيف الأسماع بـذكـر أهل البيت عليهم السلام ومآثرهم، ومنهم الشّاعر منير، والد الشّاعر أحمد بن منير، المعروف باسم ابن منير الطّرابلسي، كان ينشد شعر العوني في أسواق طرابلس، فينشر تلك الفضائل ويحثّ النّاس على التحلّي بها.

شاعر مُجيد مبتدع أساليب جديدة

جمع شعره ورتّبه العلاّمة السّماوي في ديوان. وتفيد قراءة شعره أنّه كان يتفنّـن فـي الشّعـر، ويبتكـر أساليب جديدة، ومن ذلك ما يقوله ابن رشيق في «العمدة»[٢]:

«ومـن الشّعـر نـوع غريب يسمّونه «القواديسي» تشبيهاً بالقواديس السّانية لارتفاع بعض قـوافيـه فـي جهة وانخفاضها في الجهة الأخرى، فأوّل من رأيته جاء به طلحة بن عبيدالله العوني في قوله ـ وهي من قصيدة له مشهورة طويلة:

---

(١) الغدير، ٤/ ١٧٥ ـ ١٩٥.

(٢) العمدة، ١/ ١٧٨، باب ٢٣.

كم للدُّمى الأبكار بالـ ... جنتين من منازلِ
بمهجتي للوجد من ... تذكارها منازلُ
معاهدٌ رعيلُها ... مثعنجرُ الهواطلِ[1]
لمّا نأى ساكنها ... فأدمعي هواطلُ

وسُمِّي هذا النَّوع من الشِّعر بـ «القواديسي»، نسبة إلى قواديس؛ وهي السُّفن الكبيرة التي ترتفع في اليمّ وتنخفض، لتناوب قوافيه بين رفع وجرّ.

ومن شعره الذي يتفنَّن فيه قصيدته المعروفة باسم «المذهَّبة»، والتي يمدح بها الإمام عليَّ بن أبي طالب عليه السلام، ويقيم بناءها وفق البناء «مخمَّس الأشطر»، غير مطَّرد القافية، وهي قصيدة طويلة، منها:

وسائلٍ عن العليّ الشّانِ ... هل نصّ فيه الله بالقرآنِ؟
بأنّه الوصيُّ دون ثانِ ... لأحمدَ المطهّرِ العدناني
فاذكر لنا نصّاً به جليّا

أجبتُ: يكفي خمُّ في النّصوصِ ... من آيةِ التّبليغِ بالمخصوصِ
وجملةُ الأخبارِ والنّصوصِ ... غير الذي انتاشت يدُ اللّصوصِ
وكتّمته ترتضي أميّا

أما سمعتَ يا بعيد الذّهنِ ... ما قاله أحمدُ كالمهنّي:
أنت كهارونَ لموسى منّي ... إذ قال موسى لأخيه: اخلفني
فاسألهمُ لِمْ خالفوا الوصيّا؟

أما سمعتَ خبرَ المباهله ... أما علمتَ أنّها مفاضله
بين الورى، فهل رأى من عادله ... في الفضلِ عند ربّه وقابله
ولم يكن قربّه نجيّا؟

أما سمعتَ أنّه أوصاهُ ... وكان ذا فقرٍ كما تراه؟

---

(١) مثعنجر: سائل. الهواطل: جمع هاطل؛ وهو المطر.

فخصّ بالدِّين الذي يرعاهُ فإن عداهُ وهو ما عداهُ
غادر ديناً لم يكن مرعيّا
فقال: هل من آيةٍ تدلُّ على عليّ الطّهرِ لا تُعسلُ
بحيثُ فيها الطّهرُ يستقلُّ تدنيه للفضلِ فيُقصى كلُّ
ويغتدي من دونه مقصيّا؟
فقلتُ: إنّ الله جلّ قالا إذ شرّف الآباء والأنسالا
وآلَ إبراهيم فازوا آلا إنّا وهبنا لهمُ إفضالا
لسانَ صدقٍ منهمُ عليّا
فكان إبراهيم ربّانيّا ثمّ رسولاً منذراً رضيّا
ثمّ خليلاً صفوةً صفيّا ثمّ إماماً هادياً مهديّا
وكان عند ربّه مرضيّا
فعندها قال: ومن ذرّيّتي قال له: لا لن ينالَ رحمتي
وعهديَ الظّالمَ من بريّتي أبتْ لملكي ذاك وحدانيّتي
سبحانهُ لا زال وحدانيّا
فالمصطفى الآمرُ فينا النّاهي وعادمُ الأمثالِ والأشباهِ
فالفعلُ منه والمقامُ الزّاهي لم يصدرا إلاّ بأمرِ اللهِ
لم يتقوّل أبداً فريّا
إن كان غير ناطقٍ عن الهوى إلاّ بأمرٍ مبرمٍ من ذي القوى
فكيف أقصاهمْ وأدنى المجتوى؟(١) إذن لقد ضلّ ضلالاً وغوى
ولم يكن ـ حاشا له ـ غَويّا
لكنّما الأقوامُ في السَّقيفه قد نصبوا برأيهم خليفه
وكان في شغلٍ وفي وظيفه من غُسلِ تلك الدرّةِ النّظيفه
وحزنه الذي له تهيّا

(١) جَوِيَ الشّيء: كرهه.

حتّى إذا قضى الخليفةُ انتخبْ من عقدَ الأمرَ له بين العربْ
ثمّ قضى واختار منهم من أحبْ وإن تكن شورى فللشّورى سببْ
إن كان ذا ترتيبهُ مقضيّا

ثمّ قضى ثالثُهم فانثالوا له الرِّجال تتبعُ الرِّجالُ
فلم تسعْ غيرَ القبولِ الحالُ فقام والرِّضا به محالُ
إذ كان كلٌّ يتمنّى شيّا

فغاضبتْ أوّلهم ذاتُ الجمَلْ وقام معْها الرّجلان في العملْ
فردّهم سيفُ القضاءِ وفصلْ ولم يكن قد سبقَ السّيفُ العذلْ
فقد تأتّى حربهم مليّا

وغاضب الثّاني لأمرٍ سالفِ فاجتاحه بذي الفقارِ القاصفِ
وأصبح النّاصرُ كالمخالفِ إذ شُكّتِ الرِّماحُ بالمصاحفِ
وأخذ الانحدار والرّقيّا[1]

وكان أن يردَّ للتّسليمِ إذ ردّ للأحبشِ في الهزيمِ
فأعملَ الحيلةَ في التّحكيمِ بأمرِ شيطانِهمُ الرَّجيمِ
ففي الرّعاة حكّم الرّعيّا

فلم يجد للكفّ من مناصِ وأخذَ التّحكيمَ بالنّواصي
فجاء أهلُ الشّامِ بابنِ العاصي فاحتالَ فيها حيلةَ القنّاصِ
غرّ أبا موسى الأشعريّا

قام أبو موسى فويق المنبرِ وقال: إنّي خالعٌ لحيدرِ
كما خلعتُ خاتمي من خنصري ثمّ جعلتها لنجلِ عمرِ
يا عمرو قم أنت اخلع الشاميّا

فقال عمرو: أيّها النّاس اشهدوا أن خلعَ الذي له يعتمدُ
ثمّ اسمعوا قولي ولا تردّدوا به فإنّي لابن هندٍ أعقدُ
فاتّخذوه مذهباً عمريّا

(١) كذا في المصدر.

فمـا تـرى أنـت بهـذي الحـالِ مـن المقـالِ ومـن الأفعـالِ
لا تُـدخِـل المفتـاحَ فـي الأقفـالِ تفتـحْ عـن الأضغـانِ والأذحـالِ
ومـا يكـون في الحشا مطويّا

إنّ عليّـاً عنـد أهـل العلـمِ أوّل مـن سُمّـي بهـذا الاسـمِ
قـد نـالـه مـن ربّـه فـي الحكـمِ علـى يـدَي أخيـه وابـن العـمّ
وحياً قديمَ الفضلِ عُدْمُليّا(١)

وهـو الـذي سُمّـي فـي التّـوراةِ عنـد الألـى هـادوا مـن الهـداةِ
بـالنـصّ والتّصـريـحِ فـي البـراةِ بـرغـمِ مـن سـيءَ مـن العـداةِ
من كلّ عيبٍ في الورى بريّا

وهـو الـذي يُعـرَفُ عنـد الكهنـه إذ جمعـوا التّـوراةَ فـي الممتحنـه
فـأخـذوا مـن كـلّ شـيء حسنـه وهـم لتـوراة الكليـمِ الخـزنـه
ليـوردوا الحـقّ لهم بوريّا

وهـو الـذي يُعـرَفُ فـي الإنجيـلِ بـمـرتبـة الإعظـامِ والتّبجيـلِ
وميـزة الغـرّةِ والتّحجيـلِ وفـوزةِ الـرّقيـبِ للمجيـلِ
وكـان يُـدعى عنـدهـم أليّا

وهـو الـذي يُعـرَفُ بـالـزّبـورِ زبـورِ داودَ حليـفِ النّـورِ
وذي العلـى والعلَـمِ المنشـورِ فـي اسـمِ الهـزبـرِ الأسـد الهصـورِ
ليـث الـوغى أعني بـه آريّا

وهـو الـذي تـدعـوه مـا بيـن الـورى أكـابـرُ الهنـدِ وأشيـاخُ القـرى
ذوو العلـومِ منهـمُ بكنكـرا لأنّـه كـان عظيمـاً خطـرا
وكنكـرٌ كـان لـه سميّـا

وهـو الـذي يُعـرَفُ عنـد الـرّومِ ببطـرسِ القـوّةِ والعلـومِ

(١) العُدمُل: القديم.

وصاحبِ السّترِ لها المكتومِ ومالكِ المنطوقِ والمفهومِ
ومن يكن ذا يُدعَ بطرسيّا

وهو الذي يُعرَفُ عند الفرسِ لدى التّعاليم وعند الدّرسِ
بفَرسنا وذاك إسمٌ قُدسي معناه قابضٌ بكلّ نفسِ
كما دعوه عندهم باريّا

وهو الذي يُعرَفُ عند التّركِ تيرا وذاك مشبهُ المَحَكُّ
وأنّه يرفع كلّ شكّ عن كلّ حاكٍ قولُه ومحكي
إذا عرفت المنطقَ التّركيّا

وهو الذي يدعونه في الحبشِ بتريكَ أي مدبّرٌ لا يختشي
لقدرةٍ به وبطشٍ مدهشٍ وينعتونه بأقوى قرشي
فاسأل به من يعرِفُ الحبشيّا

وهو الذي يُعرَفُ عند الزّنجِ بحنبني أي مُهلكٌ ومُنجِ
وقاطع الطّريق في المحجِّ إلاّ بإذنٍ في سلوك النّهجِ
فإن أردتَ فاسأل الزّنجيّا

وهو فريقٌ بلسانِ الأرمنِ فاروقة الحقّ لكلّ مؤمنِ
تعرفُهُ أعلامهمْ في الزّمنِ فاسأل به إن كنت ممّن يعتني
تحقيقَهُ من كان أرمنيّا

وهو الذي سمّته تلك الجوهره إذ ولدت في الكعبة المطهّره
وخرجتْ به فقال الجمهره: من ذا؟ فقالتْ: هو شبلي حيدره
ولدتُه مُطهّراً قدسيّا

هذا وقد لقّبه ظهيرا أبوه إذ شاهدَهُ صغيرا
يصرع من إخوانه الكبيرا مُشمّراً عن ساعدٍ تشميرا
وكان عَبلاً فَتِلاً[1] قويّا

---

(١) عبل: الضّخم الغليظ. فتل: من فتله، وهي شدّة عصب الذّراع.

ولقّبته ظِئْره[1] ميمونا إذ رأتِ السّعدَ به مقرونا
فكان درّاً عندها مكنونا يحمي أخا رضاعه المنونا
ثمّ يدرّ ثديها الأبيّا

واسم أخيه في بني هلالِ معلّقُ الميمونِ بالحبالِ
يذكرُهُ في سمرِ اللّيالي رجالُهم فاسمع من الرّجالِ
موهبةٌ خصّ بها صبيّا

والإسمُ عند اللهِ في العُلى علي وهو الصّحيحُ والصّريحُ والجلي
إشتقّه من إسمه في الأزلِ كمثل ما اشتقّ لخيرِ الرّسلِ
ومَنَحَ النّبيّ والوصيّا

واتّفقت آراءُ أهلِ العلمِ على اسمه من دون معنى الإسمِ
فاختلفت في قصدِهِ والفهمِ له وكلٌّ لم يطشْ بسهمِ
إذ قد أصاب الغرضَ المرقيّا

فقال قومٌ: قد عَلا برازا أقرانَهُ وابتزّها ابتزازا
فما رآه القِرنُ إلاّ انحازا وكان دوناً سافلاً فامتازا
فهو عليٌّ إذ علا العديّا

وقال قومٌ: قد عَلا مكانا متنَ النّبيُّ ورمى الأوثانا
إذ لم يَطِقْ حملَ نبيٌّ كانا من ثقلِ الوحيِ حكى ثهلانا[2]
فنال منه المنزلَ العليّا

وقال فرقةٌ: عليُّ الدّارِ في جنّة الخلد مع المختارِ
عَلاّه ذو العرش على الأبرارِ في روضةٍ تزهو وفي أنهارِ
فنال منه المرتضى العلويّا

وقال فرقةٌ: عَلاهمْ علما فكان أقضاهم لذاكَ حكما

(١) الظّئر: المرضعة.

(٢) ثهلان: جبل لبني نمير بن عامر، طوله في الأرض مسيرة ليلتين. معجم البلدان، ٢/ ٨٨.

ومــن إلــى القضــاءِ قــد تسمّــى ... يكــون أعلــى رفعــةً وأسمــى

فـوالِ ذاك العـالـمَ السميّـا

ودَع تـــأويـــلَ الكتـــابِ والخبــرْ ... وخُــذ بمــا بــانَ لــديــكَ وظهــرْ

قــد خــاطــبَ اللهُ بــه خيــرَ البشــرْ ... ليفهمـوا الأحكـامَ فـي بـادي النّظرْ

ويعـرفـوا النّبــيَّ والـوصيّـا

فـاستمسكـنْ بـالعـروة الـوثقـى التـي ... لــم تنفصــمْ عنــه ولــم تنفلــتِ

تمـشِ علـى الصِّـراطِ لـم تلتفـتِ ... فــي قــدمٍ راسٍ وقلــبٍ مثبــتِ

حتّـى تجـوزَ سـالمـاً سـويّـاً

إلى جنـان الخلـدِ فـي أعلـى الرّتبْ ... إذ ينثني كـلُّ امـرىءٍ مـعْ مـن أحـبْ

مـوهبـةٌ ممّـن لـه الشّكـرُ وجـبْ ... فهــو أبــرُّ خــالــقٍ وخيــرُ ربْ

عــزّ وجــلَّ مَلِكـاً قـويّـا

يـا ربّ عبـدك الـذي غمـرتَـهُ ... بـالفضـلِ والإنعـام مـذ صيّـرتـهُ

وقـد عصـى جهـلاً وقـد أمـرتَـهُ ... إن تـابَ فـالـذّنـبُ لـه غفـرتـهُ

قـد تبتُ فـاغفـر ذنبيَ العديّـا

يـا ربّ مـالـي عمـلٌ سـوى الـولا ... لأحمــدٍ وآلِــهِ أهــلِ العُلــى

صنـوِ الـرّسـولِ والـوصـيِّ المبتلـى ... وفــاطــمٍ والحسنيــنِ فــي المَــلا

غُـرّاً تزينُ العرشَ والكرسيّـا

ثــمّ علــيٌّ وابنــه محمّــدِ ... وجعفـرِ الصِّـدقِ ومـوسـى المهتـدي

ثـمّ علـيٌّ والجــوادِ الأجـودِ ... محمّــدٍ ثــمّ علــيٌّ الأمجــدِ

والحسـن الذي جلا المهديّا

فـأعطنـي بهـم جمـالَ الـدُّنيـا ... وراحــةَ القبــرِ زمــانَ البُقيــا

والأمـنَ والسّتـرَ بحشـرِ المحيـا ... والـرّيَّ مـن كـوثـرِ أهـلِ السّقيـا

والحشرَ معْهم في العلى سويّا

يـا طلـحُ إن تختـم بهـذا فـي العمـلْ　　لـم يـدنُ منـك فـزعٌ ولا وجـلْ
وأنـت طلـحُ الخيـرِ إنْ جـاء الأجـلْ　　بـالأجـر مـن ربّ الـورى عزّ وجلْ
كفـى بـربّـي راحمـاً كفيّـا

يقتبس الشُّعراء معانيه

وللعوني معانٍ جيّدة في شعره استحسنها الشُّعراء من معاصريه وممَّن أتوا بعده، فأخذوها وأعادوا صياغتها، ومن ذلك ما يذكره أبو سعيد محمَّد بن أحمد العبيدي من «الإبانة عن سرقات المتنبِّي»، ومنه:

قال العوني:

مضى الرَّبيعُ وجاءَ الصَّيفُ يقدمُه　　جيشٌ من الحرِّ يرمي الأرضَ بالشَّررِ
كأنَّ بالجوِّ ما بي من جوىً وهوىً　　ومن شحوبٍ فلا يخلو من الكدرِ

قال المتنبّي (المقتول سنة ٣٥٤هـ):

كـأنَّ الجـوّ قـاسى مـا أقـاسي　　فصـار سـوادُهُ فيـهِ شحـوبـا

قال العوني:

يـا صـاحبـيَّ بعُـدْتمـا فتـركتُمـا　　قلبـي رهيـنَ صبـابـةٍ ونصـابِ
أبكـي وفـاءكمـا وعهـدكمـا كمـا　　يبكـي المحـبُّ معـاهـدَ الأحبـابِ

قال المتنبّي:

وفاؤكما كالرّبع أشجاه طاسمه　　بأن تُسعدا والدّمع أشفاه ساجمه

وقال العوني في قصيدة له في أهل البيت عليهم السلام:

الا سيّدٌ يبكي بشجوي فإنّني　　لمستعذبٌ ماءَ البكاءِ ومُستحلي
أحبّ ابنَ بنتِ المصطفى وأزورُه　　زيارةَ مهجورٍ يحنُّ إلى الوصلِ
وما قدمي في سعيِهِ نحو قبرِهِ　　بأفضلَ منه رتبةً مركبُ العقلِ

قال المتنبّي:

خيرُ أعضائِنا الرّؤوسُ ولكن ... فضلتها بقصدِها الأقدامُ

قال الأميني: وحذا حذو العوني في المعنى سيّدنا الشَّهيد السيّد نصرالله الحائري في كافيّةٍ له في تربة كربلاء المشرّفة، وقال:

أقدام من زارَ مغناكِ الشَّريفَ غدتْ ... تفاخرُ الرَّأسَ منه طابَ مثواكِ

من شعراء الشّيعة المشهورين

وتشيُّع العوني كان مشهوراً في العصور المتقدِّمة، على عهده وبعد وفاته، حتى إنّه لمَّا وقعت الفتنة بين الشّيعة والسُّنّة، في بغداد، سنة ٤٤٣هـ، واحتدم بينهما القتال، كان ممَّا جاءت به يدُ الجور من الفظائع نبشُ قبور جماعة من الشّيعة وطرحوا النّيران في قبورهم، وكان العوني من هؤلاء الذين نبشت قبورهم وأحرقت.

شعره في يوم الغدير

وللعوني غير قصيدة في يوم الغدير، نذكر منها ما يأتي:

إمامي له يومَ الغديرِ أقامَهُ ... نبيُّ الهدى ما بين من أنكرَ الأمرا
وقامَ خطيباً فيهمُ إذ أقامَهُ ... ومن بعد حمدِ اللهِ قالَ لهم جهرا:
ألا إنّ هذا المرتضى بعلُ فاطمٍ ... عليُّ الرِّضا صهري فأكرمْ به صهرا
ووارثُ علمي والخليفةُ فيكمُ ... إلى الله من أعدائِه كلّهم أبرا
سمعتم؟ أطعتم؟ هل وعيتم مقالتي؟ ... فقالوا جميعاً: ليس نعدو له أمرا
سمعنا أطعنا أيّها المرتضى فكن ... على ثقةٍ منّا وقد حاولوا غدرا

ومنها قوله:

وفي خبرٍ صحّتْ روايتُهُ لهم ... عن المصطفى لا شكَّ فيه فيستبرا
بأن قال: لمّا أن عرجتُ إلى السّما ... رأيتُ بها الأملاكَ ناظرةً شزرا

إلى نحوِ شخصٍ حِيلَ بيني وبينه ... لعُظمِ الذي عاينتُه منه لي خيرا
فقلت: حبيبي جبرئيل من الذي ... تلاحظه الأملاكُ؟ قال: لك البشرى
فقلت: ومن ذا؟ قال: عليٌّ الرِّضا ... وما خصّه الرحمٰنُ من نِعَمٍ فخرا
تشوّقتِ الأملاكُ إذ ذاك شخصَهُ ... فصوّره الباري على صورةٍ أُخرى
فمال إلى نحو ابن عمٍّ ووارثٍ ... على جذلٍ منه بتحقيقه خُبْرا

ومن شعره في الغدير:

أليس قامَ رسولُ اللهِ يخطبُهمْ ... يومَ الغديرِ وجمعُ النّاسِ محتفلُ؟
وقال: من كنتُ مولاه فذاك له ... من بعدُ مولىً فواخاهُ وما فعلوا
لو سلّموها إلى الهادي أبي حسنٍ ... كفى البرايا ولم تستوحشِ السّبلُ
هذا يُطالبُه بالضّعفِ محتقباً ... وتلك يحدو بها في سعيِها جملُ

وله من قصيدة:

فقالَ رسولُ الله: هذا لأمّتي ... هو اليوم مولىً ربّ ما قلتُ فاسمعِ
فقام جَحودٌ ذو شقاقٍ منافقٌ ... ينادي رسولَ اللهِ من قلب موجعِ
أعَن ربّنا هذا أم أنت اخترعتَه؟ ... فقالَ: معاذَ الله لستُ بمُبدعِ
فقال عدوُّ الله: لا هَمّ إن يكن ... كما قال حقّاً بي عذاباً فأوقعِ
فعوجل من أفقِ السّماءِ بكفرِهِ ... بجندلةٍ فانكبّ ثاوٍ بمصرعِ

وله من قصيدة كبيرة يمدح بها أمير المؤمنين عليه السلام ويسمّي الأئمة المعصومين:

إنّ رسولَ اللهِ مصباحُ الهدى ... وحجّةُ اللهِ على كلِّ البشرْ
جاء بفرقانٍ مبينٍ ناطقٍ ... بالحقِّ من عند مليكٍ مقتدرْ
فكان من أوّلِ من صدّقهُ ... وصيُّهُ وهو بسنٍّ ما ثغرْ
ولم يكنْ أشركَ باللهِ ولا ... دنّسَ يوماً بسجودٍ لحجَرْ
فذاكمُ أوّلُ من آمنَ بالـ ... ـلّه ومن جاهدَ فيه ونصرْ
أوّلُ من صلّى من القومِ ومن ... طافَ ومَن حجّ بنسكٍ واعتمرْ

مـن شـاركَ الطّـاهـرَ فـي يـومِ العبـا ... فـي نفسـه مـن شـكٍّ فـي ذاك كفـرْ
مـن جـادَ بـالنَّفـسِ ومـن ضـنَّ بهـا ... فـي ليلـةٍ عنـد الفـراشِ المشتهـرْ
من صاحبُ الدّار الذي انقضَّ بها ... نجـمٌ مـن الجـوّ نهـاراً فـانكـدرْ
مـن صـاحـبُ الـرّايـةِ لمّـا ردّهـا ... بـالأمـس بـالـذلّ قبيـعٌ وزُفَـرْ
مـن خُـصّ بـالتّبليـغِ فـي بـراءةٍ ... فتلـك للعـاقـل مـن إحـدى العِبَـرْ
من كـان فـي المسجـد طَلْقاً بـابُـهُ ... حـلاًّ وأبـوابُ أنـاسٍ لـم تُـذرْ
مـن حـاز فـي خـمٌّ بـأمـرِ اللهِ ذا ... كَ الفضـلَ واستـولـى عليهم واقتـدرْ
مـن فـازَ بـالـدَّعـوةِ يـومَ الطّـائرِ الـ ... ـمشـويّ مـن خُـصّ بـذاك المفتخرْ
من ذا الذي أُسري به حتّى رأى الـ ... ـقـدرةَ فـي حنـدسٍ ليـلٍ معتكـرْ
مـن خـاصـفُ النّعـلِ ومـن خبّـركـمْ ... عنـه رسـولُ اللهِ أنـواعَ الخبـرْ
سـائـل بـه يـوم حُنيـنٍ عـارفـاً ... من صدقَ الحربَ ومن ولّى الدّبُرْ
كليـمُ شمـسِ اللهِ والـرّاجعُهـا ... مـن بعـد مـا انجـابَ ضيـاهـا واستترْ
كليـمُ أهـلِ الكهـفِ إذ كلّمهـمْ ... فـي ليلـةِ المسـحِ فسلْ عنهـا الخبرْ
وقصّـةُ الثّعبـانِ إذ كلّمـه ... وهـو علـى المنبـرِ والقـومُ زُمَـرْ
والأسـدُ العـابـسُ إذ كلّمَـهُ ... معتـرفـاً بـالفضـلِ منـه وأقـرْ
بـأنّـه مستخلَـفُ اللهِ علـى الأ ... مّـةِ والـرَّحمـنُ مـا شـاء قَـدَرْ
عيبـةُ علـمِ اللهِ والبـابُ الـذي ... يُـؤتـى رسـولُ اللهِ منـه المشتهـرْ

له من قصيدة:

أيـا أُمّـةَ السّـوءِ التـي مـا تيقّظـتْ ... لمـا قـد خلـتْ فيهـا مـن المثُلاتِ
وقـد وتـرتْ آلَ النّبـيِّ ورهطَـهُ ... علـى قَـدَرِ الأيّـامِ أيّ تـراتِ
وقد غدرتْ بالمرتضى علمِ الهدى ... إمـامِ البـرايـا كـاشـفِ الكـربـاتِ
ببـدرٍ وأُحـدٍ والنّضيـرِ وخيبـرٍ ... ويـوم حُنيـنٍ سـاعـةَ الهبـواتِ[1]
وصـاحـب خُـمٍّ والفـراش وفضلـه ... ومـن خُـصَّ بـالتّبليـغ عنـد بـراءةٍ

(١) الهبوات: جمع هبوة، وهي الغَبرة.

وله من قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين عليه السلام :

والله ألبسه المهابة والحجا ... وربا به أن يعبُدَ الأصناما
ما زال يغذوه بدينِ محمَّدٍ ... كهلاً وطفلاً ناشئاً وغلاما
أم من سواه إذا أُتي بقضيّةٍ ... طردَ الشُّكوكَ وأخرسَ الحكّاما؟
فإذا رأى رأياً يخالفُ رأيَهُ ... قومٌ وإن كدّوا له الأفهاما
نزل الكتابُ برأيِهِ فكأنّما ... عقد الإلهُ برأيه الأحكاما
من ذا سواهُ إذا تشاجرتِ القنا ... وأبى الكماةُ الكرَّ والإقداما
وتصلصلتْ حلَقُ الحديدِ وأظهرتْ ... فرسانُها التّصجاجَ والإحجاما[1]
ورأيتَ من تحتِ العجاجِ لنقعِها ... فوقَ المغافِرِ والوجوهِ قتاما
كشفَ الإلهُ بسيفِهِ وبرأيِهِ ... يُظمي الجوادَ ويرتوي الصَّمصاما
ووزيرُه جبريلُ يقحمُه الوغى ... طوعاً وميكالُ الوغى إقحاما
أم من سواه يقولُ فيهِ أحمدٌ ... يومَ الغديرِ وغيرَه أيّاما :
هذا أخي مولاكمُ وإمامكمْ ... وهو الخليفةُ إن لقيتُ حِماما
منّي كما هارونَ من موسى فلا ... تألوا[2] لحقِّ إمامكم إعظاما
إن كان هارونُ النّبيُّ لقومِهِ ... ما غابَ موسى سيّداً وإماما
فهو الخليفةُ والإمامُ وخيرُ من ... أمضى القضاءَ وخفّفَ الأقلاما
حتّى لقد قال ابنُ خطّابٍ له ... لمّا تقوّضَ من هناك وقاما :
أصبحتَ مولائي ومولى كلّ من ... صلّى لربِّ العالمينَ وصاما
غصنٌ رسولُ اللهِ أثبتَ غرسَهُ ... فعلا الغصونَ نضارةً ونظاما
حتّى استوى عَلَماً كما قد شاءه ... ربُّ السّماء وسيّداً قمقاما
ما سامهُ في أن يكونَ مؤمَّراً ... لفتىً ولا ولّى عليه أُساما

---

(١) صلصل اللّجام: صوّت. التّصجاج ـ من الصجّ: صوت وقع الحديد على الحديد. أحجم عن الحرب: نكص هيبة.

(٢) ألا ألواً وألى تألية وائتلاءً في الأمر: قصّر وأبطأ.

فهـو الأميـرُ حيـاتـهُ ومماتـهُ … أمـراً مـن الله العلـيّ لـزامـا
صلّـى عليـه ذو الجـلال كـرامـةً … ومـلائـكٌ كـانـوا لـديـه كـرامـا

وله من قصيدة:

يـا آلَ أحمـدَ لـولاكـمْ لمـا طلعتْ … شمسٌ ولا ضحكتْ أرضٌ من العشبِ
يـا آلَ أحمـدَ لا زال الفـؤادُ بكـم … صبّـاً بـوادرُهُ تبكـي مـن النّـدبِ
يـا آلَ أحمـدَ أنتـمْ خيرُ مـنْ وخَـدتْ … بـه المطـايـا فـأنتـمْ منتهـى الإربِ
أبـوكـمُ خيـرُ مـن يُـدعـى لحـادثـةٍ … فيستجيبُ بكشفِ الخطبِ والكربِ
عِدلُ القُران وصيُّ المصطفى وأبو الـ … ـسِّبطيـنِ أكـرمْ بـه مـن والـدٍ وأبِ
بعلُ المطهّرةِ الزَّهراءِ ذو الحسبِ الـ … ـطّهرِ الذي ضمّه شفعاً إلى النّسبِ
من قال أحمدُ في يومِ الغديرِ له: … من كنتُ مولىً له في العجمِ والعربِ
فـإنّ هـذا لـه مـولـىً ومنـذرُهُ … يـا حبّـذا هـو من مـولـىً ويـا بـأبـي
من مثلُهُ وهو مولى الخلقِ أجمعِها … بأمرِ ربِّ الورى في نصٍّ خيرِ نبي
يـأتـي غـداً ولـواءُ الحمـدِ فـي يـدِهِ … والنّاسُ قد سفروا عن أوجهٍ قطبِ
حتّـى إذا اصطكّـتِ الأقـدامُ زائلـةً … عـن الصِّـراطِ فُـويـقَ النّـارِ مضطـربِ

شعره في مدح أهل البيت عليهم السلام ورثائهم

قال يمدح أمير المؤمنين عليه السلام:

أنـا مـولـىً لمـن يقـولُ رسـولُ الـ … ـلّـهِ فيـه مـا بيـن جـمٍّ غفيـرِ:
سـوف تـأتـي يـومَ القيـامـةِ ركـبٌ … خمسـةٌ مـا لغيـرِنـا مـن ظهـورِ
أنـا منهـم علـى البـراقِ وبعـدي … بَضعتـي فـاطـمٌ تسيـرُ مسيـري
تحتهـا يـوم ذاك نـاقتـيَ العضـ … ـبـاءُ تطـوي الفجـاجَ طـيَّ المُغيـر
وأبـي إبـراهيـمُ فـوق ذلـولٍ … عـزَّ قـدراً بنـا علـى الجمهـورِ
وأخـي صـالـحٌ علـى نـاقـةِ الله أمـامـي فـي العـالـمِ المحشـورِ
وعلـيٌّ علـى أغـرَّ مـن الجنّـة مـا خـطـبُ نـعتِـه بـاليسيـرِ

فـي يـديـه مـن فـوقِ رأسي لـواءُ الـ ـحمـد للـواحـدِ الحميـدِ الشّكـورِ
وعليـهِ تـاجٌ بـديـعٌ مـن النّـو رِ يُـزاهـي بـإكليلـه المستـديـرِ
قد أضاءت من نوره عرصة الحشـ ـر فيـا حُسـنَ ذاك مـن منظـورِ
ولتـاجِ الـوصـيِّ سبعـون ركنـاً كـلُّ ركـنٍ كـالكـوكـب المستنيـرِ
فلـربّـي الحمـدُ الكثيـرُ علـى مـا قـد حبـانـي مـن حبِّـهِ بـالكثيـرِ

وله يرثي الإمام السِّبط المفدّى (صلوات الله عليه):

يـا قمـراً غـاب حيـن لاحـا أورثنـي فقـدُكَ المنـاحـا
يـا نُـوَبَ الـدّهـرِ لـم يـدعْ لـي صـرفُـكِ مـن حـادثٍ صـلاحـا
أَبَعْـدَ يـومِ الحسيـنِ ويحـي أستعـذبُ اللّهـوَ والمـزاحـا
كـربـت كـي تهتـدي البـرايـا بـه وتلقـى بـه النّجـاحـا
فـالـدِّيـنُ قـد لـفَّ بـردتيـهِ والشّـركُ ألقـى لهـا جنـاحـا
فصـار ذاك الصّبـاحُ ليـلاً وصـار ذاك الـدُّجـى صبـاحـا
فجـاء إذ كـاتبـوه يسعـى لكـي يُـريهـا الهـدى الصّـراحـا
حتّـى إذا جـاءهـم تنحّـوا لا بـل نَحـوا قتلَـه اجتيـاحـا
وأنبتـوا البيـدَ بـالعـوالـي والقُضْـبِ واستعجلـوا الكفـاحـا
فـدافعـتْ عنـهُ أوليـاؤهُ وعـانقـوا البيـضَ والـرِّمـاحـا
سبعـون فـي مثلِهـم أُلـوفـاً فـأثخنـوا بينهـم جِـراحـا
ثـمّ قَضَـوا جملـةً فـلاقـوا هنـاك سهـمَ القضـا المتـاحـا
فشـدَّ فيهـم أبـو علـيٍّ وصـافحـت نفسُـهُ الصّفـاحـا
يـا غيـرةَ اللهِ لا تُغيثـي منهـم صيـاحـاً ولا ضبـاحـا(١)
ثـمّ انثنـى ظـامئـاً وحيـداً كمـا غـدا فيهـمُ وراحـا
ولـم يـزل يـرتقـي إلـى أن دعـاه داعـي اللّقـا فصـاحـا

(١) الضّباح: الصّياح، وهو في الأصل صوت الثّعلب.

دونكـــمُ مهجتـــي فـــإنّـــي دُعيـــت أن أرتقـــي الضّـــراحـــا
فكلكلـــوا فـــوقَـــه فهـــذا يقطـــعُ رأســـاً وذا جنـــاحـــا
يـــا بـــأبـــي أنفســـاً ظِمـــاءً مـــاتـــت ولـــم تشـــرب المُبـــاحـــا
يـــا بـــأبـــي أوجهـــاً صِبـــاحـــاً بـــاكـــرهـــا حتفُهـــا صَبـــاحـــا
يـــا بـــأبـــي أجسمـــاً تعـــرّتْ ثـــمّ اكتســـت بـــالـــدّمـــاء وشـــاحـــا[1]
يـــا ســـادتـــي يـــا بنـــي علـــيٍّ بكـــى الهـــدى فقـــدكـــم ونـــاحـــا
أوحشتـــمُ الحِجـــرَ والمســـاعـــي آنستـــمُ القَفْـــرَ والبِطـــاحـــا
أوحشتـــمُ الـــذُّكـــرَ والمثـــانـــي والسُّـــوَرَ الطـــوَّلَ الفصـــاحـــا
لا ســـامـــحَ اللهُ مـــن قَـــلاكـــم وزادَ أشيـــاعَكـــم سمـــاحـــا

وله في الإمام الصَّادق (صلوات الله عليه):

عُـجْ بـالمَطيِّ علـى بقيـع الغـرقـدِ واقـرَا التَّحيّـة جعفـرَ بـنَ محمَّـدِ
وقـل: ابـنَ بنـت محمَّـدٍ ووصيَّـه يـا نـورَ كـلِّ هـدايـةٍ لـم تجحـدِ
يـا صـادقـاً شهـد الإلـهُ بصـدقـهِ فكفـى شهـادةَ ذي الجـلالِ الأمجـدِ
يا ابن الهدى وأبا الهدى أنت الهدى يـا نـورَ حـاضـرِ سـرِّ كـلِّ مـوحِّـدِ
يـا ابـن النبـيِّ محمَّـدٍ أنـت الـذي أوضحـتَ قصـدَ ولاءِ آلِ محمَّـدِ
يـا سـادسَ الأنـوارِ يـا علـمَ الهـدى ضـلَّ امـرؤٌ بـولائكـمْ لـم يهتـدِ

وله من قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين (صلوات الله عليه):

تخيَّـــرهُ اللهُ مـــن خلقِـــهِ فحمّلَـــهُ الـــذُّكـــرَ وهـــو الخبيـــرُ
وأنـــزلَ بـــالسُّـــوَرِ المحكمـــاتِ عليـــه كتـــابٌ مبيـــنٌ منيـــرُ
وأغشـــاه نـــوراً ونـــاداه: قـــمْ وأنـــذرْ فـــأنـــتَ البشيـــرُ النَّـــذيـــرُ
فـــلاحَ الهـــدى واضمحـــلّ العمـــى وولّـــى الضَّـــلالُ وعِيـــفَ الغـــرورُ
فـــوصّـــى عليّـــاً فنعـــمَ الـــوصـــيُّ ونعـــمَ الـــولـــيُّ ونعـــمَ النَّصيـــرُ

(١) الوشاح: شبه قلادة من نسيج عريض يُرصَّع بالجوهر.

وله من قصيدة في الأئمّة الطّاهرين عليهم السلام قوله:

نـصٌ علـى سـتٍّ وسـتٍّ بعـدَهُ ... كـلٌّ إمـامٌ راشـدٌ بـرهـانُـهُ
صلّـى عليـه ذو العلـى ولـم يـزل ... يغشـاه منـه أبـداً رضـوانُـهُ

وله من قصيدة أخرى:

وقلـت: بـراثـا كـان بيتـاً لمـريـمٍ ... وذاك ضعيفٌ في الأسانيدِ أعوجُ
ولكنّـه بيـتٌ لعيسـى بـن مـريـمٍ ... ولـلأنبيـاءِ الـزّهـرِ مثـوىً ومـدرجُ
ولـلأوصيـاءِ الطّـاهـريـن مقـامُهـم ... علـى غـابـرِ الأيّـام والحـقُّ أبلـجُ
بسبعينَ موصىً بعد سبعينَ مرسلٍ ... جبـاهُهـمُ فيهـا سجـودٌ تَشجّـجُ
وآخـرُهـم فيهـا صـلاةً إمـامُنـا ... علـيٌّ بـذا جـاءَ الحـديـثُ المنهّـجُ

وله من قصيدة كبيرة يمدح بها أهل البيت عليهم السلام:

ألستَ ترى جبريلَ وهو مقرَّبٌ ... له في العلى من راحةِ القصدِ موقفُ
يقـول لهـم: أهـلَ العبـا أنـا منكـمُ ... فمن مثلُ أهلِ البيتِ إن كنتَ تنصفُ؟
نعـم آلُ طـه خيرُ مـن وطأ الحصى ... وأكـرمُ أبصـارٍ علـى الأرض تطـرفُ
هـم الكلمـاتُ الطيّبـاتُ التـي بهـا ... يُتاب على الخاطي فيُحبا ويُزلفُ
هم البركاتُ النّازلاتُ على الورى ... تعـمُّ جميـعَ المـؤمنيـن وتكنـفُ
هـم البـاقيـاتُ الصّـالحـاتُ بـذكـرِهـا ... لـذاكـرِهـا خيـرُ الثّـوابِ المضعّـفُ
هـم الصّلـواتُ الـزّاكيـاتُ عليهـمُ ... يـدلُّ المنـادي بـالصّـلاةِ ويعكـفُ
هـم الحـرمُ المـأمـونُ آمـن أهلُـهُ ... وأعـداؤه مـن حـولِـه تتخطّـفُ
هـم الـوجـهُ وجـهُ اللهِ والجنـبُ جنبُـهُ ... وهم فُلك نوحٍ خابَ عنه المخلّفُ
هـم البـابُ بـابُ اللهِ والحبـلُ حبلُـه ... وعـروتُـه الـوثقـى تـواري وتكنـفُ
وأسماؤه الحسنى التي من دعا بها ... أُجيـبَ فمـا للنّـاسِ عنهـا تحـرّفُ

* * *

(٣٣)
ابن حمّاد العبدي

التّعريف بالشّاعر

أبو الحسن عليّ بن حمّاد بن عبيدالله بن حمّاد العدوي العبدي البصري[١]. كان حمّاد، والد الشّاعر، أحد شعراء أهل البيت ﷺ. وقد ذكره ولده عليّ، شاعرنا، في شعره بقوله من قصيدة:

وإنَّ العبدَ عبدُكم عليّاً   كذا حمَّادُ عبدُكمُ الأديبُ
رثاكم والدي بالشِّعر قبلي   وأوصاني به أن لا أغيبُ

وعليّ بن حمّاد علم من أعلام الشّيعة، وعالم كبير من علمائها، وشاعر مشهور من شعرائها، ومن حفظة الحديث المعاصرين للشّيخ الصّدوق. وقد أدركه النّجاشي، وقال في «رجاله»: «قد رأيته»[٢]، وهو من المكثرين في مدح أهل البيت ﷺ ورثائهم، والمجاهرين في ذلك والمُجيدين. وقد جمع العلاّمة السّماوي شعره في ديوان يربو على ألف ومئتي بيت. وشعره ينمّ عن علمه الغزير وتضلّعه في الحديث، وتضمّنه الحقائق...، ما يجعله لسان حجج وبرهنة ونظم بيّنات ودلائل يدعو إلى إقامة سنن الهدى.

يقول ابن حمّاد في ذلك:

ما لابن حمّادِ العبديِّ من عملٍ   إلاّ تمسُّكه بالميم والعين

---

(١) الغدير، ٤/١٩٧ ـ ٢٢٣.
(٢) رجال النّجاشي، ص ٢٤٤، رقم ٦٤٠.

فـالميـمُ غـايـة آمـالـي محمّـدهـا والعيـن أعنـي عليّـاً قـرّة العيـن
صلّـى الإلـه عليهـم كلّمـا طلعـت شمسٌ وما غـربـت عنـد العشـاءيـن

لا تـذكـر كتب تـاريخ الأدب سنة ولادته وسنة وفاته، غير أنَّ النجاشي الـذي أدركـه ورآه، ولـم يـروِ عنه، ولد في صفر سنة ٣٧٢هـ، وشيخه الذي يـروي عنه، وهو الجلودي البصري، توفّي في ١٧ ذي الحجّة سنة ٣٣٢هـ؛ ما يعني أنّه ولد في أوائل القرن الرّابع وتوفّي في آخره.

وقـد أتيـح للعـلاّمـة الأميني أن يقف على قصيدة طويلة له في مجموعة عتيقة مخطـوطـة، تـنسب بـعض أبياتها إلى العبدي سفيان بن مصعب، وأثبتها كـاملـة فـي مـوسـوعـة «الغدير»[1]. كما أتيح له أيضاً أن يقف له، في طيّات المجـامـع العتيقة في النّجف الأشرف والكاظميّة على قصائد جمّة، ذكر عددها ومطلع كلٍّ منها وعدد أبياته وأبياتاً من بعضها[2].

شعره في يوم الغدير

للشّـاعـر قصـائـد كثيـرة فـي مـدح أميـر المـؤمنين، الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، يذكر فيها يوم الغدير، وفي ما يأتي بعض هذه القصائد:

(١)

ألا قُل لسلطانِ الهوى: كيف أعملُ؟ لقد جار مـن أهـوى وأنتَ المؤمّلُ
أأُبـدي إليـك اليـوم مـا أنـا مضمـرٌ من الوجدِ في الأحشاءِ أم أتحمّلُ؟
ومـا أنـا إلاّ هـالـكٌ إن كتمتُـهُ ولا شكّ كتمانُ الهوى سوف يقتلُ
فخذ بعضَ ما عندي وبعضٌ أصونُهُ فإن رمتُ صونَ الكلّ فالحالُ مشكلُ
لقـد كنتُ خلـواً مـن غـرامٍ وصبـوةٍ أبيتُ وما لي في الهوى قطُّ مدخلُ
إلـى أن دعـانـي للصَّبـابـةِ شـادنٌ تحيّـرُ فيـه الـواصفـون وتـذهـلُ

(١) راجع: الغدير، ٤/ ٢١٤ ـ ٢١٩.
(٢) راجع: نفسه، ٤/ ٢٢٨ ـ ٢٣٣.

بديعُ جمالٍ لو يَرى الحسنُ حسنَه ... لقــرَّ اختيــاراً أنّــه منــه أجمــلُ
فسبحــانَ مــن أنشــاه فــرداً بحسنِــهِ ... فــلا تعجبــوا فــاللهُ مــا شــاء يفعــلُ
دعــانــي فلــم ألبــث ولبّيــتُ عــاجــلاً ... وما كنت لولا ذلك الحسنُ أعجلُ
بـذلـتُ لـه روحـي ومـا أنـا مـالـكٌ ... وفـي مثلـه الأرواحُ والمـالُ تُبـذَلُ
وصـرتُ لـه خِـدنـاً ثـلاثيـنَ حجّـةً ... أُعـانـق منـه الشَّمـسَ واللَّيـلُ أليـلُ
بسمعـيَ وَقـرٌ إن لحـا فيـهِ كـاشـحٌ ... كـذاك بـه عـن عـذلٍ مـن راح يعـذلُ
إلـى أن بـدا شيبـي ولاحَ بيـاضُـهُ ... كما لاح قرنٌ من سنا الشّمس مسدلُ
ويــدّل وصلــي بــالجفــا متعمِّــداً ... ومــا خلتُــه للهجــرِ والصــدّ يفعــلُ
فحـاولتـه وصـلاً فقـال لـيَ: ابتـدئْ ... وإلاّ يمينــاً إنّــه ليــس يقبــلُ
وفــرٌ كمــا مــن حيــدرٍ فــرَّ قــرنُــهُ ... وقـد ثـار مـن نقـع السَّنـابكِ قسطَلُ
غــداةَ رأتــهُ المشــركــون وسيفُــهُ ... بكفّيـه منـه المـوتُ يجـري ويهطـلُ
حســامٌ كصــلّ الــرّيــمِ فــي جنبــاتِــهِ ... دبيبٌ كما دبّت على الصّخرِ أنملُ
إذا مـا انتضـاه واعتـزى وسـطَ مـأزقٍ ... تـزلـزل خـوفـاً منه رضـوى ويـذبـلُ
بــه مــرحــبٌ عــضّ التّــرابَ معفــراً ... وعمــرو بــن ودٍّ راح وهــو مجــدّلُ
وقـام بـه الإسـلامُ بعـد اعـوجـاجـه ... وجـاء بـه الـدِّيـن الحنيـف يُكمّـلُ

إلى أن يقول فيها:

هـو الضّـاربُ الهاماتِ والبطلُ الذي ... بضربتِهِ قد ماتَ في الحالِ نوفلُ
وعـرّجَ جبـريـلُ الأميـنُ مصـرِّحـاً ... يكبّــرُ فــي أُفــق السّمــا ويهلّــلُ
أخـو المصطفى يومَ الغديرِ وصنوُهُ ... ومُضجعُــهُ فــي لحــدِه والمغسّــلُ
له الشّمس رُدّت حين فاتتْ صلاتُهُ ... وقـد فـاتـه الـوقـتُ الـذي هـو أفضـلُ
فصلّـى فعـادتْ وهـي تهـوي كـأنّهـا ... إلى الغربِ نجمٌ للشّياطين مُرسَلُ
أمــا قــال فيــهِ أحمــدٌ وهــو قــائــمٌ ... على منبرِ الأكوار والنّاسُ نُزّلٌ:(١)

(١) في بعض المصادر: والجمع حُفَّلُ.

عليٌّ أخي دون الصَّحابةِ كلِّهم ... به جاءني جبريلُ إن كنتَ تسألُ
عليٌّ بأمرِ الله بعدي خليفةٌ ... وصيّي عليكم كيف ما شاء يفعلُ
ألا إنّ عاصيهِ كعاصي محمَّدٍ ... وعاصيه عاصي الله والحقُّ أجملُ
ألا إنّه نفسي ونفسيَ نفسُه ... به النصُّ أنبا وهو وحيٌ منزّلُ
ألا إنّني للعلمِ فيكمْ مدينةٌ ... عليٌّ لها بابٌ لمن رام يدخلُ
ألا إنّه مولاكمُ ووليّكمْ ... وأقضاكمُ بالحقّ يقضي ويعدلُ؟
فقالوا جميعاً: قد رضيناه حاكماً ... ويقطعُ فينا ما يشاءُ ويوصلُ
ويكفيكمُ فضلاً غداةَ مسيرِهِ ... إلى يثربٍ والقومُ تعلو وتسفلُ
وقد عطشوا إذ لاحَ في الدَّيرِ قائمٌ ... لهم راهبٌ جمُّ العلوم مكمّلُ
فناداه من بُعدٍ وأعلا بصوتِهِ ... فكاد على خوفٍ من الرُّعبِ ينزلُ
فأشرف مذعوراً، فقال: فهل ترى ... بقربِكَ ماءً أيّها المتبتّلُ؟
فقال: وأنّى بالمياهِ وأرضُنا ... جبالٌ وصخرٌ لا ترامُ وجندلُ؟
ولكنّ في الإنجيلِ أنّ بقُربِنا ... على فرسخينِ لا محالةَ منهلُ(١)
ولم يَرَه إلاّ نبيٌّ مطهّرٌ ... وإلاّ وصيٌّ للنّبيِّ مفضّلُ
فسار على اسمِ اللهِ للماءِ طالباً ... وراهبُ ذاك الدّيرِ بالعينِ يأملُ
فأوقفَ والفرسانُ حول ركابِه ... ونارُ الظّما في أنفسِ القومِ تشعلُ
فقال لهم: يا قومِ هذا مكانكُمْ ... فمن رامَ شربَ الماءِ للحفرِ ينزلُ
فما كان إلاّ ساعةً ثمّ أشرفوا ... على صخرةٍ صمّاء لا تتقلقلُ
لُجينيّةً مَلْساً كأنّ أديمَها ... أُذيبَ عليها التّبرُ أو ريفَ منخلُ
فقال: اقلبوها فاعتزوا عند أمرِهِ ... على ذاك كُلاًّ وهي لا تتجلجلُ
فقالوا جميعاً: يا عليُّ فهذه ... صفاتٌ بها تعيا الرّجالُ وتذهلُ
فمدّ إليها ما انحنى فوق سرجِهِ ... يميناً لها إلاّ غدت وهي أسفلُ
وزجَّ بها كالعودِ في كفِّ لاهبٍ ... فبانَ لهم عذبٌ من الماءِ سلسلُ

(١) كذا بالرّفع، والصّواب نصبها: لأنّها اسم أنّ مؤخراً.

فـأوردهـم حتّى اكتفـوا ثـمّ عـادهـا ... علـى الجـبِّ لا يعيـا ولا يتملمـلُ
فلمّـا رآهـا الـرّاهـبُ انحـطَّ مسـرعـاً ... لكفّيـهِ مـا بيـن الأنـام يُقبّـلُ
وأسلـم لمّـا أن رأوا هـو قـائـلٌ: ... أظنّـك آليّـاً ومـا كنـت أجهـلُ

القصيدة(١٠٤) أبيات

(٢)

من قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين (صلوات الله عليه):

لَعمـرُكَ يـا فتـى يـومِ الغـديـرِ ... لأنـت المـرءُ أولـى بـالأمـورِ
وأنـت أخٌ لخيـرِ الخلـقِ طـرّاً ... ونفـسٌ فـي مبـاهلـةِ البشيـرِ
وأنـت الصّنـوُ والصّهـرُ المـزكّـى ... ووالـدُ شبّـرٍ وأبـو شبيـرِ
وأنـت المـرءُ لـم تحفـلْ بـدنيـاً ... وليـس لـه بـذلـك مـن نظيـرِ
لقـد نبعـتْ لـه عيـنٌ فظلّـتْ ... تفـورُ كـأنّهـا عنـقُ البعيـرِ
فـوافـاه البشيـرُ بهـا مغـذّاً ... فقـال علـيٌّ: أبشـر يـا بشيـري
لقـد صيّـرتُهـا وقفـاً مُبـاحـاً ... لـوجـهِ اللهِ ذي العـزِّ القـديـرِ
وكـان يقـولُ: يـا دنيـاي غـرّي ... سـواي فلسـتُ مـن أهـلِ الغـرورِ
وصـابـرَ مـعْ حليلتِـهِ الأذايـا ... فنـالا خيـرَ عـاقبـةِ الصّبـورِ
وقـالـت أمُّ أيمـنَ: جئـتُ يـومـاً ... إلـى الـزّهـراءِ فـي وقـتِ الهجيـرِ
فلمّـا أن دنـوتُ سمعـتُ صـوتـاً ... وطحنـاً فـي الـرّحـاءِ بـلا مُـديـرِ
فجئـتُ البـابَ أقـرعُـهُ نغـوراً ... فمـا مـن سـامـعٍ لـيَ فـي نغـوري
فجئت المصطفى وقصصتُ شأني ... ومـا أبصـرتُ مـن أمـرٍ زعـورِ
فقـال المصطفـى: شكـراً لـربٍّ ... بـإتمـام الحَبـاء لهـا جـديـرِ
رآهـا اللهُ مُتعَبـةً فـألقـى ... عليهـا النّـوم ذو المـنِّ الكثيـرِ
ووكّـل بـالـرّحـا مَلَكـاً مُـديـراً ... فعـدتُ وقـد ملئـتُ مـن السّـرورِ
تـزوّجَ فـي السّمـاءِ بـأمـر ربّـي ... بفـاطمـةَ المهـذّبـةِ الطّهـورِ
وصيّـر مهـرهـا خمـسَ الأراضـي ... بمـا تحـويـه مـن كَـرَمٍ وخيـرِ

فـذا خيـرُ الـرِّجـال وتلـك خيـرُ ... النِّسـاءِ ومهـرُهـا خيـر المهـورِ
وإبنـاهـا الأُلـى فضلـوا البـرايـا ... بتنصيـصِ اللَّطيـفِ بهـا الخبيـرِ
وصيّـر ودّهـم أجـراً لطـه ... بتبليـغِ الـرِّسـالـةِ فـي الأجـورِ

(٣)

من قصيدة في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

أرضِ الإلـهَ وأسخـطِ الشَّيطـانـا ... تُعطَ الرِّضا في الحشرِ والرِّضوانا
وامحـض ولاءَك للَّـذيـن ولاؤهـمْ ... فـرضٌ علـى مـن يقـرأ القـرآنـا
آلُ النَّبـيّ محمَّـدٍ خيـرُ الـورى ... وأجلّهـم عنـد الإلـه مكـانـا
قـومٌ قـوامُ الـدِّيـنِ والـدُّنيـا بهـمْ ... إذ أصبحـوا لهمـا معـاً أركـانـا
قـومٌ إذا أصفـى هـواهـم مـؤمـنٌ ... يُعطـى غـداً ممّـا يخـافُ أمـانـا
قـومٌ يطيـعُ اللهَ طـائـعُ أمـرهـمْ ... وإذا عصـاهُ فقـد عصـى الـرَّحمـانـا
وهـمُ الصِّـراطُ المستقيـمُ وحبُّهـمْ ... يـومَ المعـادِ يثقِّـلُ الميـزانـا
واللهُ صيّـرهـمْ لمحنـةِ خلقـه ... بيـن الضَّـلالـةِ والهـدى فـرقـانـا
حفظـوا الشَّـريعـةَ قـائميـن بحفظِهـا ... ينفـون عنهـا الـزّورَ والبهتـانـا
وأتـى القـرانُ بفـرضِ طـاعتهمْ علـى ... كـلِّ البـريّـةِ فـاسمـع القـرآنـا
وتـوالـتِ الأخبـارُ أنّ محمَّـداً ... بـولائهـم وبحفظهـم أوصـانـا
مـن سبّحـت فـي كفّـه بيضُ الحصـى ... ليكـونَ ذاك لصـدقـهِ تبيـانـا
مـن أنـزلَ اللهُ الكتـابَ عليـه فـي ... كـلِّ العلـومِ ليغتـدي بـرهـانـا
مـن بلّـغ الـدُّنيـا بنصـبِ وصيِّـهِ ... يـومَ الغـديـرِ ليكمـلَ الإيمـانـا
مـن ذا لـه يـومَ الغـديـرِ فضيلـةٌ ... إذ لا تطيـقُ لفضلِـهِ جحـدانـا
مـن آكـلُ الطَّيـرِ الـذي لـم يستطـعْ ... خلـقٌ لـه جَحْـداً ولا كتمـانـا
من آكلُ القطفِ الجنيّ على حرىً(١) ... وإليـه أهـدى ربّـه رمّـانـا

---

(١) الحَرَى: الجدارة والاستحقاق.

من فيه أنزل «هل أتى» ربُّ العُلى وجـزاه حـورَ العيـن والـولـدانـا
مـن نـصَّ أحمـدُ فـي مـزايـاه التـي لـم يُعطِهـا ربُّ العلـى إنسـانـا
مـن لا يـواليـه سـوى ابـنُ نجيبـةٍ حفظـت أبـاه وراعـت الـرَّحمـانـا

القصيدة (٢٧) بيتاً

(٤)

يمدح أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ يوم الغدير:

يـا عيـدَ يـومِ الغـديـرِ عُـد بـالهنـا والسُّـرورِ
ففيـك أضحـى علـيٌّ أميـرَ كـلِّ أميـرِ
غـداةَ جبـريـلُ وافـى مـن السَّميـعِ البصيـرِ
وقـال: يـا أحمـدُ انـزل بجنـبِ هـذا الغَـديـرِ
بلّـغ وإلاّ فمـا كنـت قـائمـاً بـالأمـورِ
فـأنـزلَ الجمـعَ كُـلاًّ ثـمّ اعتلـى فـوق كـورِ
وقـال: قـد جـاءَ أمـرٌ مـن اللّطيـفِ الخبيـرِ
بـأن أقيـمَ عليّـاً خليفـةً فـي مسيـري
فبـايعـوه فمـا فـي الـورى لـه مـن نظيـرِ
إمـامُ كـلِّ إمـامٍ مـولـىً لكـلِّ كبيـرِ

مناقشة حجج المخالفين

وكان ابن حمّاد يناقش، في شعره، حجج المخالفين، ومن ذلك قوله:

قـال ابـن حمّـاد، وقـال لـه فتـىً قـد جـاءَ يسـألُـه: جهلتُـكَ فـاعـذرِ
قـد كنـت أصبـو أن أراك فـأقتـدي بصحيـحِ رأيـك فـي الطَّـريـقِ الأنـورِ
وأريـد أسـأل مستفيـداً، قلـتُ: سـلْ واسمـع جـوابـاً قـاهـراً لـم يقهـرِ
قال: الإمامةُ كيف صحّت عندكمْ مـن دون زيـدٍ والأنـامِ لجعفـرِ؟
قلتُ: النُّصوصُ على الأئمّةِ جاءَنا حتمـاً مـن اللهِ العلـيِّ الأكبـرِ

إنّ الأئمّة تسعةٌ وثلاثةٌ   نقلاً عن الهادي البشير المنذرِ
لا زائدٌ فيهم وليس بناقصٍ   منهم كما قد قيل عدّ الأشهرِ
مثل النبوّة صُيّرت في معشرٍ   فكذا الإمامةُ صُيِّرت في معشرِ

قال نجم الدّين العمري في كتابه: «المجدي»[1]، وهو صاحب هذه الرّواية: هذا كلام حسن، وحجّة قويّة؛ لأنّ حاجة النّاس إلى الإمام ـ أعني الخليفة ـ كحاجتهم إلى النّبيّ ﷺ؛ لأنّه القائم بإعلاء سنّته السنيّة في كلّ زمان.

رجع إلى كلام أبي الحسن بن حمّاد رحمه الله:

قال: الإمامة لا تتمّ لقائمٍ   ما لم يجرّ بسيفه ويُشهّرِ
فلذاك زيدٌ حازها بقيامِهِ   من دون جعفرَ فاذكر وتدبّرِ

قال نجم الدّين: هكذا أنشدني بفتح الرّاء من جعفر، وهو رأي الكوفيّين؛ أعني منعه من الصّرف:

قلت: الوصيُّ على قياسِكَ لم ينلْ   حظَّ الخلافةِ بل غدت في حبترِ
إذ كان لم يدعُ الأنامَ بسيفِهِ   قطعاً فيا لك فريةً من مفتري
وكذلك الحسنُ الشّهيدُ بتركِهِ   بطلتْ إمامتُه بقولِكَ فانظرِ
والعابدُ السجّادُ لم يُرَ داعياً   ومشهّراً للسّيف إذ لم يُنصَرِ
أفكانَ جعفرُ يستثير عداتَهُ   ويُذيع دعوته ولمّا يُؤمرِ

قال نجم الدّين: يريد أنّ المأمور كان زيداً لا جعفراً:

ودليلُ ذلك قولُ جعفر عندما   عُزّي بزيدٍ قال كالمستعبر:
لو كان عمّي ظافراً لوفى بما   قد كان عاهد غير أن لم يظفر

(1) المجدي، ص ١٥٨. وفيه ورد البيت الأوّل هكذا:

قال: ابن حمّاد؟ فقلت له: أجل   فدنا، وقال: جهلتُ قدرك فاعذر

شاعر مجدِّد

ويجد القارئ في شعر ابن حمّاد تجديداً على مستوى الشّكل يتمثّل باتّباع البناء الرُّباعي، ومن نماذج ذلك قوله في مدح الإمام عليّ عليه السلام :

حـدّثنـا الشّيـخ الثّقـه　　محمّـدٌ عـن صـدقـه
روايـــةً متّسقـــه　　عـن أنـسٍ عـن النّبـي

***

رأيتـه علـى حِـرا　　مـع علـيٍّ ذي النُّهـى
يقطف قطفاً في الهوى　　شيئـاً كمثـلِ العنَـبِ

***

فـأكـلا منـه معـا　　حتّـى إذا مـا شبعـا
رأيتـه مـرتفعـا　　فطـال منـه عجبـي

***

كـان طعـامَ الجنّـةِ　　أنـزلـه ذو العـزّةِ
هـديّـةً للصّفـوةِ　　مـن الهـدايـا النُّخَـبِ

أشـار بهـذه الأبيـات إلـى ما أخرجه محمّد بن جرير الطبري بإسناده عن أنس، قال:

إنّ رسول الله ﷺ ركب يوماً إلى جبل كداء، فقال: «يا أنس، خذ البغلة وانطلق إلى موضع كذا تجد عليّاً جالساً يسبّح بالحصى فاقرأه منّي السلام واحمله على البغلة وائت به إليّ».

فقـال: فلمّـا ذهبت وجدت عليّاً كذلك، فقلت: إنّ رسول الله يدعوك. فلمّـا أتـى رسـول الله قـال له: «اجلس، فإنّ هذا موضعٌ جلس فيه سبعون نبيّاً مرسلاً، ما جلس فيه من الأنبياء أحدٌ إلاّ وأنا خيرٌ منه، وقد جلس مع كلّ نبيّ أخٌ له ما جلس من الأخوة أحدٌ إلاّ وأنت خيرٌ منه». قال: فرأيت غمامة بيضاء

وقد أظلّتهما فجعلا يأكلان منه عنقود عنب، وقال: «كل ـ يا أخي ـ فهذه هديّةٌ من الله إليّ ثمّ إليك»، ثمّ شربا ثمّ ارتفعت الغمامة، ثمّ قال: «يا أنس، والذي خلق ما يشاء، لقد أكل من الغمامة ثلاثمئة وثلاثة عشر نبيّاً وثلاثمئة وثلاثة عشر وصيّاً، ما فيهم نبيٌّ أكرم على الله منّي ولا وصيٌّ أكرم على الله من عليٍّ».

شعره في مدح أهل البيت ورثائهم

ولابن حمّاد العبدي يمدح أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ قوله على رويّ نونيّة العوني المذكور:

ما لابن حمّادٍ سوى من حمدت … آثاره وأبهجت غرّانُه(1)
ذاك عليٌّ المرتضى الطُّهرُ الذي … بفخرهِ قد فخرتْ عدنانُه
صنوُ النّبيِّ هديُه كهديهِ … إذ كلُّ شيءٍ شكلُه عنوانُه
وصيُّهُ حقّاً وقاضي دَينِهِ … إذ اقتضى ديونَه ديّانُه
ولم يَقُمْ معْهُ سوى أربعةٍ … وهم لَعَمرُ ربِّهم أركانُه
يتبعُهُ المقدادُ وابنُ ياسرٍ … عمّارُه وسلمُه سلمانُه
والصّادقُ اللّهجةِ أعني جُندباً … فلم يُخالف أمرَه إيمانُه
ولو يشا أهلكهمْ لكنّه … أبقى ليبقى ناسلاً إنسانُه

وله يرثي بها الإمام السّبط الشّهيد ـ صلوات الله عليه ـ:

لله ما صنعتْ فينا يدُ البينِ … كم من حشا أُقرِحَتْ منّا ومن عينِ
ما لي وللبين لا أهلاً بطلعتِهِ … كم فرّقَ البينُ قِدماً بين إلفينِ
كانا كغصنينِ في أصلٍ غذاؤهما … ماءُ النّعيم وفي التشبيه شكلينِ
كأنّ روحيهما من حسنِ إلفِهما … روحٌ وقد قُسّمت ما بين جسمينِ
لا عذلَ بينهما في حفظِ عهدِهما … ولا يُزيلُهما لومُ العذولينِ

---

(1) غرّان؛ جمع الغرير: الخلق الحسن؛ ومنه المثل: أدبر غريره وأقبل هريره؛ أي أدبر حسنه وجاء سيّئه.

لا يطمعُ الدّهرُ في تغييرِ ودِّهما ... ولا يميلان من عهدٍ إلى مَينِ
حتّى إذا أبصرت عينُ النّوى بهما ... خِلّين في العيشِ من همٍّ خليّينِ
رماهما حسداً منهُ بداهيةٍ ... فأصبحا بعد جمعِ الشّملِ ضدّينِ
في الشّرقِ هذا وذا في الغربِ منتئياً ... مشرّدَينِ على بُعدٍ شجيّينِ
والدّهرُ أحسدُ شيءٍ للقريبينِ ... يرمي وصالهما بالبُعدِ والبَينِ
لا تأمنِ الدّهرَ إنّ الدّهرَ ذو غِيَرٍ ... وذو لسانينِ في الدُّنيا ووجهينِ
أخنى على عترةِ الهادي فشتّتهمْ ... فما ترى جامعاً منهم بشخصينِ
كأنّما الدّهرُ آلى أن يبدِّدَهم ... كعاتبٍ ذي عنادٍ أو كذي دَيْنِ
بعضٌ بطيْبَةَ مدفونٌ وبعضُهمُ ... بكربلاءَ وبعضٌ بالغريّينِ
وأرض طوسٍ وسامرّا وقد ضُمنتْ ... بغدادُ بدرينِ حَلاّ وسط قبرينِ
يا سادتي ألمن أبكي أسىً ولمن ... أبكي بجفنينِ من عيني قريحينِ؟
أبكي على الحسنِ المسمومِ مضطلماً ... أم الحسينِ لقىً بين الخميسينِ
أبكي عليه خضيبَ الشّيبِ من دمِهِ ... معفّرَ الخدِّ محزوزَ الوريدينِ
وزينبٌ في بناتِ الطُّهرِ لاطمةٌ ... والدّمعُ في خدِّها قد خدَّ خدّينِ
تدعوه يا واحداً قد كنتُ آملُه ... حتّى استبدّت به دوني يد البينِ
لا عشتُ بعدَكَ ما إن عشتُ لا نعمتْ ... روحي ولا طعمتْ طعمَ الكرى عيني
أُنظر إليَّ أخي قبلَ الفراقِ لقد ... أذكى فراقُكَ في قلبي حريقينِ
أُنظر إلى فاطم الصُّغرى أخي ترَها ... لِليُتم والسّبي قد خصّت بذلّينِ
إذا دنتْ منك ظلَّ الرِّجسُ يضربُها ... فتتّقي الضَّربَ منها بالذِّراعينِ
وتستغيثُ وتدعو: عمّتا تلفت ... روحي لرزءينِ في قلبي عظيمينِ
ضربٌ على الجسد البالي وفي كبدي ... للثكلِ ضربٌ فما أقوى لضربينِ
أُنظر عليّاً أسيراً لا نصيرَ له ... قد قيّدوه على رغمٍ بقيدينِ
وارحمتا - يا أخي - من بعد فقدِكَ بل ... وارحمتا للأسيرينِ اليتيمينِ
والسّبطُ في غمراتِ الموتِ مُشتغلٌ ... ببسطِ كفّينِ أو تقبيضِ رجلينِ
لا يستطيعُ جواباً للنّداء سوى ... يومي بلحظينِ من تكسيرِ جفنينِ

لا زلتُ أبكي دماً ينهلُّ منسجماً ... للسيّدين القتيلين الشّهيدينِ
السّيّدينِ الشّريفينِ اللّذين هما ... خير الورى من أبٍ مجدٍ وجدّينِ
الضّارعَينِ إلى اللهِ المنيبينِ ... المسرعَينِ إلى الحقّ الشّفيعينِ
العالمَينِ بذي العرش الحكيمَينِ ... العادلَينِ الحليمَينِ الرّشيدَينِ
الصّابرَينِ على البلوى الشّكورَينِ ... المُعرضَينِ عن الدّنيا المنيبَينِ
الشّاهدَين على الخلقِ الإمامينِ ... الصّادقَينِ عن الله الوفيّينِ
العابدَينِ التقيّينِ الزّكيّينِ ... المؤمنَينِ الشّجاعَينِ الجريّينِ
الحجّتَينِ على الخلقِ الأميرينِ ... الطّيّبَينِ الطّهورَينِ الزّكيّينِ
نورَينِ كانا قديماً في الظّلالِ كما ... قال النّبيُّ لعرش اللهِ قرطينِ
تفّاحتَي أحمدَ الهادي وقد جُعلا ... لفاطمٍ وعليٍّ الطُّهرِ نسلَينِ
صلّى الإلهُ على روحيهما وسقا ... قبرَيهما أبداً نَوْءَ السّماكينِ

إلى أن يقول فيها:

ما لابن حمّادٍ العبديِّ من عملٍ ... إلاّ تمسّكُهُ بالميمِ والعينِ
فالميمُ غايةُ آمالي محمّدُها ... والعينُ أعني عليّاً قرّةَ العينِ
صلّى الإلهُ عليهمْ كلّما طلعتْ ... شمسٌ وما غربت عند العشاءينِ

وله في رثاء الإمام السّبط الشّهيد ـ صلوات الله عليه ـ قوله يذكر فيه حديث الغدير:

حيِّ قبراً بكربلا مستنيرا ... ضمَّ كنز التُّقى وعلماً خطيرا
وأقم مأتمَ الشّهيدِ وأذرف ... منك دمعاً في الوجنتين غزيرا
والثمْ تربةَ الحسين بشجوٍ ... وأطِل بعدَ لثمكَ التّعفيرا
ثمّ قل: يا ضريحَ مولاي سُقّيـ ... ـتَ من الغيث هامياً جمهريرا
تِهْ على سائرِ القبورِ فقد أصـ ... ـبحتَ بالتّيهِ والفخارِ جديرا
فيك ريحانةُ النّبيِّ ومن حلَّ ... من المصطفى محلاًّ أثيرا
فيك ـ يا قبرُ ـ كلُّ حلمٍ وعلمٍ ... وحقيقٌ بأن تكون فخورا

فيـك مـن هـدَّ قتلُـه عمـدَ الـدِّيـ ـن وقـد كـان بـالهـدى معمـورا
فيـك مـن كـان جبـرئيـلُ يُنـاغيـ ـه وميكـالُ بـالحبـاء صغيـرا
فيـك مـن لاذ فطـرسٌ فتـرقّـى بجنـاحـي رضـاً وكـان حسيـرا
يـوم سـارتْ إليـه جيشُ ابـنِ هنـدٍ لـذحـولٍ أمسـت تحـلُّ الصُّـدورا
آهِ واحسـرتـي لـه وهـو بـالسَّيـ ـفِ نحيـرٌ أفـديـتُ ذاك النَّحيـرا
آهِ إذ ظـلَّ طـرفُـه يـرمـقُ الفسـ ـطـاطَ خـوفـاً علـى النِّسـاءِ غيـورا
آهِ إذ أقبـلَ الجـوادُ علـى النِّسـ ـوانِ ينعـاه بـالصَّهيـلِ عفيـرا
فتبـادرنَ بـالعـويـلِ وهتّكـ ـنَ الأقـراطَ بـارزاتِ الشُّعـورا
وتبـادرن مسـرعـاتٍ مـن الخـد ر ومـن قبـلُ مُسبـلات السّتـورا
ولطُمـن الخـدودَ مـن ألـمِ الثّكـلِ وغـادرن بـالنِّيـاحِ الخـدورا
وبـدا صـوتُهـنّ بيـن عـداهـنّ وعفـنَ الحجـابَ والتّخفيـرا
بـارزاتُ الـوجـوهِ مـن بعـد مـا غـو درنَ صُـونَ الـوجـوه والتخفيـرا
ثـمّ لمّـا رايـنَ رأسَ حسيـنٍ فـوق رمـحٍ حكـى الهـلالَ المنيـرا
صحـن بـالـذلّ أيّهـا النّـاس لِـمْ تُسـ ـبى ولـم نـأتِ فـي الأنـامِ نكيـرا؟
مـا لنـا لا نـرى لآلِ رسـولِ اللهِ فيكـم يـا هـؤلاءِ نصيـرا؟
فعلـى ظـالميهـمُ سخـطُ اللّـ ـهِ ولعـنٌ يبقـى ويفنـي الـدّهـورا
قـل لمـن لامَ فـي ودادي بنـي أحـ ـمـد: لا زلـتَ فـي لظـىً مـدحـورا
أعلـى حـبِّ معشـرٍ أنـت قـد كنـ ـتَ عـذولاً ولا تكـون عـذيـرا؟
وأبـوهـم أقـامـه اللهُ فـي خُـ ـمّ إمـامـاً وهـاديـاً وأميـرا
حيـن قـد بـايعـوه أمـراً عـن اللهِ فسـائـل دوحـاتِـهِ والغـديـرا
وأبـوهـمْ أفضـى النّبـيُّ إليـه علـمَ مـا كـان أوّلاً وأخيـرا
وأبـوهـمْ عـلا علـى العـرشِ لمّـا قـد رقـى كـاهـلَ النّبـيّ ظهيـرا
وأمـاطَ الأصنـامَ كـلاًّ عـن الكعـ ـبـةِ لمّـا هـوى بهـا تكسيـرا
قال: لو شئت ألمس النّجمَ بالكفِّ إذن كنـتُ عنـد ذاك قـديـرا
وأبـوهـمْ قـد ردّ للشّمـسِ بيضـاً وهـي كـادت لـوقتهـا أن تغـورا

وقضـى فـرضَـهُ أداءً وعـادت لغـروب وكـوّرت تكـويـرا
وأبوهم يروي على الحوض من وا لاهـمُ ويـردُّ عنـه الكفـورا
وأبـوهـم يقـاسـمُ النّـارَ والجنّـةَ فـي الحشـرِ عـادلاً لـن يجـورا
وأبـوهـم يـرى الإلـه لـه شبْـ ـهـا لأمـلاكِـهِ سميعـاً بصيـرا
فـإذا اشتـاقـت المـلائـكُ زارتـ ـهُ فنـاهيـك زائـراً ومـزورا
وأبـوهـم أحيـا لميـت بصـرصـر بعـدمـا كـان فـي الثّـرى مقبـورا
وأبـوهـم قـال النّبـيُّ لـه قـو لاً بليغـاً مكـرّراً تكـريـرا:
أنـت خـدنـي وصـاحبـي ووزيـري بعـد مـوتـي أكـرمْ بـذاك وزيـرا
أنـت منّـي كمثـلِ هـارونَ مـن مو سـى ولـم أبتـغ سـواه ظهيـرا
وأبـوهـم أودى بعمـروِ بـن ودٍّ حيـن لاقـاه فـي العجـاجِ أسيـرا
وأبـوهـم لبـابِ خيبـرَ أضحـى قـالعـاً ليـس عـاجـزاً بـل جسـورا
حـامـلُ الـرّايـة التـي ردّهـا بـالـ أمـسِ مـن لـم يـزلْ جبـانـاً فـرورا
خصّـه ذو العلـى بفـاطمـةٍ عـر سـاً ثـمّ أعطـاه شبّـراً وشبيـرا
وهـمُ بـاب ذي الجـلال علـى آ دمَ فـارتـدَّ ذنبُـهُ مغفـورا
وبهـم قـامـتِ السّمـاءُ ولـولا هـمْ لكـادت بـأهلِهـا أن تمـورا
وبهـم بـاهَـلَ النّبـيُّ فقـل لـي: أَلَهُـمْ فـي الـورى عـرفـتَ نظيـرا؟
فيهـمُ أنـزلَ المهيمـن قـرآ نـاً عظيمـاً وذاك جمّـاً خطيـرا
فـي الطّـواسيـن والحـواميـم والـرّحـ ـمـٰن آيـاً مـا كـان فـي الـذّكـرِ زورا
وخلقنـاه نطفـةً نبتليـه فجعلنـاه سـامعـاً وبصيـرا
لبيـانٍ إذا تـأمّلـه العـا رف يُبـدي لـه المقـامَ الكبيـرا
ثـمّ تفسيـر «هـل أتـى» فيـه يـا صـا حِ فـل إن كنـت تفهـم التّفسيـرا
إنّ الأبـرارَ يشـربـون بكـأسٍ كـان عنـدي مـزاجهـا كـافـورا
فلهـم أنشـأ المهيمـنُ عينـاً فجّـروهـا لـديهـمُ تفجيـرا
وهـداهـم وقـال: يـوفـون بـالنّـذ رِ، فمـن مثلُهـم يـوفّـي النّـذورا؟
ويخـافـون بعـد ذلـك يـومـاً شـرُّه كـان فـي الـورى مستطيـرا

فـوقـاهـم إلـٰهُهـم ذلـك اليـو م ويلقـونَ نضـرةً وسـرورا
وجـزاهـم بـأنّهـم صبـروا فـي الشّـ ـرّ والجَهـر جنّـةً وحـريـرا
فـاتّكـوا مـن علـى الأرائـك لا يلـ ـقـونَ فيهـا شمسـاً ولا زمهـريـرا
وأوانٍ وقـد أُطيفـت عليهـم سلسبيـلٌ مقـدّرٌ تقـديـرا
وبـأكـوابِ فضّـةٍ وقـواريـ ـرَ قـدّروهـا عليهـمُ تقـديـرا
وبكـأسٍ قـد مـازجـت زنجبيـلا لـذّة الشّـاربيـن تشفـي الصّـدورا
وإذا مـا رأيـت ثَـمّ نعيمـاً دائمـاً عنـدهـم وملكـاً كبيـرا
وعليهـم فيهـا ثيـابٌ مـن السّنـد سِ خضـرٌ فـي الحشـر تلمـع نـورا
ويُحلّـونَ بـالأسـاورِ فيهـا وسقـاهـمْ ربّـي شـرابـاً طهـورا
وروى لـي عبدُ العزيزِ الجلوديُّ(١) وقـد كـان صـادقـاً مبـرورا
عـن ثقـاتِ الحديث أعني الغلابي هـو أكـرِمْ بـذا وذا مـذكـورا
أسنـدوه عـن ابـن عبّـاسٍ يـومـاً قـال: كنّـا عنـد النّبـيّ حضـورا
إذ أتتـه البتـولُ فـاطـمُ تبكـي(٢) وتـوالـي شهيقَهـا والـزّفيـرا
قـال: مـا لـي أراكِ تبكيـن يـا فـا طـم؟ قـالـت وأخفـت التعبيـرا:
إجتمعـنَ النّسـاءُ نحـوي وأقبلـ ـنَ يُطِلْـنَ التّقـريـعَ والتّعييـرا
قلـن: إنّ النّبـيّ زوّجـكِ اليـو م عليّـاً بعـلاً عـديمـاً فقيـرا
قـال: يـا فـاطـمُ اسمعـي واشكـري الـلّـه فقـد نلـتِ منـه فضـلاً كبيـرا
لـم أزوّجـكِ دون إذنٍ مـن الـلّـه ومـا زال يحسـنُ التّـدبيـرا
أمـرَ اللهُ جبـرئيـل فنـادى رافعـاً فـي السّمـاءِ صـوتـاً جهيـرا
وأتـاه الأمـلاكُ حتّـى إذا مـا وردوا بيـتَ ربِّنـا المعمـورا
قـام جبـريـلُ قـائمـاً يكثـر التّحـ ـميـدَ للهِ جـلّ والتّكبيـرا

---

(١) أبو أحمد بن يحيى البصري، أحد مؤلّفي الإماميّة الثّقات الأثبات، له في الفقه والحديث والتّاريخ تآليف قيّمة، توفّي (١٧) ذي الحجّة سنة ٣٣٢.

(٢) «هذه الأبيات ذكرها ابن شهرآشوب، في المناقب [٣/ ٣٩٢] للعبدي، فحسبناه سفيان بن مصعب العبدي، ثمّ وقفنا على تمام القصيدة فعرفنا أنّها لابن حمّاد العبدي» (العلاّمة الأميني).

ثمّ نادى: زوّجتُ فاطمَ يا ربّ ... عليّ الطّهرَ الفتى المذكورا
قال ربُّ العلى: جعلت لها المهـ ... ـرَ لها خالصاً يفوق المهورا
خُمس أرضي لها ونهري وأوجبـ ... ـت على الخلق ودَّها المحصورا
نثرتْ عند ذاك طوبى على الحو ... ر من المسكِ والعبير نثيرا
وروينا عن النّبيِّ حديثاً ... في البرايا مصحّحاً مأثورا
أنّه قال: بينما النّاس في الجنّة إذ عاينوا ضياءً ونورا
كاد أن يخطفَ العيونَ فنادَوا: ... أيُّ شيءٍ هذا؟ وأبدَوا نكورا
أوَليس الإلـه قال لنا: لا ... شمس فيها تُرى ولا زمهريرا؟
وإذا بالنّداء: يا ساكني الجنّة مهلاً أمنتم التّغييرا
ذا عليٌّ الوليُّ قد داعب الزّهـ ... ـراءَ مولاتكم فأبدتْ سرورا
فبدا إذ تبسّمتْ ذلك النّو ... ر فزيدوا إكرامَه وحبورا
يا بني أحمدٍ عليكمْ عمادي ... واتّكالي إذا أردتُ النّشورا
ويكم يسعد الموالي ويشقى ... من يعاديكمُ ويصلى سعيرا
أنتمُ لي غداً وللشّيعة الأبـ ... ـرار ذخرٌ أكرمْ به مذخورا
فاستمعها كالدرِّ ليس ترى فيـ ... ـها ملاهي كلّاً ولا تعييرا
صاغ أبياتها عليُّ بن حمّا ... دٍ فزانتْ وحُبّرت تحبيرا

* * *

(٣٤)
أبو الفرج الرّازي

التّعريف بالشّاعر واسرته

أبو الفرج محمّد بن هندو الرّازي[١].

ينتمي الشّاعر إلى آل هندو، وهؤلاء أسرة من أسر الإماميّة النّاهضين، وفيهم جمع ممّن تحلّوا بالفضائل، وكان لهم في الكتابة والشّعر والعلم «قِدَمٌ وقَدم». ومنهم:

□ أبو الفرج محمّد بن هندو، مؤسّس شرف الأسرة، عدّه ابن شهرآشوب، في كتابه: «معالم العلماء» من شعراء أهل البيت عليهم السلام المتّقين.

□ أبو الفرج الحسين بن محمّد بن هندو. كان من أصحاب الصّاحب بن عبّاد، ومن شعره:

لا يوحشنّك من مجدٍ تباعدُه ... فإنّ للمجد تدريجاً وتدريبا
إنّ القناةَ التي شاهدتَ رِفْعَتَها ... تنمي، فتصْعَدُ أنبوباً فأنبوبا

□ أبو الفرج عليّ بن الحسين بن محمّد بن هندو. كان متضلّعاً في الحكمة والفلسفة والكتابة والشّعر والأدب، متميّزاً في ذلك كلّه. من مؤلّفاته: كتاب «مفتاح الطبّ» و «المقالة المشوّقة في المدخل إلى علم الفلك» و «الكلم الرّوحانيّة من الحكم اليونانيّة» و «الوساطة بين الزّناة واللاّطة»، وهي رسالة هزليّة، وديوان شعر. توفّي في جرجان سنة ٤٢٠هـ.

---

(١) الغدير، ٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٨.

ومن شعره:

ـ حَلَلْتُ وقاري في شادنٍ عيونُ الأنام به تُعقدُ
غدا وجهُه كعبةً للجمال وفي قلبه الحجرُ الأسود
ـ قوِّض خيامك من أرضٍ تُضام بها وجانبِ الذُّلَّ إنَّ الذُّلَّ يُجتنبُ
وارحلْ إذا كانت الأوطانُ منقصَةً فصندلُ الهند، في أوطانه، حطبُ

شعر أبي الفرج في يوم الغدير

تجلّى الهدى يومَ الغديرِ عن الشُّبَه وبرّز إبريز البيانِ عن الشّبه
وأكملَ ربُّ العرشِ للنّاسِ دينَهم كما نزّلَ القرآنَ فيهِ فأعربه
وقامَ رسولُ اللهِ في الجمعِ رافعاً بضبعِ عليٍّ ذي التعالي على الشُّبَه
وقال: ألا من كنتُ مولىً لنفسِهِ فهذا له مولىً فيا لكِ منقبه

يقول العلاّمة الأميني:

وقد تُعزى هذه الأبيات إلى أبي الفرج سلامة بن يحيى الموصلي(١)، وهو لا يتمُّ، لأنَّ الواقف على «مناقب ابن شهرآشوب ومعالمه» جدُّ عليم بأنّه يذكر أبا الفرج الموصلي، في كتابيه، باسمه، وأبا الفرج الرّازي بكنيته، والله أعلم(٢).

* * *

(١) كما في يتيمة الدّهر، ١/ ١٢٩، وأعيان الشّيعة، ٧/ ٢٧٥.
(٢) الغدير، ٤/ ٢٣٨.

(٢٥)

جعفر بن حسين

غديريَّته

قُلْ للَّذي بفجورِهِ ... في شعرِهِ ظهرتْ علامه
ويبيعُ جهلاً دينَهُ ... لمضلِّلٍ يرجو حطامه:
من أينَ أنتَ لُعِنتَ أو ... من أينَ أسرارُ الإمامه؟
أظننتَها إرثَ النَّبيِّ؟ ... فما أصبتَ ولا كرامه
إنَّ الإمامةَ بالنُّصو ... صِ لمن يقومُ بها مقامه
كمقالِهِ في يومِ خمٍّ ... لحيدرٍ لمَّا أقامه:
من كنتُ مولاهُ فذا ... مولاه يُسمِعُهمْ كلامه
سلْ عنه ذا خبرٍ به ... فلتذهبنَّ إذاً ندامه
فهو الذي بحسامِه ... للنَّقعِ قد جلَّى قتامه
في يومِ بدرٍ إذ شكا ... سادات مالِكِكم صدامه
وأبين والدِهم وقد ... منعَ النَّبيَّ به منامه
إنَّ الإمامَ لدينِنا ... من شاده وبنى دعامه
في كلِّ معتركٍ إذا ... شبَّ الوغى أطفا ضرامه
فتَّاحُ خيبرَ بعدما ... فرَّ الذي طلبَ السَّلامه
تسالله لو وُزِنَ الجميـ ... ـعُ لما وفوا منه القلامه

مناسبة القصيدة

حكى القاضي أبو المكارم، محمَّد بن عبد الملك بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جرادة الحلبي، المتوفَّى سنة ٥٦٥هـ، في شرح قصيدة أبي فراس

الميميّة المعروفة بالشّافية، عن مروان بن أبي حفصة، أنّه قال: أنشدت المتوكّل شعراً ذكرتُ فيه «الرّافضة»، فعقد لي على البحرين واليمامة، وخلع عليَّ أربع خلع في دار العامّة، والشّعر هو هذا:

لكـمُ تـراثُ محمّـدٍ ... وبعدلِكمْ تُنفى الظّلامه
يرجو التُّراثَ بنو البنا ... ت وما لهم فيه قلامه
والصِّهرُ ليس بوارثٍ ... والبنتُ لا ترثُ الإمامه
ما للّذين تنحّلوا ... ميراثكمْ إلاّ النّدامه
أخذَ الوراثةَ أهلُها ... فعلام لومُكمُ علامه؟
لو كان حقّكمُ لها ... قامت على النّاس القيامه
ليس التُّراثُ لغيركم ... لا والإلهِ ولا كرامه
أصبحتُ بين محبّكم ... والمبغضين لكم علامه

فردّ عليه رجلٌ يقال له جعفر بن حسين بقوله: قل للّذي بفجوره.. إلخ[1].

قال الأميني: زعماً بأنّ الشّاعر من أولاد أبي عبدالله حسين بن الحجاج البغدادي أو ممّن عاصروه، ذكرناه في هذا القرن ولم نقف على شيءٍ من ترجمته.

* * *

شعراء آخرون:

قال العلاّمة الأميني:

وقد وقفنا على عدّة قصائد غديريّة لغير واحد من شعراء القرن الرّابع، غير أنّا لم نعرف شيئاً من أحوالهم وتاريخ حياتهم فضربنا عنها صفحاً.

---

(١) راجع: أعيان الشّيعة، ٤/ ٩٣.

شعراء القرن الخامس الهجري

٣٦ ـ أبو النُّجيب الطَّاهر
٣٧ ـ الشَّريف الرَّضي
٣٨ ـ عبد المحسن الصُّوري
٣٩ ـ مهيار الديلمي
٤٠ ـ الشَّريف المرتضى
٤١ ـ أبو علي البصير
٤٢ ـ أبو العلاء المعرِّي
٤٣ ـ المؤيّد في الدِّين
٤٤ ـ ابن جبر المصري

(٣٦)
أبو النَّجيب الطَّاهر

التَّعريف بالشَّاعر

أبو النَّجيب شدَّاد بن إبراهيم بن حسن، الملقَّب بالطَّاهر الجزري[1]، من شعراء أهل البيت عليهم السلام، نظم في مختلف أغراض الشِّعر. له ديوان شعر، عدَّه ابن شهرآشوب، في كتابه: «معالم العلماء»، في عداد شعراء أهل البيت عليهم السلام المجاهرين. وعدَّه ياقوت الحموي شاعراً من شعراء عَضُدِ الدَّولة بن بويه، وقال: إنَّه مدح الوزير المهلَّبي، وكان «دقيق الشِّعر، لطيف الأسلوب. مات سنة إحدى وأربعمئة»[2].

كان، وعلى الرُّغم من صلته بعَضُد الدَّولة والوزير المهلَّبي، فقيراً لا يملك إن غسل ثيابه ثياباً أخرى يلبسها، فقد جاء في «معجم الأدباء» و «فوات الوفيَّات» أنَّ أبا النَّجيب قال:

«كنت كثير الملازمة للوزير أبي محمَّد المهلَّبي، فاتَّفق أنِّي غسلت ثيابي، وأنفذ إليَّ يدعوني، فاعتذرتُ بعذرٍ فلم يقبله، وألحَّ في استدعائي، فكتبت إليه:

عبدُكَ تحت الحبل عُرْيانُ ... كأنَّه - لا كان - شيطانُ
يغسلُ أثواباً كأنَّ البلَى ... فيها خليطٌ، وهي أوطانُ

---

(١) الغدير، ٤/٢٤٣-٢٤٦.

(٢) معجم الأدباء، ١١/ ٢٧٠.

أرقُّ مـــن دينـــي إن كـــان لـــي ... ديـــنٌ، كمـــا للنّـــاس أديـــانُ
كـــأنّهـــا حـــالـــي مـــن قَبْـــل أن ... يصبـــحَ عنـــدي لـــكَ إحســـانُ
يقـــول مـــن يبصـــرنـــي مُعْـــرَضـــاً ... فيهـــا، ولـــلأقـــوال بـــرهَـــانُ:
هـــذا الـــذي قـــد نُسجـــت فـــوقـــه ... عنـــاكـــبُ الحيطـــانِ إنســـانُ!؟

فأنفذ لي جبّةً وقميصاً وعِمامةً وسراويل وكيساً فيه خمسمئة درهم»[1].

تميُّز شعره

كان أبو النّجيب شاعراً مجيداً، وقد لاحظنا، في المقطوعة آنفة الذِّكر، سهـولـة معجمـه اللّغـوي وبساطة عبارته، واعتماده الصُّورة في تصوير حالته، فالبِلَى «خليطٌ» والثّياب أوطان، وهو مقيمٌ تحت نسيج العنكبوت إلخ...

ويلحظ من يقرأ نماذج من شعره أنّه يجيد استخدام المحسِّنات البديعيّة، فتأتي في شعره ناطقة بالدِّلالة، وفي ما يأتي بعض هذه النَّماذج:

ـ إذا المَـرْءُ لـم يَـرْضَ مـا أمكنـه ... ولـم يـأتِ مـن أمـره أحْسَنَـهْ
فَـــدَعْـــه فقـــد ســـاء تـــدبيـــرُه ... سيضحـــك يـــومـــاً ويبكـــي سَنَـــهْ
ـ أيـا جيـل التَّصـوّفِ شـرَّ جيـلِ ... لقـــد جئتُـــمْ بـــأمـــرٍ مستحيـــلِ
أفـــي القـــرآن قـــال لكـــم إلهـــي: ... كلـوا مثل البهـائـم وارقصـوا لـي!؟
ـ قلـتُ للقلـب: مـا دهـاك أبِـن لـي؟ ... قـال لـي: بـائـع الفـرانـي فـرانـي
نـــاظـــراه فـــي مـــا جنـــت نـــاظـــراه ... أو دَعـــانـــي أمُـــتْ بمـــا أوْدَعـــانـــي[2]
ـ بـــلاد الله واسعـــةٌ فضـــاهـــا ... ورزقُ الله فـــي الـــدُّنيـــا فسيـــحُ
فقـــل للقـــاعـــديـــن علـــى هـــوانٍ: ... إذا ضـــاقـــت بكـــم أرضٌ فسيحـــوا

(١) نفسه، ٩/ ١٤٠ و١٤١. الكتبي، فوات الوفيّات، ٢/ ٤٥، رقم ١٦٣. الخليط: جماعة من النّاس، من عدّة قبائل، تلتقي وتختلط وتقيم مدّة لدى منهل ماء. مُعْرَض: أُعْرَض فيها. هذا الذي: لعلّه يريد: أهذا الذي...؟

(٢) الفراني: جمع فرني: نوع من الخبز. ناظراه الأولى: جادلاه، والثانية: عيناه. أو دعاني الأولى: أو اتركاني. أودَعاني الثانية، من الوديعة؛ أي بما ترك ناظراه فيّ من تأثير.

- أفسدتم نظري عليَّ فما أرى ... مذ غبتُمُ حَسَناً إلى أن تقدَموا
فدعوا غرامي ليس يمكن أن ترى ... عينُ الرِّضا والسُّخط أحسن منكُمُ
- أليس ترى الجوَّ مستعبراً ... يضاحكه برقُه الخُلَّبُ
وقد لاح من قُزحٍ قوسُه ... بعيداً وتحسبه يقربُ
كطافي عقيقٍ وفيروزجٍ ... وبينهما آخر مذهبُ

من شعراء أهل البيت عليهم السلام

أبو النُّجيب، كما مرَّ بنا، من شعراء أهل البيت عليهم السلام المجاهرين، ومن شعره الذي يصرِّح فيه بذلك قصيدة يمدح بها سيف الدَّولة عليّ بن عبدالله الحمداني (المتوفّى سنة ٣٥٦هـ)، ويقول فيها:

وحاجةٌ قيل لي: نبّه لها عمرا ... ونَمْ، فقلت: علي قد تنبَّه لي
حسبي عليّان إن ناب الزّمانُ وإن ... جاء المَعادُ بما في القولِ والعملِ
فلي عليٌّ بن عبدالله منتجعٌ ... ولي عليٌّ أمير المؤمنين ولي[(١)]

شعره في يوم الغدير

ولأبي النَّجيب شعر في يوم الغدير، فهو القائل:

عَيَّدَ، في يوم الغدير، المسلمُ ... وأنكَرَ العيدَ عليه المجرمُ
يا جاحدي الموضع واليوم وما ... فاه به المختارُ تبّاً لكمُ
فأنزلَ اللهُ تعالى جدُّه: ... اليومَ أكملتُ لكم دينكمُ
واليوم أتممتُ عليكم نعمتي ... وإنَّ من نصب الإمام النِّعمُ

* * *

(١) الثعالبي، تتمّة يتيمة الدّهر، ٥/٥٩ ـ ٦٠.

(٣٧)
الشّريف الرّضي

التّعريف بالشّاعر

الشّـريـف الـرّضي[1]، ذو الحسبين، أبو الحسن، محمّد بن الطّاهر ذي المنقبتيـن أبـي أحمـد الحسيـن بـن مـوسى بن محمّد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفـر الصّـادق بـن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولد الشّريف الرّضي في بغداد سنة ٣٥٩هـ، وتوفّي سنة ٤٠٦هـ، ودُفن فـي داره فـي بغـداد، ثمّ نقل، على الأرجح، إلى مشهد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء.

عاصر الشّريف الرّضي من خلفاء بني العبّاس المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ) والطّـائـع لله (٣٦٣ ـ ٣٨١هـ) والقـادر بـالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ). ومـن ملـوك

(١) راجع ترجمته في: الغدير، ٢٤٧/٤ ـ ٣٠٢، أعيان الشّيعة، ٢١٦/٩ ـ ٢٢٣. والمصادر الآتية: رجال النجاشي، ص ٣٩٨، رقم ١٠٦٥. يتيمة الدّهر، ١٥٥/٣. المجدي في الأنساب، ص ١٢٦. الكامل في التاريخ، ٦١٣/٥، حوادث سنة ٤٠٦هـ. معالم العلماء، ص ٥١، رقم ٣٣٦. دميـة القصـر، ٢٩٢/١. وفيّـات الأعيـان، ٤١٤/٤، رقـم ٦٦٧. المنتظـم، ١١٥/١٥، رقـم ٣٠٦٥. رجال العلّامة الحلّي، ص ١٦٤، رقم ١٧٦. عمدة الطّالب، ص ٢٠٧. البداية والنهاية، ٤/١٢، حـوادث سـنة ٤٠٦هـ. شـذرات الـذهـب، ٤٣/٥، حـوادث سنة ٤٠٦هـ. شـرح نهـج البـلاغـة، ٣١/١. غـايـة الاختصـار، ص ٧٧ ـ ٨٠. الـدّرجـات الـرفيعـة، ص ٤٦٦. مجـالـس المـؤمنيـن، ٥٠٣/١. نسمـة السحـر، مـج٨، ج٢، ص ٤٥٩. لسـان الميـزان، ١٥٩/٥، رقـم ٧٢٥٢. تأسيس الشّيعة الكرام لعلوم الإسلام، ص ٢١٣. مؤلّفات جرجي زيدان الكاملة، تاريخ آداب اللغة، مج ٩٢/١٤. الأعلام، ٣٢٩/٦.

البويهيين عزّ الدّولة بختيار (٣٥٦ ـ ٣٦٧هـ) وعضد الدّولة (٣٦٧ ـ ٣٧٢هـ) وصمصام الدّولة (٣٧٢ ـ ٣٧٦هـ) وشرف الدّولة (٣٧٦ ـ ٣٧٩هـ) وبهاء الدّولة (٣٧٩ ـ ٤٠٣هـ) وسلطان الدّولة. ولم تكن سنُّه لتسمح له بصلة بالثلاثة الأُوَل، وكانت علاقته بشرف الدّولة بسيطة، أمّا بهاء الدّولة فكانت علاقته به وطيدة، فلمّا فقده لم يجد في نفسه ما يدفعه إلى علاقة بخلفه سلطان الدّولة.

لُقِّب الشّريف الرّضي بـ «ذي الحسبين» لأنّ نسبه يرتفع، من جهة أبيه وأمّه إلى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

فأبوه ذو المنقبتين، أو المناقب، تولّى نقابة الطّالبيّين وإمارة الحجّ والنّظر في المظالم، ولُقِّب بـ «الطّاهر الأوحد»، وكان من عظم المكانة في درجةٍ جعلته سفير الخلفاء والملوك في الأمور المهمّة، وغالباً ما كانت مهمّاته تُكلَّل بالنّجاح، وفي ذلك يقول الشّريف الرّضي، مفتخراً، في إحدى قصائده:

هذا أبي الأدنى الذي تعرفونه مُقَدَّم مجدٍ أول ومخلف
مؤلِّف ما بين الملوك إذا هفوا وأشفوا على حزِّ الرّقاب وأشرفوا

ويذكر، في هذه القصيدة، أنَّ أباه، لجلالة قدره، ما كان يقبِّل الأرض بين يدي الخلفاء والملوك كما كان يقضي العرف في ذلك الزّمان:

حمى فاه عن بسط الملوك، وقد كبت عليها جباهٌ من رجالٍ وأُنُفُ

ويبدو أنَّ نشاط والد الشّريف الرّضي السّياسي، فضلاً عن عظيم مكانته، أثار مخاوف السّلطان البويهي عَضُد الدّولة (٣٦٧ ـ ٣٧٢هـ)، فأقدم على اعتقاله وسجنه في قلعة في فارس سنة ٣٦٩هـ، وكان الشّريف الرّضي في العاشرة من عمره آنذاك، فنشأ وهو يشتاق إليه ويجلّه، ويلمس عظم الثّمن الذي يدفعه...، وقد نطق الفتى، وهو في هذه السنّ المبكّرة، بالشّعر، ولعلّه كان يرى منزلة أبيه فوق منزلة الخلفاء والملوك، وهو يقول في أقدم قصيدة له في أبيه:

من لي بِرَعلةٍ من البُزل ترمي إليك معاقد الرَّحل
... ولأنت مَثَلُ السّيف في مُضَر عاذت بقائمه من الذُّلِّ

ولـم يفتـرّ ثغـر الشّـريف الرّضي إلاّ بعد أن أطلق شرف الدّولة بن عضد الدّولـة (٣٧٦ ـ ٣٧٩هـ) سراح أبيه وردَّ إليه بعض أملاكه؛ وذلك بعد انتصاره علـى أخيـه صمصـام الـدّولـة، واكتملـت الفرحة بعودة النّقابة إلى الوالد سنة ٣٨٠هـ في أيّام بهاء الدّولة بن عضد الدّولة (٣٧٩ ـ ٤٠٣هـ)، وفي هذه الآونة يقول الابن الشّاعر الشّعر في أبيه، في كـلّ مناسبة، منشداً حبّه وإكباره، وقراره في أن يترسّم خطاه...

وأمّه فـاطمة بنت الحسين[1]، النّاصر الصّغير، بن أحمد، صاحب جيش أبيه النّاصر الكبير، الحسن الأطروش، صاحب الدّيلم، ابن عليّ بن الحسين بن عـليّ بـن عمـر بـن علـيّ، زيـن العـابـديـن، بـن الحسيـن بـن علـيّ بن أبي طالب عليه السلام[2].

والحســن بن عليّ...، النّاصر الكبير الأطروش، هو كما يقول ابن أبي الحديـد: «شيـخ الطّالبيّن وعالمهم وزاهدهم، وأديبهم وشاعرهـم، ملك بلاد الـدّيلـم والجبـل، لقّب بالنّاصر للحقّ، جرت له حروب عظيمة مع السامانيّة، وتوفّي بطبرستان سنة ٣٠٤هـ، وسنّه ٧٩»[3].

وقد ذكر الشّريف الرّضي أجداده لأمّه حين رثاها فقال في إحدى قصائده:

آبـــاؤك الغـــرّ الـــذيـــن تفجّـــرتْ بهـــمُ ينـــابيـــعٌ مـــن النّعمـــاء

---

(١) في أعيان الشّيعة: الحسن. وجاء في كتاب الشّريف الرّضي لكاشف الغطاء نقلاً عن الناصريات للمرتضى «الحسن»، وكذا في عمدة الطّالب. ويقول محقق ديوان الشّريف الرّضي الدكتور عبد الفتاح محمّد الحلو: «ولولا ما في طبعة عمدة الطالب من أخطاء لاعتمدته فهو الأقرب إلى تلقيبه بالنّاصر الصّغير لقب جدّه الناصر الكبير لاتّفاق اسميهما حينئذٍ». ديوان الشّريف الرّضي، سلسلة التّراث ٦٠، بغداد: وزارة الإعلام، ط١، ص ١٨.

(٢) نفسه، أعيان الشّيعة، ٩/٢١٦. وفي الغدير، ٤/٢٤٨: «أمّه السيّدة فاطمة بنت الحسين بن أبي محمّد الحسن الأطروش بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام». لكن هذا النّسب لا يستقيم والاعتقاد السّائد أنّه كان حسيني النّسب لجهة الأب والأمّ.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/ ٣٢ و٣٣.

مـن نـاصـرٍ للحـقّ أو داعٍ إلـى سُبُـل الهـدى أو كـاشـف الغمَّـاء
نـزلـوا بعـرعـرة السَّنـامِ مـن العـلا وعلـوا علـى الأثبـاج والأمطـاء[1]

ويفخر الشَّريف الرَّضي بحسبه، فيقول:

أردُّ النَّـوائـب بـالمـوسـويِّ وأُعطـي الـرَّغـائـبَ بـالنَّـاصـر

نعِـم الشَّريـف الرَّضي برعاية أبويه إلى أن قُبِض على والده وسجن سنة ٣٦٩هـ، فتـولَّـت أمّـه أمره وأمـر أخيـه المـرتضى، ونهضت بمهمَّة تربيتهما وتعليمهما أفضل نهـوض، ومـن الأخبـار الـدَّالَّـة على ذلك ما يذكره ابن أبي الحديد من أنَّ الشيخ المفيد، أبا عبدالله محمّد بن النّعمان، رأى في منامه كأنّ السيِّدة فـاطمـة الـزَّهراء، دخلت عليه، وهو في مسجده في «الكرخ»، ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين، فسلَّمتهما إليه، وقالت له: علِّمهما الفقـه، فـانتبـه متعجّباً مـن ذلـك. وفي الصَّباح دخلت إليه المسجد السَّيدة فـاطمـة بـنت الحسيـن النَّاصر الصَّغير، وحولها جواريها، وبين يديها ابناها محمّـد الرَّضي وعلي المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلَّم عليها، فقالت له: أيُّها الشَّيـخ، هذان ولداي قد أحضرتهما لتعلِّمهما الفقه، فبكى الشّيخ المفيد وقصَّ عليها المنام، وتولَّى تعليمهما الفقه.

وفـي هـذه الحكـايـة دلالـة على مبلغ عناية هذه الأمّ بولديها؛ إذ سعت بنفسها إلى المسجد لتطلب من الفقيه تعليم ولديها...

وقـد تـوفِّيت هـذه السَّيـدة سنـة ٣٨٥هـ، والشّريف الرّضي في السّادسة والعشـريـن مـن عمـره، فـرثـاها بقصيدة حزينة تصوِّر حالة الأسى والألم التي أصابته بعد فقدها، وجاء فيها:

أبكيـكِ لـو نقَـع الغليـلُ بكـائـي وأقـولُ لـو ذهـب المقـالُ بـدائـي

(١) السَّنام: جمع أسنمة: حدبة في ظهر البعير. يقال: «فلانٌ سنامُ قومه» أي كبيرهم. الثَّبج من كل شيء وسطه، معظمه. الأمطاء، جمع أمطي وهو مستوي القامة مديدها.

وأعـوذُ بـالصَّبـر الجميـل تعـزِّيـاً   لـو كـان بـالصَّبـر الجميـل عـزائـي

مجمل سيرته

يجمـل الـدكتـور عبد الفتّاح محمّد الحلو سيرة الشّريف الرّضي فيقول: «وقد ولد شـاعـرنـا أبـو الحسن محمّد بن الحسين بن موسى، الشّريف الرّضي المـوسـوي، قبـل أن ينتهـي العقد الأوّل، من النصف الثاني للقرن الرّابع بسنة واحـدة، ونشـأ فـي بـيت عرف بمكانته السّياسيّة، وشرف نسبه، وتلقّى معارفه الأوّليّة على طريقـة أبنـاء الأشراف في ذلك الوقت، ثمّ بدأ بالقراءة على أكابر علماء عصره كالسيرافي، واعتقل والده وهـو في العاشرة، فألهب هذا الحادث وجدانه، وأنطقه بالشّعر، وجعله يتنبّه إلى طريق المعالي والمجد، ثمّ استأنف مسيرتـه الثقافيـة فـدرس علـى الشّيـخ المفيـد، وعلـى غيره من علماء عصره كـالـربعـي وابـن جنـي والخـوارزمي، وحين أطلق والده، وقدم إلى بغداد مع شـرف الـدّولـة سنـة ٣٧٦هـ أتيحـت للـرّضي الفرصة لإظهار مواهبه الشّعرية والسيـاسيـة، وعظمت هـذه المـواهـب أمام الطّائع لله الخليفة العبّاسي، وفي هـذه الفتـرة ظهـرت بـاكـورة مـؤلّفـاتـه «سيرة والده الطّاهر»، وعمل كتاباً في «خصـائـص الأئمّـة» لـم ينتـه، ونـاب عـن أبيـه في مناصبه من النقابة وإمارة الحـجّ والمظـالـم سنـة ٣٨٠هـ، ثـمّ ولاه الطّـائـع لله النّقـابـة والنّظر في أمور المسـاجـد ببغـداد فـي رمضان من السنة نفسها، وقد شهد الرّضي خلع الطّائع لله سنـة ٣٨١هـ، ورأى بعـده تـنصيب القادر بالله، ومَدحه، ولكن الرّيح لم تجـر بينهمـا رخـاء، وسـاءت الأمور في سنة ٣٨٤هـ إلى حدٍّ هدّد فيه الرّضي باللّجوء إلى الخلافة الفاطمية في مصر، فكافأه القادر بالله على ذلك بحرمان الأسـرة كلّهـا مـن منـاصبهـا، ولـم تهدأ نفس الرّضي، بل ازدادت اشتعالاً، وصحبتهـا نغمـة حـزينـة لـوفـاة صديقه الصّابي سنة ٣٨٤هـ، ثمّ وفاة أمّه سنة ٣٨٥هـ، ولم تهدئ من هـذه الثـورة صلتـه التي بدأت في التوطّد ببهاء الدّولة وتلقيبـه بالشّـريـف الأجـل، مـع نيـابتـه عنه في بغداد سنة ٣٨٨هـ، وفي سنة

٣٨٩هـ حجّ الرّضي، ووجدها فرصة لإحياء أمله في المعالي، ووصوله إلى سدّة الخلافة، فعقد مع أعرابي هو أبو العوام بن ليلى عهداً ليجمع الأعراب على نصرته، وعاد ليوطّد صلته ببهاء الدّولة، خالع الخلفاء ومولِيهم، ولكن صديقه الأعرابي يقتل وهو يدعو له، وبهاء الدّولة يشغل بالحفاظ على ملكه من مناوئيه، وينصرف الرّضي بعد حجّه سنة ٣٨٩هـ إلى كتاب الله يحفظه ويتقن قراءاته، ويؤلّف فيه، كما يؤلّف في حديث الرّسول ﷺ، ويبدأ بكتابه الكبير «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» الذي استمرّت مسيرته معه إلى آخر حياته، ولكنّه رغم مشاغله العلمية لا ينسى أمله الذي عاش من أجله، سلطة ومنعة توصله إلى الخلافة، وتبرق أسارير الأمل بتولية بهاء الدّولة له النقابة وإمارة الحجّ سنة ٣٩٧هـ، ثمّ يواصل بهاء الدّولة تكريمه بتلقيبه بالرّضي ذي الحسبين سنة ٣٩٧هـ، وبأن تكون مخاطبته بالكناية سنة ٤٠٠هـ، ثمّ تلقيبه بالشّريف الأجل مضافاً إلى مخاطبته بالكناية سنة ٤٠١هـ. وفي أثناء ذلك تبرز مؤلّفات الرّضي التي أضنى نفسه فيها في الفترة الماضية، فيظهر «نهج البلاغة» سنة ٤٠٠هـ، و «تلخيص البيان عن مجازات القرآن» سنة ٤٠١هـ، ثمّ يتبعه «مجازات الآثار النبوية». ومع اشتغال الرّضي بهذا الجهد العلمي الكبير، فهو لا يفتأ يحمل عبء النقابة وإمارة الحجّ، بل إنّ بهاء الدّولة يضيف إليه أعباء جديدة؛ حيث يرسمه في خدمته بالنيروز الفارسي سنة ٤٠٢هـ، ويكلّفه النظر في أمور الطالبيّين بجميع البلاد سنة ٤٠٣هـ، وهو أمر لم يصل إليه نقيب من قبل، وكأنّ الرّضي بهذا قد حقّق بعض أمله، فأصبح خليفة على فريق من الأمّة، ولكن الزّمن لا يمدّ له في هذا الأمل، فيقضي بهاء الدّولة نحبه ـ وهو سنده إلى المجد ـ سنة ٤٠٣هـ، ويجنح الرّضي إلى العزلة، ويترك مدح الملك الجديد سلطان الدّولة حتى يلحّ عليه في طلبه، ثمّ يلقى ربّه سنة ٤٠٦هـ، عن سبعة وأربعين عاماً»[1].

---

(١) ديوان الشّريف الرّضي، م.س.، ص ١١ و١٢.

نشاته

نشأ الشّريف الرّضي في أسرة شريفة النّسب، في مناخ العزّ والإباء والعلم. . . ونبغ في سنٍّ مبكرة، فتذكر الرّوايات أنّه قال، وهو ابن عشر سنوات:

المجدُ يعلمُ أنَّ المجدَ من أربي   وإن تماديتُ في غيّي وفي لعبي
إنّي لمنْ معشرٍ إن جُمّعوا لعلاً   تفرّقوا عن نبيٍّ، أو وصيِّ نبي
إذا همَمْتُ ففتّش عن شبا[1] هممي   تجده في مهجات الأنجم الشُّهب
وإن عزمتُ فعزمي يستحيل قذى   ترمي مسالكه في أعين النُّوَب

ومن الأخبار الدّالّة ما يذكره أبو الفتح عثمان بن جنّي، فقد قال: «إنّ الشّريف الرّضي أُحضر إلى ابن السّيرافي النّحوي، وهو طفل لم يبلغ عشر سنين، فلقّنه النّحو، وقعد معه يوماً في حلقته، فذاكره بشيءٍ من الإعراب على عادة التّعليم، فقال له: إذا قلنا: «رأيت عمرو» فما علامة النّصب في عمرو؟ فقال له الرّضي: بغض عليّ. فعجب السّيرافي والحاضرون من حدّة خاطره». وعقّب أبو الفدا في تاريخه على هذا الخبر، فقال: «أراد السّيرافي النّصب الذي هو الإعراب، وأراد الرّضي [النّصب] الذي هو بغض عليّ، فأشار إلى عمرو بن العاص وبغضه لعليّ. . .»[2].

يتضمّن هذا الخبر جملة دلالات؛ أولاها أنّه أُحضر إلى مجالس كبار العلماء ليتعلّم، في سنٍّ مبكّرة، ويؤيّد هذا الخبر الذي مرَّ بنا آنفاً عن إحضاره إلى مجلس الشيخ المفيد، وثانيها أنّه كان قد حصّل معرفةً في مجالس الأسرة أتاحت له تبيُّن مكانة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومواقفه إزاء رجال عصره ومواقف هؤلاء منه، وثالثها أنّه كان من حدّة الذكاء بقدرٍ جعله يتمثّل المعرفتين: التّاريخيّة واللّغوية. ويخرج بتورية تفيد منهما وتعلن موقفاً واضحاً في قالب من الطّرافة.

---

(١) شبا شَبْواً الشيُ: علا، شبا الوجه: أضاء، شبا النّار: أوقدها.
(٢) ديوان الشّريف الرّضي، م.س.، ص ٨٠، نقلاً عن ابن خلّكان، ٤/٤١٦، وتاريخ أبي الفدا، ١/١٤٥، ولسان الميزان لابن حجر، ٥/١٤١.

أساتذته

ويذكر مترجمو حياة الشّريف الرّضي أسماء أساتذته؛ فإذا هم كبار علماء عصره[1]؛ ومنهم:

١ ـ أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان، النحوي المعروف بالسِّيرافي (المتوفّى سنة ٣٦٨هـ): تلمّذ عليه في النحو وهو طفلٌ لم يبلغ عمره عشر سنين ٢ ـ أبو عليّ الحسن بن أحمد الفارسي النّحوي (المتوفّى سنة ٣٧٧هـ) ٣ ـ أبو عبدالله محمّد بن عمران المرزباني (المتوفّى سنة ٣٨٤هـ، وقيل: سنة ٣٧٨هـ) ٤ ـ أبو محمّد الشّيخ الأقدم هارون بن موسى التلعكبري (المتوفّى سنة ٣٨٥هـ) ٥ ـ أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي (المتوفّى سنة ٣٩٢هـ) ٦ ـ أبو يحيى عبد الرّحيم بن محمّد المعروف بابن نباته، صاحب الخطب (المتوفّى سنة ٣٩٤هـ) ٧ ـ الشّيخ الأكبر، شيخنا المفيد، أبو عبدالله ابن المعلّم محمّد بن نعمان (المتوفّى سنة ٤١٣هـ) ٨ ـ أبو الحسن، عليّ بن عيسى الرّبعي البغدادي (المتوفّى سنة ٤٢٠هـ) ٩ ـ القاضي عبد الجبّار أبو الحسن بن أحمد الشافعي المعتزلي ١٠ ـ أبو بكر محمّد بن موسى الخوارزمي ١١ ـ أبو حفص عمر بن إبراهيم بن أحمد الكناني ١٢ ـ أبو القاسم عيسى بن عليّ بن عيسى بن داود بن الجرّاح ١٣ ـ أبو محمّد عبدالله بن محمّد الأسدي الأكفاني ١٤ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمّد الطبري الفقيه المالكي.

تلامذته والرّواة عنه

ويروي عنه جمعٌ من أعيان الطّائفة وأعلام المسلمين؛ منهم:

١ ـ شيخ الطّائفة أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (المتوفّى سنة ٤٦٠هـ) ٢ ـ الشّيخ جعفر بن محمّد الدوريستي ٣ ـ الشّيخ أبو عبدالله محمّد بن

(١) راجع: الغدير، م.س.، ٤/٢٥٢ـ٢٥٤.

عليّ الحلواني: كما في الإجازات ٤ ـ القاضي أبو المعالي أحمد بن عليّ بن قدامة (المتوفى سنة ٤٨٦هـ) ٥ ـ أبو زيد السيّد عبدالله بن عليّ كيابكي بن عبدالله الحسيني الجرجاني ٦ ـ أبو بكر أحمد بن الحسين بن أحمد النيسابوريّ الخزاعيّ ٧ ـ أبو منصور محمّد بن أبي نصر محمّد بن أحمد بن الحسين بن عبد العزيز العكبري المعدّل ٨ ـ القاضي السيّد أبو الحسن عليّ بن بندار بن محمّد الهاشمي ٩ ـ الشّيخ المفيد عبد الرحمٰن بن أحمد بن الحسين النيسابوري.

مؤلّفاته

١ ـ نهج البلاغة

نهج البلاغة، كما هو معروف، كتاب يجمع فيه الشَّريف الرَّضي مختارات ممّا وصل إليه من كلام الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ويقول في وصفه: «... كتابنا الذي ألّفناه وسمّيناه بنهج البلاغة، وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع إلينا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع الأنحاء والأغراض والأجناس والأنواع، من خطب وكتب ومواعظ وحكم، وبوّبناه أبواباً ثلاثة...»[1].

اهتمّ العلماء والأدباء بهذا الكتاب منذ أن تمّ تأليفه إلى أيّامنا هذه، ولا يزال يعدّ نهجاً للبلاغة والمعرفة يتدبّره أهل العلم والأدب بالقراءة والحفظ والشّرح، وسيبقى متّخذاً هذه المكانة إلى ما شاء الله سبحانه وتعالى.

وقد توالت عليه الشُّروح منذ عهد قريب من عصر مؤلّفه له بما يربو على السّبعين شرحاً، وممّن شرحه:

١ ـ السيّد عليّ بن النّاصر، المعاصر لسيّدنا الشَّريف الرَّضي، شرحه وأسمى شرحه بـ «أعلام نهج البلاغة»؛ وهو أوّل الشروح وأقدمها.

---

(١) الغدير، م.س.، ٢٦٨/٤.

٢ ـ أحمد بن محمّد الوبري، من أعلام القرن الخامس.

٣ ـ ضياء الدِّين أبو الرِّضا فضل الله الراوندي، علّق عليه سنة ٥١١هـ.

٤ ـ أبو الحسن عليُّ بن أبي القاسم (المتوفّى سنة ٥٦٥هـ في سبزوار) البيهقي النيسابوري، من مشايخ ابن شهرآشوب، قرأ نهج البلاغة على الشّيخ الحسن بن يعقوب القارئ سنة ٥١٦هـ، وشرحه وأسماه بـ «معارج نهج البلاغة».

٥ ـ أبو الحسين سعيد بن هبة الله قطب الدِّين الراوندي (المتوفّى سنة ٥٧٣هـ)، أسمى شرحه بـ «منهاج البراعة».

٦ ـ الشّيخ أبو الحسين محمّد بن الحسين بن الحسن البيهقي النيسابوري، الشهير بقطب الدِّين الكيدري، له شرحه الموسوم بـ «حدائق الحقائق» فرغ من تأليفه سنة ٥٧٦هـ.

٧ ـ أفضل الدِّين الحسن بن عليّ بن أحمد الماهابادي.

٨ ـ القاضي عبد الجبّار.

٩ ـ الفخر الرّازي محمّد بن عمر الطبري الشافعيّ (المتوفّى سنة ٦٠٦هـ).

١٠ ـ أبو حامد عزُّ الدِّين عبد الحميد الشّهير بابن أبي الحديد المعتزلي المدائني (المتوفّى سنة ٦٥٥هـ)، له شرحه الدّائر الذي اختصره المولى سلطان محمود الطبسي.

١١ ـ السيّد رضي الدِّين أبو القاسم عليُّ بن موسى بن طاووس الحسيني (المتوفّى سنة ٦٦٤هـ).

١٢ ـ أبو طالب تاج الدِّين المعروف بابن السّاعي عليّ بن أنجب بن عثمان بن عبدالله البغدادي (المتوفّى سنة ٦٧٤هـ)، صاحب التآليف الكثيرة منها «شرح نهج البلاغة».

١٣ ـ كمال الدِّين الشيخ ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني (المتوفّى سنة ٦٧٩هـ)، له شرحه الكبير والمتوسّط والصغير.

١٤ ـ الشيخ أحمد بن الحسن الناوندي، من أعلام القرن السّابع.

١٥ ـ العلاّمة الحلّي، جمال الدِّين أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر (المتوفّى سنة ٧٢٦هـ).

١٦ ـ الشّيخ كمال الدِّين عبد الرحمٰن بن محمّد بن إبراهيم العتائقي الحلّي، أحد أعلام القرن الثامن، له شرحه الكبير في أربع مجلّدات.

١٧ ـ يحيى بن حمزة العلوي اليمني من أئمّة الزيديّة (المتوفّى سنة ٧٤٩هـ)، اقتصر في شرحه على حلّ عويصاته اللغويّة.

١٨ ـ سعد الدِّين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني الشافعيّ (المتوفّى سنة ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣هـ).

١٩ ـ السيّد أفصح الدِّين محمّد بن حبيب الله بن أحمد الحسيني.

٢٠ ـ المولى قوام الدِّين يوسف بن حسن الشّهير بقاضي بغداد (المتوفّى حدود سنة ٩٢٧هـ).

٢١ ـ أبو الحسن عليّ بن الحسن الزواري، من تلامذة المحقّق الكركي، شرحه بالفارسيّة وأسماه بـ «روضة الأبرار»، فرغ منه سنة ٩٤٧هـ.

٢٢ ـ المولى جلال الدِّين الحسين ابن خواجة شرف الدِّين عبد الحقّ الأردبيلي المعروف بالإلهي (المتوفّى سنة ٩٥٠هـ)، شرحه بالفارسية ويسمّى بـ «منهج الفصاحة».

٢٣ ـ المولى فتح الله ابن المولى شكر الله القاشاني (المتوفّى سنة ٩٨٨هـ)، له شرحه الفارسي المطبوع الموسوم بـ «تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين».

٢٤ ـ عزُّ الدِّين عليُّ بن جعفر شمس الدِّين الآملي، من تلامذة الشيخ عليّ بن هلال الجزائري، له شرحه بالفارسية.

٢٥ ـ المولى عماد الدِّين عليّ القاري الأسترابادي، أحد أعلام القرن العاشر، له تعليق على الكتاب.

٢٦ ـ المولى شمس بن محمّد بن مراد، ترجم شرح ابن أبي الحديد المعتزلي سنة ١٠١٣هـ.

٢٧ ـ شيخنا البهائيّ العاملي (المتوفّى سنة ١٠٣١هـ)، له شرح نهج البلاغة، ولم يتمّ.

٢٨ ـ الشّيخ الرّئيس أبو الحسن ميرزا القاجاري، له شرحه، ولم يتمّ.

٢٩ ـ الشيخ نور محمّد ابن القاضي عبد العزيز ابن القاضي طاهر محمّد المحلّي، شرحه فارسياً سنة ١٠٢٨هـ.

٣٠ ـ المولى عبد الباقي الخطّاط الصّوفي التّبريزي (المتوفّى سنة ١٠٣٩هـ)، شرحه بالفارسيّة وسمّاه بـ «منهاج الولاية».

٣١ ـ المولى نظام الدِّين عليّ بن الحسن الجيلاني، يسمّى شرحه بـ «أنوار الفصاحة»، فرغ من أوّل مجلّداته الثلاث ٤ ربيع الأوّل سنة ١٠٥٣هـ.

٣٢ ـ الشيخ حسين بن شهاب الدِّين بن الحسين العاملي الكركي (المتوفّى سنة ١٠٧٦هـ) عن (٦٨) سنة.

٣٣ ـ فخر الدِّين عبدالله بن المؤيّد بالله، لخّص شرح ابن أبي الحديد وأسماه «العقد النّضيد المستخرج من شرح ابن أبي الحديد»، توجد منه نسخة مؤرّخة بسنة ١٠٨٠هـ.

٣٤ ـ السيّد ماجد بن محمّد البحراني (المتوفّى سنة ١٠٩٧هـ)، لم يتمّ شرحه.

٣٥ ـ الشيخ محمّد مهدي بن أبي تراب التّهندي، شرحه باللّغة الفارسية، وفرغ منه في شهر رمضان سنة ١٠٩٧هـ.

٣٦ ـ ميرزا علاء الدّين محمّد گلستانه (المتوفّى سنة ١١٠٠هـ)، يُسمّى شرحه بـ «حدائق الحقائق»، وشرحه الآخر الصّغير بـ «بهجة الحدائق».

٣٧ ـ السيّد حسن بن مطهّر بن محمّد اليمني الجرموزي الحسني (المولود سنة ١٠٤٤هـ) و(المتوفّى سنة ١١١٠هـ)، له شرحه، ذكره له الشّوكاني في «البدر الطّالع».

٣٨ ـ المولى تاج الدِّين حسن المعروف بملاّ تاجا، (المتوفّى سنة ١١٣٧هـ)، له شرح فارسيّ يوجد في أصبهان.

٣٩ ـ المولى محمّد صالح بن محمّد باقر الروغني القزويني، من أعلام القرن الحادي عشر، شرحه فارسيّاً، طبع بإيران.

٤٠ ـ السيّد نعمة الله بن عبدالله الجزائري التستري (المتوفّى سنة ١١١٢هـ)، له شرحه في ثلاث مجلّدات.

٤١ ـ المولى سلطان محمود بن غلام عليّ الطبسي القاضي، من تلامذة العلاّمة المجلسي.

٤٢ ـ المولى محمّد رفيع بن فرج الجيلاني (المتوفّى بالمشهد الرّضوي حدود سنة ١١٦٠هـ).

٤٣ ـ الشيخ محمّد عليّ ابن الشيخ أبي طالب الزاهدي الجيلاني الأصبهاني (المتوفّى في الهند سنة ١١٨١هـ)، له شرح بعض خطبه.

٤٤ ـ السيّد عبدالله بن محمّد رضا الشبّر الحسيني الكاظمي (المتوفّى سنة ١٢٤٢هـ)، له شرحان.

٤٥ ـ الأمير محمّد مهدي الخاتون آبادي الأصبهاني (المتوفّى سنة ١٢٦٣هـ)، له شرحه بالفارسية.

٤٦ ـ الحاجّ السيّد محمّد تقي ابن الأمير محمّد مؤمن الحسيني القزويني (المتوفّى سنة ١٢٧٠هـ)، له شرحه بالفارسية.

٤٧ ـ ميرزا باقر النوّاب بن محمّد بن محمّد اللاّهجي الأصبهاني، كتب له شرحاً بالفارسية بأمر السّلطان فتح عليّ شاه القاجار، وطبع بإيران.

٤٨ ـ الحاجّ نصر الله بن فتح الله الدزفولي، ترجم شرح ابن أبي الحديد للفارسية، وزاد عليه تحقيقاته بأمر السّلطان ناصر الدِّين شاه القاجار، وفرغ منه سنة ١٢٩٢هـ.

٤٩ ـ السيّد صدر الدِّين بن محمّد باقر الموسوي الدزفولي، من تلامذة آقا محمّد البيدآبادي.

٥٠ ـ السيّد مفتي عبّاس (المتوفّى سنة ١٣٠٦هـ)، أحد شعراء الغدير في القرن الرابع عشر.

٥١ ـ المولى أحمد بن عليّ أكبر المراغي، نزيل تبريز (المتوفّى ٥ محرّم سنة ١٣١٠هـ)، علّق على مشكلاته.

٥٢ ـ الشيخ بهاء الدِّين محمَّد، أحد شعراء الغدير في القرن الرّابع عشر، له شرحه.

٥٣ ـ الأستاذ محمّد حسن نائل المرصفي، شرح مشكلات لغاته، طُبع بمصر تعليقاً عليه سنة ١٣٢٨هـ.

٥٤ ـ الشيخ محمّد عبده (المتوفّى سنة ١٣٢٣هـ).

٥٥ ـ الحاجّ ميرزا حبيب الله الموسوي الخوئي (المتوفّى حدود سنة ١٣٢٦هـ)، له شرحه الكبير الموسوم بـ «منهاج البراعة».

٥٦ ـ الشيخ جواد الطارمي ابن الحاجّ المولى محرم علي الزّنجاني (المتوفّى سنة ١٣٢٥هـ)، له شرحه الموسوم بـ «شرح الاحتشام على نهج بلاغة الإمام».

٥٧ ـ الحاجّ ميرزا إبراهيم الخوئي (الشّهيد سنة ١٣٢٥هـ)، له شرحه المسمّى بـ «الدرّة النجفية»، طُبع في تبريز سنة ١٢٩٣هـ.

٥٨ ـ جهانگير خان القشقائي (المتوفّى بأصبهان سنة ١٣٢٨هـ).

٥٩ ـ السيّد أولاد حسن بن محمّد حسن الهندي (المتوفّى سنة ١٣٣٨هـ)، يُسمّى شرحه بـ «الإشاعة».

٦٠ ـ الشيخ محمّد حسين بن محمّد خليل الشّيرازي (المتوفّى سنة ١٣٤٠هـ).

٦١ ـ السيّد علي أطهر الكهجوي الهندي (المتوفّى في شعبان سنة ١٣٥٢هـ).

٦٢ ـ الأستاذ محيي الدِّين الخيّاط، نزيل بيروت، طُبع شرحه في ثلاث مجلّدات.

٦٣ ـ السيّد ذاكر حسين أختر الدهلوي، شرحه بلغة أردو.

٦٤ ـ الأستاذ محمّد بن عبد الحميد المصري، زاد على شرح الشيخ محمّد عبده بعض إفاداته وطُبع.

٦٥ ـ السيّد ظفر مهدي اللكهنوي، له شرحه بلغة أردو.

٦٦ ـ السيّد هبة الدِّين محمّد عليّ الشهرستاني، له شرحه الموسوم بـ «بلاغ النّهج».

٦٧ ـ الشيخ محمّد عليّ بن بشارة الخيقاني، له شرحه ذكره له الشيخ أحمد النحوي في قصيدة يمدحه بها، فقال:

ولقد كسى نهج البلاغة فكره شرحاً فأظهر كلّ خافٍ مضمرِ

٦٨ ـ ميرزا محمّد تقي الألماسي، حفيد العلاّمة المجلسي، قال: له شرحه بالفارسية لم يتمّ.

٦٩ ـ الشيخ عبدالله البحراني، صاحب العوالم.

٧٠ ـ الشيخ عبدالله بن سليمان البحراني السّماهيجي.

٧١ ـ الحاجّ المولى عليّ العلياري التّبريزي.

٧٢ ـ الشيخ ملاّ حبيب الله الكاشاني، صاحب التآليف القيّمة.

٧٣ ـ السيّد عبد الحسين الحسيني آل كمّونة البروجردي.

٧٤ ـ ميرزا محمّد علي بن محمّد نصير چهاردهي الگيلاني، له شرحه في ثلاث مجلّدات.

٧٥ ـ ميرزا محمّد علي قراجه داغي التّبريزي.

٧٦ ـ الأستاذ محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المدرِّس في كلّيّة اللّغة العربية بالأزهر، زاد على شرح الشيخ محمّد عبده زيادات هامّة، طُبعت مع الأصل والشّرح بمصر في مطبعة الاستقامة.

ووقفنا على آثار قيّمة أو مآثر خالدة حول «نهج البلاغة» لجمع ممّن عاصرناهم؛ ألا وهم:

٧٧ ـ الحاجّ ميرزا خليل الصيمري الكمرئي الطّهراني، شرح النّهج وأطنب في أربعة وعشرين مجلّداً، طُبع بعض تلكم الأجزاء الضّخمة الفخمة القيّمة بطهران.

٧٨ ـ السيّد محمود الطّالقاني، شرحه في عدّة مجلّدات طُبع غير واحد منها.

٧٩ ـ الحاجّ السيّد عليّ النقيّ فيض الإسلام الأصبهاني، ترجمه في ستّ مجلّدات، طُبعت في طهران بأجود خطّ وأحسن ورق.

٨٠ ـ الحاجّ ميرزا محمّد علي الأنصاري القمّي، ترجمه نظماً ونثراً للفارسية في عدّة مجلّدات وقفت على ثلاث منها مطبوعة بأجمل هيئة وأبهى صورة.

٨١ ـ جواد فاضل، ترجم جملة من خطبه للفارسية بأسلوب بديع وبيان مليح.

وقد أثار بعض الكتّاب قضيّة الشكّ في نسبة نصوص «نهج البلاغة» إلى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومن هؤلاء الذهبي، فقد قال: «وفيها [يعني سنة وفاة الشّريف الرّضي] توفّي شيخ الحنفيّة العلاّمة المحدِّث أبو عبدالله الحسين بن موسى الحسيني الشّريف الرّضي، واضع كتاب نهج البلاغة»[1]، وقد تبعه آخرون فذهبوا مذهبه.

وفي دحض ما يذهب إليه هؤلاء يمكن القول:

١ ـ إنَّ أحداً من هؤلاء العلماء الأعلام الذين شرحوا نهج البلاغة، والذين مرَّ ذكرهم، لم يشكّك في نسبة النّصوص المختارة إلى الإمام عليّ عليه السلام، وفي نسبة الاختيار والجمع والتّصنيف إلى الشّريف الرّضي.

٢ ـ ما تفيده إجازات حملة العلم والحديث، وقد أورد الشيخ الأميني عشرين إجازة تؤيّد صحّة نسبة الكتاب[2].

٣ ـ نصوص الشّريف الرّضي نفسه الواردة في كتبه الأخرى[3].

٤ ـ يرى الدكتور زكي مبارك أنّ من يعرف شخصيّة الشّريف الرّضي حقَّ المعرفة لا يرقى إليه الشكّ في صدق هذا الرّجل التّقي الورع المتّصف بأسمى أخلاق العلماء المسلمين، فمثله لا يمكن أن يكذب على جدّه الذي يجلّه ويحترمه، فينسب إليه ما لم يقله.

٥ ـ وينسى من يذهب إلى أنَّ نصوص «نهج البلاغة» تتّصف بخصائص بلاغيّة عرفتها العصور المتأخّرة أنَّ هذه الخصائص التي ظنَّ بعضهم أنّها جديدة إنّما هي قديمة، وقد تميّزت بها النصوص العربيّة القديمة، ودليلنا على ذلك ما قاله أبو تمام لمن طلب منه أن يملأ له كأساً من «ماء الملام»؛ إذ قال: عندما

---

(١) تذكرة الحفّاظ، ٣/١١٠٩، رقم ٩٩٨.

(٢) راجع: الغدير، م.س.، ٤/٢٦٦ و٢٦٧.

(٣) راجع: نفسه، ص٢٦٨ و٢٦٩.

تأتيني بريشة من «جناح الذلّ» أفعل ما طلبته؛ في إشارة إلى أنّه إنّما يمضي في نهج البلاغة القرآنيّة، وما قاله ابن المعتزّ في مقدّمة كتابه: «البديع» من أنَّ هذه الخصائص وردت في كلام العرب القدماء، وأنَّ المتأخّرين إنّما أكثروا منها. وما حدث في العصور المتأخّرة، وفي بعض النّصوص، هو الإفراط، ومعظم نصوص «نهج البلاغة» لا تعرف هذا الإفراط، إضافةً إلى أنّ الشّريف الرّضي إنّما اختار نصوصاً من كلام الإمام عليّ عليه السلام وفاقاً للمفهوم السّائد للبلاغة في عصره، ولعلَّ هذا هو السّبب الذي جعل النّصوص المختارة تتّصف بتلك الخصائص، فالاختيار تمَّ وفاقاً لمفهوم من كلام كثير لو أثبت كلّه لكان وجود هذه الخصائص غير لافت إلى التّشابه مع ما هو سائد في النّصوص الأدبيّة في زمن الاختيار. وقد تنبّه ابن أبي الحديد إلى هذه القضية في آونةٍ مبكرة، فقال في هذا الصّدد:

قال ابن أبي الحديد[1]، بعد ذكر خطبة ابن أبي الشّحماء العسقلاني الكاتب: «هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب، وهي كما تراها ظاهرة التكلّف بيّنة التّوليد، تخطب على نفسها، وإنّما ذكرت هذا لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من «نهج البلاغة» كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشّيعة، وربّما عزوا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسن وغيره، وهؤلاء قوم أعمت العصبيّة أعينهم، فضلّوا عن النّهج الواضح، وركبوا بيّنات الطّريق ضلالاً، وقلّة معرفة بأساليب الكلام، وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول: لا يخلو إمّا أن يكون كلّ نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً أو بعضه.

والأوّل باطل بالضّرورة؛ لأنّا نعلم بالتّواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدّثون كلّهم، أو جلّهم، والمؤرّخون، كثيراً منه، وليسوا من الشّيعة لينْسَبوا إلى غرضٍ في ذلك.

(١) شرح نهج البلاغة، ١٠/١٢٧، خطبة ١٨٤.

والثاني يدلّ على ما قلناه؛ لأنّ من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد، وإذا وقف على كرّاسٍ واحدٍ يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط، فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين، ويميّز بين الطريقتين، ألا ترى أنّا، مع معرفتنا بالشّعر ونقده، لو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذّوق مباينتها لشعر أبي تمام ونَفَسه وطريقته ومذهبه في القريض؟ ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه لمباينتها لمذهبه في الشّعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئاً كثيراً لما ظهر لهم أنّه ليس من ألفاظه ولا من شعره، وكذلك غيرهما من الشّعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلاّ على الذّوق خاصّة؟

وأنت، إذا تأمّلت «نهج البلاغة»، وجدته كلّه ماءً واحداً، ونَفَساً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهيّة، وكالقرآن العزيز أوّله كأوسطه وأوسطه كآخره، وكلّ سورة منه وكلّ آية مماثلةٌ في المأخذ والمذهب والفنّ والطّريق والنظم لباقي الآيات والسّور، ولو كان بعض «نهج البلاغة» منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرق على نفسه ما لا قِبَل له به؛ لأنّا متى فتحنا هذا الباب، وسلّطنا الشّكوك على أنفسنا في هذا النّحو، لم نثق بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبداً، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول: هذا الخبر منحول، وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نُقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك، وكلّ أمر جعله هذا الطّاعن مستنداً له في ما يرويه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الرّاشدين والصّحابة والتّابعين

والشّعراء والمترسّلين والخطباء، فلناصري أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله في ما يروونه عنه من «نهج البلاغة» وغيره، وهذا واضحٌ».

وقال[1]، في آخر الخطبة الشقشقيّة: «حدّثني شيخي أبو الخير مصدّق ابن شبيب الواسطي في سنة ثلاث وستّمئة، قال: قرأت على الشيخ أبي محمّد عبدالله بن أحمد المعروف بابن الخشّاب (المتوفّى سنة ٥٦٨هـ) هذه الخطبة ـ يعني الشقشقيّة، فلمّا انتهيت إلى هذا الموضع ـ يعني قول ابن عبّاس: فوالله ما أسفت إلخ. . .، قال لي: لو سمعت ابن عبّاس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمّك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة لتتأسّف أن لا يكون بلغ من كلامه ما أراد؟! والله ما رجع عن الأوّلين ولا عن الآخرين ولا بقي في نفسه أحدٌ لم يذكره إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال مصدّق: وكان ابن الخشّاب صاحب دعابة وهزل، قال: فقلت له: أتقول إنّها منحولةٌ؟! فقال: لا والله، وإنّي لأعلم أنّها كلامه كما أعلم أنّك مصدّق. قال: فقلت له: إنّ كثيراً من الناس يقولون: إنّها من كلام الرضيّ (رحمه الله تعالى). فقال: أنّى للرضيّ ولغير الرضيّ هذا النَفَس وهذا الأسلوب؟! قد وقفنا على رسائل الرّضي وعرفنا طريقته وفنّه في الكلام المنثور، وما يقع من هذا الكلام في خلّ ولا خمر.

ثمّ قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صُنّفت قبل أن يُخلَق الرضيّ بمئتي سنة، ولقد وجدتها مسورة بخطوط أعرفها وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يُخلق النّقيب أبو أحمد والد الرّضي. قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي، إمام البغداديّين من المعتزلة، وكان في دولة المقتدر قبل أن يُخلق الرّضي بمدّة طويلة. ووجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبّة، أحد

(١) نفسه، ١/ ٢٠٥، خطبة ٣.

متكلّمي الإماميّة، وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب «الإنصاف»، وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخي (رحمه الله)، ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرّضي (رحمه الله) موجوداً».

٢ ـ خصائص الأئمّة.

٣ ـ مجازات الآثار النبويّة.

٤ ـ حقائق التّأويل في متشابه التنزيل، يعبّر عنه تارة بـ «حقائق التّأويل» وأخرى بـ «الكتاب الكبير في متشابه القرآن»، وعبَّر عنه النّجاشي بـ «حقائق التنزيل»، وصاحب «عمدة الطّالب» بـ «كتاب المتشابه في القرآن».

٥ ـ تلخيص البيان عن مجاز القرآن، ذكره في مواضع من كتابه «المجازات النبويّة».

٦ ـ معاني القرآن.

٧ ـ تعليق خلاف الفقهاء.

٨ ـ تعليق على إيضاح أبي علي الفارسي.

٩ ـ الحَسَن من شعر الحسين، وهو مختارات من شعر ابن الحجّاج.

١٠ ـ الزّيادات في شعر ابن الحجّاج.

١١ ـ الزّيادات في شعر أبي تمّام.

١٢ ـ مختار شعر أبي إسحق الصّابي.

١٣ ـ ما دار بينه وبين أبي إسحق من الرّسائل شعراً.

١٤ ـ كتاب رسائله.

١٥ ـ أخبار قضاة بغداد.

١٦ ـ سيرة والده الطّاهر.

١٧ ـ كتاب انشراح الصَّدر في مختارات من الشِّعر. ويرى صاحب الغدير أنَّ هذا الكتاب لبعض الأدباء اختاره من ديوان الشَّريف الرَّضي كما في كشف الظنون.

١٨ ـ طيف الخيال. ويرى صاحب الغدير أنّه من تآليف أخيه ينسب إليه.

١٩ ـ ديوان الشَّريف الرَّضي. وقد عني بجمعه في حياته.

ويروى أنَّ الصَّاحب بن عبّاد أنفذ إلى بغداد من ينسخ له هذا الدِّيوان، وأنّ تقيّة بنت سيف الدَّولة أنفذت من مصر من ينسخه لها.

شخصيّته

كان الشَّريف الرَّضي، كما يقول الدكتور زكي مبارك، ويؤيّده في ذلك أديب التّقي: «جميل الوجه جدّاً»[١].

وغزا الشّيب شعر رأسه، وهو في العشرين من عمره، وقد شكا ذلك، فقال:

عَجِلْتَ، يا شيبُ، على مفرقي   وأيُّ عذرٍ لك أن تَعْجَلا

وقد أجمع المؤرِّخون على وصفه بالعفَّة والورع والتّقشُّف وعلوُّ الهمَّة والجود والإباء والمروءة والوفاء... إلخ من الصِّفات الحميدة التي تجعل من شخصيّته أنموذجاً للإنسان الكامل، ومن شهادات المؤرِّخين، في هذا الصَّدد نذكر:

قال ابن الجوزي: «... كان عفيفاً، عالي الهمّة متديّناً... وكان سخيّاً جواداً»[٢]. وقال ابن أبي الحديد: «... وكان عفيفاً شريف النّفس، عالي الهمّة، ملتزماً بالدِّين وقوانينه، ولم يقبل من أحدٍ صلة ولا جائزة حتى إنّه ردّ

(١) د. زكي مبارك، عبقرية الشّريف الرّضي، ٢/١١٧، أديب التقي، الشّريف الرّضي، ص ١٢٩.
(٢) المنتظم، ٧/٢٧٩.

صلات أبيه... فأمّا بنو بويه فإنّهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل، وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب»(١).

وقال ابن عنبة: «ذو الفضائل الشائعة، والمكارم الذّائعة، كانت له هيبة وجلالة، وفيه ورع وعفّة وتقشّف، ومراعاة للأهل والعشيرة»(٢).

ويقول السيّد محسن الأمين: «كان أوحد عصره»... فكان أديباً بارعاً متميّزاً. وفقيهاً متبحّراً، ومتكلّماً حاذقاً، ومفسّراً لكتاب الله وحديث رسوله محلّقاً، وأخفت مكانة أخيه المرتضى العلميّة شيئاً من مكانته العلميّة، كما أخفت مكانته الشّعريّة شيئاً من مكانة أخيه المرتضى الشّعرية، ولهذا قال بعض العلماء: لولا الرّضي لكان المرتضى أشعر النّاس، ولولا المرتضى لكان الرّضي أعلم النّاس»(٣).

ويروى في ورع الشّريف الرّضي وشدّة احتياطه ومراعاته أصول التّعامل ما يلي: «اشترى، ذات يوم، جزازاً من امرأة بخمسة دراهم، فوجد فيه جزءاً بخط أبي علي بن مقلة، فقال للدّلال: أحضر المرأة فأحضرها، فقال: قد وجدت في الجزاز جزءاً بخطّ ابن مقلة، فإن أردت الجزء فخذيه، وإن أردت ثمنه فهذه خمسة دراهم، فأخذتها وانصرفت، وهي تدعو له»(٤).

ويروى في إبائه ورفضه الصّلة ما حكاه عنه الوزير المهلبي: «ولد له غلام فأرسل إليه الوزير بطبق فيه ألف دينار فردّه وقال: قد علم الوزير أنّي لا أقبل من أحد شيئاً، فردّه الوزير إليه، وقال: إنّما أرسلته للقوابل، فردّه ثانية وقال: قد علم الوزير أنّه لا تقبل نساءنا غريبة، فردّ إليه وقال: يفرّقه الشّريف

---

(١) شرح نهج البلاغة، ١/ ٣٣.
(٢) عمدة الطّالب، ص ٢٠٦.
(٣) أعيان...، م.س.، ٩/ ٢١٨.
(٤) المنتظم، م.س.، ٧/ ٢٧٩، والوافي بالوفيّات، ٢/ ٣٧٩. الجزاز: قصاصات الورق. ابن مقلة: خطّاط بارع مشهور.

على ملازميه من طلاّب العلم، قال: هاهم حضور، فليأخذ كلّ أحد ما يريد، فقام أحدهم فقرض قطعة من جانب دينار وردّ الدينار إلى الطبق، فسأله الشَّريف عن ذلك، فقال: احتجت إلى دهن للسّراج ليلة ولم يكن الخازن حاضراً فاقترضت دهناً من البقال وأخذت هذه القطعة لأدفعها إليه. وكان طلبة العلم الملازمون للرَّضي في دار قد اتّخذها لهم سمّاها «دار العلم» وعيَّن لهم ما يحتاجون إليه. فلمّا سمع ذلك أمر أن يتّخذ للخزانة مفاتيح بعدد الطَّلبة وردّ الطبق، وكفى في إبائه وعظمة نفسه أشعاره الكثيرة في الفخر والحماسة»(١).

وقد أعلن في إباء، في مدحته لأبيه، وهو بعدُ شابٌ لم يبلغ العشرين، ردَّه منحة الملوك إذا كانت لا تليق بمكانته، فقال:

وكنتُ إذا منحتني الملوكُ ... نزاراً من النّائل الغامر
أبَيْتُ القليلَ، ولكنَّني ... رددت الرَّذاذ على الماطر

ويروى، في شجاعته وثباته على مبدئه، «أنَّه لمّا كتب الخلفاء العبّاسيّون محضراً في القدح في نسب الفاطميِّين، وكتب فيه القضاة والعلماء من أهل بغداد، وكان الدّاعي إليه السّياسة، أبى الشَّريف الرَّضي أن يكتب فيه مع أنّه كتب فيه أخوه المرتضى وأبوهما النَّقيب أبو أحمد والشيخ المفيد وسائر العلماء والقضاة...»(٢).

ويروى أنّه قال في ذلك:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقولٌ صادقٌ وأنفٌ حمي
وإباء محلِّقٌ بي عن الضَّيم ... كما زاغ طائرٌ وحشي
أحمل الضَّيم في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي ... إذا ضامني البعيد القصي
لفَّ عرقي بعرقه سيِّدا النّاس ... جميعاً محمَّدٌ وعلي

(١) أعيان، م.س.: ٩/٢١٧.
(٢) نفسه.

ومن الأخبار التي تدلُّ على شدَّة وفائه لأصدقائه نذكر ما يأتي:

من أدلّ الدّلائل على وفاء الرّضي أن يكون له رجل من الأعراب صديقاً يقال له ابن ليلى واسمه عمرو وكنيته أبو العوام، كما ظهر ذلك كلّه من شعر الشّريف، فيرثيه الرّضي بعدّة قصائد، وهو من أمراء العرب، ولم يكن من المشهورين، فإنّ المؤرّخين لم يذكروا عنه شيئاً، وفيه يقول:

وأين كفارس الفرسان عمرو إذا رزءٌ من الحدثان فاجا؟
بحقّ كان أوّلهم ولوجا على هول وآخرهم خراجا

ويموت أعرابي آخر تكون بينه وبين الشّريف بعض الصّلات فيرثيه بقصيدة غرّاء ولا يصرّح باسمه، يقول فيها:

منابت العشب لا حام ولا راع مضى الردي بطويل الرّمح والباع
القائد الخيل يرعيها شكائمها والمطعم البذل للديمومة القاع

وابن جني يشرح قصيدة للشّريف فيمدحه على ذلك. وإبراهيم بن ناصر الدّولة كان بينه وبين الشّريف صداقة رثاه بعد موته بقصيدة طويلة. ويبلغه أنّ الصّاحب بن عبّاد وقع إليه شيء من شعر الرّضي، فأعجب به، وأنفذ إلى بغداد لاستنساخ تمام شعره، فيمدحه بقصيدة طويلة يقول فيها:

بهداه يستضوي الورى ويهديه قرب الطّريق لهم إلى المعبود
أسد إذا جر القبائل خلفه حلّ الطّلى بلوائه المعقود
بيني وبينك حرمتان تلاقتا نثري الذي بك يقتدي وقصيدي
ووصايل الأدب التي تصل الفتى لا باتّصال قبائل وجدود

ورثاؤه للصّابي الذي يجلب في ذلك العصر شيئاً من الملام، فيقول فيه:

أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النّادي؟

إلى أن يقول:

الفضل ناسب بيننا إن لم يكن شرفي مناسبه ولا ميلادي

ثمَّ يشير إلى أنَّ الذي دعاه إلى رثائه هو الوفاء، فيقول:

لا در دري ان مطلتـــك ذمّـــة ... فـــي بـــاطـــن متغيّـــب أو بـــادي

ورثاؤه للخليفة الطّائع بعد موته، فإنّ المدح في الحياة يكون له داع من طمع في جاه أو مال، أمّا الرّثاء بعد الموت لخليفة مات منحى عن الخلافة، لا يكون داعيه إلاّ الوفاء.

وهـو يـرثي أبا عبدالله الحسين بن أحمد المعروف بابن الحجّاج الشّاعر الهزلي المشهـور، لمجرّد صداقة كانت بينهما. ويرثي إبراهيم بن ناصر الدّولة لمجرّد الصّداقة أيضاً [1].

ويجـد قـارئ ديـوان الشّـريـف الرّضـي، فـي شعـره، ما يرسم ملامح شخصيّته، وفي ما يأتي نماذج من ذلك:

قال في أوائل شبابه:

بُـردي عفيـفٌ إذا غيـري لِفَجْـرتِـه ... كـانـت مناسـجُ بُرْدَيْه على التُّهَمِ

وقال، وهو في الثّامنة عشرة من عمره:

أنا المرء لا عرضي قريبٌ من العدا ... ولا فـيّ للبـاغـي علـيّ مقـالُ
وما العِرضُ إلاّ خيرُ عضوٍ من الفتى ... يُصـابُ، وأقـوال العِـداة نبـالُ

وقال، وهو في التّاسعة عشرة:

وإنّـي لمـأمـونٌ علـى كـلّ خَلْـوةٍ ... أمينُ الهوى والقلب والعينِ والفمِ
وغيري إلى الفحشاء إن عرضت له ... أشـدُّ مـن الـذُّؤبـان عَـدْواً علـى الـدَّمِ

وقال، وهو في تلك السنّ أيضاً:

ولا أعـرفُ الفحشـاء إلاّ بـوصفهـا ... ولا أنطِقُ العوراء، والقلبُ مغضبُ

---

(١) نفسه، ٩/ ٢٢٠.

ويعلن أنّ طلب المجد شغله عن طلب الملذّات، وأنّ التُّقى جعله لا يلوي على السّمر:

شُغلتُ بالمجد عمّا يُستلذُّ به ... وقائمُ اللَّيل لا يلوي على السَّمر

وهكذا كان الشَّريف الرَّضي إنساناً عفيفاً ورعاً تقيّاً كريماً... كما قلنا آنفاً... وكان شاعراً كبيراً، يملك عنان الكلام والقول الجميل، ويتميَّز شعره هذا الذي أنشده في شبابه بمتانة التَّركيب، وسلاسة الألفاظ وعذوبتها، وبساطة الأداء وعمقه، ويتوفّر الصّور الشعريَّة، مثل تشبيهه أقوال العداة بالنّبال، وتشبيهه عَذْوَ بعضهم إلى الفحشاء بعَذْو الذّئاب إلى الدّم.

وقد كان تلميذه مهيار الدَّيلمي بالغ الصِّدق عندما بكاه قائلاً:

□ أبكيك للدُّنيا التي طلَّقتها ... وقد اصطفتك شبابها وغُرامَها
ورمَيْتَ غاربها بفضلةِ مُعْرضٍ ... زهداً، وقد ألقت إليك زمامها
□ لأساهرنَّ اللّيلَ، بعدك، حَسْرةً ... إن ليلةٌ عابتْ حزيناً نامها
ولأشرجنَّ عن العذول على الأسى ... أُذُناً محرَّمةً على من لامَها
ولأبدلنَّ الصَّبر عنك بقرحةٍ ... في الصَّدر لا يجد الدّواءُ لحامها
أبكي لأُطفئها، وأعلمُ أنّني ... بالدَّمعِ محتطبٌ أشُبُّ ضرامها
□ أقريشُ لا لفمٍ أراكِ ولا يدِ ... فتواكلي غاض النَّدى وخلا النَّدي
خلَّاك ذو الحسبين أنقاضاً متى ... تُجْذبْ على حبل المذلَّة تنقدِ
قمر الدُّنا أضحت سماؤك بعده ... أرضاً تُداسُ بحائرٍ ومهتدِ

شعره في يوم الغدير

الشَّريف الرَّضي علويّ ينتمي إلى أرفع البيوت العلويّة، وهو شيعيٌّ إمامي ألّف في حداثة الشَّباب كتاباً في «خصائص الأئمّة»، وذكر في شعره الإمام الثّاني عشر المنتظر عليه السلام، فقال:

بني أميَّة ما الأسياف نائمةً ... عن ساهر في أقاصي الأرض موتور

وله في يوم الغدير قصائد معروفة نذكر منها ما يأتي:

نطقَ اللِّسانُ عن الضَّميرِ والبشرُ عنوانُ البشيرِ
ألآن أغفَيْتَ القلو بَ من التَّقلقلِ والنّفورِ
وانجابتِ الظُّلماءُ عن وضَحِ الصَّباحِ المستنيرِ

إلى أن قال:

غدرَ السُّرورُ بنا وكا ن وفاؤه يومَ الغديرِ
يومٌ أطافَ به الوصيُّ وقد تلقّبَ بالأميرِ
فتسلَّ فيه ورُدَّ عا ريةَ الغرامِ إلى المعيرِ
وابتزَّ أعمارَ الهموم بطولِ أعمارِ السّرورِ
فلِغَيرِ قلبِكَ من يعلّلُ همَّهُ نُطَفُ الخمورِ
لا تقنعَنْ عندَ المطا لب بالقليلِ من الكثيرِ
فتبرّضُ الأطماعِ مثلُ تبرّض[1] الثَّمَدِ الجرورِ[2]
هذا أوان تطاول الحا جاتِ والأملِ القصيرِ
فانفخْ لنا من راحتيـ ـكَ بلا القليلِ ولا النّزورِ
لا تحوجنَّ إلى العصا ب وأنت في الضرْعِ الدّرورِ
آثارُ شكركَ في فمي وسماتُ وِدّكَ في ضميري
وقصيدةٌ عذراءُ مثـ ـلُ تألّقِ الرّوضِ النّضيرِ
فرحتْ بمالكِ رِقّها فرحَ الخميلةِ بالغديرِ

وقد قال الشّريف الرَّضي أجمل الشِّعر في مدح أمير المؤمنين، الإمام عليّ بن أبي طالب، وجعله مثله الأعلى في الحياة، ومن شعره فيه قوله:

□ قَسيمُ النّارِ جدّي يومَ يُلْقَى به بابُ النّجاةِ من العذابِ

(١) التبرّض ـ من تَبرّضَ ـ: إذا تبلّغ بالقليل من العيش.
(٢) الثّمد: الماء القليل. الجرور: البعيد القعر.

وساقِي الخلقِ والمُهجاتُ حَرَّى ... وفاتحةُ الصِّراطِ إلى الحسابِ
ومن سَمحتْ بخاتمِه يَمِينٌ ... تَضِنُّ بكلِّ عاليةِ الكعابِ
أما في بابِ خَيْبَرَ مُعْجِزاتٌ ... تُصَدِّقُ أو مُناجاةُ الحبابِ
أرادتْ كيدَه والله يأبى ... فجاء النّصرُ من قِبَلِ الغرابِ
أهذا البدرُ يُكْسَفُ بالدّياجي ... وهذي الشّمسُ تُطْمَسُ بالضَّبابِ؟
□ وأبي الذي حصَد الرّقابَ بسيفهِ ... في كلِّ يومِ تَصادُمٍ ونِطَاحِ
رُدَّتْ إليه الشَّمسُ يُحْدِثُ ضَوْؤُها ... صُبْحاً على بُعْدٍ من الإصْباحِ
سائِلْ به يومَ الزُّبَيْرِ مُشَمِّراً ... يختالُ بين ذَوابلٍ وصِفَاحِ
واسْأَلْ به صِفِّينَ إنَّ زئيرَهُ ... أَوْدَى بكَبْشِ أُمَيَّةَ النَّطَّاحِ
واسْأَلْ سُرَاةَ النَّهْرَوانِ فإنَّهم ... ضُرِبُوا بمُنْذَلِقِ اليدَيْنِ وَقَاحِ

السّعي إلى المجد

كان الشَّريف الرَّضي يسعى إلى المجد، فخاطب الخليفة الطَّائع لله، قائلاً:

أريدُ الكرامةَ لا المَكْرُماتِ ... ونَيْلَ العُلى لا العطايا الجساما

وخاطب الوزير المهلّبي قائلاً:

فهذا ثنائي لا أريد به الغنى ... أبى المجدُ لي أن أجعل المدح مكسبي
ولكن رجاءَ أن تكون لِهمَّتي ... طريقاً تؤدِّيني إلى كلِّ مطلبي

وكان يشكو من استمرار إمامة المفضول، فقد قال في رثائه للإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء، سنة ٣٨٧هـ:

كم إلى كم تعلو الطُّغاةُ وكم يحْـ ... ـكم في كلِّ فاضلٍ مفضولُ؟

وكان يرى، علاوةً على أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام هو الفاضل، أنّه الوصيّ وأنَّ ذلك أعلن يوم الغدير، فإضافة إلى قصيدته آنفة الذِّكر في يوم الغدير نذكر قوله:

ـ غدر السُّرور بنا وكا ... ن وفاؤه يوم الغدير

يـــومُ أطـــاف بـــه الـــوصـــيّ وقـــد تلقَّـــب بـــالأميـــر
ـ جـدِّي النّبـيُّ وأمِّـي بنتُـه وأبـي وصيّـه وجـدودي خيـرة الأمـم

يـفيـد هـذا جميعـه أنّ الشّـريـف الـرّضي كان، كما يقول السيّد الأمين، «يطمح إلى الخلافة، وكان أبو إسحق الصّابي يطمعه فيها، وكان يسامي خلفاء بني العبّاس، ويرى أنّه أحقُّ بالخلافة منهم ولا يكترث بهم»[1]، وقد قال:

صـاحـت بـذودي بغـداد فـآنسنـي تقلُّبـي فـي ظهـور الخيـل والعيـر
أطغـى علـى قـاطنيهـا غيـر مكتـرثٍ وأفعـل الفعـل منهـا غيـر مـأمـور

وقد قال أبو إسحق الصّـابـي، كـاتب ديوان الخلافة، والخبير في شؤون الـدُّول: إنّ فـراستـه تنبئه أنَّ الشّريف الرَّضي سيرقى من العلياء أبعد مرتقى، ويشير بذلك إلى الخلافة:

أبـا حسـنٍ لـي فـي الرِّجال فراسةٌ تعـوَّدتُ منهـا أن تقـول فَتَصْـدُقـا
وقـد خبّـرتنـي عنـك أنّـك مـاجـدٌ سترقـى مـن العليـاء أبعـد مـرتقـى

وقد خاطب الرَّضي الخليفة القادر بقوله:

عطفـاً أميـر المـؤمنيـن فـإنّنـا فـي دوحـة العليـاء لا نتفـرّقُ
مـا بيننـا، يـوم الفخـار، تفـاوت أبـداً، كـلانـا فـي المعـالـي معـرقُ
إلاّ الخـلافـة ميّـزتـك، فـإنّنـي أنـا عـاطـل منهـا، وأنـت مطـوّق

ويقول الـدكتـور الحلو: إنّ أخطر آمال الرَّضي، وهي الخلافة، ظهرت في المرحلة الثّانيـة من حياته التي تبدأ سنة ٣٨١هـ، وقد سلك إليها طريقين: أوّلهما طريق بني بويه؛ فهم الذين يخلعون الخلفاء ويولّونهم من بني العبّاس، وثانيتهمـا طـريـق أهل البادية، فإنَّ من يستطيع، في ذلك الوقت، أن يتألّفهم يضمـن سنـداً قـويّـاً للسّيطـرة على مقاليد الأمور. وقد تألّف الرَّضي عمرو أبا

(١) الأعيان، م.س.، ٩/٢١٧.

العوام بن ليلى البدوي ومن والاه ممّن يملكون المنافذ إلى الحرمين الشّريفين[1] وأبا الحسّان المقلد بن المسيب العقيلي، أمير بني عقيل، لكنَّ هذين قتلا في ظروف مختلفة، وقد رثاهما الشّريف الرّضي، وممّا قاله في أبي الحسّان:

ـ بأيِّ يدٍ أرمي الزَّمان وساعدٍ وكانوا يدي أعطيتُها الخَطْب عن يد

وفي عمرو بن ليلى:

وأين كفارس الفرسان عمرو إذا رزئٌ من الحدثان فاجا؟

حظي الشّريف الرّضي بمناصب خطيرة في الدّولة، وقد مرَّ ذكرها في «مجمل سيرته»، وهي: نقابة الطّالبيّين، والنّظر في أمور المساجد في بغداد، وإمارة الحاجّ، والنّظر في أمور الطّالبيّين في جميع البلاد، وخلافة والده في النّظر في المظالم والحجّ بالنّاس، وخلافة بهاء الدّولة، الملك البويهي، في مدينة السّلام.

نثره

بين أيدينا عدد من رسائل الشّريف الرّضي أنشأها في التهنئة والعتاب والتعزية والعهود ونقد الشّعر، وقد اتّبع في هذه الرّسائل الطّريقة السّائدة في عصره، المتّصفة بالتّوازن بين السّجع والازدواج، وتضمين الشّعر: شعره أو شعر غيره، وطول الجملة التي يفصل بين ركنيها حشد من الجمل القصيرة تتعلّق بالمعنى. . . ومن نماذج نثره قوله:

«وبعد، فبيننا من مناسبة الخلائق، ومشاكلة الطّبائع، ثمّ من المودّة التي ألّفت بين شخصينا، وضربت برواقها علينا، وما كنّا نتهاداه من ألطاف الفضائل، ونتشاراه من أعلاق المناقب، ما يعذرني في أن أفرط جزعي عليه. . .».

---

(١) ديوان الشّريف الرّضي، م.س.، ص ٦٠ ـ ٦٥.

شعره

الشَّريف الرَّضي شاعر كبير، وقد مرَّ بنا أنَّه أجاد قول الشِّعر وهو في العاشرة من عمره، وبقي، طوال حياته، يجوِّد القول، إلى أن غدا، كما أجمع مؤرّخو الأدب ونقّاده الذين تحدّثوا عنه، من شعراء العربيّة الكبار و «أشعر قريش».

ولم يكن الشَّريف الرَّضي يعدّ نفسه شاعراً، في المقام الأوَّل. وإنَّما كان يرى أنَّه يعبِّر عن تجربته، ويجيد في ذلك. وإن كان هذا يجعله من أهل الشعر، فهو ليس شاعراً محترفاً يتكسَّب بشعره على عادة كثير من شعراء عصره، ومن نماذج قوله في هذا الصّدد نذكر:

□ وما الشِّعر فخري ولكنّما ... أطولُ به همّة الفاخرِ
أنزِّههُ عن لقاءِ الرِّجالِ ... وأجعلُه تحفةَ الزَّائرِ
فما يتهدّى إليه الملو ... كُ إلاّ من المثَلِ السَّائرِ
وإنّي وإن كنتُ من أهلِهِ ... لتنكرُ فيَّ حرفةَ الشّاعرِ

□ وما قوليَ الأشعارَ إلاّ ذريعةً ... إلى أملٍ قد آن قَودُ جنيبهِ
وإنّي إذا ما بلَّغ اللهُ غايةً ... ضمنتُ له هجرَ القريضِ وحوبهِ

□ مالك ترضى أن يقال: شاعرٌ؟ ... بُعداً لها من عددِ الفضائلِ
كفاك ما أورقَ من أغصانِه ... وطالَ من أعلامِهِ الأطاولِ
فكم تكونُ ناظماً وقائلاً ... وأنت غبَّ القولِ غيرُ فاعلِ

أنشد الشَّريف الرَّضي الشِّعر في مختلف أغراضه.

في مدح آل البيت عليهم السلام ورثائهم

وأكثر شعره في آل البيت عليهم السلام مديحاً ورثاءً، ومن نماذج ذلك قوله:

ألا لله بادرةُ الطِّلابِ ... وعزمٌ لا يُروَّعُ بالعتابِ
وكلّ مشمِّرِ البُردينِ يهوي ... هويَّ المصلَتاتِ إلى الرِّقابِ
أعاتبُه على بُعدِ التَّنائي ... ويعذلني على قربِ الإيابِ

رأيت العجزَ يخضعُ لليالي ... ويرضى عن نوائبها الغضابِ
ولولا صولةُ الأيّام دوني ... هجمتُ على العلى من كلِّ بابِ
ومن شيمِ الفتى العربيِّ فينا ... وصالُ البيضِ والخيلِ العرابِ
له كِذْبُ الوعيدِ من الأعادي ... ومن عاداتِهِ صدقُ الضّرابِ
سأدّرعُ الصّوارمَ والعوالي ... وما عُمِّرتُ من خِلَعِ الشّبابِ
وأشتملُ الدُّجى والركبُ يمضي ... مضاءَ السّيفِ شذَّ عن القرابِ
وكم ليلٍ عبأتُ له المطايا ... ونارُ الحيِّ حائرةُ الشّهابِ
لقيتُ الأرضَ شاحبةَ المحيّا ... تَلاعبُ بالضّراغمِ والذّئابِ
فَزعتُ إلى الشّحوبِ وكنتُ طَلْقاً ... كما فَزِعَ المشيبُ إلى الخضابِ
ولم نرَ مثلَ مُبيضِّ النّواحي ... تعذّبُهُ بمُسودِّ الإهابِ
أبيتُ مضاجعاً أملي وإنّي ... أرى الآمالَ أشقى للرّكابِ
إذا ما اليأسُ خيّبنا رجونا ... فشجّعَنا الرّجاءُ على الطلابِ
أقولُ إذا استطار من السّواري ... زَفونُ القطرِ رقّاصُ الحَبابِ(١)
كأنّ الجوَّ غصَّ به فأومى ... ليقذفَهُ على قممِ الشّعابِ
جديرٌ أن تصافحه الفيافي ... ويسحبَ فوقها عَذَبَ الرّبابِ(٢)
إذا هتم التّلاع رأيتَ منه ... رضاباً في ثنيّاتِ الهضابِ(٣)
سقى اللهُ المدينةَ من محلٍّ ... لُبابَ الماءِ والنّطفِ العذابِ
وجادَ على البقيعِ وساكنيه ... رخيُّ الذّيلِ ملآنُ الوطابِ
وأعلامَ الغريِّ وما استباحتْ ... معالمُها من الحسبِ اللّبابِ
وقبراً بالطّفوفِ يضمُّ شلواً ... قضى ظمأً إلى بَردِ الشّرابِ
وبغدادٍ وسامرّا وطوسٍ ... هطولُ الودْقِ منخرقُ العبابِ

(١) زفون القطر: دفاع المطر. الحَباب: فقاقيع الماء.
(٢) الرّباب: السّحاب الأبيض. العَذَب: جمع عَذَبة، وهي طرف الشيء.
(٣) التّلاع ـ جمع التّلعة ـ: ما علا الأرض، ما سفل منها. الهضاب: أعالي الجبال. وفي لسان العرب: الهضبة: الجبل المنبسط.

قبورٌ تنطُفُ العبراتُ فيها ... كما نطفَ الصبيرُ على الرّوابي[1]
فلو بَخِلَ السّحابُ على ثراها ... لذابتْ فوقَها قِطَعُ السّرابِ
سقاكَ فكم ظمئتُ إليك شوقاً ... على عُدواء داري واقترابي
تجافي يا جَنُوبَ الرِّيح عنّي ... وصوني فضلَ بُردكِ عن جنابي
ولا تسري إليَّ مع اللّيالي ... وما استحقبتِ من ذاكَ التّرابِ[2]
قليلٌ أن تُقادَ له الغوادي ... وتُنحَرَ فيه أعناقُ السّحابِ[3]
أما شَرِقَ التُّرابُ بساكنيه ... فيلفظهمْ إلى النّعم الرِّغابِ
فكم غدتِ الضّغائنُ وهي سكرى ... تديرُ عليهمُ كأسَ المصابِ
صلاةُ اللهِ تخفقُ كلَّ يوم ... على تلكَ المعالمِ والقِبابِ
وإنّي لا أزالُ أكرُّ عزمي ... وإن قلّتْ مساعدةُ الصّحابِ
وأخترقُ الرِّياحَ إلى نسيم ... تَطلّعَ من تراب أبي ترابِ
بودّي أن تطاوعَني اللّيالي ... وينشَبَ في المنى ظفري ونابي
فأرمي العيسَ نحوكمُ سهاماً ... تغلغلُ بين أحشاءِ الرّوابي
ترامى باللُّغام على طلاها ... كما انحدر الغثاء عن العقابِ[4]
وأجنُبُ بينها خُرُقَ المذاكي ... فأملي باللُّغام على اللّغابِ[5]
لعلّي أن أبلّ بكم غليلاً ... تغلغلَ بين قلبي والحجابِ
فما لُقياكُمُ إلاّ دليلٌ ... على كنزِ الغنيمةِ والثّوابِ
ولي قبرانِ بالزّوراءِ أشفي ... بقربهما نزاعي واكتئابي
أقودُ إليهما نفسي وأهدي ... سلاماً لا يحيدُ عن الجوابِ
لقاؤهما يطهّر من جناني ... ويدرأُ عن ردائي كلَّ عابِ

---

(١) نطف: سال. الصّبير: السّحاب الذي يصير بعضه فوق بعض.
(٢) استحقبت: ادّخرت.
(٣) الغوادي ـ جمع الغادية ـ: وهي السّحابة.
(٤) اللّغام: لعاب الإبل. الطّلى: العنق. الغثاء: البالي من ورق الشّجر المخالط زبد السّيل. العقاب ـ جمع عقبة ـ: مرقى صعب من الجبال.
(٥) أجنُب: أقود. اللّغاب: السّهم لم يُحسن بريه.

قسيمُ النّارِ جدّي يوم يلقى[1] — بـه بـاب النّجاة من العذابِ
وساقي الخلقِ والمهجاتُ حرّى — وفاتحةُ الصّراطِ إلى الحسابِ
ومن سمحت بخاتمه يمينٌ[2] — تضنُّ بكلّ عاليةِ الكعابِ
أما في باب خيبرَ معجزاتٌ — تُصَدِّقُ أو مناجاةُ الحُبابِ[3]
أرادت كيدَهُ والله يأبى — فجاءَ النّصرُ من قِبَلِ الغرابِ[4]
أهذا البدرُ يُكسَفُ بالدّياجي — وهذي الشّمسُ تُطمَسُ بالضّبابِ؟
وكان إذا استطال عليه جانٍ — يرى تركَ العقابِ من العقابِ
أرى شعبانَ يُذكِرُني اشتياقي — فمن لي أن يذكّركم ثوابي؟
بكم في الشّعرِ فخري لا بشعري — وعنكم طالَ باعي في الخطابِ
أُجَلّ عن القبائحِ غير أنّي — لكم أرمي وأُرمى بالسّبابِ
فأجهرُ بالولاءِ ولا أُورّي — وأنطقُ بالبراءِ ولا أحابي
ومن أولى بكم منّي وليّاً — وفي أيديكمُ طَرَفُ انتسابي
محبّكمُ ولو بغضتْ حياتي — وزائرُكمْ ولو عقرتْ ركابي
تُباعِدُ بيننا غِيَرُ اللّيالي — ومرجعُنا إلى النّسبِ القرابِ

وقال يرثي الإمام السّبط المفدّى الحسين بن عليّ عليه السلام في يوم عاشوراء سنة ٣٩١هـ:

هذي المنازلُ بالغميمِ فنادِها — واسكبْ سخيَّ العينِ بعد جمادِها
إن كان دَينٌ للمعالمِ فاقضِه — أو مهجةٌ عند الطّلولِ ففادِها
يا هل تَبُلُّ من الغليلِ إليهمُ — إشرافةٌ للرّكبِ فوق نجادِها
نُؤيٌ كمنعطفِ الحنيّةِ دونَهُ — سُحُمُ الخدودِ لهنّ إرثُ رمادِها
ومناطُ أطنابٍ ومقعدُ فِتيةٍ — تخبو زنادُ الحَيّ غيرَ زنادِها

---

(١) أشار إلى حديث مرّ بيانه في: ٣/ ٢٩٩.

(٢) أشار إلى تصدّقه بخاتمه، وقد مرّ حديثه: ٢/ ٤٧ و٣/ ١٥٥ ـ ١٦٢.

(٣) الحُباب: الحيّة.

(٤) أشار إلى حديث الحُباب الذي تحدّثنا عنه آنفاً.

ومَجَـرُّ أرسـانِ الجيـادِ لِغلمـةٍ — سجفـوا البيـوتَ بشقرِهـا ووِرادِهـا
ولقـد حبستُ على الـدّيارِ عصابةً — مضمـومـةَ الأيـدي إلـى أكبـادِهـا
حسـرى تجـاوبُ بـالبكـاءِ عيونُهـا — وتعـطُّ بـالـزَّفـراتِ فـي أبـرادِهـا
وقفـوا بهـا حتّـى كـأنّ مطيَّهـمْ — كـانـت قـوائمُهـنّ مـن أوتـادِهـا
ثـمّ انثنـتْ والـدّمـعُ مـاءُ مـزادِهـا — ولـواعـجُ الأشجـانِ مـن أزوادِهـا
مـن كـلِّ مشتمـلٍ حمـائـلَ رنّـةٍ — قطْـرُ المـدامـعِ مـن حُلـيِّ نجـادِهـا
حيّـتـكَ بـل حيّـتْ طلـوعَـكَ ديمـةٌ — يشفـي سقيـمَ الـرّبـعِ نفـثُ عِهـادِهـا
وغـدتْ عليـك مـن الخمـائـل يَمنـةٌ — تستـامُ نـافقـةً علـى روّادِهـا[1]
هـل تطلبـونَ مـن النّـواظـرِ بعـدَكـم — شيئـاً سـوى عبـراتِهـا وسُهـادِهـا
لـم يبـقَ ذُخـرٌ للمـدامـعِ عنكـمُ — كـلاّ ولا عيـنٌ جـرى لـرقـادِهـا
شغـلَ الـدّمـوعَ عـن الـدّيـارِ بكـاؤنـا — لبكـاءِ فـاطمـةٍ علـى أولادِهـا
لـم يخلفـوهـا فـي الشّهيـدِ وقـد رأى — دُفَـعَ الفـراتِ يُـذادُ عـن أورادِهـا[2]
أتُـرى دَرَتْ أنّ الحسيـنَ طـريـدةٌ — لِقَنـا بنـي الطّـرداءِ عنـد ولادِهـا
كـانـت مـآتـمُ بـالعـراقِ تعـدُّهـا — أمـويَّـةٌ بـالشّـام مـن أعيـادِهـا
مـا راقبـتْ غضـبَ النّبـيِّ وقـد غـدا — زرعُ النّبـيِّ مظنّـةً لحصـادِهـا
بـاعـتْ بصـائـرَ دينِهـا بضـلالِهـا — وشـرَتْ معـاطـبَ غيِّهـا بـرشـادِهـا
جعلـتْ رسـولَ اللهِ مـن خُصَمـائِهـا — فلبئـس مـا ذخـرتْ ليـوم معـادِهـا
نسـلُ النّبـيِّ علـى صعـابِ مطيِّهـا — ودمُ النّبـيِّ علـى رؤوس صِعـادِهـا
والهفتـاهُ لعصبـةٍ علـويّـةٍ — تبعـتْ أميّـةَ بعـد عـزِّ قيـادِهـا
جعلـتْ عِـرانَ الـذلِّ فـي آنـافِهـا — وعِلاطَ وسْمِ الضّيمِ في أجيادِها[3]
زعمـتْ بـأنّ الـدّيـنَ سـوّغَ قتلَهـا — أوَليـس هـذا الـدِّيـنُ عـن أجـدادِهـا؟
طلبـتْ تـراتَ الجـاهليّـةِ عنـدَهـا — وشفـتْ قـديـمَ الغِـلِّ مـن أحقـادِهـا

---

(١) الخمائل ـ جمع خميلة ـ: القطيفة. اليمنة: بُرد يمني. تستام: تسأل السّوم.
(٢) دُفَع ـ جمع دفعة ـ: دفقة المطر؛ استعارها للفرات.
(٣) العِران: عود يُجعل في أنف البعير. العلاط: حبل يُجعل في عنق البعير.

واستأثرتْ بالأمرِ عن غُيّابِها ... وقضتْ بما شاءت على شُهّادِها
اللهُ سابقُكُمْ إلى أرواحِها ... وكسبتمُ الآثامَ في أجسادِها
إن قُوِّضتْ تلك القِبابُ فإنّما ... خرّتْ عمادُ الدِّين قبل عمادِها
إنّ الخلافةَ أصبحتْ مزويّةً ... عن شعبِها ببياضِها وسوادِها
طمسَتْ منابرَها علوجُ أميّةٍ ... تنزو ذئابُهمُ على أعوادِها
هي صفوةُ اللهِ التي أوحى لها ... وقضى أوامرَهُ إلى أمجادِها
أخذتْ بأطرافِ الفخارِ فعاذرٌ ... أن يصبحَ الثّقلانِ من حسّادِها
الزّهدُ والأحلامُ في فتّاكِها ... والفتكُ لولا اللهُ في زهّادِها
عُصَبٌ يُقمَّطُ بالنّجادِ وليدُها ... ومُهودُ صبيتِها ظهورُ جيادِها
تروي مناقبَ فضلِها أعداؤها ... أبداً وتسندُه إلى أضدادِها
يا غيرةَ اللهِ اغضبي لنبيِّه ... وتزحزحي بالبيضِ عن أغمادِها
من عصبةٍ ضاعتْ دماءُ محمّدٍ ... وبنيه بين يزيدِها وزيادِها
صفداتُ مالِ اللهِ ملءُ أكفِّها ... وأكفُّ آلِ اللهِ في أصفادِها(١)
ضربوا بسيفِ محمّدٍ أبناءَهُ ... ضربَ الغرائبِ عُدنَ بعد ذِيادِها
قد قلتُ للرّكبِ الطّلاحِ كأنّهمْ ... رُبْدُ النّسورِ على ذرى أطوادِها(٢)
يحدو بعُوجٍ كالحنيِّ أطاعَهُ ... مُعتاصُها فطغى على مُنقادِها(٣)
حتّى تخيّلَ من هِبابِ رقابِها ... أعناقَها في السّيرِ من أعدادِها(٤)
قِفْ بي ولو لوثَ الإزارِ فإنّما ... هي مهجةٌ عَلِقَ الجوى بفؤادِها(٥)
بالطّفِّ حيث غدا مُراقُ دمائِها ... ومُناخُ أينُقِها ليومِ جِلادِها

---

(١) الصّفدات ـ من الصّفد ـ: العطاء، والأصفاد: الأغلال.
(٢) الطَّلِح: المهزول والمعيا، والجمع أطلاح. الرّبدة: الغبرة، يقال: أربد لونه: تغيّر. وتربّد الرّجل: تعبّس (المؤلّف).
(٣) العوج ـ جمع عوجاء ـ: النّاقة السيّئة الخلق.
(٤) الهباب: النّشاط والسّرعة. الأعداد ـ جمع عدّ ـ: الماء الجاري لا ينقطع.
(٥) لاث الإزار: أداره مرّتين على بدنه، والتعبير كناية عن قصر فترة الوقوف؛ والمراد: قف بي ولو قليلاً.

القفرُ من أرواقِها والطّيرِ من طرّا ... قها والوحشُ من عُوّادِها
تجري لها حَبَبُ الدّموعِ وإنّما ... حبُّ القلوبِ يكنُّ من أمدادها
يا يومَ عاشوراءَ كم لكَ لوعةٍ ... تترقّصُ الأحشاءُ من إيقادِها
ما عدتَ إلاّ عاد قلبي غلّةٌ ... حرّى ولو بالغتُ في إبرادِها
مثلُ السّليمِ مضيضةٌ آناؤه ... خُزرُ العيونِ تعودُهُ بعدادِها
يا جدُّ لا زالتْ كتائبُ حسرةٍ ... تغشى الضّميرَ بكرِّها وطرادِها
أبداً عليك وأدمعٌ مسفوحةٌ ... إن لم يراوحْها البكاءُ يغادِها
هذا الثّناءُ وما بلغتُ وإنّما ... هي حلبةٌ خلعوا عِذارَ جوادِها
أأقولُ: جادكمُ الرّبيعُ وأنتمُ ... في كلِّ منزلةٍ ربيعُ بلادِها؟
أم أستزيدُ لكم علىً بمدائحي ... أينَ الجبالُ من الرّبى ووهادِها؟
كيف الثّناءُ على النّجومِ إذا سمتْ ... فوقَ العيونِ إلى مدى أبعادِها؟
أغنى طلوعُ الشّمسِ عن أوصافِها ... بجلالِها وضيائِها وبعادِها

وقال يرثي جدّه الإمام السّبط الشّهيد في عاشوراء سنة ٣٧٧هـ:

صاحت بِذَوديَ بغدادٌ فآنسني ... تقلّبي في ظهورِ الخيلِ والعيرِ
وكلّما هَجْهَجَتْ بي عن منازلِها ... عارضتُها بجَنانٍ غيرِ مذعورِ
أطغى على قاطنيها غيرَ مكترثٍ ... وأفعلُ الفعلَ فيها غيرَ مأمورِ
خطبٌ يهدّدني بالبعدِ عن وطني ... وما خُلقتُ لغيرِ السّرجِ والكورِ
إنّي وإن سامني ما لا أقاومه ... فقد نجوتُ وقِدحي غيرُ مقمورِ
عجلانَ ألبسُ وجهي كلَّ داجيةٍ ... والبَرُّ عريانُ من ظبيٍ ويعفورِ
وربَّ قائلةٍ والهمُّ يُتحِفُني ... بناظرٍ من نطافِ الدّمعِ ممطورِ:
خفِّضْ عليكَ فللأحزانِ آونةٌ ... وما المقيمُ على حُزنٍ بمعذورِ
فقلتُ: هيهاتَ فاتَ السّمعَ لائمه ... لا يُفهَمُ الحزنُ إلاّ يومَ عاشورِ
يومٌ حدا الظُّعْنَ فيه بابنِ فاطمةٍ ... سنانُ مطّردِ الكعبينِ مطرورِ[1]

---

(١) المطرور: المحدّد.

وخـرَّ للمـوتِ لا كـفٌّ تقلّبُـهُ ... إلاّ بـوطءٍ مـن الجُـردِ المحـاضيـرِ
ظمـآنَ سلّـى نجيـعُ الطّعـنِ غُلّتَـهُ ... عن باردٍ من عُبَابِ الماءِ مقرورِ[1]
كـأنّ بيـضَ المـواضـي وهـي تنهبُـهُ ... نـارٌ تحكّـم فـي جسـمٍ مـن النّـورِ
للهِ مُلقـىً علـى الـرّمضـاء عـضَّ بـه ... فـمُ الـرّدى بيـن إقـدامٍ وتشميـرِ
تحنـو عليـه الـرّبـى ظـلاًّ وتستـرُهُ ... عـن النّـواظـرِ أذيـالُ الأعـاصيـرِ[2]
تهـابُـهُ الـوحـشُ أن تـدنـو لمصـرعِـهِ ... وقـد أقـامَ ثـلاثـاً غيـرَ مقبـورِ
ومـوردٌ غمـراتِ الضّـربِ غُـرّتَـهُ ... جـرّتْ إليـه المنـايـا بـالمصـاديـرِ
ومُستطيـلٌ علـى الأزمـان يقـدرُهـا ... جنـى الـزّمـانُ عليهـا بـالمقـاديـرِ
أغـرى بـه ابـنَ زيـادٍ لـؤمُ عنصـرِهِ ... وسعيُـهُ ليـزيـدٍ غيـرُ مشكـورِ
ودّ أن يتـلافـى مـا جنـتْ يـدُهُ ... وكـان ذلـك كسـراً غيـر مجبـورِ
تُسبـى بنـاتُ رسـولِ اللهِ بينهـمُ ... والـدّيـنُ غـضُّ المبادي غيـرُ مستورِ
إن يظفـرِ المـوتُ منّـا بـابـن مُنجِبَـةٍ ... فطـالمـا عـادَ ريّـانَ الأظـافيـرِ
يلقـى القنـا بجبيـنٍ شـانَ صفحتَـهُ ... وقـعُ القنـا بيـن تضميـخٍ وتعفيـرِ
مـن بعـدمـا ردَّ أطـرافَ الـرّمـاحِ بـه ... قلـبٌ فسيـحٌ ورأيٌ غيـرُ محصـورِ
والنّقـعُ يسحـبُ مـن أذيـالِـهِ ولـه ... علـى الغـزالـةِ جيـبٌ غيـرُ مـزرورِ
فـي فيلـقٍ شـرقٍ بـالبيـضِ تحسبُـه ... بـرقـاً تـدلّـى علـى الآكـام والقـورِ[3]
بنـي أميّـةَ مـا الأسيـافُ نـائمـةٌ ... عن شاهرٍ في أقاصي الأرض موتورِ
والبـارقـاتُ تلـوّى فـي مغـامـدهـا ... والسّـابقـاتُ تمطّـى فـي المضـاميـرِ
إنّـي لأرقـبُ يـومـاً لا خفـاءَ لـه ... عـريـانَ يقلـقُ منـه كـلُّ مغـرورِ
وللصّـوارمِ مـا شـاءتْ مضـاربُهـا ... مـن الـرّقـابِ شـرابٌ غيـرُ منـزورِ
أكـلَّ يـومٍ لآلِ المصطفـى قمـرٌ ... يهـوي بـوقـعِ العـوالـي والمبـاتيـرِ

(١) مقرور ـ من القرّ ـ: البرد.
(٢) الأعاصير، جمع الإعصار: ريح ترتفع بالتّراب.
(٣) القور، جمع القارة: الجبل الصّغير المنقطع عن الجبال.

وكلُّ يومٍ لهم بيضاءُ صافيةٌ يشوبُها الدَّهرُ من رنقٍ وتكديرِ
مغوارُ قومٍ يروعُ الموتُ من يدِهِ أمسى وأصبح نهباً للمغاويرِ
وأبيضُ الوجهِ مشهورٌ تغطرفُهُ مضى بيومٍ من الأيّام مشهورِ
ما لي تعجّبتُ من همّي ونفرتِهِ والحزن جرحٌ بقلبي غيرُ مسبورِ؟
بأيّ طرفٍ أرى العلياء إن نضبت عيني ولجلجتُ عنها بالمعاذيرِ
ألقى الزّمانَ بكَلْمٍ غيرِ مندملٍ عمرَ الزّمانِ وقلبٍ غيرِ مسرورِ
يا جدُّ لا زالَ لي همٌّ يحرّضُني على الدّموعِ ووجدٌ غيرُ مقهورِ
والدّمعُ تحفزُهُ عينٌ مؤرّقةٌ حفزَ الحنيّةِ عن نزعٍ وتوتيرِ
إنّ السّلوَّ لمحظورٌ على كبدي وما السّلوُّ على قلبٍ بمحظورِ

وقال يرثي سيّدنا الإمام الشّهيد في يوم عاشوراء سنة ٣٨٧هـ:

راحلٌ أنت واللّيالي نُزولُ ومضرٌّ بك البقاءُ الطّويلُ
لا شجاعٌ يبقى فيعتنقُ الـ ـبيضَ ولا آملٌ ولا مأمولُ
غايةُ النّاسِ في الزّمانِ فناءٌ وكذا غايةُ الغصونِ الذّبولُ
إنّما المرءُ للمنيّةِ مخبوءٌ وللطّعنِ تُستجَمُّ الخيولُ
من مَقيلٍ بين الضُّلوعِ إلى طو لِ عناءٍ وفي التّرابِ مقيلُ(١)
فهو كالغيمِ ألّفتْهُ جَنوبٌ يومَ دُجْنٍ ومزّقتْهُ قَبولُ(٢)
عادةٌ للزّمانِ في كلِّ يومٍ يتناءى خِلٌّ وتبكي طلولُ
فاللّيالي عونٌ عليكَ مع البيـ ـنِ كما ساعدَ الذّوابلَ طولُ
ربّما وافقَ الفتى من زمانٍ فرحٌ غيرُهُ بهِ متبولُ(٣)
هي دنيا إن واصلتْ ذا جفتْ هـ ـذا ملالاً كأنّها عطبولُ(٤)
كلُّ باكٍ يُبكى عليه وإن طا لَ بقاءٌ والثّاكلُ المثكولُ

(١) من قال قيلاً وقيلولةً ومقيلاً: نام نصف النّهار.
(٢) القَبول: ريح الصّبا.
(٣) يقال: تبلهم الدّهر، أي أفناهم.
(٤) العطبول: المرأة الفتيّة الجميلة.

والأمــانــيُّ حســرةٌ وعنــاءٌ ... لِلَّــذي ظــنَّ أنّهــا تعليــلُ
مــا يُبــالــي الحِمــام أيــن تــرقّــى ... بعــدمــا غــالــتِ ابــنَ فــاطــمَ غــولُ
أيُّ يــومٍ أدمــى المــدامــعَ فيــه ... حــادثٌ رائــعٌ وخطــبٌ جليــلُ؟
يــومُ عــاشــوراءَ الــذي لا أعــان الـ ... ـصَّحــبُ فيــهِ ولا أجــار القبيــلُ
يــا ابــن بنــتِ الرَّســولِ ضيّعَــتِ العهـ ... ـدَ رجــالٌ والحــافظــون قليــلُ
مــا أطــاعــوا النّبــيَّ فيــك وقــد مــا ... لت بــأرمــاحِهــم إليــك الذّحــولُ[1]
وأحــالــوا على المقــاديرِ في حر ... بِــك لــو أنّ عــذرَهــمْ مقبــولُ
واستقــالــوا مــن بعــدِ مــا أجلبــوا فيـ ... ـهــا أالآن أيّهــا المستقيــلُ؟
إنّ أمــراً قنّعــتَ مــن دونِــه السّيـ ... ـفَ لمــن حــازَه لمــرعــىً وبيــلُ
يــا حســامــاً فلّــتْ مضــاربُــه الهــا ... مَ وقــد فلّــه الحســامُ الصّقيــلُ
يــا جــواداً أدمــى الجــوادَ مــن الطّعـ ... ـن وولّــى ونحــرُهُ مبلــولُ
حجــلُ الخيــلِ مــن دمــاءِ الأعــادي ... يــوم يبــدو طعــنٌ وتخفــى حجــولُ
يوم طاحتْ أيدي السّوابق في النّـ ... ـقع وفاض الونى وغاضَ الصّهيلُ
أتُــرانــي أُعيــرُ وجهــيَ صــونــاً ... وعلــى وجهِــهِ تجــولُ الخيــولُ؟
أتُــرانــي ألــذُّ مــاءً ولمّــا ... يــروَ مــن مهجــةِ الإمــام الغليــلُ؟
قبّلتــهُ الــرِّمــاحُ وانتضلــتْ فيـ ... ـه المنــايــا وعــانقتْــهُ النّصــولُ
والسّبــايــا علــى النّجــائــب تُستــا ... قُ وقــد نــالــت الجيــوبَ الــذّيــولُ
مــن قلــوبٍ يــدمــى بهــا نــاظرُ الــوجـ ... ـد ومــن أدمــعٍ مــراهــا الهُمــولُ[2]
قــد سلبــنَ القنــاعَ عــن كــلِّ وجــهٍ ... فيــه للصّــون مــن قنــاعٍ بــديــلُ
وتنقّبــن بــالأنــامــلِ والــدّمـ ... ـعُ علــى كــلِّ ذي نقــابٍ دليــلُ
وتَشــاكَيْــنَ والشّكــاةُ بكــاءٌ ... وتنــاديــنَ والنّــداءُ عــويــلُ
لا يغــبّ الحــادي العنيــفُ ولا يفـ ... ـتُــرُ عــن رنّــةِ العــديــلِ العــديــلُ

---

(١) الذّحول: الثّارات.

(٢) مراها: استخرجها.

يا غريبَ الدِّيارِ صبري غريبٌ وقتيلَ الأعداءِ نومي قتيلُ
بي نزاعٌ يطغى إليك وشوقٌ وغرامٌ وزفرةٌ وعويلُ
ليت أنّي ضجيعُ قبرِكَ أو أ نَّ ثراه بمدمعي مطلولُ
لا أغبَّ الطّفوفَ في كلِّ يوم من طِراقِ الأنواءِ غيثٌ هطولُ
مطرٌ ناعمٌ وريحُ شمالٍ ونسيمٌ غضٌّ وظلٌّ ظليلُ
يا بني أحمدٍ إلى كم سناني غائبٌ عن طعانه ممطولُ
وجيادي مربوطةٌ والمطايا ومقامي يروعُ عنه الدَّخيلُ؟
كم إلى كم تعلو الطُّغاة وكم يحـ ـكمُ في كلِّ فاضلٍ مفضولُ
قد أذاعَ الغليلُ قلبي ولكن غير بدعٍ إنِ استطبَّ العليلُ
ليت أنّي أبقى فأمترقَ النّا سَ وفي الكفِّ صارمٌ مسلولُ
وأجرَّ القنا لثارات يوم الطّـ ـفِّ يستلحقُ الرَّعيلَ الرَّعيلُ
صبغَ القلبَ حبُّكمُ صبغةَ الشّيـ ـبِ وشيبي لولا الرَّدى لا يحولُ
أنا مولاكُمُ وإن كنت منكم والدي حيدرٌ وأُمّي البتولُ
وإذا النّاس أدركوا غايةَ الفخـ ـرِ شأهم من قالَ: جدّي الرَّسولُ[1]
يفرح النّاس بي لأنّيَ فضلٌ والأنامُ الّذي أراهُ فضولُ
فهمُ بين منشدٍ ما أقفّيـ ـهِ سروراً خواطرٌ وعقولُ
أتركُ الشّيءَ عاذري فيه كلُّ النّا سِ من أجلِ أن لحاني عَذُولُ
هو سؤلي إن أسعد اللهُ جَدّي ومعالي الأمور للذِّمرِ[2] سولُ

في مدح أبيه وذوي الشّأن

وقال في مديح أبيه عدداً من القصائد، فجمع له شرف النّسب إلى علوّ الهمّة وحميد الأخلاق، مثل قوله:

وأين مثلُ الحسين إن حَسُنت صنائعُ البيض والقنا العُصُدِ؟

(١) شأهم: سبقهم.
(٢) الذِّمر: الشّجاع، الجمع أذمار، والذِّمارة: الشّجاعة.

أبْلَجُ إن صاحَت المطيُّ به ... فدى الشّاني بعيشه الرَّغَدِ

ومدح الخلفاء العبّاسيّين والملوك البويهيّين.

في تصوير لوعة الفَقْد

ورثا أفراد أسرته وأصدقاءه، وتفرّد بتصوير لوعة الفقد التي يكابدها، ومن نماذج ذلك قوله في رثاء والدته:

فارقت فيك تمسُّكي وتجمُّلي ... ونسيت فيكِ تعزُّزي وإبائي
وصنعتُ ما ثلم الوقار صنيعُه ... ممّا عراني من جوى البرحاء
كم زفرةٍ ضعفت فصارت أنّةً ... تمّمتُها بتنفُّس الصُّعداء
لهفان أنزو في حبائل كربةٍ ... ملكت عليّ جلادتي وغنائي

في الفخر والنَّسيب

وتجلّى تصوير الذّات المتفرّدة في غرضين من أغراض الشّعر؛ هما: الفخر والنّسيب، ففي الغرض الأوّل بدا الشّريف الرّضي فارساً يتّصف بأخلاق الفارس العربي المسلم، البطل الذي يقود الفرسان، والإنسان الذي يشكو متاعب الدّنيا، وفي هذا الغرض يجد القارئ بوحاً ذاتيّاً وجدانيّاً يمثّل تجربة فريدة يمتزج فيها الفخر بالأصل العريق والذّات المتفوّقة بالقلق والطُّموح بشكوى الدّهر..

وفي الغرض الثّاني، وهو النّسيب، أنشد الشّريف الرّضي أعذب الشّعر وأرقّه، وسُمّيت قصائده في هذا المجال «الحجازيّات»، ولعلّه كان ينظمها في الحجاز، أو كان يذكر فيها الحجاز، وذكرى هذه البلاد عزيزة على علويٍّ مثل الشّريف الرّضي؛ فهي تثير كوامن الأشجان، وتعيد الماضي... فيتمثّل الوجد الإنساني، في أصفى حالاته وأرقاها، في لغةٍ عذبة غدت منهلاً للشّعراء من بعده.

وغزله عفيفٌ يتمثّل فيه الهدى والتُّقى، فنقرأ قوله:

بتنا ضجيعين في ثوبي هوىً وتقىً ... يلفُّنا الشّوقُ من فرع إلى قدم

وقوله:

عفـافـي، مـن دون التقيّـة زاجـرُ ... وصونك، من دون الرّقيب، رقيب
عشقـت ومـا لـي، يعلم الله، حاجةً ... سوى نظري، والعاشقون ضروب
ومـا لـي، يـا لمياءُ، بـالشِّعر طـائـلُ ... ســوى أنَّ أشعـاري عليـك نسيـب

ومن قصائده، في هذا المجال، الكافيّة، ومطلعها:

يـا ظبيـة البـان تـرعـى فـي خمـائلـه ... ليهنـك اليـوم أنَّ القلـب مـرعـاك

والميميَّة، وفيها يقول:

يـا ليلـة السّفـح هـلاّ عـدت ثـانيـة ... سقـى زمـانـك هطّـال مـن الـدِّيـم
ماضٍ من العيش لو يفدى بذلت له ... كـرائـم المـال مـن خيـل ومـن نعـم
وظبيـة مـن ظبـاء الأنـس عـاطلـة ... تستوقف العين بين الخمص والهضم
لـو أنّهـا بفنـاء البيـت سـانحـة ... لصدتها وابتدعت الصّيد في الحرم
قـدرت منهـا بـلا رقبـى ولا حـذر ... على الـذي نـام عـن ليلـي ولـم أنـم
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى ... يلفنـا الشـوق مـن فـرع إلـى قـدم
وأمسـت الـرّيـح كـالغيـرى تجـاذبنـا ... على الكثيب فضول الريط واللّمم
يشـي بنـا الطّيـب أحيـانـاً وآونـة ... يضيئنـا البـرق مجتـازاً علـى أضـم
وبيننـا عفّـة بـايعتهـا بيـدي ... علـى الـوفـاء بهـا والـرّعـي للـذِّمـم
يـا حبّـذا لمـة بـالـرَّمـل ثـانيـة ... ووقفـة ببيـوت الحـيّ مـن أمـم
ديـن عليـك فـإن تقضيـه أحـي بـه ... وإن أبيـت تقـاضينـا إلـى حكـم

في الصِّلة بالآخر

ويجـد القـارئ، فـي شعر الشَّريف الرَّضي، قصائد تصوِّر العلاقة بالآخر الصَّديق، وبالآخر الخصم، ففي المجال الأوَّل كشف عن معرفة عميقة بالنَّاس وعـن رغبـة صـادقـةٍ فـي إقـامـة العلاقات المثلى، ومن نماذج قوله، في هذا المجال، قصيدته التي جاء فيها:

وكم صاحب كالرُّمح زاغت كعـوبُـه ... أبـى، بعـد طـول الغمـز، أن يتقـوَّمـا

وفـي المجـال الثّاني كشـف عن مقدرة في الهجاء تنال من المهجوّ ولا تفحش، ومن نماذج ذلك قوله:

وإنّـي، إذا أبـدى العـدوّ سفـاهـةً حبسـت عـن العـوراء فضـل لسـانيـا
وكنـت إذا التـاث الصّـديـقُ قطعتُـه وإن كـان يـومـاً رائحـاً كنـت غـاديـاً

خصائص شعريّة

ويلفت، فـي شعر الشّريف الرّضي، علاوةً على عذوبة الألفاظ وبداوتها أحياناً كثيرة ومتانة التّركيب وسهولته في آن، ميّزتان: أولاهما الصّورة الشعرية النّابعة من الذّات، المصوِّرة حالة الوجد الإنساني الصّادق، وثانيتهما الموسيقى الشّعـريّـة التي تمثّـل، منتظمة هي والصّورة وعناصر الشّعر الأخرى، الحالة، وهو من دون شـكّ لم يقصد إلى هذا التميّز، وإنّما جاء وليد الحالة ليمثّلها لغةً شعرية جميلة.

* * *

(٣٨)
عبد المحسن الصُّوري

التَّعريف بالشَّاعر

قـال ابـن خلِّكـان: أبو محمَّد[١]، عبد المحسن بن محمَّد بن أحمد بن غـالب بـن غَلْبُـون الصُّـوري، الشَّـاعـر المشهـور. أحد المحسنين الفضلاء، المجيدين الأدبـاء، شعره بديع الألفـاظ، حسـن المعاني، رائق الكلام، مليح النِّظام، من محاسن أهل الشَّام، له ديوان شعر أحسن فيه كلّ الإحسان. . .»[٢].

توجز كتب الأدب، التي تترجم له، في الحديث عن حياته وشخصيَّته، ولعـلَّ ذلـك يعـود، كمـا يقـول السيِّـد محسـن الأمين، إلى «ميله إلى العزلة وقلَّة خروجه من صور إلى غيرها من البلـدان، فقلَّ لذلك العارفون به الواقفون على أحواله»[٣].

ولـد عبـد المحسـن الصّـوري فـي مدينـة صور، ونُسب إليها، وتوفِّي فيهـا، كمـا يـقـول ابـن خلِّكـان، «يـوم الأحـد، تـاسع شـوَّال، سنـة تسـع عشـرة وأربعمئـة، وعمره ثمانون سنة أو أكثر»[٤]، ما يعني أنَّه ولد في حدود سنة ٣٣٩هـ.

---

(١) راجع ترجمته في: الغدير، م.س.، ٤/ ٣٠٣ ـ ٣١٥. الثعالبي، يتيمة الدّهر، بيروت: دار الكتب العلميـة، ١/ ٣٦٣. تتمّـة اليتيمة، ٥/ ٤٦. أعيان، م.س.، ٨/ ٩٤ ـ ٩٨.

(٢) ابن خلِّكان ، وفيّات الأعيان، تحقيق د. إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر، ٣/ ٢٣٢، ترجمة رقم ٤٠٦، وفي بعض المصادر: «. . . بن طالب» بدلاً من غالب، وهذا تصحيف.

(٣) أعيان. . .، م.س.، ٨/ ٩٥.

(٤) وفيّات الأعيان، م.س.، ٣/ ٢٣٥.

تفيد قراءة شعر الصُّوري أنَّ «نوائب الدَّهر» أصابته، فجعلت أيّامه تظهر في صورتين: سوداء وطويلة، وقد بلغ به الفقر حالة أحوجته إلى من يعرِّفه النُّضار (= الذَّهب) من اللّجين (= الفضّة)، لأنّ عهده بكلٍّ منهما بعيد جدّاً، وذلك إنّما يعود، كما يقول، إلى تكسّبه بالشِّعر، فيا بئس تلك الصّنعة التي لا تؤتي سوى العوز والفقر!

يقول الشّاعر:

ونــوائــبٍ أظهــرن أيـ	ـامــي إلــيَّ بصــورتيــن
ســوّدنهــا وأطلنهــا	فــرأيــت يــومــاً ليلتيــن
هــل بعــد ذلــك مــن يعـ	ـرِّفنـي النُّضـار مـن اللّجيـن
متكسِّبــاً بـالشِّعــر يــا	بئـس الصِّنـاعـة فـي اليـديـن

سريع البديهة، يجيد المناظرة

وإن كان الصُّوري قد أنس بوحدته، فإنّه كان، كما تفيد بعض الأخبار التي وصلتنا عنه، سريع البديهة يجيز الشِّعر ارتجالاً ويجيد في ذلك، كما كان يجيد التحدُّث والمناظرة، ويصل بمحاوره إلى الاقتناع، ونكتفي هنا بذكر خبرين يفيد أوّلهما سرعة بديهته وحضور شاعريّته، ويفيد ثانيهما إجادته المناظرة والإقناع.

جاء في «بدائع البدائه»، بإسناده عن بكّار بن عليّ الرياحي، أنّه قال: لمّا وصل عبد المحسن الصّوري إلى دمشق جاءني المجدي الشّاعر فعرّفني به، وقال: هل لك أن نمضي إليه ونسلّم عليه؟ فأجبت، وقمت معه حتى أتينا إلى منزله، وكان ينزل دائماً، إذا قدم، في سوق القمح، وكان بين يديه دكّان قطّان وفيها رجلٌ أعمى، فوقفت به عجوز كبيرة فكلّمها بشيءٍ وهي منصتة له، فقال المجدي في الحال: «مُنصتةٌ تسمع ما يقولُ».

فقال عبد المحسن في الحال: «كالخلد لمّا قابلته الغولُ».

فقال له المجدي: أحسنت ـ والله ـ يا أبا محمّد، أتيت بتشبيهين في نصف بيت، أعيذك بالله[1].

وجاء في «أعيان الشّيعة» أنّ الصّوري قال من الشّعر ما يفيد أنّه التقى أبا العلاء المعرّي، وأنّ هذا وافقه على القول بالبعث واليقين بالآخرة، بعد مناظرة جرت بينهما، والنصّ الشّعري المعني هو:

نجا المعرّي من العار ... ومن شناعات وأخبار
وافقني أمس على أنّه ... يقول بالجنّة والنّار
وأنّه لا عاد من بعدها ... يصبو إلى مذهب «بكّار»[2]

شعره في يوم الغدير وفي مدح أهل البيت عليهم السلام

يعدّ ابن شهرآشوب الشّاعر الصّوري من شعراء أهل البيت المجاهرين[3]، وقد ترجم له ابن أبي شبانة في «تكملة أمل الآمل»، وهو لا يترجم إلاّ المتمسّك بأهل البيت عليهم السلام. وقد قال الشّعر في مدحهم وبيان حقّهم.

ومن شعره في يوم الغدير قوله:

ولاؤك خيرُ ما تحتَ الضّميرِ ... وأنفسُ ما تمكّنَ في الصّدورِ
وها أنا بثُّ أحسنُ منه ناراً ... أَمَتُّ بحرِّها نارَ السَّعيرِ
أبا حسنٍ تبيّنَ غدرُ قومٍ ... لعهدِ اللهِ من عهدِ الغديرِ
وقد قام النّبيُّ بهم خطيباً ... فدلَّ المؤمنين على الأميرِ

---

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخه، ١٠/٣٦٧، رقم ٩٤٢.

(٢) أعيان، م.س.، ٨/ ٩٥ و٩٦، يقول السيّد الأمين: أمّا مذهب «بكّار» فهكذا وجدناه في النّسخة، ولعلّ الصّواب مذهب بشّار.

(٣) معالم العلماء، ص ١٥١.

أشار إليه فيه بكلّ معنىً ... بَنوه على مخالفةِ المشيرِ
فكم من حاضرٍ فيهم بقلبٍ ... يخالفُه على ذاك الحضورِ
طوى يومُ الغديرِ لهم حُقوداً ... أنالَ بنشرِها يومَ الغديرِ
فيا لك منه يوماً جرَّ قوماً ... إلى يومٍ عبوسٍ قمطريرِ
لأمرٍ سوّلتْهُ لهم نفوسٌ ... وغرّتهمْ به دارُ الغرورِ
ولستُ من الكثيرِ فيطمئنّوا ... بأنَّ اللهَ يعفو عن كثيرِ

وله في أهل البيت عليهم السلام:

عيونٌ منعنَ الرّقادَ العيونا ... جعلنَ لكلِّ فؤادٍ فُتونا
فكُنَّ المُنى لجميعِ الورى ... وكنَّ لمن رامَهنَّ المَنونا
وقلبٌ تُقلّبُهُ الحادثاتُ ... على ما تشاء شمالاً يمينا
يصونُ هواهُ عن العالمينَ ... ومدمعُهُ يستذلُّ المَصونا
فما لي وكتمانِ داءِ الهوى ... وقد كان ما خفتُهُ أن يكونا؟
وكان ابتداءُ الهوى بي مُجُوناً ... فلمّا تمكّن أمسى جنونا
وكنتُ أظنُّ الهوى هيّناً ... فلاقيتُ منه عذاباً مُهينا
فلو كنتَ شاهدَ يومِ الوداعِ ... رأيتَ جفوناً تناجي جفونا
فهل تركَ البينُ من أرتجيه ... من الأوّلينَ أو الآخرينا؟
سوى حبِّ آلِ نبيِّ الهدى ... فحبُّهمُ أملُ الآملينا
همُ عُدّتي لوفاتي همُ ... نجاتي همُ الفوزُ للفائزينا
همُ موردُ الحوضِ للواردينَ ... وهم عروةُ اللهِ للواثقينا
همُ عونُ من طلبَ الصّالحاتِ ... فكنْ بمحبّتهمْ مُستعينا
همُ حجّةُ اللهِ في أرضهِ ... وإن جحدَ الحجّةَ الجاحدونا
همُ النّاطقونَ هم الصّادقونَ ... وأنتم بتكذيبهم كاذبونا
همُ الوارثونَ علومَ النّبيِّ ... فما بالُكمْ لهمُ وارثونا؟
حقدتم عليهم حُقوداً مضتْ ... وأنتمْ بأسيافِهم مسلمونا

جحــدْتُــمْ مــوالاةَ مــولاكــمُ ويــومَ الغــديــرِ بهــا مــؤمنــونــا
وأنتــم بمــا قــالــه المصطفــى ومــا نــصَّ مــن فضلِــهِ عــارفــونــا
وقلتــم: رضِينــا بمــا قلتَــهُ وقــالــتْ نفــوسُكــمُ: مــا رضينــا
فــأيّكــمُ كــان أولــى بهــا وأثبــتَ أمــراً مــن الطيّبينــا؟
وأيّكــمُ كــان بعــد النّبــيِّ وصيّــاً ومــن كــان فيكــم أمينــا؟
وأيّكــمُ نــامَ فــي فــرشِــهِ وأنتــمْ لمهجتِــهِ طــالبــونــا
ومــن شــارك الطّهــرَ فــي طــائــرٍ وأنتــمْ بــذاك لــه شــاهــدونــا
لحــا اللهُ قــومــاً رأوا رشــدَكــمْ مبينــاً فضلّــوا ضــلالاً مبينــا

وله في أهل البيت عليهم السلام:

مــا طــوّلَ اللّيــلَ القَصيــرا ونهــى الكــواكــبَ أن تغــورا
إلاّ وفــــي يــــده عــــزيـــمــاتٌ يحــلُّ بهــا الأمــورا
ذو مقلــــةٍ لا تستقــــلّ ضنــــىً وإن أضنــت كثيــرا
ليســتْ تفتّــر عــن دمــي وتــرى بهــا أبــداً فتُــورا
وتــرى بهــا ضعفــاً يُــريــك المستجــارَ المستجيــرا
فيمــا يُنــازعنــي عَــذولاً أو يُســامحنــي عَــذيــرا
أتــرى بــوادرَ فتنتــي فــي مــا تــرى إلاّ بُــدورا؟
لــو شــاء لاختصــر الغــرامَ بهــا مــن اختصــرَ الخصــورا
ولقــد لبســتُ ثيــابَ نفــسِــكَ مــالكــاً أو مستعيــرا
وتمثّــلَ الشّيطــانُ لــي ليغــرّنــي رشــأً غــريــرا
فخلعتُهــا ولبســتُ ثــوبَ الفتــكِ سحّــابــاً جَــرورا
مــا شئــت فــاقلــعْ عنــه واســتغفــر تجــد ربّــاً غفــورا
مــا لــم يكــنْ مــن معشــرٍ غــدروا وقــد شهــدوا الغــديــرا
وتــآمــروا مــا بينهــم أن ينصبــوا فيهــا أميــرا
مــن كــلِّ صــدرٍ مــوغَــرٍ مــلأت ضغــائِنُــهُ الصُّــدورا

متـــرشّـــحٍ للملــــكِ قــــد ... نصبــتْ ســريــرتُــه السَّــريــرا
وتـــوارثـــوهـــا ليـــس تخـ ... ــــرج عنهـــمُ شبـــراً قصيـــرا
هـــذا إلـــى أن قـــام قـــا ... ئـــمُ آلِ أحمـــدَ مُستثيـــرا
وتسلّـــمَ الإســـلامَ أقـ ... ـتـــمَ مظلمـــاً فكســـاهُ نـــورا

وله في أهل البيت عليهم السلام:

نكـــرتْ معـــرفتـــي لمّـــا حكَـــمْ ... حـــاكـــمُ الحـــبِّ عليهـــا لـــي بـــدمْ
فبـــدتْ مـــن نـــاظـــريهـــا نظـــرةٌ ... أدخلَتْهـــا فـــي دمـــي تحـــتَ التّهـــمْ
وتمكّنـــتُ فـــأضنيـــتُ ضنـــىً ... كـــان بـــي منهـــا وأسقمـــتُ سقـــمْ
وصبـــتْ بعـــد اجتنـــابٍ صبـــوةً ... بـــدّلـــت مـــن قـــولِهـــا: لا، بنعـــمْ
وفقـــدتُ الـــوجـــدَ فيهـــا والأســـى ... فتـــألّمـــتُ لفقـــدانِ الألـــمْ
مـــا لعينـــي وفـــؤادي كلّمـــا ... كتمـــتْ بـــاحَ وإن بـــاحـــتْ كتـــمْ؟
طـــالَ بـــي خُلْفُهمـــا فـــاتّفقـــتْ ... لـــي همـــومٌ فـــي الـــرّزايـــا وهمـــمْ
ورزايـــا المصطفـــى فـــي أهلِـــهِ ... فـــاتحـــاتٌ للـــرّزايـــا وخُتُـــمْ
يـــا بنـــي الـــزّهـــراءِ مـــاذا اكتَسَبـــتْ ... فيكـــمُ الأيّـــامُ مـــن عتْـــبٍ وذمْ
يـــا طـــوافـــاً طـــافَ طـــوفـــانٌ بـــه ... وحطيمـــاً بقنـــا الخـــطِّ حُطِـــمْ
أيُّ عهـــدٍ يُـــرتجـــى الحفـــظُ لـــه ... بعـــد عهـــد الله فيكـــم والـــذِّمـــمْ؟
لا تسلّيـــتُ وأنـــوارٌ لكـــمْ ... غَشِيَتْهـــا مـــن بنـــي حـــربٍ ظُلَـــمْ
ركبـــوا بحـــرَ ضـــلالٍ سلمـــوا ... فيـــه والإســـلامُ فيهـــم مـــا سلـــمْ
ثـــمّ صـــارتْ سنّـــةً جـــاريـــةً ... كـــلُّ مـــن أمكنـــهُ الظّلـــمُ ظلـــمْ
وعجيـــبٌ إنّ حقّـــاً بكـــمُ ... قـــامَ فـــي النّـــاسِ وفيكـــمْ لـــم يقُـــمْ
والـــولا فهـــو لمـــن كـــان علـــى ... قـــولِ عبـــدِ المُحسِـــنِ الصّـــوري قســـمْ
وأبيكـــمْ والـــذي وصّـــى بـــه ... لأبيكـــمْ جـــدُّكـــمْ فـــي يـــوم خُـــمْ
لقـــد احتـــجَّ علـــى أمّتِـــهِ ... بـــالـــذي نـــالكـــمُ بـــاقـــي الأمـــمْ

نماذج من شعره

نظم الصُّوري في أغراض الشِّعر جميعها وأجاد في نظمه، ويتضمَّن ديوانه، الذي لا يزال مخطوطاً، خمسة آلاف بيتٍ ونيِّف، وتوجد منه نسخة في مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق. ومن شعره نذكر، إضافةً إلى ما سبق، بعض النّماذج في ما يأتي:

لمّا ماتت أمّه ودفنها وجد عليها وجداً كثيراً، فقال:

رهينة أحجارٍ ببيداء دَكْدَكِ ... تولَّت فحلَّت عُروة المتمسِّك
وقد كنتُ أبكي إن تشكَّت، وإنَّما ... أنا اليوم أبكي أنَّها ليس تشتكي

وقال في رثاء للشَّيخ أبي عبدالله محمَّد بن محمَّد بن النّعمان، المفيد (المتوفّى سنة ٤١٣هـ):

تبارك من عمَّ الأنام بفضله ... وبالموت بين الخلق ساوى بعدله
مضى مستقلاً بالعلوم محمَّدٌ ... وهيهات يأتينا الزَّمان بمثله

واجتاز يوماً بقبر صديقٍ، فقال:

عجباً لي وقد مرَرْتُ على قبـ ... ـرك كيف اهتديتُ قصد الطَّريق
أتراني نسيت عهدك يوماً؟ ... صدقوا ما لميِّتٍ من صديق

وقال يهجو رجلاً رديء الحديث، مستخدماً مجزوء الرَّجز:

حديثه كالحَدَث ... يرفث كلَّ الرَّفث
يودُّ من يسمعه ... لو أنَّه في جدث[1]

وقال يهجو أبا التّقي الصّيداوي:

وقارب في العلوم وكن تقيّاً ... وإلاّ لم دعيت أبا التّقي

---

(١) الحَدَث: ما يحدثه المرء ويخرجه من فضلات وريح. الرَّفث: الفحش. الجدث: القبر.

ولا تظهر لمن تلقى ولاءً ... فعندهم علامات الولي

وقال يمدح أبا الحسن بشارة، وهو من أمراء جبل عامل:

نوائبُ، إنْ لم يقطع الله بينها ... بجود من الأستاذ، طال اتّصالُها
فيا غيثُ لا تعرضْ ليُمناه بعدما ... بدا لك، عند الجود والبأس، حالها
وخيلٍ تلقّاها بخيل، فلم تزل ... تقارب حتّى ضاق عنها مجالها
وقد صبغت بيضُ الظّبا بدم الطّلا ... فغيّر منها حسنها وصقالها
وقد ظلّلتها للغبار غمامةٌ ... يزيد على حرّ الشّموس ظلالها
فلمّا انجلت كانت لأروع ماجدٍ ... يروع فترتاع الوغى ورجالها
أبا الحسن الآمال جاءت تقودني ... أوامر منها يستخف اقتبالها
وما جسرت لولاك إن تضمن الغنى ... ولكن على جدوى يديك اتّكالها
مكارم إن فاز الكرام بفعلها ... وتاهوا به عجباً ففيه كمالها
تكاد القوافي أن تنوء بحملها ... ويظهر منها ضعفها وكلالها

وقال يمدح رئيس الرُؤساء أبا الحسين، عمّار بن محمّد، من وزراء الدّولة الفاطمية بمصر، وقد تولّى ديوان الإنشاء في أيّام الحاكم بأمر الله:

أرأيتَ ما صنع الغريبُ النّائي ... أيّام أغرب في حديث بكائي؟
متساقط العبرات كالجمرات من ... حولي فواعجبي لجمر الماء!
وأظلّ أعترض الرّياح تنسُّما ... فأعالجُ الأهواء بالأهواء
ومهفهف صَحَتْ على طول الضّنى ... أجفانُه فدواؤه من دائي
إن نختلط فقد اختلفنا فانظروا ... فالخلف داعي فرقة الخلطاء
كم أحمل الهمّ الغريب لصاحب الحـ ... ـسن الغريب بليت بالغرباء
لا ينكرن العاذلون تفرُّدي ... من دونه بالوجد والبرحاء
جعلت مراشفه تلوذ بلحظه ... حتّى حمى اللّمياء بالنّجلاء
نثلت كنانتها وقامت دونها ... ترمي فم الدّاني وعين الرّائي
لئن احتمت لقد احتمت من قبلها ... بأبي الحسين رياسة الرّؤساء

وأبـاحهـا لمـن استقـلّ نعيمهـا فـأبـاح منهـا أصعـب الأشيـاء
قوموا انظروا ما قام يصنع فانظروا مـا يستحـقّ بـه مـن الأسمـاء
لقـد استقـام على طريق في العلى خشنـاء مـوحشـة مـن الـرّفقـاء
ربـط المكـارم فـي جـوانـب بيتـه لحـوادث يحـدثـن فـي العليـاء
نهضـت لتـدبيـر الممـالـك نفسـه فـاستنهضتـه لأثقـل الأعبـاء
فقـواطـع الأسيـاف فـي أغمـادهـا محبـوسـة كفـواطـع الآراء
ألا تكـن نلـت الـوزارة نـاشئـاً فلقـد نشـأت مـدبـر الـوزراء
فـي نـور مكـرمـة ونـار عـزيمـة يتنـاهبـان غيـاهـب الظّلمـاء

* * *

(٣٩)
مهيار الدّيلمي

التّعريف بالشّاعر

أبو الحسن، مِهْيار بن مَرْزويه الدَّيلمي[١]، شاعرٌ فارسيٌّ الأصل، ينسب إلى بلاد الدَّيلم، وهي، كما جاء، في كتب الإخباريين، «جبال منيعة، كثيرة الغياض والشَّجر والمطر... في نهاية الخصب..»، ومن مناطقها طبرستان وجرجان وآمد... عاش في بغداد في زمن سلطان البويهيِّين الذي امتدَّ من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٤٤٧هـ، وكان يقيم في «درب رياح» بمحلَّة «الكرخ»، ولد حوالى سنة ٣٦٧هـ على الأرجح[٢]، وتوفّي ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ٤٢٨هـ.

لم يحظَ مهيار بعناية مؤرّخي الأدب ونقّاده قديماً وحديثاً، فجاء كلامهم عليه وعلى شعره موجزاً، ويمكن للباحث أن يجد في «وفيّات الأعيان» مجمل ما كتب عنه قديماً، وهو ما يتناقله مترجمو سيرته، وممّا ذكره ابن خلّكان:

(١) راجع ترجمته في: الغدير، م.س.، ٤/ ٣١٧ ـ ٣٥٠، وفيات الأعيان، م.س.، ٥/ ٣٥٩ ـ ٣٦٣، رقم ٧٥٥، أعيان الشّيعة، م.س.، ١٠/ ١٧٠ ـ ١٧٢. في وفيّات الأعيان ومعالم العلماء، «أبو الحسين». وتجد ترجمةً موجزة له في كلٍّ من المصادر الآتية: المنتظم، ١٥/ ٢٦٠، رقم ٣٢٠٨، دمية القصر، ١/ ٣٠٣، البداية والنهاية، ١٢/ ٥٢، حوادث سنة ٤٢٨هـ، الكامل في التّاريخ، ٦/ ٨٥، حوادث سنة ٤٢٨هـ، أمل الآمل، ٢/ ٣٢٩، رقم ١٠٢١، روض المناظر، ٢/ ٤٩، الأعلام، ٧/ ٣١٧، شذرات الذّهب، ٥/ ١٤٤، مؤلّفات جرجي زيدان الكاملة ـ تاريخ آداب اللّغة ـ، مج ١٤/ ٩٤، نسمة السّحر، مج٩/ ج٢/ ٥٤٨، سفينة البحار، ٨/ ١٥٤.

(٢) راجع: أعيان الشّيعة، م.س.، ١٠/ ١٧٠ و١٧١.

«أبو الحسين مِهيار بن مَرْزويه، الكاتب الفارسي الدَّيلمي، الشَّاعر المشهور، كان مجوسياً فأسلم، ويقال: إنّ إسلامه كان على يد الشَّريف الرَّضي أبي الحسن محمَّد الموسوي ـ المقدَّم ذكره ـ وهو شيخه، وعليه تخرَّج في نظم الشّعر. وقد وازن كثيراً من قصائده...».

ويضيف ابن خلّكان، فينقل عن «تاريخ ابن الأثير» أنَّ مهيار أسلم في سنة أربع وتسعين وثلاثمئة، «فقال له أبو القاسم بن برهان: يا مهيار، قد انتقلت بأسلوبك في النّار من زاوية إلى زاوية! فقال: وكيف ذاك؟ قال: كنت مجوسياً، فصرت تسبّ أصحاب رسول الله ﷺ في شعرك».

وينقل عن الحافظ أبي بكر الخطيب في «تاريخ بغداد» أنَّ هذا أثنى عليه، وقال: «كنت أراه يحضر جامع المنصور في أيّام الجمعات؛ يعني ببغداد، ويُقرأ عليه ديوان شعره...».

وذكره أبو الحسن الباخَرْزي في كتاب «دمية القصر»، فقال في حقّه: «هو شاعر له في مناسك الفضل مشاعر، وكاتب تجلّى تحت كلّ كلمة من كلماته كاعب، وما في قصيدة من قصائده بيت يُتَحَكَّم عليه لو وليت، وهي مصبوبة في قوالب القلوب، وبمثلها يعتذر الزّمان المذنب عن الذّنوب...».

وذكره أبو الحسن عليّ بن بسَّام في كتاب «الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وبالغ في الثّناء عليه، وذكر شيئاً من شعره، وينتهي ابن خلّكان إلى القول: «وكان شاعراً جزل القول، مقدَّماً على أهل وقته، وله ديوان شعر كبير يدخل في أربعة مجلّدات، وهو رقيق الحاشية، طويل النَّفس في قصائده».

أهمُّ عاملٍ أثّر في حياة مهيار وشعره

إنَّ أهمَّ عاملٍ أثّر في حياة مهيار وشعره هو إسلامه على يد الشَّريف الرَّضي. فقد تحوّل الشّاعر من مجوسيٍّ إلى مسلم يتّبع مذهب أهل البيت عليهم السلام، وتتلمذ، من نحو أوّل، على يد سيّد علوي يعدّ أنموذجاً للإنسان المسلم التّقي

الذي تتجسّد فيه المثل الإسلاميّة العليا، وتتلمذ، من نحو ثانٍ، على يد شاعر كبير يجيد القول، ويمثّل مذهباً في صناعة الشّعر، وقد عاش مهيار اثني عشر عاماً في كنف أستاذه، فتكوّنت شخصيّته إنساناً مسلماً تقيّاً وشاعراً ماهراً. وقد أحسّ بالفقد الكبير عندما توفّي الشّريف الرّضي، فرثاه بقصائد كثيرة، تعدّ من أرقّ شعر الرّثاء، وممّا قاله في إحدى مرثيّاته:

أقــريشُ، لا لفــمِ أراكِ ولا يــدِ ... فتواكلي غاض النّدى وخلا النّدي
بكـر النّعـيُّ، فقـال: أردي خيـرُهـا ... إن كان يصدقُ فالشّريف هو الرّدي

وإن كان لنا أن نتعرّف شخصيّة مهيار من خلال شعره، فلنقرأ أنموذجاً تتمثّل فيه شخصيّة إنسانٍ أبيّ، يرفض أن يسأل، ويشتمل بقناعته، يظهر الغنى ولا يتحسّر، وإنّما يتوكّل على الله. يقول مهيار:

يُلحَى علـى البخـل الشّحيح بماله ... أفـلا تكـون بمـاء وجهـك أبخـلا؟
أكـرم يـديـك عـن السّؤال فـإنّمـا ... قـدر الحيـاة أقـلّ مـن أن تسـألا
ولقـد أضـمُّ إلـيّ فضـل قنـاعتـي ... وأبيــت مشتمــلاً بهــا متــزمّــلا
وأُري العـدوَّ علـى الخصـاصـة شارةً ... تصـفُ الغنـى فيخـالنـي متمـوّلا
وإذا امـرؤ أفنـى اللّيـالـي حسـرةً ... وأمــانيــا أفنيتهــن تــوكّــلا

ولنقـرأ أنموذجـاً آخر يعتب فيه على أصدقائه، لكنّه لا يقول فيهم، وإن أراقوا ماء وجهه، إلاّ ما يمليه الوداد، وهو ماء في فيه:

إذا صـوّر الإشفـاق لـي كيف أنتـمُ ... وكيـف إذا مـا عـنَّ ذكـري صـرتـمُ
تنفّسـت عـن عتـبٍ، فـؤادي مفصـحٌ ... بـه، ولســانـي للحفـاظ يجمجـمُ
وفـي فـيّ مـاءٌ مـن بقـايـا ودادكـم ... كثيـراً بـه مـن مـاء وجهـي أرقتـمُ
أضــمُّ فمــي ضنّــاً عليــه وبينــه ... وبيــن انسكــابٍ ريثمـا أتكلّــمُ

تهمٌ ومآخذ ...

وقد أُخذ على مهيار فخره بأصله الفارسيّ، واتّهم بـ «الشّعوبية» من أجل ذلك، والحقيقة أنّه إنّما كان يردُّ على من ينتقص من قدره بسبب هذا الأصل،

ويرى أنَّ الإسلام يساوي بين المسلمين جميعهم وأنْ لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتَّقوى، وفي إحدى قصائده يردّ على «أمّ سعد»، وهي هنا كناية عن فئة ترى رأيها، وقد أُعجِبت هذه المرأة بخُلقه وأرادت أن تعلم حَسَبه، فخاطبها مفتخراً بانتمائه إلى خير دين وخير أب، فقال:

أُعجِبَتْ بي بين نادي قومِها — أمُّ سعدٍ فمضتْ تسألُ بي
سرّها ما علمتْ من خُلُقي — فأرادتْ علمَها ما حَسَبي
لا تخالي نسباً يخفضُني — أنا من يُرضيكِ عند النَّسبِ
قوميَ استولوا على الدَّهرِ فتىً — ومشوا فوق رؤوس الحِقَبِ
عمّموا بالشّمسِ هاماتِهُم — وبَنَوا أبياتَهمْ بالشّهبِ
وأبي كسرى على إيوانِهِ — أين في النّاس أبٌ مثلُ أبي؟
سَوْرةُ الملكِ القدامى وعلى — شرفِ الإسلامِ لي والأدبِ
قد قبستُ المجدَ من خيرِ أبٍ — وقبستُ الدِّينَ من خيرِ نبي
وضممتُ الفخرَ من أطرافِهِ — سؤددَ الفرسِ وديـنَ العربِ

وأُخذ على مهيار ما سمَّاه بعضهم «سبّ الصَّحابة»، وبسبب ما سمّي «سبّاً» قيل له إنّه انتقل في النّار من زاوية إلى زاوية، والحقيقة أنّ مهيار اختار اتّباع مذهب أهل البيت عليهم السلام مقتنعاً، وعبّر عن رؤيته كاشفاً الحقائق من دون أن يسبّ أو يشتم، وسوف نقدِّم، بعد قليل، نماذج من شعره تظهر هذه الحقيقة.

ويمكن أن نتبيَّن حقيقة موقفه إن قرأنا قصيدته الطويلة في رثاء شيخ الأمّة ابن المعلم محمّد بن محمّد بن النّعمان المفيد (المتوفّى سنة ٤١٣هـ)، فقد ركّز على صنيع هذا الشَّيخ في هداية المضلَّلين ودوره في الجدل الدَّائر آنذاك، ومن ذلك قوله:

... يا مرسَلاً إنْ كنت مبلغَ ميِّتٍ — تحت الصَّفائح قول حيٍّ مرسلِ
فلِجِ الثَّرى الرَّاوي، فقل لمحمَّدٍ — عن ذي فؤادٍ بالفجيعة مشعَلِ:
من للجدال إذا الشِّفاه تقلّصت — وإذا اللّسان بريقه لم يُبْلَلِ

... كم قد ضَمَمْتَ لدين آل محمَّد ... مِن شاردٍ وهديت قلب مضلَّلِ
وعقلتَ مِن ودٍّ عليهم ناشطٍ ... لو لم ترُضْه ملاطفاً لم يُعقَلِ
لا تطبِّيك ملالةٌ عن قولة ... تروي عن المفضول حقَّ الأفضلِ
فليجزينَّك عنهم ما لم يزل ... يبلو القلوبَ ليجتبي وليبتلي[1]

مهيار شاعر كبير غزير المادّة جيّدها، شهر بنظم القصائد الطّوال، فبعض قصائده تقارب الثلاثمئة بيت، وقد ترك ديواناً ضخماً ظهر مطبوعاً في أربعة أجزاء من القطع الكبير، وقد تضمَّن هذا الدِّيوان ما يقرب من واحد وعشرين ألف بيت.

شعره في يوم الغدير

مهيار من شعراء أهل البيت عليهم السلام المجاهرين المجيدين، وقد نظم قصائد كثيرة في مدحهم وبيان حقِّهم وتجسيد فضائلهم، ومن شعره في يوم الغدير نذكر ما يأتي:

- ١ -

هل بعدَ مُفترَقِ الأظعانِ مجتمعُ ... أم هل زمانٌ بهم قد فاتَ يُرتجَعُ؟
تحمّلوا تَسَعُ البيداءُ ركبَهمُ ... ويحملُ القلبُ فيهم فوقَ ما يَسعُ
مغرِّبين همُ والشّمسَ قد ألفوا ... ألاّ تغيبَ مغيباً حيثما طلعوا
شاكين للبَيْنِ أجفاناً وأفئدةً ... مفجّعين به أمثالَ ما فجعوا
تخطو بهم فاتراتٌ في أزمّتِها ... أعناقُها تحت إكراهِ النّوى خُضُعُ
تشتاق نعمانَ لا ترضى بروضتِهِ ... داراً ولو طابَ مصطافٌ ومرتبَعُ
فداء وافين تمشي الوافياتُ بهمْ ... دمعٌ دمٌ وحَشاً في إثرِهم قِطَعُ
اللّيلُ بعدهُمُ كالفجرِ متّصلٌ ... ما شاء، والنّومُ مثلُ الوصلِ منقطِعُ
ليت الذين أصاخوا يومَ صاحَ بهمْ ... داعي النّوى ثوَّروا صمّوا كما سمِعوا
أوليتَ ما أخذَ التّوديعُ من جسدي ... قضى عليَّ فللتعذيبِ ما يدعُ
وعاذلٍ لجَّ أعصيه ويأمرُني ... فيه وأهربُ منه وهو يتّبعُ

(١) الصّفائح، جمع الصّفيحة: الحجر العريض. لا تطبّيك: لا تزدهيك.

يقول: نفسَك فاحفظها فإنّ لها ... حقّاً وإنّ علاقاتِ الهوى خدَعُ
روِّح حشاك بِبَردِ اليأس تسلُ به ... ما قيل في الحبُّ إلاّ أنّه طمعُ
والدَّهرُ لونانِ والدُّنيا مقلّبةٌ ... الآنَ يعلمُ قلبٌ كيف يرتدعُ
هذي قضايا رسولِ اللهِ مهملةٌ ... غدراً وشملُ رسولِ اللهِ مُنصدعُ
والنّاسُ للعهدِ ما لاقوا وما قربوا ... وللخيانةِ ما غابوا وما شَسَعوا(١)
وآلُهُ وهمُ آلُ الإلهِ وهمْ ... رُعاةُ ذا الدِّينِ ضِيموا بعده ورُعُوا
ميثاقُهُ فيهمُ ملقّى وأمّتُهُ ... معْ من بغاهم وعاداهم له شِيَعُ
تُضاعُ بيعتُهُ يومَ الغديرِ لهمْ ... بعد الرِّضا وتُحاطُ الرُّومُ والبِيَعُ
مقسّمين بأيمانٍ همُ جذبوا ... ببوعها وبأسيافٍ همُ طبعوا
ما بين ناشرِ حبلٍ أمسِ أبرمه ... تُعَدُّ مسنونةٌ من بعدِهِ البِدَعُ
وبين مُقتنصٍ بالمكرِ يخدعُهُ ... عن آجلٍ عاجلٌ حلوٌ فينخدعُ
وقائلٍ لي: عليٌّ كان وارثَهُ ... بالنصِّ منه فهل أعطَوه أم منعوا؟
فقلت: كانت هَناتٌ لستُ أذكرُها ... يجزي بها اللهُ أقواماً بما صنعوا
أبلغْ رجالاً إذا سمّيتُهمْ عُرِفوا ... لهم وجوهٌ من الشّحناءِ تُمتقعُ
توافقوا وقناةُ الدِّين مائلةٌ ... فحين قامتْ تلاحَوا فيه واقترعوا
أطاع أوّلُهم في الغدرِ ثانيَهمْ ... وجاءَ ثالثُهم يقفو ويتّبعُ
قفوا على نظرٍ في الحقِّ نفرضُهُ ... والعقلُ يفصلُ والمحجوجُ ينقطعُ
بأيِّ حكمٍ بنوه يتبعونكمُ ... وفخرُكمْ أنّكمْ صحبٌ له تَبَعُ
وكيف ضاقتْ على الأهلينَ تربتُهُ ... وللأجانبِ من جنبيهِ مضطجَعُ
وفيم صيّرتمُ الإجماعَ حجّتكمْ ... والنّاسُ ما اتّفقوا طوعاً ولا اجتمعوا
أمرٌ علي بعيد من مشورتِهِ ... مستكرَهٌ فيه والعبّاس يَمتنعُ
وتدّعيه قريشٌ بالقرابة والـ ... أنصار لا رُفُعٌ فيه ولا وُضُعُ
فأيّ خُلفٍ كخُلفٍ كان بينكمُ ... لولا تُلفَّقُ أخبارٌ وتصطنَعُ

(١) شسعوا: بعدوا.

واسألهمُ يوم خُمٌّ بعدما عقدوا — له الولايةَ لِمْ خانوا ولِمْ خلَعوا؟
قولٌ صحيحٌ ونيّاتٌ بها نَغَلٌ — لا ينفع السَّيفَ صَقْلٌ تحته طَبَعُ
إنكارُهمْ يا أميرَ المؤمنينَ لها — بعد اعترافِهمُ عارٌ به ادّرعوا
ونكثُهمْ بكَ مَيْلاً عن وصيّتهمْ — شرعٌ لَعمرُكَ ثانٍ بعده شرعوا
تركتَ أمراً ولو طالبتَهُ لدرتْ — معاطسٌ راغمته كيف تُجتدَعُ
صبرت تحفظُ أمرَ اللهِ ما اطّرحوا — ذبّاً عن الدِّينِ فاستيقظتَ إذ هجعوا
ليشرقنَّ بحلوِ اليومِ مُرُّ غدٍ — إذا حصدتَ لهم في الحشرِ ما زرعوا
جاهدتُ فيك بقولي يومَ تختصمُ الـ — أبطالُ إذ فات سيفي يومَ تمتصعُ
إنّ اللِّسانَ لوصّالٌ إلى طُرُقٍ — في القلبِ لا تهتديها الذُّبَّلُ الشُّرَّعُ
آبائي في فارسٍ والدِّينُ دينكمُ — حقّاً لقد طاب لي أُسٌّ ومرتبعُ
ما زلتُ مذ يفعتْ سنّي ألوذُ بكمْ — حتّى محا حقُّكمْ شكّي وأنتجعُ
وقد مضتْ فُرُطاتٌ إن كفلتُ بها — فرّقتُ عن صُحفي البأسَ الذي جمعوا
سلمان فيها شفيعي وهو منك إذا الـ — آباءُ عندَكَ في أبنائهم شفعوا
فكن بها منقذاً من هول مُطّلعي — غداً وأنت من الأعرافِ مطّلعُ
سوّلتُ نفسي غروراً إن ضمنتُ لها — أنّى بذخرٍ سوى حبِّك أنتفعُ(١)

- ٢ -

وله يرثي أهل البيت ﷺ، ويذكر البركة بولائهم في ما صار إليه:

في الظِّباءِ الغادينَ أمسِ غزالُ — قال عنهُ ما لا يقولُ الخيالُ
طارقٌ يزعمُ الفراقَ عِتاباً — ويرينا أنّ المَلالَ دلالُ
لم يزلْ يخدعُ البصيرةَ حتّى — سَرَّنا ما يقولُ وهو مُحالُ
لا عدمتُ الأحلامَ كم نوّلتني — من منيعٍ صعبٍ عليه النّوالُ
لم تنغِّصْ وعداً بمطلٍ ولم يو — جبْ لهُ منّةً عليَّ الوصالُ
فلليلي الطَّويلِ شكري ودينُ الـ — عشقِ أن تُكرَه اللّيالي الطِّوالُ

---

(١) النَّغَل: الضغن وسوء النيّة. الطَّبع: الصدأ. تمتصع: تقاتل بالسّيف.

لمـن الظّعـنُ غـاصبتنـا جَمـالاً ... حبّـذا مـا مشـت بـه الأجمـالُ
كـانفـاتٍ بيضـاءَ دلَّ عليهـا ... أنّهـا الشّمـس أنّهـا لا تُنـالُ
جمـحَ الشّـوقُ بـالخليـع فـأهـلاً ... بحليـم لـه السّلـوُ عِقـالُ
كنـتُ منـه أيّـامَ مـرتـعُ لـذّا ... تـي خصيـبٌ ومـاءُ عيشـي زُلالُ
حيث ضلعي مع الشّباب وسمعي ... غـرضٌ لا تصيبـه العُـذّالُ
يـا نـديمـيَّ كنتمـا فـافتـرقنـا ... فـاسلـوانـي؛ لكـلِّ شـيءٍ زوالُ
لـيَ في الشّيبِ صـارفٌ ومـن الحز ... نِ علـى آلِ أحمـدٍ إشغـالُ
معشر الرُّشد والهدى حَكم البغـ ... ـيُ عليهـم سفـاهـةً والضّـلالُ
ودعـاةُ الله استجـابـت رجـالٌ ... لهـمُ ثـمّ بُـدِّلـوا فـاستحـالـوا
حملـوهـا يـوم السّقيفـة أوزا ... راً تخـفُّ الجبـالَ وهـي ثِقـالُ
ثـمّ جـاؤوا مـن بعـدهـا يستقيلـو ... نَ وهيهـاتَ عثـرةٌ لا تُقـالُ
يـا لهـا سـوءةً إذا أحمـدٌ قـا ... م غـداً بينهـمْ فقـال وقـالـوا
ربـعُ همّـي عليهـمُ طلـلٌ بـا ... قٍ وتَبلـى الهمـومُ والأطـلالُ
يـا لَقـومٍ إذ يقتلـون عليّـاً ... وهـو للمحـلِ فيهـمُ قتّـالُ[1]
ويُسِـرّون بغضَـهُ وهـو لا تُقـ ... ـبـلُ إلاّ بحبّـهِ الأعمـالُ
وتحـالُ الأخبـارُ والله يـدري ... كيـف كـانـتْ يـومَ الغـديـرِ الحـالُ
ولسبطيـنِ تـابعَيـهِ فمسمـو ... مٌ عليـه ثـرى البقيـع يُهـالُ
درسـوا قبـرَهُ ليخفـى عـن الـزوّ ... ارِ هيهـاتَ كيـف يخفـى الهـلالُ
وشهيـدٍ بـالطـفّ أبكـى السّمـاوا ... تِ وكـادتْ لـهُ تـزولُ الجبـالُ
يـا غليلـي لـه وقـد حُـرّمَ المـا ... ءُ عليـهِ وهـو الشّـرابُ الحـلالُ
قُطعـتْ وصلـةُ النّبـيِّ بـأن تُقـ ... ـطَـعَ مـن آلِ بيتِـهِ الأوصـالُ
لـم تنـجُ الكهـولَ سـنٌّ ولا الشّبّـ ... ـانَ زهـدٌ ولا نجـا الأطفـالُ
لهـفَ نفسـي يـا آلَ طـه عليكـمْ ... لهفـةً كسبُهـا جـوىً وخبـالُ

---

(١) المحل: الجدب.

وقليـلٌ لكـمْ ضلـوعِـيَ تهتـ ـزُّ مع الـوجـدِ أو دموعي تُـذالُ
كـان هـذا كـذا وودّي لكـم حسـ ـبُ ومالي في الدِّين بعدُ اتّصالُ
وطـروسـي سـودٌ فكيـف بـيَ الآ نَ ومنكـمْ بيـاضُهـا والصّقـالُ
حبّكـم كـان فـكَّ أسري مـن الشّـر كِ وفـي منكبـي لـه أغـلالُ
كـم تـزمّلـتُ بـالمـذلّـة حتـى قمتُ فـي ثـوبِ عـزِّكـمْ أختـالُ
بـركـاتٌ لكـم محـت مـن فـؤادي مـا أمـلَّ الضّـلالَ عَـمٌّ وخـالُ
ولقـد كنـتُ عـالمـاً أنّ إقبـا لـي بمـدحـي عليكـمُ إقبـالُ

-٣-

وله من قصيدة يرثي بها أهل البيت ﷺ، وهي ٦٣ بيتاً، مطلعها:

لـو كنـتُ دانيـتُ المودّة قـاصيـا ردَّ الحبـائـبُ يـوم بِـنَّ فـؤاديـا

ويقول فيها:

ويحـبُّ آلِ محمّـدٍ إطـراؤه مـدحـاً وميّتهـمْ رضـاه مـراثيـا
هـذا لهـمْ والقـومُ لا قـومـي هُـمُ جنسـاً وعُقـرُ ديـارِهـمْ لا داريـا
إلاّ المحبّـةَ فـالكـريـمُ بطبعِـهِ يجـدُ الكـرامَ الأبعـديـنَ أدانيـا
يـا طـالبيّـن اشتفـى مـن دائـهِ الـ ـمجدُ الـذي عـدِمَ الـدّواءَ الشّـافيا
بـالضّـاربيـن قبـابَهـمْ عَـرض الفـلا عقـلَ الـرّكـائـبِ ذاهبـاً أو جـائيـا
شرعوا المحجّةَ للرّشادِ وأرخصوا مـا كـان مـن ثمـنِ البصـائـرِ غـاليـا
وأمـا وسيّـدِهـمْ علـيٌّ قـولـةٌ تُشجـي العـدوَّ وتُبهـجُ المتـواليـا
لقـد ابتنـى شـرفـاً لهـم لـو رامـه زُحـلٌ ببـاعٍ كـان عنـهُ عـاليـا
وأفـادهـم رقَّ الأنـامِ بـوقفـةٍ فـي الـرّوعِ بـات بهـا عليهـمْ واليـا
مـا استـدرك الإنكـارَ منهـم ساخـطٌ إلاّ وكـان بهـا هنـالـك راضيـا
أضحـوا أصـادقَـهُ فلمّـا سـادهـمْ حسـدوا فـأمسَـوا نـادميـن أعـاديـا
فـارحـمْ عـدوّكَ مـا أفـادك ظـاهـراً نصحـاً وعـالـجَ فيـكَ خِـلاً خـافيـا
وهـبِ الغـديـرَ أبـوا عليـهِ قَبـولـه بغيـاً فقـل: عـدّوا سـواه مسـاعيـا

بدراً وأُحداً أُختها من بعدِها ... وحنين وقَّاراً بهنّ فصاليا[1]
والصَّخرةُ الصمّاءُ أخفى تحتَها ... ماءً وغيرُ يديهِ لم يكُ ساقيا
وتدبّروا خبرَ اليهودِ بخيبرٍ ... وارضوا بمرحبَ وهو خصمٌ قاضيا
هل كان ذاكَ الحصنُ يرهبُ هادماً ... أو كان ذاك البابُ يفرَقُ داحيا؟
وتفكّروا في أمرِ عمروٍ[2] أوّلاً ... وتفكّروا في أمرِ عمروٍ[3] ثانيا
أَسدانِ كانا من فرائسِ سيفِهِ ... ولقلّما هابا سواهُ مدانيا
ورجال ضبّة[4] عاقدي حُجُزاتهم ... يوم البُصيرة من مَعين[5] تفانيا
ضُغِموا[6] بنابٍ واحدٍ ولطالما از ... دَردوا أراقمَ قبلها وأفاعيا
ولَخطبُ صفّينٍ أجلُّ وعندك الـ ... ـخبرُ اليقينُ إذا سألتَ مُعاويا

من نماذج شعره في المذهب:

بكى النّارَ ستراً على الموقدِ ... وغارَ يغالطُ في المُنجدِ
أحبَّ وصانَ فورّى هوىً ... أضلَّ وخاف فلم ينشدِ
بعيدُ الإصاخةِ عن عاذلٍ ... غنيُّ التّفرّدِ عن مُسعدِ
حمولٌ على القلبِ وهو الضّعيفُ ... صبورٌ على الماءِ وهو الصّدي
وقورٌ وما الخُرقُ من حازمٍ ... متى ما يَرُح شيبُهُ يغتدي
ويا قلبُ إن قادك الغانياتُ ... فكم رسَنٍ فيك لم يُنقَدِ
أفِقْ فكأنّي بها قد أُمِرَّ ... بأفواهها العذبُ من موردي
وسُوِّدَ ما ابيضَّ من ودِّها ... بما بيّضَ الدّهرُ من أسوَدي

---

(١) وقّاراً: شاداً بلجام الدابّة لتسكن. يشير إلى أنّ أمير المؤمنين كان آخذاً بلجام بغلة رسول الله ﷺ خوفاً من إجفالها.
(٢) يعني عمرو بن عبد ودّ الذي قتله أمير المؤمنين يوم الخندق.
(٣) يعني عمرو بن العاص، المترجم في الجزء الأوّل من هذا الكتاب.
(٤) هم بنو ضبّة أنصار عائشة في حرب الجمل.
(٥) معين: اسم مدينة باليمن، أو هو حصن بها.
(٦) ضغم الشيء: عضّه بملء فمه، يقال: ضغمه ضغمة الأسد.

وما الشَّيبُ أوّلُ غدرِ الزّمانِ ... بلى من عوائدِهِ العوّدِ
لحَا اللهُ حظّي كما لا يجودُ ... بما أستحقُّ وكم أجتدي
وكم أتعلّلُ عيشَ السّقيمِ ... أُذمِّمُ يومي وأرجو غدي
لئن نامَ دهريَ دون المنى ... وأصبحَ عن نَيلها مُقعدي
ولم آكُ أحمدُ أفعالَهُ ... فلي أسوةٌ ببني أحمدِ
بخيرِ الورى وبني خيرِهمْ ... إذا ولَدُ الخيرِ لم يُولَدِ
وأكرمِ حيٍّ على الأرض قامَ ... وميتٍ توسّدَ في مَلحدِ
وبيتٍ تقاصرُ عنه البيوتُ ... وطالَ عليّاً على الفرقدِ
تحومُ الملائكُ من حولِهِ ... ويُصبحُ للوحي دارَ النّدي
ألا سَلْ قريشاً ولُمْ منهمُ ... من استوجبَ اللّومَ أو فنّدِ
وقلْ: ما لكم بعدَ طولِ الضّلا ... لِ لم تشكروا نعمةَ المرشدِ؟
أتاكم على فترةٍ فاستقامَ ... بكم جائرين عن المقصدِ
وولّى حميداً إلى ربِّهِ ... ومن سنَّ ما سنّه يُحمَدِ
وقد جعلَ الأمرَ من بعدِهِ ... لحيدرِ بالخبرِ المُسنَدِ
وسمّاه مولىً بإقرار من ... لَو اتّبعَ الحقَّ لم يَجْحَدِ
فملتم بها حسدَ الفضلِ عنه ... ومن يكُ خيرَ الورى يُحْسَدِ
وقلتم: بذاك قضى الاجتماع ... ألا إنّما الحقُّ للمفردِ
يعزُّ على هاشمٍ والنّبيِّ ... تلاعُبُ تَيمٍ بها أو عدي
وإرثُ عليٍّ لأولادِهِ ... إذا آيةُ الإرثِ لم تُفسَدِ
فمن قاعدٍ منهمُ خائفٍ ... ومِن ثائرٍ قام لم يُسعَدِ
تَسَلَّطَ بغياً أكفُّ النّفا ... قِ منهم على سيّدٍ سيّدِ
وما صُرفوا عن مقامِ الصّلاةِ ... ولا عُنِّفوا في بُنى المسجدِ
أبوهم وأمّهمُ مَن علمـ ... ـتَ فأنقص مفاخرَهمْ أو زِدِ
أرى الدِّينَ من بعد يومِ الحسين ... عليلاً له الموتُ بالمرصَدِ
وما الشِّركُ للهِ من قبلِهِ ... إذا أنتَ قستَ بمستبعَدِ

وما آلُ حربٍ جنوا إنّما أعادوا الضّلالَ على من بُدي
سيعلمُ من فاطمٌ خصمُهُ بأيِّ نكالٍ غداً يرتدي
ومن ساء أحمدَ يا سِبطَهُ فباءَ بقتلِكَ ماذا يدي
فداؤكَ نفسي ومن لي بذا كَ لو أنَّ مولىً بعبدٍ فُدي
وليت دمي ما سقى الأرضَ منكَ يفوتُ الرّدى وأكون الرّدي
وليت سبقتُ فكنتُ الشّهيدَ أمامَكَ يا صاحبَ المشهدِ
عسى الدّهرُ يشفي غداً من عِدا كَ قلبَ مَغيظٍ بهم مُكمَدِ
عسى سطوةُ الحقِّ تعلو المُحال عسى يُغلَبُ النّقصُ بالسّؤددِ
وقد فعلَ اللهُ لكنّني أرى كبدي بعدُ لم تبرُدِ
بسمعي لقائمكم دعوةٌ يُلبّي لها كلُّ مستنجَدِ
أنا العبدُ والاكمُ عقدُهُ إذا القولُ بالقلبِ لم يُعقَدِ
وفيكم ودادي وديني معاً وإن كان في فارسٍ مولدي
خصمتُ ضلالي بكم فاهتديتُ ولولاكمُ لم أكنْ أهتدي
وجرّدتموني وقد كنتُ في يدِ الشّركِ كالصّارمِ المُغمَدِ
ولا زال شعريَ من نائحٍ يُنقّلُ فيكمْ إلى مُنشدِ
وما فاتني نصرُكمْ باللّسانِ إذا فاتني نصرُكمْ باليدِ

وقال يذكر مناقب أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ وما مُني به من أعدائه، بعد المقدّمة الغزليّة:

... أشددْ يداً بحبِّ آلِ أحمدٍ فإنّه عقدةُ فوزٍ لا تُحَلْ
وابعثْ لهم مراثياً ومِدَحاً صفوةَ ما راضَ الضّميرُ ونخَلْ
عقائلاً تصانُ بابتذالها وشارداتٍ وهي للسّاري عُقُلْ
تحملُ من فضلِهمُ ما نهضتْ بحملِهِ أقوى المصاعيبِ الذُّلُلْ(١)
موسومةً في جبهاتِ الخيلِ أو معلّقاتٍ فوقَ أعجازِ الإبلْ

(١) المصاعيبُ الذّلُل: الفحول المذلّلة.

تنشـــو العــــلاءَ سيّـــداً فسيّــــداً ... عنهـم وتنعـى بطـلاً بعـدَ بطـلْ[1]

الطّيّبــونَ أُزُراً تحـــتَ الـــدُّجـــى ... الكــائنــونَ وَزَراً يــومَ الــوجـلْ[2]

والمنعمـــون والثّـــرى مُقطّـــبٌ ... مـن جـدبِـهِ والعـامُ غضبـانُ أزِلْ[3]

خيـــرُ مُصـــلٍّ مَلَكــاً وبشـــراً ... وحــافيــاً داسَ الثّـرى ومنتعِـلْ

هــمْ وأبــوهــمْ شَـرَفـاً وأمُّهــمْ ... أكـرمُ مـن تحـوي السّمـاءُ ونُطِـلْ

لا طُلقــــاءٌ مُنْعَـــمٌ عليهـــمُ ... ولا يحـارونَ إذا النّـاصـرُ قَـلْ

يستشعرون[4]: اللهُ أعلى في الورى ... وغيـرُهـمْ شعـارُهُ أُعـلُ هبـلْ[5]

لـم يتـزخـرفْ وثَـنٌ لعـابـدٍ ... منهـم يُـزيـغُ قلبَـه ولا يُضِـلْ

ولا سـرى عـرقُ الإمـاءِ فيهـمُ ... خبـائـثٌ ليسـت مـريئـاتِ الأُكُـلْ

يـا راكبـاً تحملـه عيـديّـةٌ[6] ... مهـويّـةُ الظّهـرِ بعضّـاتِ الـرّحَـلْ

ليـس لهـا مـن الـوَجـا منتصـرٌ ... إذا شكـا غـاربُهـا حَيْـفَ الإطِـلْ[7]

تشـرب خِمسـاً وتجـرُّ رعيَهـا ... والمـاءُ عِـدٌّ والنّبـات مكتهـلْ[8]

إذا اقتضـتْ راكبهـا تعـريسـةً ... سـوّفهـا الفجـرُ ومنّـاهـا الطَّفَـلْ[9]

عـرّج بـروضـات الغـريِّ سـائفـاً ... أزكـى ثـرىً وواطئـاً أعلـى محـلْ[10]

وأدِّ عنّـي مُبْلِغـاً تحيّتـي ... خيـرَ الـوصيّيـن أخـا خيـرِ الـرُّسُـلْ

---

(1) تنتو: من نثّ الخبر نثّاً: أفشاه.

(2) أُزُر: جمع إزار. الوزر: الملجأ والكنف.

(3) الأزِل: الشّديد الضّيق، يقال: أزلٌ، أزِلٌ. للمبالغة.

(4) أي شعارهم.

(5) أشار إلى قول أبي سفيان يوم أُحد: أُعلُ هُبَل، هُبَل - بالضمّ -: اسم صنم لهم معروف.

(6) عيديّة: نسبة إلى فحل تنسب إليه كرام النّجائب، أو نسبة إلى حيٍّ يقال له: بنو العيد، تُنسب إليه النّوق العيديّة.

(7) الوجا: الحفا. الغارب: الكامل. الإطِل: الخاصرة.

(8) الخِمس: وِرد الإبل على الماء في اليوم الخامس. تجر: تعيد ما في جوفها لتأكله ثانية. الرعي: الكلأ. العِدّ: الغزير الذي لا ينقطع. المكتهل من النّبات: ما تمّ طوله ونوره.

(9) التّعريسة: نزول المسافر آخر اللّيل للاستراحة. الطَّفَل: قبيل غروب الشّمس.

(10) سائفاً: شامّاً.

سمعاً أميرَ المؤمنين إنّها ... كنايةٌ لم تكُ فيها منتحِلْ
ما لقريشٍ ماذقَتْكَ عهدَها ... ودامجتكَ ودّها على دَخَلْ[(١)]
وطالبتك عن قديم غِلّها ... بعد أخيك بالتّراثِ والذحَلْ
وكيف ضمّوا أمرَهمْ واجتمعوا ... فاستوزروا الرّأيَ وأنت منعزلْ
وليس فيهم قادحٌ بريبةٍ ... فيك ولا قاضٍ عليكَ بوهَلْ[(٢)]
ولا تُعدُّ بينهمْ منقبةٌ ... إلاّ لكَ التّفصيلُ منها والجُمَلْ
وما لقوم نافقوا محمّداً ... عمرَ الحياةِ وبَغَوا فيه الغِيَلْ
وتابعوهُ بقلوبٍ نزلَ الـ ... ـفرقانُ فيها ناطقاً بما نزلْ
مات فلم تنعَقْ على صاحبِهِ ... ناعقةٌ منهم ولم يُرِغْ جمَلْ
ولا شكا القائمُ في مكانِهِ ... منهمْ ولا عنّفهمْ ولا عذَلْ
فهل تُرى مات النّفاقُ معهُ ... أم خَلصَتْ أديانُهمْ لمّا نُقِلْ؟
لا والّذي أيّدَهُ بوحيهِ ... وشدّهُ منك بركنٍ لم يَزُلْ
ما ذاك إلاّ أنّ نيّاتِهمُ ... في الكفر كانت تلتوي وتعتدِلْ
وإنّ وُدّاً بينهمْ دلَّ على ... صفائِهِ رضاهمُ بما فعلْ
وهبهمُ تخرُّصاً قد ادّعوا ... أنّ النّفاقَ كان فيهمْ وبَطَلْ
فما لهم عادوا وقد وليتَهم ... فذكروا تلك الحزازاتِ الأُوَلْ
وبايعوك عن خداعٍ كلُّهمْ ... باسطُ كفٍّ تحتها قلبٌ نَغِلْ
ضرورة ذاك كما عاهد مَن ... عاهد منهم أحمداً ثمّ نكلْ
وصاحبُ الشُّورى لما ذاك ترى ... عنك وقد ضايقه الموت عدلْ
والأمويُّ ما لهُ أخّرَكُمْ ... وخصَّ قوماً بالعطاءِ والنّفَلْ
وردّها عجماءَ كِسرويّةً ... يضاعُ فيها الدِّينُ حِفظاً للدّولْ
كذاك حتّى أنكروا مكانَهُ ... وهمْ عليك قدّموهُ فقَبِلْ
ثمّ قسمتَ بالسّواءِ بينهمْ ... فعظُمَ الخطبُ عليهم وثقُلْ

(١) ماذقتك: شابت ودّها ولم تخلص. دامجتك: جمعت لك ودّها. الدَّخَل: الخداع.
(٢) الوَهَل: الخوف والضّعف.

فشُحذتْ تلكَ الظُّبا وخُفِرتْ ... تلكَ الزُّبى وأُضرمت تلكَ الشُّعَلْ
مواقفٌ في الغدرِ يكفي سُبّةً ... منها وعاراً لهمُ يومُ الجملْ
يا ليتَ شعري عن أكفٍّ أرهفتْ ... لك المواضي وانتَحَتْكَ بالذُّبُلْ(١)
واحتطبتْ تبغيكَ بالشرِّ على ... أيِّ اعتذارٍ في المعادِ تتّكِلْ
أنَسيَتْ صفقتَها أمسِ على ... يديكَ ألاّ غِيَرٌ ولا بدلْ
وعن حصانٍ أُبرزتْ يُكشَفُ باسـ ... ـتخراجِها سترُ النّبيِّ المنسدلْ
تطلبُ أمراً لم يكن ينصرُهُ ... بمثلِها في الحربِ إلاّ من خذَلْ
يا لَلرّجالِ ولِتَيمٍ تدّعي ... ثارَ بني أميّةٍ وتنتحلْ
وللقتيلِ يُلزمونَ دمَهُ ... وفيهمُ القاتلُ غيرَ من قتَلْ
حتّى إذا دارتْ رحى بغيهمُ ... عليهمُ وسبقَ السّيفُ العذَلْ
وأنجزَ النّكثُ العذابَ فيهمُ ... بعدَ اعتزالٍ منهمُ بما مُطِلْ
عاذوا بعفوِ ماجدٍ معوّدٍ ... للصّبرِ حمّالٍ لهمْ على العللْ
أطّتْ بهم أرحامهمْ فلم تطعْ ... ثائرةَ الغيظِ ولم تشفِ الغلَلْ
فنجّتِ البُقيا عليهمْ من نجا ... وأكلَ الحديدُ منهم من أكلْ
واحتجَّ قومٌ بعدَ ذاكَ لهمُ ... بفاضحاتٍ ربُّها يومَ الجدَلْ
فقلَّ منهم من لوى ندامةً ... عنانَه عن المِصاع(٢) فاعتزلْ
وانتزعَ العاملَ(٣) من قناتِهِ ... فرُدَّ بالكرهِ فشدَّ فحملْ
والحالُ تُنبي أنّ ذاك لم يكنْ ... عن توبةٍ وإنّما كان فشلْ
ومنهمُ من تابَ بعدَ موتِهِ ... وليس بعدَ الموتِ للمرءِ عملْ
وإن تكنْ ذاتُ الغبيطِ أقلعتْ ... برغمِ مَن أسندَ ذاكَ ونقلْ
فما لها تمنعُ من دفنِ ابنِهِ ... لولا هناتُ جرحِها لم يندملْ
وما الخبيثانِ ابنُ هندٍ وابنُهُ ... وإن طغى خطبُهما بعدُ وجلْ

---

(١) المواضي: السّيوف الماضية. الذُّبُل: الرّماح الدّقيقة الطّويلة.
(٢) المِصاع: التجمُّع والمجالدة.
(٣) العامل: صدر الرّمح وهو ما يلي السّنان.

بمُبتدِعَينِ في الذي جاءا به وإنّما تقفّيا تلك السّبل
إن يحسدوكَ فلفرطِ عجزهم في المشكلاتِ ولما فيك كمل
الصّنو أنت والوصيُّ دونهمْ ووارثُ العلمِ وصاحبُ الرّسُل
وآكلُ الطّائرِ والطّاردُ للصّـ ـلّ ومن كلّمهُ قبلك صِلّ[(١)]
وخاصفُ النّعلِ وذو الخاتمِ والـ ـمُنهلُ في يومِ القليبِ والمُعِل
وفاصلُ القضيّةِ العسراءِ في يومِ الجنينِ وهو حُكمٌ ما فصل
ورجعةُ الشّمسِ عليكَ نبأٌ تشعّبُ الألبابُ فيه وتضِل
فما ألومُ حاسداً عنك انزوى غيظاً ولا ذا قدَمٍ فيك تزل
يا صاحبَ الحوضِ غداً لا حُلّئتْ نفسٌ تواليك عن العذبِ النّهِل[(٢)]
ولا تُسلّطْ قبضةُ النّارِ على عُنقٍ إليك بالوداد ينفتل
عاديتُ فيك النّاسَ لم أحفلْ بهمْ حتّى رموني عن يدٍ إلا الأقل
تفرّغوا يعترقون غيبةً لحمي وفي مدحِكَ عنهم لي شُغُل[(٣)]
عدلتُ أن ترضى بأن يسخطَ من تُقِلُّهُ الأرضُ عليَّ فاعتدل
ولو يُشَقُّ البحرُ ثمّ يلتقي فِلْقاه فوقي في هواكَ لم أُبَل
علاقةٌ بي لكم سابقةٌ لمجدِ سلمانَ إليكمْ تتّصل
ضاربةٌ في حبّكم عروقُها ضرب فحولِ الشّوْلِ في النّوقِ البُزُل
تضمّني من طرَفي في حبلِكمْ مودّةٌ شاخت ودينٌ مقتبَل
فضلتُ آبائي الملوكَ بكمُ فضيلةَ الإسلامِ أسلافَ المِلَل
لذاكمُ أُرسلُها نوافذاً لأمّ من لا يتّقيهنَّ الهبَل
يمرقن زُرقاً من يدي حدائداً تُنحى أعاديكم بها وتُنتبَل
صوائباً إمّا رميتُ عنكمُ وربّما أخطأ رامٍ من ثُعَل

* * *

(١) الصلّ: الثعبان.
(٢) حلئت: مُنعت من الورد.
(٣) يعترقون: ينزعون ما على العظم من لحم، وهي هنا بمعنى يأكلون.

(٤٠)
الشَّريف المُرْتَضَى

التَّعريف بالشَّاعر

السيِّد المرتضى[1]، أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمّد بن موسى بن إبراهيم ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، أخو الشَّريف الرَّضي. لقِّب بـ «علم الهدى» و «ذي المجدين». ولد في بغداد، في رجب سنة ٣٥٥هـ، وتوفِّي يوم الأحد الواقع فيه ٢٥ ربيع الأوّل سنة ٤٣٦هـ. ودفن في داره عشيّة ذلك النّهار، ثمّ نُقل إلى الحائر المقدّس، ودفن في مقبرة أسرته، وكان قبره هناك كقبر أبيه وأخيه ظاهراً معروفاً مشهوراً.

لا تنحصر فضائل الشَّريف المرتضى ومآثره في جانب واحد، فإلى أيّ جانب من جوانب الفضل نحوت وجدته في الموقف الأسمى؛ فهو إمام الفقه، ومؤسّس أصوله، وأستاذ الكلام، ونابغة الشِّعر، وراوية الحديث، وسيِّد

---

(١) راجع ترجمته في: الغدير، م.س.، ٤/ ٣٥٥ـ٣٩٨. المنتظم، ١٥/ ٢٩٤، رقم ٣٢٥٧، معجم الأدباء، ١٣/ ١٤٦، رجال العلاّمة، ص ٩٤، رقم ٢٢، رجال ابن داود، ص ١٣٦، رقم ١٠٣٦، ميزان الاعتدال، ٣/ ١٢٤، رقم ٥٨٢٧، غاية الاختصار، ص ٧٦، الكامل في التاريخ، ٦/ ١٢٦، حوادث سنة ٤٣٦هـ، البداية والنّهاية، ١٢/ ٦٧، حوادث سنة ٤٣٦هـ، لسان الميزان، ٤/ ٢٥٦، رقم ٥٧٩٧، بغية الوعاة، ٢/ ١٦٢، رقم ١٦٩٩، إتحاف الورى، ٢/ ٤٢٦، مجالس المؤمنين، ١/ ٥٠٠، رياض العلماء، ٤/ ١٤، كشكول البهائي، ٢/ ٦٥، مجمع البحرين، ١/ ١٨٨، الدّرجات الرّفيعة، ص ٤٥٨، أمل الآمل، ٢/ ١٨٢، رقم ٥٤٩، منتهى المقال، ص ٢٨١، كشكول البحراني، ١/ ٣٢٤، مقابس الأنوار، ص ٦، نسمة السّحر، مج٨/ ج٢/ ٣٥٦، الشّيعة وفنون الإسلام، ص ٧٥، الأعلام، ٤/ ٢٧٨، تاريخ آداب اللّغة، مج١٤/ ١٣٨، الكنى والألقاب، ٢/ ٤٨٠.

المناظرة والقدوة في اللُّغة، وبه الأسوة في علوم العربية كلِّها. وهو المرجع في تفسير كتاب الله العزيز.

تلقَّى دروسه الأولى في منزل الأسرة، ثمَّ على أيدي كبار علماء عصره، وقد مرَّ بنا، عندما تحدَّثنا عن أخيه الشَّريف الرَّضي، الحديث عن عناية أمِّهما بحسن تربيتهما وتعليمهما.

ومن مشايخه الذين تتلمذ عليهم وأفاد من علمهم، وروى عنهم نذكر:

١ ـ الشَّيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النّعمان (المتوفّى سنة ٤١٣هـ).

٢ ـ أبو محمّد هارون بن موسى التلعكبري (المتوفّى سنة ٣٨٥هـ).

٣ ـ الحسين بن عليّ بن بابويه، أخو الصّدوق.

٤ ـ أبو الحسن أحمد بن عليّ بن سعيد الكوفي، يروي عنه السيّد، كما في إجازة السيّد ابن أبي الرّضا، تلميذ الشّيخ نجيب الدّين يحيى بن سعيد الحلّي.

٥ ـ أبو عبدالله محمَّد بن عمران الكاتب المرزباني الخراساني البغدادي.

٦ ـ الشَّيخ الصّدوق محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (المتوفّى سنة ٣٨١هـ) كما في الإجازات.

٧ ـ أبو يحيى بن نباتة عبد الرَّحيم الفارقي (المتوفّى سنة ٣٧٤هـ)، قرأ عليه كما في الدَّرجات الرَّفيعة.

٨ ـ أبو الحسن عليّ بن محمّد الكاتب، يروي عنه في «أماليه».

٩ ـ أبو القاسم عبيدالله بن عثمان بن يحيى، يروي عنه في «الأمالي».

١٠ ـ أحمد بن سهل الدِّيباجي، يروي عنه كما في «الرياض» عن «جامع الأصول» لابن الأثير، وفي «تاريخ الخطيب البغدادي» و «ميزان الاعتدال» و «لسانه» لابن حجر: حدّث عن سهل الديباجي.

وقد بلغ الشَّريف المرتضى المرتبة الأسمى في مختلف مجالات العلم والأدب، وتفيد شهادات المؤرّخين التي قيلت فيه أنّه كان فصيح اللِّسان، يتوقَّد ذكاءً، ثابت الجأش، مقدَّماً في العلوم، مثل علم الكلام والفقه وأصول الفقه والأدب والنّحو والشّعر ومعاني الشّعر واللّغة... وكان «هو وأخوه من دوح السّيادة ثمران، وفي تلك الرّئاسة قمران، وأدب الرَّضيّ إذا قرن بعلم المرتضى كان الفرند في متن الصّارم المنتضى»[1].

وقد تولّى النقابة شرقاً وغرباً، وإمارة الحاجّ والحرمين، والنّظر في المظالم، وقضاء القضاة ثلاثين سنة وأشهراً[2].

قال ابن الجوزي في «المنتظم»[3]: في يوم السّبت، الثالث من صفر، سنة ٤٠٦هـ، قُلِّد الشَّريف المرتضى أبو القاسم الموسوي: الحجّ، والمظالم، ونقابة النّقباء الطالبيّين، وجميع ما كان إلى أخيه الرَّضيّ، وجمع النّاس لقراءة عهد في الدّار الملكيّة، وحضر فخر المُلك والأشراف والقضاة والفقهاء، وكان في العهد:

«هذا ما عهد عبدالله أبو العبّاس أحمد، الإمام القادر بالله، أمير المؤمنين إلى عليّ بن موسى العلوي حين قرّبته إليه الأنساب الزكيّة، وقدّمته لديه الأسباب القويّة، واستظلّ معه بأغصان الدّوحة الكريمة، واختصّ عنده بوسائل الحرمة الوكيدة، فقُلِّد الحجّ والنّقابة، وأمره بتقوى الله» إلخ...

(١) راجع فهرست النّجاشي، ص ٢٧٠، رقم ٧٠٨، المجدي للعمري، ص ١٢٥، فهرست الشّيخ، ص ٩٩، رقم ٤٢١، خلاصة العلاّمة، ص ٩٥، رقم ٢٢، تتمّة يتيمة الدّهر، ٥/٦٩، رقم ٤٩، وفيّات الأعيان، ٣/٣١٣، رقم ٤٤٣، غاية الاختصار، ص ٧٦. الفرند: جوهر السّيف ووشيه.

(٢) صحاح الأخبار لسراج الدّين الرّفاعي، ص ٦١، والمستدرك [على وسائل الشّيعة]: ٣/٥١٦، نقلاً عن القاضي التّنوخي.

(٣) المنتظم: ١٥/١١١.

تحصيل العلم وتعليمه

عمل الشَّريف المرتضى، طوال حياته، على تحصيل العلم، وتعليمه، واجتهد في توفير مستلزماته، وأوّل هذه المستلزمات امتلاك الكفاءة العليا في جميع علوم عصره، ومن الأخبار الدَّالَّة على توفّر هذه الكفاءة لديه ما جرى بينه وبين علماء عصره وأدبائه، ومن نماذج ذلك نذكر:

علم الهدى والمعرّي

قال أبو الحسن العمري في «المجدي»[1]: اجتمعت بالشّريف المرتضى، سنة ٤٢٥هـ ببغداد، فرأيته فصيح اللّسان يتوقّد ذكاءً.

وحضر مجلسه أبو العلاء المعرّي ذات يوم، فجرى ذكر أبي الطيّب المتنبّي، فنقّصه الشّريف وعاب بعض أشعاره، فقال أبو العلاء: لو لم يكن لأبي الطيّب المتنبّي إلاّ قوله: «لكِ يا منازل في القلوب منازل» لكفاه. فغضب الشَّريف وأمر بأبي العلاء فسُحب وأُخرج، فتعجّب الحاضرون من ذلك، فقال لهم الشّريف: أعلمتم ما أراد الأعمى؟ إنّما أراد قوله:

وإذا أتَتْكَ مذمّتي من ناقصٍ فهي الشّهادةُ لي بأنّيَ كاملُ[2]

قال الطّبرسي في «الاحتجاج»[3]: دخل أبو العلاء المعرّي الدّهري على السيّد المرتضى (قدّس سرّه)، فقال له: أيّها السيّد، ما قولك في الكلّ؟ فقال السيّد: ما قولك في الجزء؟ فقال: ما قولك في الشّعرى؟ فقال: ما قولك في التّدوير؟ فقال: ما قولك في عدم الانتهاء؟ فقال: ما قولك في التحيّز والنّاعورة؟ فقال: ما قولك في السّبع؟ فقال ما قولك: في الزائد البري من السّبع؟ فقال: ما قولك في الأربع؟ فقال: ما قولك في الواحد والاثنين؟

(١) المجدي في أنساب الطالبيّين، ص ١٢٥.

(٢) الدّرجات الرّفيعة، ص ٤٦٠.

(٣) الاحتجاج، ٢/ ٦١٢، رقم ٣٦٢.

فقال: ما قولك في المؤثّر؟ فقال: ما قولك في المؤثّرات؟ فقال: ما قولك في النّحسين؟ فقال: ما قولك في السّعدين؟ فبُهت أبو العلاء.

فقال السيّد المرتضى (رضي الله عنه) عند ذلك: ألا كلّ ملحد مُلْهِد[1]، وقال أبو العلاء: أخذته من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ بِاللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان/١٣]. وقام وخرج.

فقال السيّد (رضي الله عنه) عنه: قد غاب عنّا الرّجل وبعد هذا لا يرانا. فسُئل السيّد عن شرح هذه الرّموز والإشارات، فقال: سألني عن الكلّ وعنده الكلُّ قديمٌ، ويُشير بذلك إلى عالم سمّاه العالم الكبير، فقال لي: ما قولك فيه؟ أراد أنّه قديم.

فأجبته عن ذلك وقلت له: ما قولك في الجزء؟ لأنّ عندهم الجزء محدَث وهو المتولّد عن العالم الكبير، وهذا الجزء هو العالم الصغير عندهم، وكان مرادي بذلك أنّه إذا صحَّ أنّ هذا العالم محدَث، فذلك الذي أشار إليه - إن صحَّ - فهو محدَث أيضاً؛ لأنّ هذا من جنسه على زعمه، والشّيء الواحد والجنس الواحد لا يكون بعضه قديماً وبعضه محدَثاً، فسكت لمّا سمع ما قلته.

وأمّا الشّعرى: أراد أنّها ليست من الكواكب السيّارة؛ لأنّه قديمٌ، فقلت له: ما قولك في التّدوير؟ أردت أنّ الفلك في التّدوير والدّوران، فالشّعرى لا يقدح في ذلك.

وأمّا عدم الانتهاء: أراد بذلك أنّ العالم لا ينتهي؛ لأنّه قديم، فقلت له: قد صحَّ عندي التحيّز والتّدوير، وكلاهما يدلاّن على الانتهاء.

وأمّا السّبع: أراد بذلك النّجوم السيّارة التي عندهم ذوات الأحكام، فقلت له: هذا باطلٌ بالزّائد البري الذي يحكم فيه بحكم لا يكون ذلك الحكم

(١) ألهد الرّجل: ظلم وجار.

منوطاً بهذه النّجوم السيّارة التي هي: الزّهرة، والمشتري، والمرّيخ، وعطارد، والشّمس، والقمر، وزحل.

وأمّا الأربع: أراد بها الطّبائع، فقلت له: ما قولك في الطّبيعة الواحدة الناريّة يتولّد منها دابّة بجلدها تمسُّ الأيدي ثمّ تطرح ذلك الجلد على النّار فيحترق الزّهومات ويبقى الجلد صحيحاً؛ لأنّ الدابّة خلقها الله على طبيعة النّار، والنّار لا تحرق النّار، والثّلج أيضاً يتولّد فيه الدّيدان وهو على طبيعةٍ واحدةٍ، والماء في البحر على طبيعتين، يتولّد عنه السّموك والضّفادع والحيّات والسّلاحف وغيرها، وعنده لا يحصل الحيوان إلاّ بالأربع، فهذا مناقض لهذا.

وأمّا المؤثّر: أراد به الزّحل، فقلت له: ما قولك في المؤثّرات، أردتُ بذلك أنّ المؤثّرات كلّهنّ عنده مؤثّرات، فالمؤثّر القديم كيف يكون مؤثّراً؟

وأمّا النّحسان: أراد بهما أنّهما من النّجوم السيّارة إذا اجتمعا يخرج من بينهما سعد، فقلت له: ما قولك في السّعدين إذا اجتمعا خرج من بينهما نحس؟ هذا حكم أبطله الله تعالى ليعلم النّاظر أنّ الأحكام لا تتعلّق بالمسخّرات؛ لأنّ الشّاهد يشهد على أنّ العسل والسكّر إذا اجتمعا لا يحصل منهما الحنظل والعلقم، والحنظل والعلقم إذا اجتمعا لا يحصل منهما الدّبس والسكّر، هذا دليل على بطلان قولهم.

وأمّا قولي: ألا كلّ ملحد ملهد، أردت أنّ كلّ مشرك ظالم؛ لأنّ في اللّغة: ألحد الرّجل عن الدّين إذا عدل عن الدّين، وألهد إذا ظلم، فعلم أبو العلاء ذلك، وأخبرني عن علمه بذلك فقرأ: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ بِالله﴾ الآية.

وقيل: إنّ المعرّي لمّا خرج من العراق سُئل عن السيّد المرتضى (رضي الله عنه) فقال:

يا سائلي عنه لمّا جئتُ أسألُهُ ألا هو الرّجلُ العاري من العارِ
لو جئته لرأيت النّاس في رجلٍ والدّهر في ساعةٍ والأرضَ في دار

وثـانـي هذه المستلزمات توفير المال اللاّزم للقيام بأمور التَّدريس، فقد عـرف عنـه أنّـه كان يجيد إدارة شؤونه الماليّة، ويروى أنّه كان يدخل عليه من أمـلاكـه كـلّ سنة أربعة وعشرون ألف دينار[1]، وأنّه ترك خمسين ألف دينار، ومن الآنية والفرش والضّياع ما يزيد على ذلك.

وثالث هذه المستلزمات توفير الكتب اللاّزمة للتّدريس، فقد كان يحرص على شـراء هـذه الكتـب، فقد حكى الخطيب التبريزي أنّ أبا الحسن عليّ بن أحمد بن علـيٍّ بـن سلـك الفالي الأديب كان له نسخة لكتاب «الجمهرة» لابن دريـد فـي غـايـة الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها، فباعها، فاشتراها الشَّريف المـرتـضى بستِّيـن دينـاراً، فتصفّحها، فوجد فيها أبياتاً بخطِّ بائعها أبي الحسن المذكور، والأبيات قوله:

أَنِسـتُ بهـا عشـريـنَ حـولاً وبِعتُهـا ... فقـد طـالَ وجـدي بعـدَهـا وحنينـي
ومـا كـان ظنّـي أنّنـي سـأبيعُهـا ... ولـو خلَّـدَتني فـي السّجـون ديـونـي
ولكـن لضعـفٍ وافتقـارٍ وصبيـةٍ ... صغـارٍ عليهـمْ تستهـلُّ شـؤونـي
فقلـت ولـم أملـك سـوابِقَ عبرتـي ... مقـالـة مكـويِّ الفـؤادِ حـزيـنِ:
وقـد تخـرجُ الحـاجـاتُ يـا أمَّ مـالـكٍ ... كـرائـمَ مـن ربٍّ بهـنَّ ضنيـنِ

فأرجع النّسخة إليه وترك له الدّنانير رحمه الله تعالى.

يفيـد هـذا الخبـر، أنّ الشّـريـف المـرتـضى، علاوةً على اهتمامه بتوفير الكتب اللاّزمة لطلاّبه، كان يقدِّر أهل العلم، ولا يبخل عليهم بالمال والكتب، وإن كان حريصاً عليهما بدليل إرجاعه النّسخة للأديب وترك المال له.

ورابع هذه المستلـزمـات إنشـاء مـدرسـة تتـوافر لطلاّبها مختلف شروط التعلُّـم، فـابـن أبـي طـيّ يـذكـر أنـه «أوّل مـن جعـل داره دار العلم، وقدَّرها للمناظرة، وكان يختلف إليها الطلاّب ليحصِّلـوا العلـم، وكان يعطيهم رواتب

(1) معجم الأدباء، ٣/ ١٥٤.

تتيح لهم التفرّغ للدّراسة من غير تفكير في تدبير أمور المعيشة، فكان شيخ الطّائفة أبو جعفر الطّوسي يتقاضى منه في الشّهر اثني عشر ديناراً، والشّيخ القاضي ابن البرّاج الحلبي ثمانية دنانير، ومثلهما بقيّة تلامذته. وكان قد وقف قرية ليوفّر الورق للفقهاء. ويقال إنّ النّاس أصابهم في بعض السّنين قحط شديد، فاحتال رجل يهودي على تحصيل قوته، فحضر يوماً مجلس الشّريف المرتضى، وسأله أن يأذن له في أن فقرأ عليه شيئاً من علم النّجوم. فأذن له، وأمر له بجراية تجري عليه كلّ يوم، فقرأ عليه برهةً، ثمَّ أسلم على يديه»[1].

وكان يرى أنَّ قيمة المال تتمثّل في ما يوفّره من مكارم وفضل وعلم، فهو يقول:

وما حزَّني الإملاقُ والثّروةُ التي ... يذلُّ بها أهل اليسار ضلالُ
أليس يبقّي المالَ إلاّ ضنانةٌ ... وأفقرَ أقواماً ندى ونوالُ
إذا لم أنل بالمال حاجة معسرٍ ... حصورٍ عن الشّكوى فما لي مالُ

وقد تخرّج من مدرسته نوابغ عصره من فقيه بارع ومتكلّم مناظر، وأصولي مدقّق، وأديب شاعر، وخطيب مبدع، ومن هؤلاء نذكر:

١ ـ شيخ الطّائفة أبو جعفر الطّوسي (المتوفّى سنة ٤٦٠هـ).

٢ ـ أبو يعلى سلاّر بن عبد العزيز الدّيلمي.

٣ ـ أبو الصّلاح تقيّ بن نجم الحلبي، خليفته في بلاد حلب.

٤ ـ القاضي عبد العزيز بن البرّاج الطرابلسي (المتوفّى سنة ٤٨١هـ).

٥ ـ الشّريف أبو يعلى محمّد بن الحسن بن حمزة الجعفري (المتوفّى سنة ٤٦٣هـ).

٦ ـ أبو الصّمصام ذو الفقار بن معبد الحسيني المروزي.

---

(١) لسان الميزان، ٤/٢٥٧، رقم ٥٧٩٧.

٧ ـ السيّد نجيب الدِّين أبو محمَّد الحسن بن محمَّد بن الحسن الموسوي.

٨ ـ السيّد التقيّ ابن أبي طاهر الهادي النّقيب الرّازي.

٩ ـ الشّيخ أبو الفتح محمَّد بن عليّ الكراجكي (المتوفّى سنة ٤٤٩هـ)، قرأ عليه كما في فهرست الشّيخ منتجب الدِّين.

١٠ ـ الشّيخ أبو الحسن سليمان الصّهرشتي صاحب كتاب «قبس المصباح».

١١ ـ الشّيخ أبو عبدالله جعفر بن محمّد الدوريستي.

١٢ ـ أبو الفضل ثابت بن عبدالله البناني.

١٣ ـ الشّيخ أحمد بن الحسن بن أحمد النّيسابوري الخزاعي، يُعدُّ من أجلّة تلامذته.

١٤ ـ الشّيخ المفيد الثّاني، أبو محمَّد عبد الرحمٰن بن أحمد الرّازي.

١٥ ـ الشّيخ أبو المعالي أحمد بن قدامة، كما في إجازة الشّيخ فخر الدِّين الحلّي للسيّد مهنّا، وإفادات الشّيخ المذكور ابن العلاّمة الحلّي.

١٦ ـ الشّيخ أبو عبدالله محمَّد بن عليّ الحلواني، كما في إجازة السيّد ابن أبي الرِّضا العلوي، تلميذ الشّيخ نجيب الدِّين الحلّي.

١٧ ـ أبو زيد بن كَيابَكي الحسيني الجرجاني، كما في إجازة السيّد المذكور.

١٨ ـ الشّيخ أبو غانم العصمي الهروي الشّيعي.

١٩ ـ الفقيه الدّاعي الحسيني، كما في إجازة صاحب «المعالم الكبيرة».

٢٠ ـ السيّد الحسين بن الحسن بن زيد الجرجاني، يروي عن السيّد المترجَم كما في «تاريخ ابن عساكر».

٢١ ـ أبو الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقي، قرأ على السيّد قطعة كبيرة من ديوان شعره، وأجاز له رواية جميعه في ذي القعدة سنة ٤٠٣هـ.

٢٢ ـ أبو الحسن محمّد بن محمّد البصري، أجاز له رواية كتبه وتآليفه في شعبان سنة ٤١٧هـ.

مؤلّفاته

وأثمرت هذه الحياة الحافلة بالنّشاط مؤلّفات كثيرة نقدّم، في ما يأتي، أسماءها:

١ ـ الشّافي في الإمامة	٢ ـ الملخّص في الأصول	٣ ـ الذّخيرة في الأصول
٤ ـ جمل العلم والعمل	٥ ـ الغُرر والدّرر	٦ ـ تكملة الغُرر
٧ ـ المقنع في الغَيْبة	٨ ـ الخلاف في الفقه	٩ ـ النّاصريّة في الفقه
١٠ ـ الحلبيّة الأولى	١١ ـ الحلبيّة الأخيرة	١٢ ـ المسائل الجرجانيّة
١٣ ـ المسائل الطوسيّة	١٤ ـ المسائل الصباريّة	١٥ ـ المسائل التبّانيات[1]
١٦ ـ المسائل السلاّريّة	١٧ ـ مسائل في عدّة آيات	١٨ ـ المسائل الرازيّة
١٩ ـ المسائل الكلاميّة	٢٠ ـ المسائل الصيداويّة	٢١ ـ الديلميّة في الفقه
٢٢ ـ كتاب البرق	٢٣ ـ طيف الخيال	٢٤ ـ الشّيب والشّباب
٢٥ ـ المقمصة	٢٦ ـ المصباح في الفقه	٢٧ ـ نصر الرّواية
٢٨ ـ الذّريعة في أصول الفقه	٢٩ ـ شرح بائيّة الحميري	٣٠ ـ تنزيه الأنبياء
٣١ ـ إبطال القول بالعدد	٣٢ ـ المحكم والمتشابه	٣٣ ـ النّجوم والمنجّمون
٣٤ ـ متولّي غسل الإمام	٣٥ ـ الأصول الاعتقاديّة	٣٦ ـ أحكام أهل الآخرة
٣٧ ـ معنى العصمة	٣٨ ـ الوجيزة في الغَيْبة	٣٩ ـ تقريب الأصول
٤٠ ـ طبيعة المسلمين	٤١ ـ رسالة في علم الله	٤٢ ـ رسالة في الإرادة
٤٣ ـ أيضاً رسالة في الإرادة	٤٤ ـ رسالة في التّوبة	٤٥ ـ رسالة في التأكيد
٤٦ ـ رسالة في المتعة	٤٧ ـ دليل الخطاب	٤٨ ـ طرق الاستدلال

(١) سألها الشّيخ أبو عبدالله محمّد بن عبد الملك التبّان (المتوفّى سنة ٤١٩هـ)، وهي ٦٦ مسألة في عشرة فصول.

٤٩ ـ كتاب الوعيد ٥٠ ـ شرح قصيدة له ٥١ ـ الحدود والحقائق
٥٢ ـ مفردات في أصول الفقه ٥٣ ـ الموصليّة، ثلاث مسائل
٥٤ ـ الموصليّة الثّانية، تسع مسائل ٥٥ ـ الموصليّة الثّالثة (١٠٩) مسائل
٥٦ ـ المسائل الطرابلسيّة الأولى ٥٧ ـ الطرابلسيّة الأخيرة (١٣) مسألة[١]
٥٨ ـ مسائل ميافارقين (٦٥) مسألة ٥٩ ـ المسائل الرازيّة (١٤) مسألة
٦٠ ـ المسائل المحمديّات (٥) مسائل ٦١ ـ المسائل البادرات (٢٤) مسألة
٦٢ ـ المسائل المصريّة الأولى (٥) مسائل ٦٣ ـ المصريّات الثّانية
٦٤ ـ المسائل الرّمليّات (٧) مسائل ٦٥ ـ مسائل في فنون شتّى، نحو مئة مسألة
٦٦ ـ المسائل الرسيّة الأولى[٢] ٦٧ ـ المسائل الرّسيّة الثّانية
٦٨ ـ الانتصار في ما انفردت به الإماميّة ٦٩ ـ تفضيل الأنبياء على الملائكة
٧٠ ـ النّقض على ابن جنّي في الحكاية والمحكي ٧١ ـ ديوان شعره يزيد على عشرين ألف بيت
٧٢ ـ الصّرفة في بيان إعجاز القرآن ٧٣ ـ الرّسالة الباهرة في العترة الطّاهرة
٧٤ ـ نقض مقالة ابن عديّ في ما لا يتناهى ٧٥ ـ جواب الملاحدة في قِدَم العالم
٧٦ ـ تتمّة الأعراض من جمع أبي رشيد ٧٧ ـ نكاح أمير المؤمنين ابنته من عمر
٧٨ ـ إنقاذ البشر من القضاء والقدر ٧٩ ـ الرّدّ على أصحاب العدد في شهر رمضان
٨٠ ـ تفسير الحمد وقطعة من سورة البقرة ٨١ ـ الردّ على ابن عديّ في حدوث الأجسام
٨٢ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].
٨٣ ـ كتاب الثّمانين[٣]
٨٤ ـ الكلام على من تعلّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].
٨٥ ـ تفسير قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِي مَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣].
٨٦ ـ تتبّع أبيات للمتنبّي التي تكلّم عليها ابن جنّي.

(١) سألها الشّيخ أبو الفضل إبراهيم بن الحسن الأباني.
(٢) هي ٢٨ مسألة سألها العلاّمة أبو الحسين الحسين بن محمّد بن النّاصر الحسيني الرسّي.
(٣) قاله القاضي التّنوخي، كما في المستدرك على وسائل الشّيعة للعلاّمة النّوري، ٣/ ٥١٦.

شعـــره

ترك الشَّريف المرتضى ديـوان شعـر مـرتَّبـاً على السِّنين في ستَّة أجزاء، توجد منـه نسخـة أجـازهـا هو بعد أن قرئت عليه، ومعظم شعره في مدح أهل البيـت عليهم السلام وبيـان فضائلهم، وفي رثاء سيِّد الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام، وفي الفخـر بـأسـرتـه وبنفسـه، ومعظم قصائده تبدأ بمقدِّمة تقليدية على عادة الشُّعراء الكبار في ذلك العصر.

غديريَّـته

ومـن شعـره فـي يـوم الغـديـر قصيـدة تبـدأ بمقـدّمـة تقليـديـة طـويلة نذكر منها:

لـو لـم يعـاجلـه النَّـوى لتحيَّـرا ... وقَصـارُه، وقـد انتـأوا، أن يقصُـرا
أفكلّمـا راع الخليـطُ تصـوَّبـت ... عبـراتُ عيـنٍ لـم تقـلّ فتكثـرا
قـد أوقـدت حُـرَقَ الفـراق صبـابَـةٌ ... لم تستعر، ومرَيْن[1] دمعاً ما جرى
شغـفٌ يكتُّمـه الحيـاءُ ولـوعـةٌ ... خَفِيـت، وحُـقَّ لمثلهـا أن يظهـرا

ثمَّ يقول:

أهـلاً بطَيْـفِ خيـالِ مـانعـةٍ لنـا ... يقظـى ومُفضلـةٍ علينـا فـي الكـرى
مـا كـان أنعَمَنـا بهـا مـن زورةٍ ... لـو بـاعـدتْ وقـتَ الـورودِ المصـدرا
جـزعـت لِـوَخْطـاتِ المشيـبِ وإنّمـا ... بلـغَ الشّبـابُ مـدى الكمـالِ فنـوّرا
والشَّيـب إن أنكـرتَ فيـهِ مـوردٌ ... لا بـدّ يـوردُه الفتـى إن عُمِّـرا
يَبْيَـضُّ بعـد سـواده الشّعـرُ الـذي ... إن لـمْ يـزرْهُ الشّيـبُ واراه الثّـرى
زمـنَ الشّبيبـةِ لاعـدَتْـكَ تحيّـةٌ ... وسقـاكَ منهمـرُ الحيـا مـا استغـزرا
فلطـالمـا أضحـى ردائـي سـاحبـاً ... فـي ظلّـك الـوافـي وعـوديَ أخضـرا

(١) مَرَيْن: اعتصرن، من مرى النّاقة إذا مسح ضرعها لتدرّ اللّبن.

أيّــامَ يــرمقُنــي الغــزالُ إذا رنــا ... شَغَفـاً ويطـرقُنـي الخيـالُ إذا سـرى
ومرنّـح فـي الكـورِ تحسـبُ أنّـه اصـ ... ـطبحَ العُقار وإنّما اغتبق السُّرى[1]
بطــلٌ صَفــاهُ للخــداعِ مــزلّــةٌ ... فـإذا مشـى فيـه الـزّمـاع تغشمـرا[2]
إمّـا سـألـتَ بـه فـلا تَسـألْ بـه ... نـايـاً يناغـي فـي البطـالـة مِـزمَـرا
واسـأل بـه الجُـردَ العِتـاقَ مُغيـرةً ... يخبطـن هـامـاً أو يطـأنَ سَنَـوَّرا[3]
يحملـن كـلَّ مـدجّـجٍ يقـري الظّبـا ... عَلَقـاً وأنفـاسَ السّـوافـي عِثيـرا[4]
قَومي الذين وقد دجتْ سبلُ الهدى ... تـركـوا طـريـقَ الـدّيـنِ فينـا مُقمـرا
غلبوا على الشّرفِ التّليدِ وجاوزوا ... ذاك التّليــدَ تطــرّفــاً وتخيّــرا
كـم فيهـمُ مـن قسـوَرٍ متخمّـطٍ ... يُـردي إذا شـاء الهـزبـرَ القسـوَرا
متنمّــرٍ والحــربُ إن هتفــتْ بــه ... أدّتــهُ بسّــامَ المحيّــا مُسفــرا
وملــوَّمٍ فــي بــذلِــهِ ولطــالمــا ... أضحى جديراً في العلى أن يُشكرا
ومـرفَّـعٍ فـوقَ الـرّجـالِ تخـالُـهُ ... يـومَ الخطـابـةِ قـد تسنّـم مِنبـرا
جمعـوا الجميـلَ إلـى الجمـالِ وإنّمـا ... ضمّـوا إلـى المـرأى المُمـدّحِ مَخْبـرا
سـائـلْ بهـم بـدراً وأُحـداً والتـي ... ردّتْ جبيـنَ بنـي الضّـلالِ مُعفّـرا
للهِ درُّ فــــوارسٍ فــــي خيبــــرٍ ... حملـوا عـن الإسـلامِ يـومـاً مُنكـرا
عصفـوا بسلطـانِ اليهـودِ وأولجـوا ... تلـك الجـوانـحَ لـوعـةً وتحسّـرا
واستلحموا أبطالَهم واستخرجوا الـ ... أزلامَ مــن أيــديهــمُ والميســرا
وبمــرحــبٍ ألــوى فتــىً ذو جمــرةٍ ... لا تُصطلـى وبسـالـةٍ لا تُفتـرى[5]
إن حــزَّ حــزَّ مطبّقــاً أو قــالَ قــا ... ل مصــدّقــاً أو رام رام مطهّــرا

(١) المرنّح: المتمايل. الكور: الهودج. اصطبح: شرب الخمر صباحاً. العقار: الخمر. اغتبق: شربها مساءً.
(٢) صفاه: صخره. الزّماع: المضاء في الأمر. تغشمر: تنمّر.
(٣) السنوّر: السّلاح من الحديد، أو هو الدّرع.
(٤) العَلَق: الدّم. السّوافي: الرّياح. العثيرَ: التّراب والعجاج.
(٥) لا تفترى: لا تقدّر ولا تخمّن.

فثنــاه مصفّــرَ البَنــانِ كــأنّمــا لطــخَ الحِمــامُ عليــه صِبغــاً أصفــرا
شهـقَ العُقـابُ بشلـوهِ ولقـد هَفَـتْ زمنـاً بـه شُـمُّ الـذّوائـبِ والـذّرى
أمّـا الـرّسـولُ فقـد أبـانَ ولاءَهُ لـو كـانَ ينفـعُ جـائـراً أن يُنـذَرا
أمضـى مقـالاً لـم يَقُلْـهُ معـرِّضـاً وأشـادَ ذكـراً لـم يُشِـدْهُ معـذِّرا[1]
وثنـى إليـه رقـابَهـمْ وأقـامـه عَلَمـاً علـى بـابِ النّجـاةِ مُشَهَّـرا
ولقـد شفـى يـومُ الغـديـرِ معـاشـراً ثَلِجَـتْ نفـوسُهُـمُ وأودى معشـرا
قلقـت[2] بـه أحقـادُهـمْ فمـرجِّـعٌ نفسـاً ومـانـعُ أنّـةٍ أن تجهـرا
يـا راكبـاً رقصـتْ بـه مَهْـرِيّـةٌ أَشِبَتْ بساحته الهمومُ فأصحرا[3]
عُـجْ بـالغـريِّ فـإنّ فيـهِ ثـاويـاً جبـلاً تطـأطـأ فـاطمـأنَّ بـه الثّـرى
واقـرا السّـلامَ عليـهِ مـن كَلِـفٍ بـهِ كُشفـتْ لـه حُجبُ الصّباحِ فـأبصـرا
ولـو استطعـتُ جعلـتُ دارَ إقـامتـي تلـكَ القبـورَ الـزُّهـرَ حتّـى أُقبـرا

نماذج من شعره

قال يرثي جدَّه الطّاهر الإمام السّبط الشّهيد عليه السلام ومن قتل معه:

يـا دارُ دارَ الصّـوّمِ القـوّمِ كيـف خـلا أُفقُـكِ مـن أنجُـمِ
عهـدي بهـا يـرتـعُ سكّـانُهـا فـي ظـلِّ عيـشٍ بينهـا أنعـمِ
لـم يصبحـوا فيهـا ولـم يغبُقـوا إلاّ بكـأسَـيْ خمـرةِ الأنعَـمِ
بكيتُهـا مـن أدمـعٍ لـو أبـت بكيتُهـا واقعـةً مـن دمِ
وعُجْـتُ فيهـا رائيـاً أهلَهـا سَـواهِـمَ الأوصـالِ والملطـمِ
نحلـنَ حتّـى حـالهـنَّ السّـرى بعـضَ بقـايـا شَطَـنٍ مُبـرَمِ[4]

---

(١) في الدّيوان: مغرّرا.
(٢) في الأصل، طبقاً للطّبعة التي اعتمدها المؤلّف (قدّس سرّه): قلعت، ونحن نرجّح ما اختاره محقّق الدّيوان من أنّ الصّحيح: قلقت.
(٣) المهريّة: من النّوق الموصوفة بسرعة الجري. أشِبَت الهموم بساحته: أي اكتنفته وألمّت به. أصحر: خرج إلى الصّحراء.
(٤) الشّطن: الحبل.

لم يدع الإسآد هاماتِها ... إلاّ سقيطاتٍ على المَنسمِ (1)
يا صاحبي يوم أزالَ الجوى ... لحمي بخدّيَّ عن الأعظُمِ
واريتُ ما أنت به عالمٌ ... ودائيَ المعضلَ لم تعلمِ
ولستُ في ما أنا صبٌّ به ... مَن قَرَنَ السّاليَ بالمغرمِ
وجدي بغيرِ الظّعنِ سيّارةً ... من مَخرِمٍ ناءٍ إلى مَخرِمِ (2)
ولا بلقّاءَ هضيمِ الحشا ... ولا بذاتِ الجيدِ والمِعصَمِ
فاسمع زفيري عند ذكري الأُلى ... بالطّفِّ بين الذِّئبِ والقشعَمِ (3)
طرحى فإمّا مقعَصٌ بالقنا ... أو سائلُ النّفسِ على مِخذمِ (4)
نثراً كدرٍّ بددٍ مهملٍ ... أغفله السّلكُ فلم ينظمِ
كأنّما الغبراءُ مرميّةٌ ... من قِبَلِ الخضراءِ بالأنجمِ
دُعوا فجاؤوا كرماً منهمُ ... كم غرَّ قوماً قسَمُ المقسِمِ
حتّى رأوها أُخرياتِ الدُّجى ... طوالعاً من رَهَجٍ أقتمِ
كأنّهم بالصّمّ مطرورةً ... لمنجدِ الأرضِ على مُتهمِ
وفوقها كلُّ مغيظِ الحشا ... مكتحلِ الطّرفِ بلونِ الدّمِ
كأنّه من حنقٍ أجدلٌ ... أرشده الحرصُ إلى مَطْعَمِ
فاستقلبوا الطّعنَ إلى فتيةٍ ... خُوّاضِ بحرِ الحذَرِ المفعَمِ
من كلِّ نهّاضٍ بثقلِ الأذى ... موكّلِ الكاهلِ بالمعظَمِ
ماضٍ لما أمَّ فلو جادَ في الـ ... ـهيجاءِ بالحوباءِ لم ينْدَمِ
وكالفٍ بالحربِ لو أنّه ... أُطعِمَ يومَ السّلمِ لم يطعمِ
مثلَّمِ السّيفِ ومن دونه ... عرْضٌ صحيحُ الحدِّ لم يُثْلَمِ
فلم يزالوا يُكرعون الظُّبا ... بين تراقي الفارسِ المُعْلَمِ

(1) الإسآد: السّير ليلاً بلا استراحة. المَنسِم: خفّ البعير.
(2) المخرِم: منقطع أنف الجبل.
(3) القشعم: النّسر.
(4) مقعص من أقعص الرّجل: قتله مكانه، أجهز عليه. مخذم: آلة الخذم. والخذم: القطع بسرعة.

فمُثْخَنٌ يحمل شهّاقةً ... تحكي لراءٍ فغرة الأعلمِ (١)
كأنّما الورَسُ بها سائلٌ ... أو أُنبِتَتْ من قُضُبِ العَنْدَمِ
ومستزلٌّ بالقنا عن قَرا ... عبلِ الشّوى أو عن مطا أدهمِ (٢)
لو لم يكيدوهم بها كيدَةً ... لانقلبوا بالخِزي والمرغمِ
فاقتُضِبتْ بالبيضِ أرواحُهم ... في ظلِّ ذاك العارضِ الأسحمِ
مصيبةٌ سيقت إلى أحمدٍ ... ورهطِهِ في الملأ الأعظمِ
رزءٌ ولا كالرُّزءِ من قبلِهِ ... ومؤلمٌ ناهيك من مؤلِمِ
ورميةٌ أصمتْ ولكنّها ... مصميةٌ من ساعدٍ أجذَمِ
قل لبني حربٍ ومن جمّعوا ... من حائرٍ عن رشده أو عَمِي
وكلُّ عانٍ في إسارِ الهوى ... يُحسَب يقظانَ من النوَّمِ
لا تحسبوها حلوةً إنّها ... أمرُّ في الحلق من العلقمِ
صرّعهم أنّهمُ أقدموا ... كم فُدي المُحجِمُ بالمُقدِمِ
هل فيكمُ إلاّ أخو سَوْأَةٍ ... مجرّحُ الجلدِ من اللُّوّمِ؟
إن خاف فقراً لم يجُد بالندى ... أو هاب وشكَ الموتِ لم يُقدمِ
يا آل ياسينَ ومَن حبُّهم ... منهجُ ذاك السَّنَنِ الأقومِ
مهابطُ الأملاكِ أبياتُهم ... ومستقرُّ المُنزَلِ المحكَمِ
فأنتمُ حجّةُ ربِّ الورى ... على فصيحِ النّطقِ أو أعجمِ
وأين إلاّ فيكمُ قُربةٌ ... إلى الإلهِ الخالقِ المنعِمِ؟
واللهِ لا أخليتُ من ذكرِكُمْ ... نظمي ونثري ومرامي فمي
كلاّ ولا أغببتُ أعداءكُمْ ... من كلمي طوراً ومن أسهمي (٣)
ولا رُكي يومَ مصابٍ لكم ... منكشفاً في مشهدٍ مبسمي

(١) المثخن: الذي أثخنته الجراحات. الشهّاقة: الرمح. الفغرة: الفتحة. الأعلم: الذي شُقّت شفته العليا.
(٢) القرا: الظهر. العبل: الضخم. الشوى: الأعضاء. المطا: الظهر.
(٣) أغببت: من الإغباب وهو ترك الشيء مدّة.

فإن أغِبْ عن نصركمْ برهةً ... بمرهفاتٍ لم أغبْ بالفم
صلّى عليكم ربّكم وارتوتْ ... قبورُكم من مسبلٍ مُثْجِمِ[1]
مفعقعٍ تُخجِلُ أصواتُه ... أصواتَ ليثِ الغابةِ المُرزمِ
وكيف أستسقي لكم رحمةً ... وأنتمُ الرّحمةُ للمجرمِ

وقال في الموعظة والاعتبار:

لا تقربنَّ عَضيهةً ... إنّ العضائهَ مخزياتُ
واجعل صلاحَكَ سرمداً ... فالصّالحاتُ الباقياتُ
في هذه الدُّنيا ومَن ... فيها لنا أبداً عِظاتُ
إمّا صروفٌ مقبلا ... تٌ أو صروفٌ مدبراتُ
وحوادث الأيّام فيـ ... ـنا آخذاتٌ معطياتُ
والذّلُّ موتٌ للفتى ... والعزُّ في الدّنيا الحياةُ
والذّخرُ في الدّارين إمّا طاعةٌ أو مأثراتُ
يا ضيعةً للمرء تدعوه إلى الهلك الدُّعاةُ
تغترُّه حتّى يزور ... شعابَهنّ الطّيّباتُ
عِبَرٌ تمرُّ وما لها ... منّا عيونٌ مبصراتُ
أين الأُلى كانوا بأيـ ... ـدينا حصولاً ثمّ ماتوا
من كلِّ من كانت له ... ثمراتُ دجلةَ والفراتُ
ما قيل: نالوا فوق ما ... يهوون، حتّى قيل: فاتوا
لم يغنِ عنهمْ حين همَّ بهم حِمامُهُمُ الحماةُ
كلاّ ولا بيضٌ وسمـ ... ـرٌ عارياتٌ مشرعاتُ
نطقوا زماناً ثمّ ليـ ... ـس لنطقهم إلاّ الصّماتُ
وكأنّهم بقبورِهم ... سبتوا وما بهمُ سُباتُ
من بعد أن ركبوا قَرا ... سُرُرٍ وجُردٍ هُمْ رفاتُ

(١) المطر المثجم: الكثير.

سلمـــوا علـــى صلـــح الأسنّـــة والظّبـــا لمّـــا استمـــاتـــوا

ونجـــوا مـــن الغمّـــاء لمّـــا قيـــل: ليـــس لهـــم نجـــاةُ

فـــي مـــوقـــفٍ فيـــه الصّـــوا رم والـــذّوابـــل والكمـــاةُ

وأتـــاهـــمُ مـــن حيـــث لـــم يخشـــوا لِحَيْنِهُـــمُ الممـــاتُ

وطـــوتهـــمُ طـــيَّ البـــرو د لهـــم قبـــورٌ مظلمـــاتُ

فهـــمُ بهـــا مثـــلُ الهشيـ ـــمِ تعيـــثُ فيهـــا العـــاصفـــاتُ

شُعـــثٌ وســـائـــدُهـــم بهـــا مـــن غيـــر تكـــرمـــةٍ عـــلاةُ

قـــل للّـــذيـــن لهـــم إلـــى الـــدُّنيـــا دواع مسمعـــاتُ

وكـــأنّهـــم لـــم يسمعـــوا مـــاذا تقـــول النّـــاعيـــاتُ

أو مـــا تقـــول لهـــم إذا اجـ ـتـــازوا الـــدِّيـــارُ الخـــاليـــاتُ

فـــالضّـــاحكـــاتُ وقـــد نعِمـ ـــنَ بهـــنّ هـــنّ البـــاكيـــاتُ

حتّـــى متـــى وإلـــى متـــى تـــأوي عيـــونكـــم السّنـــاتُ؟

كـــم ذا تفـــرُّجُ عنكـــمُ أبـــدَ الـــزّمـــانِ المـــوعظـــاتُ؟

كـــم ذا وُعظتـــم لـــو تكـــو نُ لكـــم قلـــوبٌ مصغيـــاتُ؟

لكـــمُ عقـــولٌ معـــرضـــا تٌ أو عيـــونٌ عـــاشيـــاتُ

عُـــجْ بـــالـــدِّيـــارِ فنـــادِهـــا: أيـــنَ الجبـــالُ الـــرّاسيـــاتُ؟

أيـــن العصـــاةُ علـــى المكـــا رمِ للعـــواذلِ والأبـــاةُ؟

تجـــري المنـــايـــا مـــن روا جبهـــمْ جميعـــاً والصّـــلاتُ[1]

وإذا لَقَـــوا يـــوم الـــوغـــى أقـــرانَهـــمْ كـــانـــت هنـــاةُ

والـــدّهـــرُ طـــوعَ يمينِهـــمْ وهـــمُ علـــى الـــدّنيـــا الـــولاةُ

أعطـــاهـــمُ متبـــرِّعـــاً ثـــمّ استـــردَّ فقـــال: هـــاتـــوا

كـــانـــت جميعـــاً ثـــمّ مـــزّق شمـــلَ بينِهـــمُ الشّتـــاتُ

فـــأكفُّهـــمْ مـــن بعـــد أن سُلِبـــوا المـــواهـــبَ مقفـــراتُ

(١) الرّواجب: مفاصل أصول الأصابع.

وسيــوفُهــمْ ورمــاحُهــمْ   منبــوذةٌ والضَّــامــراتُ
أمِنــوا الصّبــاحَ ومــا لهــم   علــمٌ بمــا يجنــي البيــاتُ
ورمــاهــمُ فــأصــابهــمْ   داءٌ تعــزُّ لــه الــرُّقــاةُ
وسهــامُ أقــواسِ المنــو   ن الصَّــائبــاتُ المصميــاتُ
مــات النَّــدى مــن بيننــا   بممــاتِهــمْ والمكــرمــاتُ

وقال يرثي الشّيخ الأكبر ـ شيخنا المفيد ـ محمَّد بن محمَّد بن نعمان (المتوفّى في رمضان ٤١٣هـ)، توجد في الجزء الثّالث من ديوانه:

مــن علــى هــذه الــدِّيار أقــامــا   أو ضفــا ملبــسٌ عليــه ودامــا
عُــج بنــا ننــدب الّــذيــن تــولّــوا   بــاقتيــادِ المنــونِ عــامــاً فعــامــا
فــارقــونــا كهــلاً وشيخــاً وهِمّــاً   ووليــداً ونــاشئــاً وغــلامــا
وشحيحــاً جَعْــدَ اليــديــنِ بخيــلاً   وجــواداً مخــوّلاً مِطعــامــاً
سكنــوا كــلَّ ذروةٍ مــن أشــمٍّ   يحسر الطَّرفَ ثــمّ حَلّوا الرّغاما
يــا لحى اللهُ مهــلاً حسِبَ الــدَّهـ   ـرَ نــؤومَ الجفــون عنــه فنــامــا
وكــأنّــي لمّــا رأيــتُ بنــي الــدَّهـ   ـرِ غفــولاً رأيــتُ منهــم نيــامــا
أيّهــا المــوتُ كــم حططــتَ عليّــاً   ســامــيَ الطَّــرف أو جببــتَ سنــامــا
وإذا مــا حــدرت خَلفــاً وظنّــوا   نجــوةً مــن يــديــك كنــت أمــامــا
أنــت ألحقــتَ بــالــذكــيِّ غبيّــاً   فــي اصطــلام وبــالــدنــيِّ هُمــامــا
أنــتَ أفنيــتَ قبــل أن تــأخــذ الأبـ   ـنــاء منّــا الآبــاء والأعمــامــا
ولقــد زارنــي فــأرّق عينــي   حــادثٌ أقعــد الحجــا وأقــامــا
حــدثٌ عنــه فــزادنــي حيــدي عنـ   ـه لصــوقــاً بــدائِــهِ والتــزامــا
وكــأنّــي لمّــا حملــت بــه الثّقـ   ـل تحمّلــت يــذبــلاً وشمــامــا
فخــذ اليــوم مــن دمــوعــي وقــد كــنَّ جمــوداً علــى المصــاب سجــامــا
إنّ شيــخَ الإســلام والــدِّيــنِ والعلـ   ـم تــولّــى فــأزعــجَ الإســلامــا
والــذي كــان غــرّةً فــي دُجــى الأيّــا   م أودى فــأوحــشَ الأيّــامــا

كم جلوتَ الشّكوكَ تعرضُ في نصٍّ　　وصـيٍّ وكـم نصـرتَ إمـامـا
وخصـومٍ لـدٍّ مـلأتَهـمُ بـالـ　　ـحقٍّ في حـومةِ الخصامِ خصاما
عـاينـوا منـكَ مصميـاً ثغـرة النّحـ　　ـر ومـا أرسلـتْ يـداكَ سهـامـا
وشجـاعـاً يفـري المـراءَ ومـا كـلُّ　　شجـاعٍ يفـري الطّلـى والهـامـا
مـن إذا مـالَ جـانـبٌ مـن بنـاءِ الـ　　ـدِّيـنِ كـانـت لـه يـداه دعـامـا
وإذا ازورَّ جـائـرٌ عـن هـداهُ　　قـادَهُ نحـوه فكـانَ زِمـامـا
مـن لفضـلٍ أخـرجـتَ منـه خبيئـاً　　ومعـانٍ فضضـتَ عنهـا خِتـامـا؟
مـن لسـوءٍ ميّـزت عنـه جميـلاً　　وحـلالٍ خلّصـتَ منـه حـرامـا؟
مـن يُثيـر العقـولَ مـن بعـدمـا كـنَّ همـوداً وينتـج الأفهـامـا؟
مـن يُعيـرُ الصَّـديـقَ رأيـاً إذا مـا　　سلّه في الخطـوبِ كـان حسـامـا؟
فـامضِ صفـراً مـن العيـوب وكـم بـا　　ن رجـالٌ أثْـرَوا عيـوبـاً وذامـا
إنّ خلـداً أوضحـتَ عـاد بهيمـاً　　وصبـاحـاً أطلعـتَ صـارَ ظـلامـا
وزلالاً أوردتَ حـالَ أُجـاجـاً　　وشفـاءً أورثـت آلَ سِقـامـا
لـن تـراني وأنـتَ مـن عـدد الأمـوا　　ت إلاّ تجمّـلاً بسّـامـا
وإذا مـا اْختُـرِمـتَ منّـي فمـا أر　　هـبُ فـي سـائـرِ الأنـامِ اختـرامـا
إن تكـن مجـرمـاً ولسـتَ فقـذ وا　　ليـتَ قـومـاً تحمّلـوا الأجـرامـا
لهـمُ فـي المعـاد جـاهٌ إذا مـا　　بسطـوه كفـى وأغنـى الأنـامـا
لا تخـفْ سـاعـةَ الجـزاء وإن خـا　　فَ أُنـاسٌ فقـد أخـذتَ ذِمـامـا
أودعَ اللهُ مـا حللـتَ مـن البيـ　　ـداءِ فيـه الإنعـامَ والإكـرامـا
ولـوى عنـهُ كـلَّ مـا عـاقـه التّـر　　بُ ولا ذاق فـي الـزّمـانِ أُوامـا
وقضـى أن يكـون قبـرُكَ للـرّحـ　　ـمـة والأمـنِ منـزلاً ومقـامـا
وإذا مـا سقـى القبـورَ فـروّا　　هـا رهـامـاً سقـاكَ منـه سـلامـا

وقال يفتخر:

مـالَـكِ فـيَّ ربّـةَ الغـلائـلِ　　والشَّيـبُ ضيـفُ لِمّتي مـن طـائـلِ

أما ترين في شواتي[1] نازلاً ... لا متعةٌ لي بعده بنازلِ؟
محا غرامي بالغواني صبغُهُ ... واجتثّ من أضالعي بلابلي
ولاح في رأسيَ منهُ قبسٌ ... يدلُّ أيّامي على مقاتلي
كان شبابي في الدّمى وسيلةً ... ثمّ انقضتْ لمّا انقضتْ وسائلي
يا عائبي بباطلِ الفتُهُ ... خذ بيديك مِن تَمَنٍّ باطلِ
لا تعذلنّي بعدها على الهوى ... فقد كفاني شيبُ رأسي عاذلي
وقلْ لقومٍ فاخرونا ضلّةً: ... أينَ الحُصيّاتُ من الجراولِ؟[2]
وأين قاماتٌ لكم دميمةٌ ... من الرّجالِ الشّمّخِ الأطاولِ؟
نحن الأعالي في الورى وأنتمُ ... ما بينهم أسافلُ الأسافلِ
ما تستوي فلا تروموا معوزاً ... فضائلُ السّاداتِ بالرّذائلِ[3]
ما فيكمُ إلاّ دنيٌّ خاملٌ ... وليس فينا كلّنا من خاملِ
دعوا النّباهاتِ على أهلٍ لها ... وعرّسوا في أخفضِ المنازلِ
ولا تعوجوا بمهبٍّ عاصفٍ ... ولا تقيموا في مصبِّ الوابلِ
أما ترى خيرَ الورى معاشري ... ثمّ قبيلي أفضلَ القبائلِ؟
ما فيهمُ إن وُزِنوا من ناقصٍ ... وليس فيهم خبرةً من جاهلِ
أقسمتُ بالبيتِ تطوفُ حولَه ... أقدامُ حافٍ للتّقى وناعلِ
وما أراقوه على وادي مِنىً ... عند الجمارِ من نجيعٍ سائلِ
وأذرعٍ حاسرةٍ ترمي وقد ... حانَ طلوعُ الشّمسِ بالجَنادلِ[4]
والموقفينِ حطّ ما بينهما ... عن ظهرِهِ الذّنوبَ كلُّ حاملِ
فإن يَخِبْ قومٌ على غيرِهِما ... فلم يخِبْ عندهما من آملِ
لقد نمتني من قريشٍ فتيةٌ ... ليسوا كمن تعهدُ في الفضائلِ

(١) الشّواة: جلدة الرّأس.
(٢) الجراول ـ جمع جرولة وجرول ـ: الحجارة.
(٣) المُعوز: المتعذّر.
(٤) الجنادل: الصّخور.

الــوارديــن مــن عُلــيً ومــن تقــيً … دون المنــايــا صفــوةَ المنــاهــلِ
قــومٌ إذا مــا جُهلــوا فــي معــركٍ … دَلّــوا علــى الأعــراقِ بــالشّمــائــلِ
كــأنّهــم أُسْــد الشَّــرى يــومَ الــوغــى … لكنّهـــمْ أهلّـــةُ المحـــافـــلِ
إن نــاضلــوا فليــسَ مــن منــاضــلٍ … أو ســاجلــوا فليــس مــن مســاجــلِ
ســل عنهــمُ إن كنــتَ لا تعــرفهــمْ … سَــلَّ الظّبــا وشُــرّعَ العــوامــلِ[1]
وكــلَّ منبــوذٍ علــى وجــه الثّــرى … تسمـــعُ فيـــه رنّـــةَ الثّـــواكـــلِ
كــأنّمـــا أيـــديهـــمُ منـــاصـــلٌ … يلعبــنَ يــومَ الــرّوعِ بــالمنــاصــلِ
مــن كــلِّ ممتــدِّ القنــاة ســامــقٍ … يقصُــرُ عنــه أطــولُ الحمــائــلِ
مــا ضــرّنــي والعــارُ لا يطــوُر بــي … إن لــم أكــن بــالملــك الخُــلاحــلِ[2]
ولــم أكــن ذا صــامــتٍ ونــاطــقٍ … ولــم أرُح ببــاقــرٍ وجــامــلِ[3]
خيــرٌ مــن المــالِ العتيــدِ بــذلُــهُ … فــي طُــرُقِ الإفضــال والفــواضــلِ
والشُّكــرُ ممّــن أنــتَ مُغــنٍ فقــرَهُ … خيــرٌ إذا أحــرزتَــه مــن نــائــلِ
فــلا تعــرّضْ منــك عِــرْضــاً أملســاً … لخــدشـــةِ اللُّـــوام والقــوائــلِ
فليــس فينــا مُقــدمٌ كمحجِــمٍ … وليــس منّــا بــاذلٌ كبــاخــلِ
ومــا الغنــى إلاّ حبــالات العنــا[4] … فــانــجُ إذا شئــتَ مــن الحبــائــلِ
إلــى متــى أحمــلُ مــن ثِقْــلِ الــورى … مــا لــم يُطِقْــه ظهــرُ عَــوْدٍ بــازلِ؟
إن لــم يــزرنــي الهــمُّ إصبــاحــاً أتــى … ولــم أعِــزْهُ الشّــوقَ فــي الأصــائــلِ
وكم مقــامٍ فــي عــراصٍ ذلّــةٍ … وعَطَــنٍ عــن العــلاءِ ســافــلِ؟
وكــم أظلُّ مُفْهَقــاً مــن الأذى … معلّــلاً دهــريَ بــالأبــاطــلِ؟[5]
كــأنّنــي وقــد كملــتُ دونهــمْ … رضــاً بــدون النّصــفِ غيــرُ كــامــلِ

(١) العوامل: الرّماح.
(٢) يطور: يقرب منه أو يحوم حواليه. الخُلاحل: السيّد الشّجاع.
(٣) الباقر: جماعة البقر مع راعيها، والجامل: جماعة الجمال.
(٤) في الدّيوان: حبالات الثّنا.
(٥) مُفْهَقاً: ممتلئاً.

محســـودةٌ مغبـوطـةٌ ظـواهـري لكنّهـا مـرحـومـةٌ دواخلـي
كــأنّنــي شِعــبٌ جفــاه قطـرُهُ أو منــزلٌ أقفــرُ غيــرُ آهــلِ
فقــل لحسّــادي: أفيقــوا فــالّـذي أغضبكــم منّــيَ غيــرُ آفــلِ
أنــا الّــذي فضحــت قــولاً مصقعـاً مقــاولـي وفـي العلى مطـاولـي
إن تبتنــوا مــن العــدى معــاقــلاً فــإنّ فــي ظــلّ القنــا معــاقلـي
لا تستــروا فضلــي الــذي أُوتيتــه فــالشّمــسُ لا تُحجَبُ بــالحـوائـلِ
فقــد فــررتــمْ أبــداً مــن سطـوتـي فــرَّ القطـا الكــدرِ مــن الأجــادلِ
ولا تــذق أعينُكُــمْ طعــمَ الكــرى وعنــدكــمْ وفيكــمُ طــوائلـي
تقــوا الــرّدى وحــاذروا الشــرَّ الـذي شــبَّ أُواري فغلــتْ مَــراجلـي
وجُــنَّ تيّــارُ عُبــابــي واشتكــتْ خــروقُ أسمــاعِكــمُ صــلاصلـي
إن لــم أطِــرْكــمْ مِــزَقــاً تحملكــمْ نُكْــبُ الأعــاصيــرِ مــع القســاطـلِ
فــلا أجبــتُ مــن صــريــخٍ دعــوةً ولا أطعــتُ يــومَ جــودٍ ســائلـي
ولا أنــاخ كــلُّ قــومــي كلّهــمْ فــي مغنــمٍ أو مغــرمٍ بكــاهــلِ[(١)]
وفــي غــدٍ تُبصــرهــا مُغيــرةً على المــوامي كــالنّعام الجافلِ[(٢)]
يخــرجــن مــن كــلّ عجــاج كــالدّجى مثــل الضّحــى بــالغــرر السّــوائــلِ
مــن يــرهــنَّ قــال: مَــن هــذا الـذي ســدَّ المــلا بــالنّعــم المطــافــلِ؟
وفــوقهــنّ كــلُّ مــرهــوبِ الشّــذا يــروي السّنــانَ مــن دمِ الشّــواكــلِ[(٣)]
أبيــضُ كــالسّيــفِ ولكــن لــم يعُــجْ صقــالُــهُ علــى يميــنِ صــاقــلِ
حيــث تــرى المــوتَ الــزّؤامَ بــالقنـا مستحِــبَ الأذيــالِ والــذّلاذلِ[(٤)]
والنّقــعُ يغشــى العيــنَ عــن لحــاظهـا والــرّكــضُ يــرمــي الأرضَ بــالــزّلازلِ
وبــزّت الأســلاب أو تمخّضــتْ بــلا تمــامٍ بطــنُ كــلِّ حــامــلِ

(١) الكَلّ: الضّعيف، اليتيم. الكاهل من القوم: سندهم ومعتمدهم.
(٢) الموامي: جمع الموماة، وهي الفلاة الواسعة.
(٣) شواكل ـ جمع شاكلة ـ: الخاصرة.
(٤) الزّؤام: العاجل، وقيل: سريع مجهز. الذّلاذل: جمع ذُلذل، وذُلذل: أسفل الثّوب.

ولـم يَجُـزْ هَـمُّ الفتـى عـن نفسِـهِ ... وذُهِـلَ الحـيُّ عـن العقـائـلِ
إن لـم أنـلْ فـي بـابـلٍ مـآربـي ... فلـي إذا مـا شئـتُ غيـرُ بـابـلِ
وإن أَبِـتْ فـي وطـنٍ مقلقـلاً ... أبـدلتُـه بـأظهـرِ الـرَّواحـلِ
وإن تضـق بـي بلـدةٌ واحـدةٌ ... فلـم تضِـقْ فـي غيـرِهـا مجـاولـي
وإن نبـا عنّـي خليـلٌ وجفـا ... نفضـتُ مـن ودّي لـه أنـاملـي
خيـرٌ مـن الخصـب مـع الـذلّ بـه ... معـرّسٌ علـى المكـانِ المـاحـلِ

* * *

(٤١)
أبو علي البصير

أبـو علـي البصير[1] (الضّرير)، الحسن بن المظفّر، النّيسابوري الأصل، الخوارزمي المولد. ذكره ابن شهرآشوب من المتّقين من شعراء أهل البيت، وذكره أبو أحمد، محمود بن أرسلان، في «تاريخ خوارزم»، وبالغ في الثّناء عليه، وقال:

«كـان مـؤدّب أهـل خـوارزم فـي عصره ومخرّجهم وشاعرهم ومقدّمهم والمشار إليه منهم، لـه كتـاب تهـذيب ديوان الأدب، وكتاب إصلاح المنطق، وكتاب ذيل تتمّـة اليتيمـة، وديوان شعره في مجلّدين، وديوان رسائله، وكتاب محاسن من اسمه الحسن، وكتاب زيادات أخبار خوارزم».

ذكره يـاقـوت الحموي في «معجم الأدباء»، فقال: «الحسن بن المظفّر النّيسابوري أبو عليّ، أديب نبيـل، شـاعـر مصنّف»[2]... ويضيف الحموي: «ووجـدت لـه مـن التّصـانيـف: كتـاب تهذيب ديوان الأدب، وكتاب تهذيب إصـلاح المنطـق، وكتـاب ذيلـه علـى تتمّة اليتيمة لم أقف على اسمه، وكتاب ديـوان شعـره مجلّـدتـان، وكتـاب ديـوان رسائلـه، وكتـاب محاسن من اسمه الحَسَن، وكتاب زيادات أخبار خُوارزم»[3].

كان الشّاعر البصير من شعراء أهل البيت، وقد قال في يوم الغدير:

سبحـان مـن ليـس فـي السّمـاء ولا   فـــي الأرض نـــدٌّ لـــه وأشبـــاهُ

---

(١) الغدير، م.س.، ٤/٣٩٩-٤٠١.
(٢) معجم الأدباء، م.س.، ٩/١٩١.
(٣) نفسه، ٩/١٩٢ و١٩٣.

أحــاطَ بــالعــالميــنَ مقتــدراً　　أشهــدُ أن لا إلـٰـه إلاّ هُــو
وخــاتــمُ المــرسليــن سيّــدنــا　　أحمــدُ ربُّ السَّمــاء سمّــاهُ
أشــرقــتِ الأرضُ يــومَ بعثتــهِ　　وحصحــصَ الحــقُّ مــن محيّــاهُ
إختــار يــومَ الغــديــرِ حيــدرةً　　أخــاً لــه فــي الــورى وآخــاهُ
ويــاهــلَ المشــركيــنَ فيــه وفــي　　زوجتِــهِ يقتفيهمــا ابنــاهُ
هــم خمســةٌ يُــرحــم الأنــامُ بهــمْ　　ويستجــابُ الــدُّعــا ويُــرجــاهُ[1]

نماذج من شعره

قال في تغيُّر الأيّام، وفي فراق من سمّاه سيّده «أبا البركات»:

أهــلاً بعيــشٍ كــان جِــدّ مــواتِ　　أحيــا مــن اللّــذات كــلَّ مَــواتِ[2]
أيّــام ســربُ الإنــسِ غيــرُ منفّــرِ　　والشّمــلُ غيــرُ مــروّعٍ بشتــاتِ
عيــشٌ تحسّــر ظلّــه عنّــا فمــا　　أبقــى لنــا شيئــاً ســوى الحســراتِ
ولقــد سقــانــي الــدّهــرُ مــاءَ حيــاتِــهِ　　والآن يسقينــي دمَ الحيّــاتِ
لهفــي لأحــرارٍ مُنيــت ببُعــدهــمْ　　كــانــوا علــى غِيَــر الــزّمــانِ ثقــاتــي
قــد زالــتِ البــركــاتُ عنّــي كلُّهــا　　بــزيــالِ سيّــدِنــا أبــي البــركــاتِ
ركــنُ العلــى والمجــدِ والكــرم الــذي　　قــد فــاتَ فــي الحلبــاتِ أيَّ فــواتِ
فــارقــتُ طلعتَــهُ المنيــرةَ مكــرَهــاً　　فبقيــت كــالمحصــورِ فــي الظّلمــاتِ
أُضحــي وأُمســي صــاعــداً زفــراتــي　　لفــراقِــهِ متحــدِّراً عبــراتــي

وقال في المديح، معيداً صياغة معانٍ متداولة:

جبينُك الشّمسُ في الأضواءِ والقمرُ　　يمينُكَ البحرُ فــي الإرواءِ والمطــرُ

---

(١) هذه الأبيات ذكرها العلاّمة السماويّ في الجزء الأوّل من كتابه الطّليعة في شعراء الشّيعة، لأبي عليّ الضّرير. وذكر الحموي منها، في معجم الأدباء، ٩/١٩٢، أربعة أبيات ونسبها إلى ولده عمر أبي حفص، والله العالم.

(٢) مُوات: مطاوع وموافق. مَوات: ما كان مَيْتاً.

وظلّكَ الحرمُ المحفوظُ ساكنُهُ ... وبابُكَ الرّكنُ للقصّادِ والحجَرُ
وسَيْبُك الرّزقُ مضمونٌ لكلِّ فمٍ ... وسيفُكَ الأجلُ الجاري به القدَرُ
أنت الهمامُ بل البدرُ التّمامُ بل السّـ ... ـيفُ الحسامُ بل الصّارمُ الذّكرُ
وأنت غيثُ الأنامِ المستغاثُ به ... إذا أغارتْ على أبنائِها الغِيَرُ

وله في الغزل:

أريّا شمالٍ أم نسيمٌ من الصَّبا ... أتانا طُروقاً أم خيالٌ لزينبا؟
أم الطّالعُ المسعود طالعَ أرضَنا ... فأطلعَ فيها للسّعادةِ كوكبا؟

قال أبو عليّ ـ المترجَم ـ: رأيت ابن هودار في المنام بعد موته، فقلت له:

لقد تحوّلتَ من دارٍ إلى دارِ ... فهل رأيت قراراً يا بن هودارِ؟

قال: فأجابني:

لا بل وجدتُ عذاباً لا انقطاعَ له ... مدى اللّيالي وربّاً غير غفّارِ
ومنزلاً مظلماً في قعرِ هاويةٍ ... قُرِنتُ فيها بكفّارٍ وفُجّارِ
فقل لأهليَ: موتوا مسلمين فما ... للكافرين لدى الباري سوى النّار

توفِّي أبو عليّ البصير سنة ٤٤٢هـ في الرّابع عشر من شهر رمضان.

وولدُه أبو حفص عمر كان فقيهاً فاضلاً أديباً، توفّي في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة[1].

* * *

(١) معجم الأدباء، ٩/ ١٩١ ـ ١٩٨.

(٤٢)

أبو العلاء المعرّي

أبـو العـلاء المعرّي[١] هو أحمد بن عبدالله بن سليمان. . . ، ويعود نسبه إلـى «تيـم الله» مـن قضاعة، و «تيم الله» مجتمع «تنوخ» من أهل محلّة النُّعمان من بلاد الشّام.

ولـد أبـو العلاء سنة ثلاث وستّين وثلاثمئة في معرّة النُّعمان، وهي بلدة في سوريا تنسب إلى النُّعمان بن بشير الأنصاري لأنّه «تديّرها»، أي جعلها داراً لـه، واعتـلّ بـالجـدري، فـذهب بصره سنة سبع وستّين وثلاثمئة، وقال الشّعر وهـو ابـن إحـدى عشـرة سنـة، ورحل إلى بغداد سنة ثمانٍ وتسعين وثلاثمئة، وأقام فيها سنةً وسبعة أشهر، وقد مرَّ بنا في ترجمة الشّريف المرتضى ما حدث لأبـي العـلاء في مجلسه، فرجع إلى بلده، فأقام فيها ولزم منزله، فسمّى نفسه «رهيـن المحبسيـن»: أي حَبْـس نفسه في المنزل وحبسه عن النّظر إلى الدّنيا

(١) راجع ترجمته في: الغدير، م.س.، ٤/٤٠٣ ـ ٤٠٥. وفيّات الأعيان، م.س.، ١/١١٣ ـ ١١٨. معجـم الأدبـاء، م.س.، ٣/١٠٧ ـ ٢١٨. الأعـلام للـزركلـي، م.س.، ١/١٥٧. والتّرجمة هذه مأخوذة في معظمها من «معجم الأدباء» إذ لم يذكر صاحب الغدير ترجمة له، وإنّما أحال إلى كتاب «الإنصاف والتحرّي في دفع الظّلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي» للصّاحب كمال الدّين عمر بن أحمد بن العديم الحلبي (المتوفى سنة ٦٦٠هـ). وللباحثين مؤلّفات كثيرة في حياة أبي العلاء وشعره وفلسفته، ومنها: «أوج التحرّي عن حيثية أبي العلاء المعرّي» ليوسف البديعي. «أبو العلاء وما إليه» لعبد العزيز الميمني، «أبو العلاء المعرّي، ناقد المجتمع» لزكي المحاسني. «أبو العلاء المعرّي» لسامي الكيالي. «ذكرى أبي العلاء» و «مع أبي العلاء في سجنه» لطه حسين. «أبو العلاء المعرّي: نسبه وأخباره وشعره» لأحمد تيمور. «رجعة أبي العلاء» لعبّاس محمود العقّاد، «آثار أبي العلاء» لوزارة المعارف المصرية، «المهرجان الألفي لأبي العلاء» للمجمع العلمي العربي بدمشق إلخ. . .

بالعمى، إلى أن مات يوم الجمعة، الثاني من شهر ربيع الأوَّل سنة تسع وأربعين وأربعمئة في أيّام الخليفة العبّاسي «القائم»، ولمّا مات وقف أربعة وثمانون شاعراً على قبره يرثونه. ومنهم تلميذه أبو الحسن عليّ بن الهمام الذي قال فيه، من قصيدة طويلة:

إن كنتَ لم تُرِقِ الدِّماء زهادةً ... فلقد أرقْت، اليوم، من جفني دما
سيَّرت ذكرك في البلاد كأنَّه ... مِسكٌ فسامِعَةً يضمِّخ أو فما
وأرى الحجيج إذا أرادوا ليلةً ... ذكراك أخرج مذيةً[1] من أحرما

ينتمي أبو العلاء إلى أسرةٍ نبه فيها غير قاضٍ وشاعر، ومنهم جدُّه وعمُّه وأبوه وأخوته، وبعض أبنائهم، وممَّا يفيد بمكانة هذه الأسرة ما قاله الصَّنوبريّ في محمَّد عمِّ أبي العلاء:

بأبي يا ابن سليمان ... سدت تنوخا
وهم السّادة شبّا ... ناً لعَمْري وشيوخا...

يقول ياقوت الحموي: كان أبو العلاء «غزير الفضل، شائع الذِّكر، وافر العلم، غاية الفهم، عالماً باللُّغة، حاذقاً بالنّحو، جيِّد الشِّعر، جزل الكلام...».

وينقل عن الشّاعر المصِّيص، أبي الحسن الدلفي قوله: لقيت بمعرَّة النّعمان عجباً من العَجَب، رأيت شاعراً ظريفاً يلعب بالشّطرنج والنّرد، ويدخل في كلّ فنٍّ من الجدِّ والهزل، يُكنّى أبا العلاء، وسمعته يقول: «أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر».

وبلغ من حسن حفظه، أنّه حفظ، كما يذكر تلميذه أبو زكريّا التّبريزي، حديث هذا التّلميذ مع صديقه، وكانا يتحدّثان بلسان أهل أذربيجان الذي لا يعرف منه أبو العلاء شيئاً.

(١) مذيةً: الكلام المرسل السّهل في الحلق كأنّه العسل.

وأتاح له ذكاؤه الحادّ وحسن حفظه واجتهاده في التّحصيل أن يحصّل ثقافةً عميقةً في مختلف علوم عصره، ومن الأخبار الدّالّة على ذلك أنّه دخل على الشّريف المرتضى أبي القاسم فعثر برجل فقال الرّجل: من هذا الكلب!؟ فقال المعرّي: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً، وسمعه الشّريف المرتضى فاستدناه، واختبره فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذّكاء، فأقبل عليه إقبالاً كثيراً، غير أنّ تعصّب أبي العلاء للمتنبّي وجرأته البالغة حدّ الإساءة إلى محدّثه في التّعبير عن رأيه، ولو تلميحاً، علاوةً على آرائه الفكريّة، جعلت الشّريف المرتضى يأمر بإخراجه من مجلسه، كما مرّ بنا لدى الحديث عن الشّريف المرتضى.

وكان أبو العلاء معتدّاً بنفسه، حريصاً على كرامته، ومن الأخبار الدّالّة على ذلك أنّه لمّا ورد إلى بغداد، قصد أبا الحسن عليّ بن عيسى الرّبعي، ليقرأ عليه، فلمّا دخل إليه، قال عليّ بن عيسى: «ليصعد الإصطبلُ»، فخرج أبو العلاء مغضباً، ولم يعد إليه، و «الإصطبل»، في لغة أهل الشّام، كما يقول صاحب «معجم الأدباء»، «الأعمى»، ولعلّها معرّبة، كما يضيف.

وكان أبو العلاء يعرف ما آل إليه أمر بعض أهل الأدب في عصره، فكان يسخر منهم، ومن نماذج سخريته هذه قوله في رجل يزعم أنّه شاعر مقرئ، اسمه أبو القاسم:

هذا أبو القاسم أعجوبةٌ … لكلّ من يدري ولا يدري
لا ينظم الشّعر ولا يحفظ الـ … ـقرآن، وهو الشّاعر المقري!

ولم يكن يرتضي حفظ كثيرٍ من الشّعر الذي يقال، وبخاصّة في رثاء سيّد الشّهداء الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام، فيروي القاضي أبو يوسف القزويني أنّ أبا العلاء قال له: «ما سمعت في أمر الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) شيئاً يجب أن يُحفظ»، فقلت له: قد قال سواديٌّ من أهل بلادنا أبياتاً لا يقول مثلها تنوخُ جلّك الأكبر:

رأسُ ابن بنت محمّدٍ ووصيّه … للمسلمين على قناةٍ يُرفَعُ

والمسلمــون لمنظــرٍ ولمشهــدٍ   لا جــازعٌ فيهــم ولا متفجِّــعُ
كُحِلتْ بمنظـرك العيـون عَمَـايَـةً   وأصــمَّ رزؤك كــلَّ أذن تسمــعُ
أيقظـت أجفـانـاً وكنـت لهـا كـرىً   وأنمـت عينـاً لـم تكـن بـك تهجـع
مــا روضـــةٌ إلاَّ تمنَّـــت أنَّهـــا   لـك تـربـةٌ ولخـطُّ قبـرك مضجـع(١)

بين الزَّندقة والزُّهد

وقد اختلف النَّاس في أمر أبي العلاء، فمنهم من يقول: إنَّه كان زنديقاً، لا يؤمن بالرُّسل والبعث والنّشور. . . ، ويستدلُّون على ذلك بنماذج من شعره، وبأنَّه بقي خمساً وأربعين سنةً لا يأكل اللّحم ولا البيض، ويحرّم إيلام الحيوان، ويقتصر على ما تنبت الأرض، ويلبس خشن الثّياب، ويظهر دوام الصَّوم. وتحدَّث النّاس أنّه مرض مرّةً فوصف الطَّبيب له الفرُّوج، فلمَّا جيء به لمسه بيده وقال: «استضعفوك فوصفوك، هلاَّ وصفوا شبل الأسد».

ويروى أنَّ أبا العلاء سأل رجلاً: ما الذي تعتقد؟ فقال الرّجل في نفسه: اليوم أقف على اعتقاده، ثمَّ قال له: ما أنا إلاَّ شاكّ. فقال المعرِّي: وهكذا شيخُك. وروى القاضي أبو يوسف عبد السّلام القزويني: قال لي المعرِّي: لم أهج أحداً قطّ، فقلت له: صدقت؛ إلاَّ الأنبياء عليهم السلام، فتغيّر وجهه.

ومن النّاس من يقول: إنَّ أبا العلاء كان زاهداً عابداً متقلّلاً، يأخذ نفسه بالرِّياضة والخشونة والقناعة باليسير، والإعراض عن أعراض الدُّنيا. ويروى، في هذا الصَّدد، أنَّ المنتصر صاحب مصر بذل له ما ببيت المال بالمعرَّة من الحلال، فلم يقبل منه شيئاً، وقال:

لا أطلـــــــــبُ الأرزاق والـ   ـمــولــى يفيــض علــيَّ رزقــي
إن أُعْـــطَ بعـــض القـــوت أعـ   ـلــم أن ذلـــك ضعـــف حقِّـــي

(١) معجم الأدباء، م.س.، ١/١٢٨ و١٢٩، عمـايـة: العمى. الرّزء: المصاب. الكرى: النّوم. تهجع: تنام.

ويروي أيضاً، أنَّ حسّاده كانوا ينظمون على لسانه الأشعار، يضمّنونها أقاويل الملاحدة قصداً لهلاكه، فقال في ذلك:

حاول إهْوَانِي قومٌ فما ... واجهتهم إلاَّ بإهْوانِ
يخرِّشوني بسعاياتهم ... فغيَّروا نيَّة إخواني
لو استطاعوا لوشوا بي إلى الـ ... ـمرِّيخ في الشُّهب وكيوانِ(1)

وقال أيضاً:

غُرِيَتْ بذمِّي أمَّةٌ ... وبحمد الله غُرِيتُ
وعبدتُ ربِّي ما استطعـ ... ـتُ، ومن بريَّته بريتُ
وَفَرَتْني الجهَّالُ حا ... سدةً عليَّ وما فُريتُ
سعروا عليَّ فلم أحِـ ... ـرْ وعندهم أنِّي هُريتُ(2)

ويبدو من بعض الأحداث، ومن شعره فيها، أنَّه لم يكن مقدَّراً في قومه، على الرّغم من شهرته وتقدير الآخرين، ومنهم القادة والأمراء له، وقد عبَّر عن حالته في بلدته بـ «الكساد».

ومن الأخبار التي تُروَى في ذلك وتدلّ عليه، أنَّ صالح بن مرداس، صاحب حلب، نزل على معرَّة النّعمان محاصراً، ونصب عليها المجانيق، ولما اشتدَّ الحصار جاء أهل المعرَّة إلى أبي العلاء يسألونه أن يتلافى الأمر بالخروج إليه بنفسه، ففعل، وقال لصالح: «الأمير ـ أطال الله بقاءه ـ كالنّهار الماتع، قاظ وسطه، وطاب أبرداه، أو كالسّيف القاطع، لان متنه وخشن حدّاه، خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين»، فقال صالح: «لا تثريب عليكم اليوم... قد وهبت لك المعرَّة وأهلها...». فرجع أبو العلاء وهو يقول:

نجَّى المعرَّة من براثن صالحٍ ... ربٌّ يُعافي كلّ داءٍ مُعضلِ

---

(1) نفسه، 1/ 142 ـ 144. إهواني: إلحاق الأذى بي. التّخريش: الخدش. السّعاية: السّعي إلى إفساد النيّات بين النّاس.

(2) غُري: أُولع. بريت: برئت. فرتني: قطعتني. هُريت: من هرا، وهراه البرد: قتله.

مـا كـان لـي فيها جَناحُ بعوضةٍ ... اللّهمّ ألحَفَهُم جناحَ تفضُّل[1]

وفي رواية أخرى أنّه قال عند رجوعه:

تغيَّبتُ في منزلي برهةً ... ستيرَ العيونِ فقيدَ الحسدْ

فلمَّا مضى العمرُ إلاَّ الأقلْ ... وحُمَّ لروحي فراقُ الجسدْ

بُعثتُ شفيعاً إلى صالحٍ ... وذاك من القوم رأيٌ فسدْ

فيسمعُ منّي سَجْعَ الحمامْ ... وأسمعُ منه زئيرَ الأسدْ

فلا يعجبنّي هذا النّفاقْ ... فكم نفّقتْ محنةٌ ما كَسَدْ[2]

شعره

شعر أبي العلاء ثلاثة أقسام هي: «لزوم ما لا يلزم»، ويعرف باللّزوميات، و «سَقْط الزّنْد»، و «ضوء السَّقْط»، ويشتمل هذا الكتاب على ما في سقط الزّند من الغريب. وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربيّة[3].

أمّا كتبه فكثيرة؛ ومنها: «كتاب بعض فضائل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام»، «الأيك والغصون»، «تاج الحرّة»، «عبث الوليد» شرح به ونقد ديوان البحتري، «ذكرى حبيب» في غريب شعر أبي تمام، «اللاّمع العزيزي» في تفسير شعر المتنبّي، «رسالة الملائكة»، «اختيارات الأشعار، في الأبواب»، «شرح ديوان المتنبّي»، «رسالة الغفران»، «ملقى السَّبيل»، «مجموع رسائله»، «الفصول والغايات» إلخ... وفي «معجم الأدباء» فهرس لجميع كتبه[4].

---

(١) نفسه، ١/ ٢١٥ و٢١٦، النّهار الماتع: بالغ النّهاية في الطّول. قاظ: اشتدّ حرّه. أبْرَداه: طرفاه. في الأصل أبراده: أطرافه. ألحفهم: بسط عليهم لحافه، أي بسط عليهم جناح فضله وإنعامه. وفي طبعة مصر: ألبسهم.

(٢) نفسه، ١/ ٢١٧، برهة: المدّة طويلة أو قصيرة. ستير: مستور العيون، لا يرى. سجع الحمام: كناية عن الاستعطاف. زئير الأسد: كناية عن القوّة القاهرة. نفّقت محنةٌ ما كسد: إنّ هذه المحنة نفّقت سوقه، ورفعت مكانته، وجعلته رائجاً مطلوباً بعدما كان غير مرغوب فيه.

(٣) راجع: الأعلام للزركلي، ١/ ١٥٧، هامش ٢.

(٤) راجع: معجم الأدباء، م.س.، ١/ ١٤٥ ـ ١٦٢.

شعره في يوم الغدير

وتوجد في «لزوم ما لا يلزم»[١] قصيدة يذكر فيها يوم غدير خمّ، ويعدّه من أعياد المسلمين كعيدي الفطر والأضحى، ويقول إنّه لا يُسَرُّ بهذه الأعياد، تعبيراً عن زهده بهذه الدّنيا التي يخاطبها طالباً منها أن تَؤمَّ سواه؛ أي أن تقصد غيره وتحلّ عنده:

أدنيـاي اذهبـي وسـواي أُمّـي ... فقـد ألممـت ليتـكِ لـم تلمّـي
وكـان الـدَّهـرُ ظـرفـاً لا لحمـدٍ ... تُـؤهِّلُـهُ العقـولُ ولا لـذَمِّ
وأحسـبُ سـانحَ الأزميـمِ نـادى ... ببيـنِ الحـيِّ فـي صحـراءِ ذمِّ[٢]
إذا بكـرٌ جنـى فتـوقّ عمـراً ... فـإنّ كليهمـا لأبٍ وأمِّ
وخف حيوانَ هذي الأرضِ واحذرْ ... مجـيءَ النّطـحِ مـن رُوقٍ وجُـمِّ[٣]
وفـي كـلِّ الطّبـاعِ طبـاعُ نُكـرٍ ... وليـس جميعُهـنَّ ذواتِ سُـمِّ
ومـا ذنـبُ الضّـراغـمِ حيـن صِيغـتْ ... وصُيِّـر قـوتُهـا ممّـا تـدمّـي
فقـد جُبِلَـت علـى فـرْسٍ وضـرسٍ ... كمـا جُبِـلَ الـوفـود علـى التّنمّـي
ضيـاءٌ لـم يَبِـنْ لعيـونِ كُمْـهٍ[٤] ... وقـولٌ ضـاعَ فـي آذانِ صـمِّ
لعمـرك مـا أُسَـرُّ بيـوم فطـرٍ ... ولا أضحـى ولا بغـديـرِ خُـمِّ
وكـم أبـدى تشيّعَـهُ غَـويٌّ ... لأجـل تنسّـبٍ ببـلاد قـمِّ

نماذج من شعره

ويتمثّل موقفه هذا من الدّنيا في غير قصيدةٍ من قصائده، نذكر منها:

---

(١) أبو العلاء المعرّي، لزوم ما لا يلزم، ٢/ ٤٦٢.
(٢) أزميم: ليلة من ليالي المحاق، والهلال إذا دق في آخر الشّهر واستقوس. ذمّ: الهلاك. في المصدر: صحراءِ زمٍّ، وهي موضع ببلاد بني ربيعة.
(٣) الرُّوق: القرن من كلّ ذي قرن. جم، جمع الأجم: الكبش لا قرن له.
(٤) الكُمْه، جمع أكمه: الذين يولدون عُمياً.

□ ضحكنا، وكان الضّحكُ منّا سفاهةً ... وحُقّ لسكّان البسيطة أن يبكوا
يحطّمنا صرفُ الزّمان كأنّنا ... زجاجٌ، ولكن لا يُعادُ لنا سَبْكُ
□ فلا تشرّف بدنيا عنك معرضةً ... فما التشرّف بالدّنيا هو الشَّرَفُ
واصرف فؤادك عنها مثلما انصرفت ... فكلُّنا عن مغانيها سينصرف
يا أمّ دَفْرٍ لحاكِ الله والدةً ... فيك الخناءُ وفيك البؤسُ والسَّرف
لو أنّك العرسُ أوقعتُ الطّلاق بها ... لكنّك الأمُّ ما لي عنكِ منصرف(١)

ولم يكن زهده زهد المتصوّفة، فقد قال فيهم:

أرى جيلَ التّصوّف شرَّ جيلِ ... فقل لهم وأهون بالحلول:
أقال الله، حين عبدتّموه: ... كلوا أكل البهائم وارقصوا لي!؟

* * *

(١) تشرّف: الأصل تتشرّف، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً. مغانيها: المغاني جمع المغنى، وهو المكان المأهول بأهله، الغني بهم عن الآخرين. أم دفر: كنية الدُّنيا. الخناء: الفاحشة.

(٤٣)
المؤيّد في الدِّين

التَّعريف بالشَّاعر

قال العلاَّمة الأميني: هبة الله بن موسى بن داود الشِّيرازي، المؤيّد في الـدِّيـن، داعي الدّعاة. أوحديٌّ من حملة العلم، وفذٌّ من أفذاذ الأمّة، وعبقريٌّ من جِلّة أعلام العلوم العربيّة، ونابغةٌ من نوابغ الأدب العربيّ، وله نصيبه الوافر مـن القـريـض بلغة الضّاد، وإن وُلد في بلاد الفرس ونشأ في مهدها. كان من الدّعاة إلى الفاطميّة منذ بلغ أشدّه في كلِّ حاضرة حلَّ بها، وله في تلك الدّعوة خطوات واسعة. وهـو، كما وصف نفسـه للمستنصـر بالله، الخليفة الفاطمي: «أنـا شيـخ هـذه الدّعوة ويدها ولسانها، ومَن لا يماثلني أحد فيها». وقد كابد دون تلك الـدّعوة كوارث، وقاسى نوازل ملمّة، وعانى شدائد فادحة، غير أنّه كان يستخفُّ وراءها كلّ هامّة ولامّة، ولم يك يكترث لأيّ نازلة[1].

ولـد بشيـراز حـوالى سنة ٣٩٠هـ، كما يظهر من شعره، وبها شبَّ ونما إلى أن غـادرهـا سنـة ٤٢٩هـ ويمّم الأهواز، وفارق مسقط رأسه خائفاً يترقّب فَرَقـاً مـن السّلطـان «أبـي كـاليجـار» بعـدمـا جرى بينه وبين الملك ما يورث البغضـاء، ولمّـا تـأتّـى لـه اقتنـاء مـرضاتـه بأُرجوزته (المسمّطة، في ١٥٣ بيتاً ذكرها فـي سيـرتـه، ص ٤٨ ـ ٥٤)، نـزل الأهواز، غير أنَّ هواجسه ما حدّثته بالطّمأنينة إلى الأمن من غيلـة الملـك، فهبط حلّة منصور بن الحسين الأسدي الذي ملك الجزيرة الدّبيسيّة بجوار خوزستان، ومكث هنالك نحو سبعة أشهر،

(١) راجع ترجمته في: الغدير، م.س.، ٤/٤٠٧ ـ ٤١٧.

ثـمّ اتّجـه إلـى قـرواش أبي المنيع بن المقلّد أمير بني عقيل، صاحب الموصل والكوفة والأنبار، فلمّا لم يجده آخذاً بناصره في دعوته سار إلى مصر بعد سنة ٤٣٦هـ، وقبل سنة ٤٣٩هـ، ومكث فيها ردحاً من الزّمن إلى أن غدا وله بعض النّفوذ في البلاد، فسُيِّر إلى الشّام باقتراح الوزير عبدالله بن يحيى بن المدبّر، ثمّ عاد إلى مصر بعد مدّة، فقطن فيها بقيّة حياته إلى أن توفّي بها سنة ٤٧٠هـ.

للمـؤيّد آثار علميّة تنمّ عن طول باعه في الحجاج والمناظرة، وعن سعة اطّلاعه علـى معالم الدِّين ومباحثه الرّاقية، وتضلّعه في علمَي الكتاب والسنّة، ووقوفه علـى ما فيهما من دقائق ورقائق. له رسائل ناظر بها أبا العلاء المعرّي فـي مـوضـوع أكـل اللّحـم، نشـرت فـي مجلّة الجمعيّة الملكيّة الآسيويّة سنة ١٩٠٢هـ. ومناظرته القيّمة مع علماء شيـراز في حضرة السّلطان «أبي كاليجار» تعرب عن مبلغه من العلم، ذكرها على تفصيلها في سيرته (ص ١٦ ـ ٣٠).

ومناظرته مع الخراساني المذكورة في سيرته (ص ٣٠ ـ ٤٣) شاهد صدق على تضلّعه في العلوم، وذُكر للمؤيّد من التّآليف:

١ ـ المجـالـس المـؤيّـديّـة ٢ ـ المجـالس المستنصريّة ٣ ـ ديوان المؤيّد ٤ ـ سيـرة المـؤيّـد ٥ ـ شرح العماد ٦ ـ الإيضاح والتّبصير في فضل يوم الغدير ٧ ـ الابتداء والانتهاء ٨ ـ جامع الحقائق في تحريم اللّحوم والألبان ٩ ـ القصيدة الإسكنـدريّة وتسمّى أيضاً بذات الدّوحة ١٠ ـ تأويل الأرواح ١١ ـ نهج العبارة ١٢ ـ المساءلة والجواب ١٣ ـ أساس التّأويل.

وفي نسبة غير واحد من هذه الكتب إلى مترجمنا المؤيّد نظر، وللبحث فيه مجال واسع.

توجد ترجمة شاعرنا المترجَم له بقلمه في كتاب أفرده في سيرته بين سنة ٤٢٩هـ وسنة ٤٥٠هـ، وهو المصدر الوحيد للباحثين عن ترجمته، طبع بمصر فـي (١٨٤) صحيفـة. وللأستـاذ محمّد كامل حسين المصري، بكلّية الآداب، دراسة ضافية حـول حيـاة المتـرجَم، بحث عنها من شتّى النّواحي في (١٨٦)

صحيفة، وجعلها تقدمة لديوانه المطبوع بمصر، ففي الكتابين مقنع وكفاية عن التبسّط في ترجمة المؤيّد.

شعره في فتنة بغداد

كان المؤيّد في الدِّين داعيةً، ما جعله في قلب الأحداث يشارك في صنع بعضها، ويتّخذ مواقف من بعضها الآخر، وقد حدثت في سنة ٤٤٣هـ فتنة بغداد. فرأى إليها، وجسّد رؤيته في قصيدة طويلة يبلغ عدد أبياتها ستّين بيتاً. وفي ما يأتي نقدّم ما يسجّله المؤرّخون عن هذه الفتنة، وما يقوله المؤيّد في الدِّين فيها:

قال ابن الأثير في «الكامل»[١]: «وكان سبب هذه الفتنة أنّ أهل الكرخ شرعوا في عمل باب السمّاكين، وأهل القلّائين في عمل ما بقي من باب مسعود، ففرغ أهل الكرخ وعملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذّهب: محمّد وعليّ خير البشر، وأنكر السنّة ذلك وادّعوا أنّ المكتوب: محمّد وعليّ خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومَن أبى فقد كفر. وأنكر أهل الكرخ الزِّيادة، وقالوا: ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا في ما نكتبه على مساجدنا، فأرسل الخليفة القائم بأمر الله أبا تمام نقيب العبّاسيّين ونقيب العلويّين، وهو عدنان[٢] بن الرضيّ لكشف الحال وإنهائه، فكتبا بتصديق قول الكرخيّين، فأمر حينئذٍ الخليفة ونوّاب الرّحيم بكفّ القتال فلم يقبلوا. وانتدب ابن المذهب القاضي والزهيري وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبد الصّمد بحمل العامّة على الإغراق في الفتنة، فأمسك نوّابُ الملك الرّحيم عن كفّهم غيظاً من رئيس الرّؤساء[٣] لميله

(١) الكامل في التاريخ، ٦/١٥٨، حوادث سنة ٤٤٣هـ.

(٢) الشّريف عدنان هو ابن الشّريف الرّضي المترجَم في هذا الجزء، ولي النّقابة بعد وفاة عمّه الشّريف المرتضى المترجَم في هذا الجزء، واستمرّ إلى أن توفّي ببغداد سنة ٤٤٩هـ.

(٣) أبو القاسم بن المسلمة، عليّ بن الحسن بن أحمد، وزير القائم بأمر الله، مكث في الوزارة اثنتي عشرة سنة وشهراً، قتله البساسيري سنة ٤٥٠هـ، البداية والنّهاية، ١٢/٩٧، حوادث سنة ٤٥٠هـ.
قال ابن كثير في تاريخه، ١٢/٨٦، حوادث سنة ٤٤٨هـ: كان كثير الأذيّة للرّافضة، ألزم الرّوافض بترك الأذان بحيّ على خير العمل، وأُمروا أن ينادي مؤذّنهم في أذان الصّبح بعد=

إلى الحنابلة، ومنع هؤلاء السنّة من حمل الماء من دجلة إلى الكرخ، وكان نهر عيسى قد انفتح بثقه[1]، فعظم الأمر عليهم، وانتدب جماعة منهم وقصدوا دجلة وحملوا الماء وجعلوه في الظّروف وصبّوا عليه ماء الورد ونادوا: الماء للسّبيل؛ فأغروا بهم السنّة.

وتشدّد رئيس الرّؤساء على الشّيعة فمحوا: خير البشر، وكتبوا: عليهما السّلام. فقالت السنّة: لا نرضى إلاّ أن يقلع الآجر الذي عليه محمّد وعليّ، وأن لا يؤذّن: حيّ على خير العمل. وامتنع الشّيعة من ذلك ودام القتال إلى ثالث ربيع الأوّل، وقُتل فيه رجل هاشميّ من السنّة، فحمله أهله على نعش وطافوا به في الحربيّة وباب البصرة وسائر محالّ السنّة، واستنفروا النّاس للأخذ بثاره ثمّ دفنوه عند أحمد بن حنبل، وقد اجتمع معهم خلق كثير أضعاف ما تقدّم.

فلمّا رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التّبن[2]، فأُغلق بابه فنقبوا في سوره وتهدّدوا البوّاب فخافهم وفتح الباب، فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضّة وستور وغير ذلك، ونهبوا ما في التّرب والدّور، وأدركهم اللّيل فعادوا.

فلمّا كان الغد كثر الجمع فقصدوا المشهد وأحرقوا جميع التّرب والآزاج، واحترق ضريح موسى[3] وضريح ابن ابنه محمّد بن عليّ، والجوار

= حيّ على الفلاح: الصّلاة خير من النّوم، مرّتين. وأُزيل ما كان على أبواب المساجد ومساجدهم من كتابة: محمّد وعليّ خير البشر. وأمر رئيس الرّؤساء بقتل أبي عبدالله بن الجلاب شيخ الرّوافض لما كان تظاهر به من الرّفض والغلوّ فيه، فقتل على باب دكّانه، وهرب أبو جعفر الطّوسي ونهبت داره.

(١) انفتح بثقه: أي كسر سدّه، بثق السّيل: أي خرق وشقّ.

(٢) باب التّبن: اسم محلّة كبيرة ببغداد على الخندق، وبها قبر عبدالله بن أحمد بن حنبل، ويلصق هذا الموضع في مقابر قريش التي فيها قبر موسى الكاظم، ويعرف قبره بمشهد باب التّبن، معجم البلدان، ١/ ٣٠٦.

(٣) الإمام الطّاهر موسى بن جعفر الكاظم، وحفيده الإمام الجواد محمّد بن عليّ بن موسى، سلام الله عليهم.

والقبّتـان السّاج اللّتان عليهما، واحترق ما يقابلهما ويجاورهما من قبور ملوك بني بويه معزّ الدّولة وجلال الدّولة، ومن قبور الوزراء والرّؤساء وقبر جعفر بن أبـي جعفـر المنصور، وقبر الأمين محمّد بن الرّشيد، وقبر أُمّه زبيدة، وجرى من الأمر الفظيع ما لم يجرِ في الدّنيا مثله.

فلمّـا كـان الغـد، خـامس الشّهـر، عـادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمّد بن عليّ لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه.

وسمع أبـو تمـام، نـقيب العبّاسيّين، وغيره من الهاشميّين والسنّة الخبر فجاؤوا ومنعوا عن ذلك، وقصد أهل الكرخ إلى خان الفقهاء الحنفيّين فنهبوه وقتلـوا مـدرّس الحنفيّـة أبـا سعـد السّرخسي، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء، وتعـدّت الفتنـة إلـى الجـانب الشـرقـي، فـاقتتـل أهـل باب الطّاق وسوق بج والأساكفة وغيرهم، ولمّا انتهى خبر إحراق المشهـد إلى نور الدّولة دبيس بن مـزيـد، عظم عليه واشتدّ وبلغ منه كلّ مبلغ؛ لأنّه وأهل بيته وسائر أعماله من النّيـل، وتلك الولاية كلّهم شيعة، فقطعت في أعماله خطبة الإمام القائم بأمر الله، فروسل في ذلك وعوتب، فاعتذر بأنّ أهل ولايته شيعة واتّفقوا على ذلك فلـم يمكنه أن يشقّ عليهم، كما أنّ الخليفة لم يمكنه كفّ السّفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا وأعاد الخطبة إلى حالها».

وزاد ابن الجوزي في «المنتظم»[1]: «ظهر عيّار يعرف بالطّقطقي من أهل درزيجان وحضر الدّيوان واستتيب، وجرى منه في معاملة أهل الكرخ وتتبّعهم فـي المحـالّ وقتلهم على الاتّصال ما عظمت فيه البلوى، واجتمع أهل الكرخ وقـت الظّهيـرة فهـدمـت حائط باب القلاّئين ورموا العذرة على حائطه، وقطع الطّقطقـي رجليـن وصلبهمـا علـى هـذا الباب بعد أن قتل ثلاثة من قبلُ وقطع رؤوسهم ورمى بها إلى أهل الكـرخ، وقال: تغدّوا برؤوس. ومضى إلى درب

(١) المنتظم، ١٥/ ٣٣٠، حوادث سنة ٤٤٣هـ.

الزّعفراني فطالب أهله بمئة ألف دينار، وتوعّدهم إن لم يفعلوا بالإحراق فلاطفوه فانصرف، ووافاهم من الغد فقاتلوه فقُتل منهم رجلٌ هاشميٌّ فحمل إلى مقابر قريش.

واستنفر البلد ونقب مشهد باب التّبن، ونهب ما فيه، وأُخرج جماعة من القبور فأحرقوا مثل العوني[1] والنّاشي[2] والجذوعي، ونقل من المكان جماعة موتى فدفنوا في مقابر شتّى، وطرح النّار في التّرب القديمة والحديثة، واحترق الضّريحان والقبّتان السّاج، وحفروا أحد الضّريحين ليُخرجوا مَن فيه ويدفنوه بقبر أحمد، فبادر النّقيب والنّاس فمنعوهم.. إلخ».

وذكر القصّة على الاختصار ابن العماد في «شذرات الذّهب»[3]، وابن كثير في «تاريخه»[4].

ويقول المؤيّد في الدِّين، في هذه الفتنة، في أبيات مختارة من قصيدته الطّويلة فيها:

ألا ما لهذي السّما لا تمورُ ... وما للجبالِ تُرى لا تسيرُ!؟
وللشَّمسِ ما كوِّرت والنّجوم ... تضيءُ وتحت الثّرى لا تغورُ!؟
وللأرضِ ليست بها رجفةٌ ... وما بالُها لا تفورُ البحورُ!؟
وما للدُّما لا تُحاكي الدّموعَ ... فتجري لتبتلَّ منها النّحورُ!؟
أتبقى القلوبُ لنا لا تُشَقُّ ... جوىً ولو أنّ القلوبَ الصّخورُ
ليومٍ ببغدادَ ما مثلُهُ ... عبوسٌ يراه امرؤٌ قمطريرُ!؟
وقد قام دجّالُها أعورٌ ... يحفُّ به من بني الزّورِ عورُ

(١) في المنتظم: العوفي. والصّحيح: العوني، كما في الشّذرات. وقد مرّت ترجمة العوني في هذا الجزء.
(٢) هو عليّ بن الوصيف أحد شعراء الغدير، مرّ ذكره في هذا الجزء.
(٣) شذرات الذّهب، ٥/ ١٩١، حوادث سنة ٤٤٣هـ.
(٤) البداية والنّهاية، ١٢/ ٧٩، حوادث سنة ٤٤٣هـ.

فلا حَدبٌ منه لا ينسلون ... ولا بقعةٌ ليس فيها نفيرُ
يرومون آلَ نبيّ الهدى ... لِيردى الصّغير ويفنى الكبيرُ
لِتُنهبَ أنفسُ أحيائِهمْ ... وتُنبشَ للميّتين القبورُ
ومن نجلِ صادقِ آلِ العبا ... ينالُ الذي لم ينلهُ الكفورُ
فموسى يُشقُّ له قبرُهُ ... ولمّا أتى حشرُهُ والنّشورُ
ويُسعر بالنّار منه حريمٌ ... حرامٌ على زائريه السّعيرُ
وتُقتل شيعةُ آلِ الرّسولِ ... عتواً وتُهتَكُ منهم ستورُ
فواحسرتا لنفوسٍ تسيلُ ... ويا غمّتا لرؤوسٍ تطيرُ
وما نقموا منهمُ غيرَ أنّ ... وصيّ النّبيّ عليهم أميرُ
كما العذرُ في غدرِهم بغضهم ... لمن فرضَ الحبَّ فيه الغديرُ
فيا أُمّةً عاث فيها الشّقاءُ ... فوجهُ نهارِ هُداها قتيرُ
وشافعُها خصمُها في المعادِ ... لها الويلُ من ربّها والثّبورُ
قتلتمْ حسيناً لملكِ العراقِ ... وقلتمْ أتاكمْ له يستثيرُ
فما ذنبُ موسى الذي قد محتْ ... معالمَهُ في ثراه الدّهورُ؟
وما وجهُ فعلِكمُ ذا به؟ ... لقد غرّكمْ بالإله الغَرورُ
أيا شيعةَ الحقّ طاب المماتُ ... فيا قومِ قوموا سراعاً نثورُ
فإمّا حياةٌ لنا في القصاصِ ... وإمّا إلى حيث صاروا نصيرُ
أآلَ المسيّبِ ما زلتمُ ... عشيرَ الولاءِ فنعمَ العشيرُ
ويا آل عوفٍ غيوثَ المُحولِ ... ليوثاً إذا كاع ليثٌ هصورُ
أآلَ النّهى والنّدى والطّعانِ ... وحزبَ الطّلى حين حرَّ الهجيرُ
أصبراً على الخسفِ لا همُّكمْ ... دنيٌّ ولا الباعُ منكم قصيرُ
أتُهتكُ حرمةُ آلِ النّبيّ ... وفي الأرضِ منكم صبيٌّ صغيرُ
وقبرُ ابنِ صادق آلِ الرّسولِ ... يُمسُّ بسوءٍ وأنتمْ حضورُ؟
ولمّا تَخوضوا بحارَ الرّدى ... وفي شعبهِ تنجدوا أو تغوروا
لقد كانَ يومُ الحسين المُنى ... فتُقدى نفوسٌ وتشفى صدورُ

فهـذا لكـم عـاد يـومُ الحسيـنِ فمـاذا القصـورُ ومـاذا الفتـورْ؟
فمـدّوا الـذّراعَ وحـدّوا القـراعَ فيـومُ النّـواصـبِ منكـم عسيـرُ
وولّـوا ابـنَ دمنـةَ أعمـالَـهُ تبـور كمـا المكـرُ منـه يبـورُ
فقتـلاً بقتـلٍ وثكـلاً بثكـلٍ ذروه تُجَـزُّ عليـه الشّعـورُ

شعره في يوم الغدير

وللمؤيّد في الدّين شعر في يوم الغدير، نذكر منه ما يأتي:

ـ ١ ـ

قـال، والرَّحـلُ للسُّرى محمـولُ: حُـقَّ منـك النّوى وجـدَّ الـرَّحيـلُ
وعـدا الهـزلُ فـي القطيعـة جـدّاً مـا كـذا كـان منـك لـي المـأمـولُ
قلـتُ، والقلـبُ حسـرةً يتقلّـى وعلـى الخـدِّ دمـعُ عينـي يسيـلُ:
بـأبـي أنـت مـا اقتضـى البيـنُ إلاّ قـدرٌ ثـمّ عهـدُك المستحيـلُ
كـمْ وكـمْ قلـت: خلّنـي يـا خليلـي مـن جفـاءٍ منـه الجبـال تـزولُ
إنّمـا أمـرُه لـديـك خفيـفٌ وهـو ثقـلٌ علـى فـؤادي ثقيـلُ
إنّـك السّـالـمُ الصّحيـحُ وإنّـي مـن غـرام بـك الـوقيـذُ العليـلُ(١)
قـال: قـد مـرَّ ذا، فهـل مـن مُقـام عنـدنـا؟ قلـتُ: مـا إليـه سبيـلُ
قـال: إنّـي لـدى مُـرادِكَ بـاقٍ. قلـت: مـا إن تفـي بـم قـد تقـولُ
قال: أضرمتَ في الحشا نارَ شوقٍ حـرُّ أنفـاسِهـا عليهـا دليـلُ
قلـتُ: حسبـي الـذي لقيـتُ هـوانـاً فلقـاءُ الهـوانِ عنـدي يهـولُ
فقبيـحٌ بـيَ التّصـابـي وهـذا عسكـرُ الشّيـب فـوقَ رأسـي نـزولُ
إنّ أمـرَ المعـاد أكبـرُ همّـي فـاهتمـامـي بمـا عـداهُ فضـولُ
كثـر الخـائضـون بحـرَ ظـلام فيـه والمـؤنسـو الضّيـاءِ قليـلُ
قال: قومٌ قُصرى الجميع التّلاشي فئـةٌ منتهـاهـمُ التّعطيـلُ

---

(١) الوقيذ: الشّديد المرض، المشرف على الموت.

وادّعى الآخرون نسخاً وفسخاً ولهم غيرُ ذاك حشوٌ طويلُ
وأبوا بعد هذه الدّارِ داراً نحوها كلُّ من يؤولُ يَؤولُ
لم يروا بعدها مَقامَ ثوابٍ وعقابٍ لهم إليه وُصولُ
فالمشابون عندهم مُترفوهمْ ولذي الفاقة العذابُ الوبيلُ
قال قومٌ، وهم ذوو العدد الجمُّ: لنا الزّنجبيل والسّلسبيلُ
ولنا بعد هذه الدّارِ دارٌ طابَ فيها المشروب والمأكولُ
ولكلٍّ من المقالاتِ سوقٌ وإمامٌ ورايةٌ ورَعيلُ
ما لهم في قَبيلِ عقلٍ كلامٌ لا ولا في حِمَى الرّشاد قَبولُ
أمّةٌ ضيّع الأمانةَ فيها شيخُها الخاملُ الظّلومُ الجهولُ
بئس ذاك الإنسانُ في زُمرِ الأنسِ وشيطانُه الخَدوعُ الخذولُ
فهم التّائهون في الأرضِ هُلْكاً عقدُ دينِ الهُدى بهم محلولُ
نكسوا ويلَهمْ ببابلَ جهراً جُملٌ ذا وراءها تفصيلُ
مُنعوا صفوَ شربةٍ من زُلالٍ ليس إلاّ بذاك يشفى الغليلُ
ملّكوا الدِّين كلّ أنثى وخُنثى وضعيفٍ بغير بأسٍ يصولُ

إلى أن قال:

لو أرادوا حقيقةَ الدِّينِ كانوا تبعاً للّذي أقامَ الرّسولُ
وأتت فيه آيةُ النّصِّ بلِّغ يوم خمٍّ لمّا أتى جبريلُ
ذاكمُ المرتضى عليٌّ بحقٍّ فبعلياهُ ينطقُ التّنزيلُ
ذاك برهان ربِّه في البرايا ذاكَ في الأرضِ سيفُهُ المسلولُ
فأطيعوا جحداً أُولي الأمر منهم فلهم في الخلائق التّفضيلُ
أهل بيتٍ عليهمُ نزل الذّكرُ وفيه التّحريمُ والتّحليلُ
هم أمانٌ من العمى وصراطٌ مستقيمٌ لنا وظِلٌّ ظليلُ[1]

(١) ديوان المؤيّد، ص ٢١٥ ـ ٢١٨.

ـ ٢ ـ

وله من قصيدة ذات (٥١) بيتاً [١]، أوّلها:

نسيمَ الصَّبا ألمِمْ بفارس غاديا ... وأبلغ سلامي أهلَ وُدّي الأزاكيا

يقول فيها:

فلهفي على أهلي الضّعافِ فقد غدوا ... لِحدِّ شفارِ النّائبات أضاحيا
فيا ليت شِعري مَن يُغيثُ صريخَهمْ ... إذا ما شكوا للحادثاتِ العواديا
ويا ليت شعري كيف قد أدرك العدى ... بتفريق ذاتِ البينِ فينا المباغيا
أإخوانَنا صبراً جميلاً فإنّني ... غدوتُ بهذا في رضا اللهِ راضيا
وفي آلِ طه إن نُفيتُ فإنّني ... لأعدائهم ما زلتُ والله نافيا
فما كنتُ بدعاً في الأُلى فيهم نُفوا ... الا فخر أن أغدو لجندب[٢] ثانيا
لئن مسّني بالنّفي قَرحٌ فإنّني ... بلغتُ به في بعضِ همّي الأمانيا
فقد زُرتُ في كوفانَ للمجدِ قبّةً ... هي الدِّينُ والدُّنيا بحقٍّ كما هيا
هي القبّةُ البيضاءُ قبّةُ حيدرٍ ... وصيُّ الذي قد أرسلَ اللهُ هاديا
وصيّ النّبيّ المصطفى وابنِ عمّه ... ومن قام مولى في الغديرِ وواليا
ومَن قال قومٌ فيه قولاً مُناسباً ... لقول النّصارى في المسيح مُضاهيا
فيا حبّذا التّطوافُ حولَ ضريحِهِ ... أُصلّي عليه في خشوعٍ تواليا
وواحبّذا تعفيرُ خدّيَّ فوقَه ... ويا طيبَ إكبابي عليهِ مناجيا
أناجي، وأشكو ظالمي بتحرُّقٍ ... يثير دموعاً فوق خدِّي جواريا
وقد زرتُ مثوى الطّهر في أرض كربلا ... فدت نفسي المقتول عطشان صاديا

* * *

(١) نفسه، ص ٢٤٥.

(٢) يقصد جندب بن جنادة، أبا ذرّ الغفاري، ويعني أنّه يُنفى كما نفي، فيكون جندب المنفيَّ الأوّل، وهو المنفيّ الثاني.

(٤٤)
ابن جبر المصري

التّعريف بالشّاعر

ابن جبر المصري[١]، أحد شعراء مصر، في عهد الخليفة الفاطمي، المستنصر بالله، المولود سنة ٤٢٠هـ، والمتوفّى سنة ٤٨٧هـ. ذكر المقريزي في «الخطط والآثار»[٢]، موسماً من مواسم فتح الخليج في أيّام المستنصر، وقال: «وتقدّم شاعر يقال له ابن جبر، وأنشد قصيدة منها:

فُتِحَ الخليجُ فسال منه الماء ... وعلت عليه الرّاية البيضاءُ
فصفت موارده لنا فكأنّه ... كفّ الإمام فعرفُها الإعطاء»

وجاء في «أعيان الشّيعة»: «جبر الجبري، شاعر آل محمّد ﷺ. شاعر مُجيد، له قصيدة في مدح أهل البيت عليهم السلام، من جيّد الشّعر، يظهر من بيت في آخرها أنّ اسمه جبر؛ حيث يقول:

وأجبر بها الجبري جبراً وابره ... من ظالم لدمائهم سفّاك

ولا نعلم من أحواله شيئاً غير ذلك. وهذه القصيدة يستشهد ابن شهرآشوب، في «المناقب»، بأبيات منها، فعلم من ذلك أنّه متقدّم عليه، وابن شهرآشوب توفّي سنة ٥٨٨هـ»[٣].

---

(١) الغدير، م.س.، ٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢٤.
(٢) الخطط والآثار، ١/ ٤٧٨.
(٣) أعيان الشّيعة...، م.س.، ٤/ ٦٣.

غديريّته

يقول صاحب «الغدير» أنّه أخذ قصيدة الجبري التي يمدح فيها أهل البيت، ويذكر يوم الغدير «من نسخة عتيقة جدًّا مكتوبة في القرون الوسطى»[1]، ويقول صاحب «أعيان الشّيعة»: وقد وجدنا هذه القصيدة «في مجموعة نفيسة، مخطوطة»[2]؛ ما يعني أنَّ هذه القصيدة كانت معروفة، ويتمّ نسخها وتداولها، وتتضمّنها المجموعات الشّعرية المخطوطة. وفي ما يأتي نصّ القصيدة كما وردت في كتاب «الغدير»، ويلاحظ القارئ أنَّ الشّاعر يعنى بصياغة المعاني، مجيداً استخدام مختلف صنوف البديع:

يا دارُ غادرني جديدُ بِلاكِ ... رثُّ الجديدُ فهل رثيت لذاكِ
أم أنت عمّا أشتكيه من الهوى ... عجماءُ مذ عجم البلى مغناكِ؟
ضفناك نستقري الرّسومَ فلم نجدْ ... إلاّ تباريحَ الهموم قِراكِ
ورسيسَ شوقٍ تمتري زفراتُه ... عبراتِنا حتّى تبلّ ثراكِ
ما بالُ ربعكِ لا يبلُّ كأنّما ... يشكو الذي أنا من نحوليَ شاكِ
طلّت طلولُكِ دمعَ عيني مثلَما ... سفكت دمي يومَ الرّحيل دُماكِ
وأرى قتيلَك لا يَديه قاتلٌ ... وفتورَ ألحاظِ الظّباء ظُباكِ
هيّجت لي إذ عجتُ ساكنَ لوعةٍ ... بالسّاكنيك تشبّهاً ذكراكِ
لمّا وقفتُ مسلّماً وكأنّما ... ريّا الأحبّةِ سفت من رياكِ
وكفت عليكِ سماءُ عيني صيّباً ... لو كفَّ صوبُ المزنِ عنك كفاكِ
سقياً لعهدي والهوى مقضيّةٌ ... أوطارُهُ قبل احتكام نواكِ
والعيش غضٌّ والشّبابُ مطيّةٌ ... للّهوِ غيرُ بطيئةِ الإدراكِ
أيّام لا واشٍ يُطاعُ ولا هوىً ... يُعصى فنقضي عنكِ إذْ زرناكِ

(١) الغدير، م.س.، ٤/ ٤٢٤، هامش ١.

(٢) أعيان، م.س.، ٤/ ٦٣.

وشفيعنــا شــرخُ الشّبيبــةِ كلّمــا رُمنا القصاصَ من اقتناصِ مهاكِ
ولئـن أصـارتـكِ الخطـوبُ إلـى بلـىً ولحـاكِ ريـبُ صـروفِهـا فمحـاكِ
فلطـالمـا قضّيـتُ فيـك مـآربـي وأبحـتُ ريعـانَ الشّبـابِ حمـاكِ
مـا بيـن حـورٍ كـالنّجـومِ تـزيّنـتْ منهـا القـلائـدُ للبـدورِ حـواكـي
هيفُ الخصورِ من القصورِ بدت لنا منهـا الأهلّـةُ لا مـن الأفـلاكِ
يجمعـنَ مـن مـرحِ الشّبيبـةِ خفّـة الـ ـمتغـزّليـن وعفّـةَ النسّـاكِ
ويصِـدنَ صـاديـةَ القلـوبِ بـأعيـنٍ نُجْـلٍ كصيـدِ الطّيـرِ بـالأشـراكِ
من كلِّ مخطفةِ الحشا تحكي الرّشا جيـداً وغصـنَ البـان ليـنَ حـراكِ
هيفـاءَ نـاطقـةِ النّطـاقِ تشكّيـاً مـن ظلـمِ صـامتـة البُـريـن ضنـاكِ[1]
وكـأنّمـا مـن ثغـرهـا مـن نحـرهـا درٌّ تبـاكـره بعـود أراكِ
عـذبُ الـرّضـابِ كـأنّ حشـو لثـاتِهـا مسـكٌ يعـلُّ بـه ذرى المسـواكِ
تلـك التـي ملكـتْ علـيَّ بـدلّهـا قلبـي فكـانـت أعنـفَ المُـلاّكِ
إنّ الصّبـا يـا نفـسُ عـزَّ طـلابُـهُ ونهتْـكِ عنـه واعظـاتُ نهـاكِ
والشّيـبُ ضيـفٌ لا محـالـةَ مـؤذنٌ بـرداكِ فـاتّبعـي سبيـلَ هـداكِ
وتـزوّدي مـن حـبِّ آلِ محمّـدٍ زاداً متـى أخلصتِـه نجّـاكِ
فلنعـم زادٌ للمعـادِ وعـدّةٌ للحشـرِ إن علقـتْ يـداك بـذاكِ[2]
وإلـى الـوصـيِّ مهـمُّ أمـركِ فـوّضـي تَصِلـي بـذاكَ إلـى قصـيٍّ مُنـاكِ
وبـه ادرئـي فـي نحـرِ كـلِّ ملمّـةٍ وإليـه فيهـا فـاجعلـي شكـواكِ
وبحبِّـه فتمسّكـي أن تسلكـي بـالـزّيـغِ عنـه مسـالـكَ الهـلاّكِ
لا تجهلـي وهـواه دأبُـكِ فـاجعلـي أبـداً وهجـرَ عـداه هجـرَ قـلاكِ
فسـواءٌ انحـرف امـرؤٌ عـن حبِّـه أو بـاتَ منطـويـاً علـى الإشـراكِ
وخـذي البـراءةَ مـن لظـىً ببـراءةٍ مـن شـانئيـهِ وامحضيـهِ هـواكِ

---

(١) البرين ـ بالضمّ، جمع بره ـ: الخلخال.

(٢) للحشر إن ظفرت بذاك يداكِ.

وتجنّبي إن شئتِ أن لا تعطبي ... رأيَ ابنِ سلمى فيه وابنِ صهاكِ
وإذا تشابهتِ الأمور فعوّلي ... في كشف مشكلِها على مولاكِ
خيرُ الرّجالِ وخيرُ بعلِ نسائِها ... والأصلُ والفرعُ التقيّ الزّاكي
وتعوّذي بالزُّهرِ من أولادِهِ ... من شرِّ كلِّ مُضلّلٍ أفّاكِ
لا تعدلي عنهمْ ولا تستبدلي ... بهمُ فتحظَي بالخسارِ هناكِ
فهمُ مصابيحُ الدُّجى لذوي الحجا ... والعروةُ الوثقى لذي استمساكِ
وهم الأدلّةُ كالأهلّةِ نورها ... يجلو عمى المتحيّرِ الشكّاكِ
وهم الصِّراطُ المستقيمُ فأرغمي ... بهواهمُ أنفَ الذي يلحاكِ
وهم الأئمّةُ لا إمامَ سواهمُ ... فدعي لتيم وغيرِها دعواكِ
يا أُمّةً ضلّت سبيلَ رشادِها ... إنّ الذي استرشدتِه أغواكِ
لئن ائتمنتِ على البريّةِ خائناً ... للنّفس ضيّعَها غداةَ رعاكِ
أعطاكِ إذ وطّاكِ عشوةَ رأيه ... خدعاً بحبلِ غرورِها دلاّكِ
فتبعتِه وسخيفَ دينك بعتِه ... مغترّةً بالنّزرِ من دنياكِ
لقد اشتريتِ به الضّلالة بالهدى ... لمّا دعاكِ بمكرِه فدهاكِ
وأطعتِه وعصيتِ قولَ محمّدٍ ... في ما بأمرِ وصيّه وصّاكِ
خلّفتِ واستخلفتِ من لم يرضَهُ ... للدّينِ تابعةً هوىً هوّاكِ
خلتِ اجتهادَكِ للصّواب مؤدّياً ... هيهاتَ ما أدّاكِ بل أرداكِ
لقد اجتريتِ على اجتراح عظيمةٍ ... جعلتْ جهنّم في غدٍ مثواكِ
ولقد شققتِ عصا النّبيِّ محمّدٍ ... وعققتِ من بعد النّبيِّ أباكِ
وغدرتِ بالعهد المؤكّدِ عقدُهُ ... يومَ الغديرِ له فما عذراكِ؟
فلتعلمنَّ وقد رجعت به على الـ ... أعقاب ناكصةً على عقباكِ
أعَن الوصيِّ عدلت عادلةً به ... مَن لا يساوي منه شسعَ شراكِ
ولتُسألِنَّ عن الولاءِ لحيدرٍ ... وهو النّعيمُ شقاكِ عنه ثناكِ[1]

---

(١) وفي نسخة: ثناك عنه شقاك.

قست المحيطَ بكلِّ علمٍ مشكلٍ ... وعرِ مسالكُه على السُّلَّاكِ
بالمعتريهِ كما حكى شيطانُهُ ... وكفاهُ عنه بنفسِهِ من حاكِ
والضّاربَ الهاماتِ في يومِ الوغى ... ضرباً يقدُّ به إلى الأوراكِ
إذ صاح جبريلٌ به متعجِّباً ... من بأسِهِ وحسامِهِ البتّاكِ
لا سيفَ إلاّ ذو الفقارِ ولا فتى ... إلاّ عليٌّ فاتكُ الفتّاكِ
بالهاربِ الفرّارِ من أقرانِهِ ... والحربُ يذكيها قناً ومداكِ
والقاطعِ اللّيلِ البهيمِ تهجّداً ... بفؤادِ ذي روعٍ وطرفٍ باكِ
بالتّاركِ الصّلواتِ كفراناً بها ... لولا الرّياءُ لَطالَ ما راباكِ
أبعدْ بهذا من قياسٍ فاسدٍ ... لم تأتِ فيه أمّةٌ ماتاكِ
أوَما شهدتِ له مواقفَ أذهبتْ ... عنكِ اعتراكَ الشكُّ حين عراكِ؟
من معجزاتٍ لا يقومُ بمثلِها ... إلاّ نبيٌّ أو وصيٌّ زاكي
كالشّمسِ إذ رُدّت عليه ببابلٍ ... لقضاءِ فرضٍ فائتِ الإدراكِ
والرّيحِ إذ مرّتْ فقال لها: احملي ... طوعاً وليَّ اللهِ فوق قواكِ
فجرتْ رجاءً بالبساطِ مطيعةً ... أمرَ الإلهِ حثيثةَ الإيشاكِ[1]
حتّى إذا وافى الرّقيمَ بصحبِهِ ... ليزيلَ عنه مِريةَ الشكّاكِ
قال: السّلام عليكمُ، فتبادروا ... بالرّدِّ بعد الصّمتِ والإمساكِ
عن غيرِهِ فبدتْ ضغائنُ صدرِ ذي ... حنقٍ لستر نفاقِهِ هتّاكِ
والميتُ حين دعا به من صرصرٍ ... فأجابَهُ وأبيتِ حين دعاكِ
لا تدّعي ما ليس فيكِ فتندمي ... عند امتحان الصِّدقِ من دعواكِ
والخفُّ والثّعبانُ فيه آيةٌ ... فتيقّظي يا ويلكِ من عماكِ
والسّطلُ والمنديلُ حين أتى به ... جبريلُ حسبُكِ خدمةُ الأملاكِ
ودفاعُ أعظمِ ما عراكِ بسيفِهِ ... في يوم كلِّ كريهةٍ وعِراكِ

---

(١) وفي نسخة:

فغدتْ رخاءً بالبساطِ مطيعةً ... أمرَ الإلهِ حثيثةَ الإدراكِ

ومقــامُــهُ ثبــتَ الجنــانِ بخيبــرٍ — والخــوفُ إذ ولّيــتِ حشــوُ حشــاكِ
والبـابُ حيـن دحـا بـه عـن حصنهـمْ — سبعيــن بــاعــاً فــي فضــاً دكــداكِ
والطّــائــرُ المشــويُّ نــصٌّ ظــاهــرٌ — لــولا جحــودُكِ مــا رأتْ عينــاكِ
والصّخـرةُ الصمّـا وقـد شـفَّ الظّمـا — منهــا النّفــوسَ دحــا بهــا فسقــاكِ
والمـاءُ حيـن طغـى الفـراتُ فـأقبلـوا — مــا بيــنَ بــاكيــةٍ إليــه وبــاكــي
قـالـوا: أغِثنـا يـا ابـن عـمِّ محمّـدٍ — فــالمــاء يُــؤذنُنـا بــوشــكِ هــلاكِ
فأتى الفرات فقال: يا أرضُ ابلعي — طــوعــاً بــأمــرِ اللهِ طــاغــيَ مــاكِ
فـأغـاضَـهُ حتّـى بـدتْ حصبـاؤُه — مــن فــوقِ راسخــةٍ مــن الأسمــاكِ
ثــمّ استعـــادوه فعـــادَ بـــأمـــرِهِ — يجــري علــى قــدَرٍ ففيــم مِــراكِ؟
مـولاكِ راضيـة وغضبـى فـاعلمـي — سيّــانَ سخطُــكِ عنــده ورضــاكِ
يـا تيـمُ تيّمَـكِ الهـوى فـأطعتِـهِ — وعــن البصيــرة يــا عــديُّ عَــداكِ
ومنعــتِ إرثَ المصطفـى وتـراثَـهُ — ووليتِــــهِ ظلمــــاً، فمــــن ولاّكِ؟
وبسطتِ أيدي عبد شمسٍ فاغتدتْ — بــالظّلــمِ جــاريــةً علــى مغنــاكِ
لا تحسبيــكِ بــريئــةً ممّــا جــرى — واللهِ مــا قتــلَ الحسيــنَ ســواكِ
يــا آلَ أحمــد كــم يكــابـدُ فيكــمُ — كبــدي خطــوبــاً للقلــوب نــواكــي
كبـدي بكـم مقـروحـةٌ ومـدامعـي — مسفــوحــةٌ وجــوى فــؤاديَ ذاكــي
وإذا ذكـرتُ مصـابَكـم قـال الأسـى — لجفــونــيَ: اجتنبــي لــذيــذَ كــراكِ
وابكـي قتيـلاً بـالطّفـوف لأجلـه — بكــتِ السّمــاءُ دمــاً فحــقَّ بكــاكِ
إن تبكِهـمْ فـي اليـوم تلقـاهـمْ غـداً — عينــي بــوجــهٍ مسفــرٍ ضحّــاكِ
يـا ربُّ فـاجعـل حبَّهـمْ لـي جُنّـةً — مــن مــوبقــاتِ الظّلــمِ والإشــراكِ
واجبــر بهــا الجبــريَّ ربُّ وبَــرِّهِ — مــن ظــالــمٍ لــدمــائهــمْ سفّــاكِ
وبهــم إذا أعـــداءُ آلِ محمّـــدٍ — غلقــتْ رهــونهــمُ فجــدْ بفكــاكِ

* * *

شعراء آخرون

وهناك قصائد غديريّة لابن طوطي الواسطي، والخطيب المنبجي، وعليّ ابـن أحمـد المغـربي، من شعراء القرن الخامس، توجد مبثوثة في «مناقب ابن شهرآشـوب»، و «تفسير أبي الفتوح الرّازي»، و «الصّراط المستقيم» للبياضي، و «الـدرّ النّظيـم فـي الأئمّة اللّهاميم» لابن حاتم الدّمشقي، وغيرها لم نذكرها لعدم معرفتنا بترجمة أولئك الشّعراء وتاريخ حياتهم؛ غير أنّهم من شعراء مأثرة الغـديـر، ومنضّـدي عقـودهـا، وناظمي حديثها، من الذين استفادوا من لفظه معنى الإمامة والمرجعيّة الكبرى في الدّين، والأولويّة بالنّاس من أنفسهم.

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

شعراء القرن الرّابع الهجري

١٦ ـ ابن طباطبا العلويّ الأصفهانيّ ٩
١٧ ـ أحمد بن علويّة الأصفهاني ٣١
١٨ ـ محمّد بن أحمد بن عبدالله المفجّع ٣٧
١٩ ـ أحمد بن محمّد الضّبّي، المعروف بـ «الصّنوبري» ٤٩
٢٠ ـ القاضي التّنوخي ٦٧
٢١ ـ أبو القاسم الزّاهي ٨٩
٢٢ ـ أبو فراس الحمداني ١٠٣
٢٣ ـ أبو الفتح كشاجم ١٣٣
٢٤ ـ النّاشئ الصغير ١٥٥
٢٥ ـ البَشْنَوي الكردي ١٦٧
٢٦ ـ الصّاحب بن عبّاد ١٧٣
٢٧ ـ الجوهريّ الجرجاني ٢٠٣
٢٨ ـ ابن الحجّاج البغدادي ٢١١
٢٩ ـ أبو العبّاس الضّبّي ٢٣١
٣٠ ـ «أبو الرّقعمق» الأنطاكي ٢٣٧
٣١ ـ أبو العلاء السَّرَوي ٢٤٥
٣٢ ـ أبو محمّد طلحة العوني ٢٥١
٣٣ ـ ابن حمّاد العبدي ٢٦٩

٣٤ ـ أبو الفرج الرَّازي ٢٨٥
٣٥ ـ جعفر بن حسين ٢٨٧
شعراء آخرون ٢٨٨

شعراء القرن الخامس الهجري

٣٦ ـ أبو النَّجيب الطَّاهر ٢٩١
٣٧ ـ الشَّريف الرَّضي ٢٩٥
٣٨ ـ عبد المحسن الصُّوري ٣٤١
٣٩ ـ مهيار الدَّيلمي ٣٥١
٤٠ ـ الشَّريف المُرتضى ٣٦٧
٤١ ـ أبو عليّ البصير ٣٩١
٤٢ ـ أبو العلاء المعرِّي ٣٩٥
٤٣ ـ المؤيّد في الدِّين ٤٠٣
٤٤ ـ ابن جبر المصري ٤١٣
شعراء آخرون ٤١٩

* * *